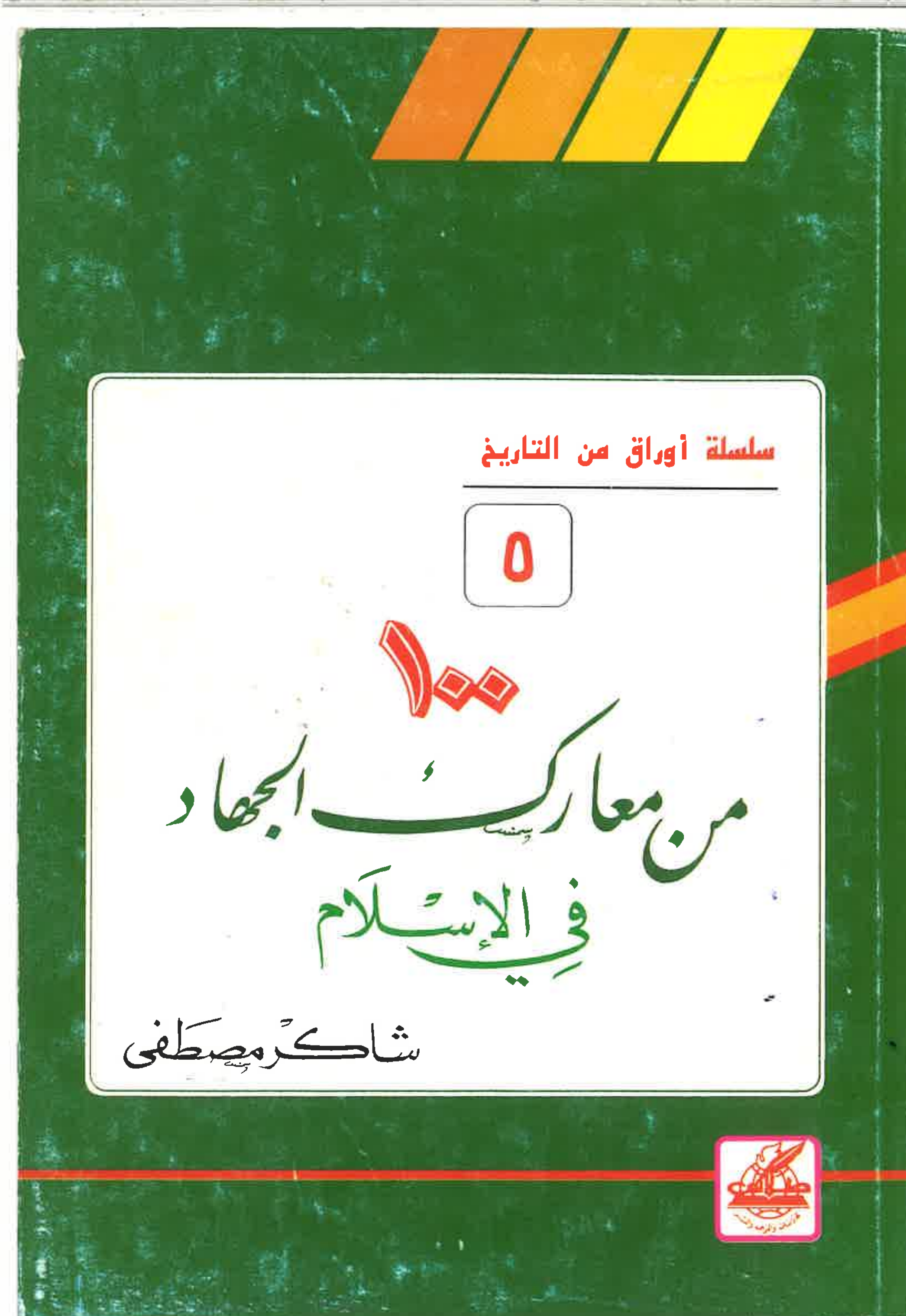
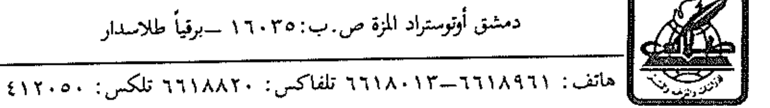


سلسلة أوراق من التاريخ
٥
١٠٠ من معارك الجهاد في الإسلام
شاكر مصطفى
من معارك الجهاد في الإسلام
شاكر مصطفى

ريع الدار
لجمعية مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية



دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ـ برقياً طلاسدار

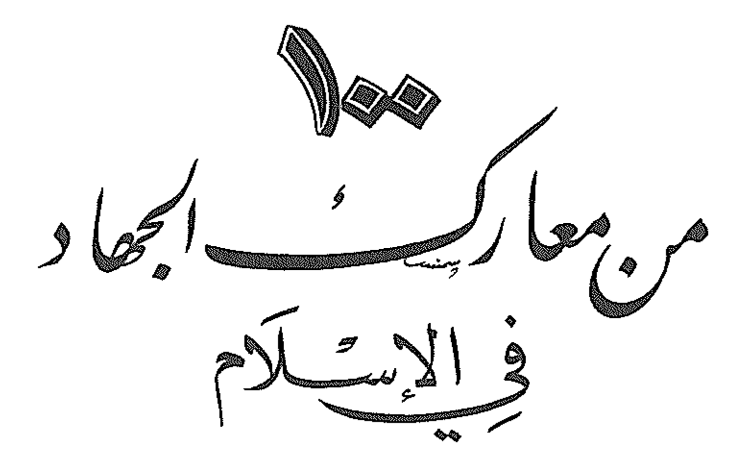
هاتف: ٦٦١٨٩٦١ ـ ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلكس: ٤١٢٠٥٠

١٠٠ من معارك الجهاد في الإسلام

الطبعة الأولى ١٩٩٦

سلسلة أوراق من التاريخ





شاكر مصطفى

مـن مَـعَـارك الـجـهَـاد

غلاب القوة يحكم التاريخ . وبين النصر في أي معركة وبين الهزيمة صبر ساعة . وبعض من بعض قريب . وكم من نصر كان في واقعه هزيمة . ومن هزيمة كانت في واقعها نصراً . والزمن يطوي المسيرة البشرية طي السجل للكتب . فلا يأبه لمنتصر ولا يأسى لمهزوم . ولو ابتعدت قليلاً لوجدت أن غار المجد الحربي زبد وجفاء . وكمثله ذل المسحوقين . وإنما الحرب بعض وسائل الإنسان لبقاء الأصلح والأقوى . وأغبى الناس من يظن أن المجد خالد وأن الذل خالد ولكنها سحب عابرة تمر مرور الطيور المهاجرة وتمضي . « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

وما انتزعنا هذه المعارك من سياقها التاريخي وما جمعنا إذ جمعنا هذه المشاهد والنتف من أخبارها نبغي تقديم علم فجميعها مبذول لمن شاء وبالتفاصيل الطويلة وإنما لخصناها في لمح سريعة للذكرى ولكي نقول للناس إن لكل مجد ثمناً . ومن ضن بالثمن فلا مجد له ! .

شاكر

معارك في سبيل الله

كثير من الذين يقرؤون القرآن وتتهدج أصواتهم لقراءته. وقد تمتلئ العيون بالدموع الخاشعة إنما لا يرون معانيه. يمرون بآيات الجهاد كما تمر المياه على سطح أملس.. يقرؤونها كأنها آيات نصح أو أحكام إرث. لا يدركون أنها فريضة. ولا يقفون عندها ويدققون. لا يقلبون النظر فيها ويتفكرون.

قال تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾ هذه الآية الكريمة ومثلها ست وعشرون آية وردت في معجز القرآن ما أدري لماذا لا تحرك ساكناً في الأنفس ولا تهيج قلباً؟ أهانت على الناس لكثرة ما رددوها أم اعتبروها مجرد أمر بالمعروف؟ أم آية من آيات الزواج أو كريم الأخلاق؟ أم على قلوب أقفالها؟

أدهى من ذلك أنني وقد قضيت في التدريس أربعين سنة ما خرج إلي واحد يسألني ما وراء حكمة الجهاد من المعاني. من العناء والتعب من المرارة والثكل ومواجهة الموت. لم يسألني أحد كم دفع المسلمون من «الثمن» البشري للفتوح وللدفاع عن البلاد ولحماية الأجيال وللإبقاء على هذا الإرث الضخم من الأمجاد لمن يأتي بعدهم.

الأجساد المنهارة جثثاً فوق جثث تداس بالسنابك. جمر الدماء المسكوبة ساخنة كالسواقي. الشرايين ممزقة وهي تنبض. الأشلاء المنثورة للتراب والمطر والطير، الأعلام ما بين مرفوع أو تعلكه الأرجل، السيوف المتكسرة على السيوف وفي لبات الخيل. لهاث الرعب والاقتحام. انهيارات الأسوار فوق الرؤوس. رجة الأحجار بمن عليها تفطر القلوب أسى وفجيعة. بكاء الأرامل

والأطفال المنتظرين في الظلمات الليلية دون أمل. الجراح أفواه تفترس الحياة والجماجم. الطبول والأبواق أنين يوجع الجلمود. وفي الساح. وحده الموت يضحك ملء الأشداق. والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء!

كل ذلك لا يسأل عنه أحد. لا يفكر في مآسيه متفكر. وأتساءل: أيحسبون الحرب كانت نزهة؟ أو بعض ألعاب القوى؟ أو أن الفتح كان بالمجان ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾؟.

لقد خطر لي ذات مرة أن أحصي المعارك التي عرفها الإسلام والمسلمون فأعجزني الإحصاء، عددت منها ما بين كبيرة وصغيرة وما بين داخلية وخارجية ما يزيد على ثلاثة آلاف، وذلك في فترة الحروب الصليبية وحدها، ثم توقفت. كم ذا دفع المسلمون ثمناً لإقامة الدول التي أقاموها ثم لديمومة هذه الدول واستمرارها وللدفاع عنها؟ واصطبغت أمام عيني جميع أراضي الإسلام بالدماء! حمراء حالت. وخيل إلي أني إنما أدوس الأشلاء وأنا أخطر فوق التراب.

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد!

خالد بن الوليد قال وهو على فراش الموت: لقد حضرت مائة زحف وما في جسمي موضع إلا وفيه ضربة من سيف أو طعنة من رمح وها أنذا أموت على فراشي كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء. إذا قال سيف الله هذا فإن الأرض الإسلامية تستطيع أن تقول مثله أن ليس فيها موضع لم يسق بالدماء أو لم يغص بالأشلاء... فلا نامت أعين المتغافلين عن الدفاع والجهاد.

وثم تصور خاطئ آخر هو أن الناس لا يفكرون بمدى الإرهاق الذي يدمر الأقدام والأعين والجوارح في الانتقال على الخيل والإبل أو الزحف على الأرجل حتى تحفى الأرجل وتتورم من أقاصي الحدود الصينية إلى أقاصي شواطئ الأطلسي. يفكرون بعقلية من يملك الطائرات النفاثة ويأمر الحديد فينصاع له

الحديد! أيدرون أن المحارب كان يقضي على ظهور الخيل أو الجمال أو فوق نعله، وفي غبار الطريق ولذع الشموس وارتباك الأمطار والوحول وخانات الحل والترحال وخيام المعسكرات الأشهر بعد الأشهر ليصل من العراق إلى الأندلس؟ ما يسمونه بوعثاء السفر كان يفترس قواه رهقاً حتى العظام!

وثم ظن ثالث خاطئ. هو أن الجمهرة من قارئي التاريخ يحسبون أن معارك الإسلام كانت كلها نصراً وفوزاً مبيناً. في خواطرنا لا نتصور إلا خفقة الأعلام وهزيم الطبول وسنابك الخيل تهز الثرى وما تحت الثرى. وغارات الفرسان عواصف تدك القلاع وشاهق الأبراج...

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه!

وما كذلك أبداً كان الواقع التاريخي. وإذا عرف المسلمون الانتصارات الباهرة آلاف المرات فقد عرفوا الهزيمة أيضاً مثلها آلاف المرات. الحرب كر وفر. مرارة الهزائم عرفوها كما عرفوا غار النصر. بلى! قد تكون الانتصارات في مئات السنين الأولى أكثر عدداً بكثير من الهزائم ولكن الميزان تغير بعد ذلك. وإذا توازن في بعض الفترات التي توازنت فيها القوى، في الحروب الصليبية وفي عهد المماليك والموحدين والمرينيين فقد انقلب في العصر الحديث الذي نستطيع لولا بعض الفترات أن ندعوه بعصر الهزائم.

ومعارك الإسلام الأولى على جلالها ومجدها أضحت معروفة. فماذا أستطيع أن أضيف إليها؟ هل نكرر الحديث عن بدر وأحد وحنين واليرموك والقادسية؟ وماذا يمكن أن نقول جديداً في ذي قار وذات السلاسل وحصن بابليون؟ إنها بلى! الدعائم التي نشرت الإسلام وحمته أن يندثر وصنعت الزاهي من أمجاده الأولى وأبطالها من الصحابة، كل منهم علم الأعلام. ولكن أليس يشوقنا ويفيدنا أكثر لو غادرناها إلى المعارك التي كانت من بعدها والتي نجهلها كل الجهل أو بعضه. إنها بدورها جزء أساسي من تاريخ الإسلام. من تاريخنا. ومنا نحن.

لذلك سأغادر بكم المعارك الشهيرة الأولى سريعاً وأوغل بكم في التاريخ تصويراً لمعارك أخرى كانت في سبيل الله أيضاً . وقد لا نكون قد سمعنا بها أبداً . ولكنها ليست أقل بطولة ولا نشراً لهذا الدين ولا دفاعاً عنه وحماية لأهله من سابقاتها المثقلة بالأمجاد . ولعل أبرزها ما كان مع الفرنجة الصليبيين في المشرق ومع السلاف من البلقان ومع الإسبان في الأندلس والمغرب . إنها مئات بعد مئات من المعارك المنسية . وعن بعضها سنتحدث . وفيها بالطبع ما كان نصراً مؤزراً بغاره وجر الذيول وفيها الهزائم لا نستحيي أن نكشف دواعيها والأسباب .

ولا يفرحن أحد بالنصر ولا ييتئسن للهزيمة وليذكر أنه التاريخ وأنه كالشيطان تستوي عنده جميع الحالات . وإنما هي دروس وعبر والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار !

معركة مع الوباء

ذات يوم منذ ألف وأربعمائة وثمانية وسبعين سنة ! وفي موقع من مواقع جبال الحجاز الصخرية، إلى الجنوب من مكة كان العجاج يرتفع في الجو كالسحب الداكنة وعدة آلاف من المحاربين يلهثون تحتها. حرابهم كانت تلتمع تحت النقع كالشهب في الليل الأسحم. والحر يصهر وجوههم السمراء الشديدة السمرة قطرة قطرة. ويمتزج بالغبار. والدروع والمغافر تزيدهم رهقاً وفي المقدمة، ضمن طوق من الحرس المتعب يتهادى فوق أربع من الجمال هودج قلق يهتز به كهل على رأسه التاج، وفي صدره الدرع المفضضة. تسير نحو الشمال ... الطريق هو طريق التجارة الدولي بين اليمن والشام ولكنه ينحدر تارة بين الصخور ويعبر تارة أخرى في السهول ثم يغيب وراء التلال الصخرية. وتمر به بين حين وآخر قافلة بضائع أو يطل عليه من بين الصخور بعض الصعاليك. ويسأل صعلوك رفيقه :

ـــ من هؤلاء؟

ويجيب الآخر ـــ إنهم أحباش. سيماهم في وجوههم. ولكن من أين؟ وإلى أين؟

ـــ إلى مكة. ليس على الطريق غيرها ... وهل تغامر حملة مثل هذه بالمسير إلى الشام؟

ووراء هذه الآلاف السائرة ومعها كان هناك مئات من العبيد الزنوج. وأعداد من الباعة. وجمهور من الخدم لخدمة القادة الصغار غير أن الأمر المثير هو هذا الحيوان الضخم الذي يسيرونه في المقدمة، فيتلوى أو يحرن أو يلين

فيسير .. وعين القائد عليه . إنه الفيل ! ما وصل هذه البقاع فيل قبله . ويقول جندي لصاحبه :

ـــ ما أشد كيد هذا القائد إبرهة . لقد بث الرعب في البوادي فالأخبار قد وصلت هناك دون شك ومكة تضطرب الآن خوفاً وفزعاً ..

والواقع أن مكة كانت في اضطراب شديد وتجمهر أهلها حول الكعبة أمام الندوة ندوة قريش والشيوخ فيها يتشاورون . الرماح والسيوف في الأيدي تصطفق وجعبات السهام في الأعناق . وهرج ومرج يسود البلد وأهله حتى الأطفال .

ـــ جاؤوا بالفيل إلينا ... قالوا ذلك في هلع واضح لشيخ القوم عبد المطلب بن هاشم وكلمة الفيل وحدها مفزعة فمن ذا الذي يقوم له وهو يتناول بخرطومه الرجل فيضرب به الآخرين . ويدوس بقدمه آخر فيصعقه وينطح بالثانية البناء فإذا هو يتداعى حطاماً وأنيابه يا ويلنا من أنيابه ! البارزة ...

يومذاك كان عبد المطلب على أبواب الشيخوخة ولكنه كالجبل الأشم حركة ونبلاً ورأياً . وقد فقد قبل أشهر ابناً من أبنائه هو عبد الله ولعله كان أغلى أولاده العشرة عنده وكان يعرف أن زوجة هذا الولد حامل ويأمل أن يعوضه الله حفيداً يحل محل ابنه الفقيد . ولكن أين هو الآن من هذا الأمل المنتظر . فليدع الأمر لله . وليخرج على رأس الخارجين . كان الجيش الذي جندته مكة هزيلاً وحملة إبرهة حملة ملكية كبيرة . ولكن هل من سبيل سوى القتال ... حتى الدروع عندهم قليلة والرماح والنبل محدود فقريش لم تكن قبيلة قتال . إنها قبيلة تجارة وخدمة تجارية والتجار لا يحاربون .

وأدار عبد المطلب في خاطره أسباب هذه الحملة الزاحفة . كان يعلم أنه في مكة على موقع الطريق التجاري الدولي . وقد عقد الإيلاف والمعاهدات مع القبائل على هذا الطريق لرحلة الشتاء والصيف ولتكون التجارة العابرة من مكة وإليها في مأمن ولكنه كان يعلم أيضاً بأطماع الروم في هذا الطريق .

الطريق الآخر طريق الخليج بين الهند والبحر المتوسط، طريق التوابل والبخور والفلفل والدارصين والعاج والأحجار الكريمة كان الفرس قد ملكوه باحتلال العراق. وكسرى أنوشروان يعلنها حرباً لا هوادة فيها ضد الروم وصاحبهم الإمبراطور جستنيان. وقد جرب الروم من قبل أن يتملكوا الطريق بين الشام واليمن عبر مكة ففشلت حملتهم عليها على الطريق وتفرقت على الصخور الجبلية أيدي سبا. وما كان عبد المطلب ينتظر أن يبلغ الكيد الرومي درجة التحالف من خلال مصر والبحر الأحمر مع الحبشة المسيحية البعيدة. وما كان يتصور أن يحرض جستينان الحبشة على احتلال اليمن وما كان يتصور بعد هذا كله أن تبعث الحبشة حملة تأتي مكة من الجنوب!.. ولكن هذه التصورات جميعاً وقفت فعلاً. فبعث جستنيان باسم المسيحية والسيد المسيح إلى عاهل الحبشة يحرضه ولم يكن هذا العاهل بحاجة إلى كثير من التحريض ليجتاز البحر الضيق إلى اليمن ويمد ملكه ولا بحاجة إلى من يعلمه المكاسب التجارية التي تعود عليه لو ملك مكة وأضحى الطريق بين اليمن والشام تحت سيطرته... إن الطمع يسكن دوماً رؤوس الرجال.. وهكذا قبل التغطية الدينية المسيحية لأطماعه وهذه حملته في طريقها إلى مكة من الجنوب...

والتقى الفريقان على مرحلة أو بعضها من جنوب مكة. ووجد عبد المطلب أن ابرهة قد وقع على جمال مكة وهي ترعى بعيداً عنها فصادرها. ورأى كتلة جيشه فهاله. لا قبل له بمثله. ولسوف يدمر الأحباش البيت الحرام إن لم يدمروا قريشاً معه. والبيت الحرام رأس مال ديني ضخم لقريش والحج إليها موسم ديني سنوي. مشهود. وإذا سيطر الأحباش لم يهدموا أصنام الكعبة والأركان فحسب ولكنهم سيفرضون على الناس النصرانية التي فرضوها في اليمن وأفلت الطريق التجاري من أيدي قريش إلى الأبد. لجأ عبد المطلب إلى المفاوضة لعل ولعل.. وتنمر إبرهة وانتفخت أوداجه كبراً وتعسفاً قال:

ـــ إنما جئت أهدم الكعبة!

وعبثاً حاول عبد المطلب شراء رضاه فقد كان يعتبر مهمته مقدسة. حتى انقطع حبل الصبر بالشيخ عبد المطلب. فقال: نحن لا نريد حربك ولا نستطيع دفعك. وهذا البلد أمامك. فافعل ما شئت. ولكن جمالي جمالي. إن للبيت رباً يحميه...

وساق عبد المطلب الجمال وعاد بالمحاربين ليبشره المبشر حين وصل بأن آمنة زوجة ابنه الفقيد قد وضعت مولوداً فقال: ـ سموه محمداً ـ فليس في العرب إلا خمسة يحملون هذا الاسم! وفيما كان إبرهة يعد جيشه للفتح العظيم. فتح مكة وهدم الكعبة. دخل عليه مفاجئاً بعض قادته يقولون:

ـ لا نستطيع المسير الآن. إن عدداً كبيراً من الجند قد مرض. ثآليل حمراء تنبت في وجوههم والأبدان وتتقيح ويتقلبون صرعى الداء. يوماً أو يومين ثم يسقطون. إنه الجدري.

وخرج إبرهة يتفقد الجند فإذا الوباء قد أكل عيون بعضهم ووجوه بعض وإذا هو يرمي السلاح من أيديهم فيتهالكون. بعضهم حاول الوقوف تحية له فسقط. وآخرون حاولوا الهرب فجثثهم على السفوح. وحسم الوباء المعركة. وسد طريق الفتح في وجه إبرهة فلملم بعض الجند وتراجع بهم نحو اليمن.. لم يبق معه حين وصل إلا بضعة نفر.. وقيل: أخذه الوباء هو نفسه في من أخذ!

إن للبيت رباً يحميه! وحماه دون حرب ولا سنان يشرع. لو قيض لإبرهة أن يتابع مسيرته وكان جنده يحاربون جند قريش لتغير التاريخ غير التاريخ وهدم البيت الحرام. وكان بعد ذلك ما لا يعلم إلا الله. ولكن من ذا يحارب الوباء الذي أرسله الله؟ رمى أعداء الله بحجارة من سجيل.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾ وصدق الله العظيم!

معركة الإسلام الأولى

لو قيض لأحد صحابة الرسول الأعظم الأولين أن يكتب مذكراته فماذا كان سيكتب عن يوم بدر ؟ لا شك أنه سيكتب الكثير فهي معركة الإسلام الأولى . ولعل من بين ما يكتبه صورة غلامين قبضت عليهما طليعة استكشاف كان فيها علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وجاءت بهما إلى الرسول الأعظم وهو ، مع نفر من المحاربين معه لا يزيدون على ٣١٧ محارباً وعرف الرسول الأعظم من الغلامين أن جيش قريش قادم عليه . وأنه وراء الكثيب الذي بالعدوة القصوى . وسأل الرسول الغلامين :

ــ كم القوم ؟ فقالا : كثير عددهم شديد بأسهم .

فسألهم الرسول : كم عدتهم ؟ قالوا : لا ندري

قال : كم تنحرون من الجزر كل يوم ؟ قالا : تسعاً ويوماً عشراً .

فاستنبط الرسول أنهم بين التسعمائة والألف . وعرف من الغلامين أن أشراف قريش جميعاً خرجوا في هذا الجيش فالتفت لأصحابه المسلمين قائلاً : هذه مكة قد رمتكم بفلذة أكبادها !

ما كان محمد رسول الله وهو القرشي المكي الكريم بالذي يعتدي على أهله وعشيرته . فما هي المقدمات التي أوصلت الرسول وقريشاً إلى الاصطدام الحربي عند بئر بدر ؟

عمر هذه المقدمات أربعَ عشرة سنة يومذاك .. قبل ألف وأربعمائة وثلاثين سنة ! ... فيوم نقل الله تعالى رسوله الأعظم محمد بن عبد الله من سوية البشر إلى مقام الرسل قال له وكان قد دثره أهله وكأن حمى ترعده من

الخشوع : ﴿ ياأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكبر ولربك فاصبر ﴾ .

منذ تلك اللحظة بدأت مسيرة الجهاد للدين الحنيف فما تزال مستمرة مع ملايين الملايين من البشر إلى يوم يبعثون . لبث الرسول الأعظم ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو أهله وعشيرته الأقربين فعتوا عتواً كبيراً إلا نفراً صدقوا ما عاهدوا الله عليه وصدقوا الرسول . وقد قاسى وقاسوا من زعماء قريش خاصة كأبي لهب وأبي جهل وأبي سفيان ما قاسوا . وهو يجادلهم ــ كما أُمِرـــ بالحكمة والموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن . لكنـ بقيت على قلوب أقفالها ! .. فحاول الدعوة في الطائف فصدوه بالحجارة في عتو ونفور . ثم حاولها مع أهل يثرب فوجد من بعضهم قلوباً مصغية وبايعوه . فخرج مع أصحابه المسلمين مهاجراً إليهم وبدأ بهذه الهجرة عصر جديد للدعوة الإسلامية بعد ثلاثة عشر عاماً من الجهاد السلمي الصابر .

نظم الرسول الأعظم أمور جماعته في المدينة التي رحبت به ، ثم وجد أن السد الذي يقف بينه وبين أن يكون للعالمين نذيراً هو عداء قريش التي وصلت حد مقاطعة مع أهله وحد ادعاء أنه شاعر أو ساحر أو مجنون وحد التآمر لقتله . وأراد الرسول صلوات الله عليه أن يظهر قوة الجماعة التي تكونت حوله لئلا يتحداها متحد فأرسل عدداً من السرايا حول المدينة خرج بواحدة منها عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلاً فالتقى بأبي جهل في ثلثمائة راكب مكي ولم ينشب بين الطرفين قتال . لقد حجز بينهما ابن عمرو الجهني . وخرج عبد بن الحارث في ستين راكباً إلى ماء رابغ فلقي مائتين من القرشيين مع أبي سفيان فانسحبوا دون قتال وخرج سعد بن أبي وقاص وخرج غيره . وشعر الرسول الأعظم أن قريشاً تحوم حول المدينة برجالها . ومن يدري لعلها تريد شراً ؟ فلا بد من إيقافها على قوته قبل وقوع الشر . وقد خرج الرسول نفسه في ثلاث سرايا وعقد التحالفات في الأبواء وبواط والقشيرة مع

قبائل بني مذحج وحلفائهم من بني ضمرة . وهم الذين يعمرون ما بين المدينة والبحر الأحمر ضماناً للحماية . ثم أرسل عبد الله بن جحش إلى نخلة يترصد أخبار قريش ولكن عيراً لقريش عليها عمرو بن الحضرمي اشتبكت مع السرية التي نجحت في قتل قائدها وأسر رجلين منها وعادوا بهما وبالعير إلى المدينة . ولما كان الصدام في رجب وهو من الأشهر الحرم أبى الرسول نتائجه وأرسل الأسيرين والعير . ولكن قريشاً هبت بحملة دعاية ضد الرسول أنه استحل الأشهر الحرم ! فتنزلت الآية الكريمة : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله ﴾ وزال الحرج بذلك عن المسلمين . وكانت هذه السرية نقطة تحول في سياسة المسلمين فقد أذن لهم بالجهاد في سبيل الله . ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

وأدرك الرسول الأعظم أن الصدام المسلح مع الكفار لا مفر منه . وكما صادرت قريش أموال المسلمين في مكة فمن باب إظهار القوة مصادرة قافلتها إلى الشام مع أبي سفيان . وخرج الرسول في محاربيه ففاته إدراكها . فانتظر عودتها . وكانت قافلة عظيمة اشترك بها أهل مكة جميعاً ويقدّر ما تحمله بخمسين ألف دينار . وقد ذاع الخبر حتى وصل أبي سفيان وهو عائد . فأرسل يستنجد بأهل مكة . بعث رجلاً يدعى بضمضم الغفاري أوصل الخبر إلى مكة بشكل مسرحي : إذ قطع أذني بعيره وجدع أنفه ودخل مكة واقفاً على رحله يصيح : اللطيمة ! اللطيمة ! عرض لها محمد وأصحابه . لا أدري أن تدركوها ! الغوث الغوث . فهبت قريش وخرجت في نحو ألف رجل على مائة من الخيل وسبعمائة بعير ... وعرف الرسول قوتها من الغلامين الأسيرين .

وفيما كان الرسول الأعظم ينتظر مع أصحابه ورود القافلة من الشام وصلهم الخبر بحملة قريش ! وانقلب الموقف لم يعد قطعاً لطريق القافلة ولكن حرباً مع هائجة قريش كلها ! واستشار النبي العظيم أصحابه فقام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله إمض لما أرادك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما

قال بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فحاربا إنا ها هنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ! ...

كان أبو سفيان قد بدل الطريق حين تراءى القرشيون وأصحاب محمد عند بئر بدر . وعرفت قريش بنجاة القافلة وهم بعضها بالعودة فمنعهم أبو جهل ! . لا والله لا نرجع أبداً حتى نرى بدراً ونقصف ونلهو بها ثلاثة أيام وننحر الجزر هناك ونسير بجمعنا فلا يزال محمد وأصحابه يهابوننا أبداً ! وتهيب القرشيون أن يقاتلوا فهناك مع الرسول جموع من المهاجرين هم من أهليهم ولكنهم خافوا الاتهام بالجبن فسكتوا ...

وبدأت المعركة بالمبارزة فقتل فيها من قريش الأسود المخزومي وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد . وتزاحفت القوتان وتلاحمت صفوفهما وانهالت النبال بينهما وتخالفت السيوف . وضاع المحاربون في الغبار الكثيف فلست تسمع إلا التكبير تارة وصراخ المشركين تارة . واصطبغت الرمال بالدماء وتزعزعت قريش من موقعها . ولحقت الشفرات برؤوس الكفر وكان أبو جهل من المجندلين ...

روح من الملأ الأعلى تنزلت في صدور المسلمين فإذا هم يزلزلون الأرض بصيحة : الله أكبر ... فيما كان الجرحى والهاربون من القرشيين يحاولون النجاة في كل سبيل ... ولات نجاة ! .

وتنزلت الآية الكريمة : ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ .. وفيما كانت المآتم والمناحات تضج في أنحاء مكة وتأكل القلوب . كانت المدينة في عرس بهيج ... إنها أولى معارك الإسلام الكبرى ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾ صدق الله العظيم .

غزوتا أحد والخندق

في أواخر شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة كان الهياج والعويل سائدين حول الكعبة في مكة وكان جدل الناس يعلو وينخفض. والألم والغضب يرعدان الجميع فما ترى إلا أعصاباً ثائرة وألسنة تقسم وعمائم تدور. دار الندوة بجوار الكعبة كانت لا تكاد تفرغ من روادها بين قادم وخارج ومجادل ومستمع وساهم يفكر. كلهم كانوا يتحدثون أو يهجسون بموضوع واحد: كيف هزمت قريش في معركة بدر تلك الهزيمة! المجلجلة؟ هزيمة لا تصدق. وأفجع ما فيها أن عدداً من سادة قريش وأبطالها قد جندلوا مجاناً فيها بأيدي هذه الفئة المسلمة التي غادرت مكة مطاردة مهجرة وإذا بها تنزل أفدح البلاء بها وهي بعيدة لا تطولها أيدي قريش. وكان أهل القتلى أكثر الجميع غضباً وثورة ودعوة إلى الثأر. كأن ناراً كانت تحرق أكبادهم وبخاصة هند زوجة أبي سفيان فقد قتل في المعركة أبوها وأخوها معاً وعمها. وقتل معهم عقدة الكفر والكفار أبو جهل. فحلفت لتأكلن كبد قاتل أبيها الحمزة بن عبد المطلب...

وطال تداول الأمر فيما بين زعماء قريش وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب سيد بني أمية وكبير السراة في مكة والتجار. كان الرأي مجمعاً على الانتقام ولكن كيف ينتقمون؟ جرح الكبرياء ليس أفجع منه:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

كما لا يلتام ما جرح الكبرياء. ولقد تستهين العرب بقريش بعد هزيمتها في بدر ولقد تعيرها بها. فلا معدى من موقف يرد لقريش كرامتها. لا بد من نصر

يمحو بدراً من الوجود ويمحو هزيمة بدر من الأذهان. بقيت قريش تعد العدة لمعركة الثأر سنة كاملة حتى إذا اطمأنت لاستعداداتها خرجت وفي زعمها اكتساح المدينة يثرب. خرجت في ثلاثة آلاف رجل ما فيهم إلا مُدرّع أو حامل رمح أو ترف حوله حمائل السيف. ولم يكن للمدينة من سور وإنما هي بيوت متفرقة في واحة خصبة فالغلبة للكثرة. وقريش ــ فيما اعتقدت ــ كثير وقد خرج معها عدد من النساء الأيامى يشدون العزائم ويحملن الدفوف استعداداً لهزج النصر.

عرف الرسول الأعظم بهذه الاستعدادت. وكان ينتظر ردة الفعل العنيفة هذه. وهم قومه الذين بلى وعرف. وما كان له أن يتفادى لقاءهم أو أن يوقف هذه المسيرة الحاقدة فقد كان نصره في بدر يملي عليه أن يتبعه بنصر آخر. وإلا ذهب أثره واعتبره الناس مجرد مصادفة سيئة. وما كان للرسول الأعظم أن يبقى في المدينة حتى يدركه القرشيون فيها ففي ذلك تعريض ليثرب بالخراب. ولذلك استنفر أصحابه ورجاله وخرج بهم بعيداً عنها إلى جبل غير بعيد هو جبل أحد. وكان الذين نفروا معه لا يزيدون على سبعمائة رجل. وقد نظم أصحابه في فريقين فريق يقاتل في الميدان أسفل الجبل وفريق يحرس المؤخرة على الجبل لئلا يلتف به القرشيون. ودارت المعركة سيوفاً ورماحاً وأجساداً. لم يكن هناك منجنيقات ولا أسوار ولكنه عراك دموي رجالاً لرجال ودماء تسيل وأضلاع تبتر... وانتصر المسلمون! بلى انتصروا.

ورأى المتربصون على الجبل نصر أصحابهم فنزلوا يشاركونهم فيه. نسوا تعليمات الرسول. لم يقدروا أن الحرب كر وفر وأن الكفار وعلى رأسهم خالد ابن الوليد سيندفعون خلفهم عن طريق الجبل وينزلون من خلف المسلمين الذين فوجئوا وهم في غمرة الفرح بسيوف قريش تأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وتفرق جمعهم واضطربت الصفوف وتبعثرت في الساح فإذا هم ينقلبون للدفاع. أبطالهم الذين صمدوا للمفاجأة. قتل معظمهم وسقطوا كفاً ووجهاً للثرى.

وكان بين القتلى حمزة بن عبد المطلب الذي أقسمت هند بنت عتبة أم معاوية لتأكلن كبده. قتله غيلة من وراء ظهره عبد حبشي جعلت له هند أن تعتقه إن هو قتله. وفعلها!

وفي المعركة أصيب الرسول الأعظم في ثناياه حين وقع وجرح فأشاعت قريش أنه قتل. وعند ذلك دب الاضطراب الكبير في صفوف المسلمين وأخذ الميدان يخلو منهم وتراجع بعضهم حتى المدينة يعلن الهزيمة. ولم تلاحق قريش المسلمين فقد شغلت بضحاياها الكثيرين واعتقد بعضهم أنهم شفوا غليلهم بهذا النصر فلا حاجة لهم بنصر آخر في المدينة يثرب وهي على طريق تجارتهم في رحلتي الشتاء والصيف.

هند وحدها جالت بين القتلى مع جواريها تبحث عن جثة الحمزة حتى إذا وجدتها شقت الصدر وأخرجت الكبد ولاكت منه مضغة. وكان الحمزة ركناً من أركان رسول الله فانهد. وعرفت هند بعد ذلك بلقب عيرت به. إنها آكلة الأكباد!

حسب القرشيون وهم عائدون إلى مكة بين الألم والهزيج أنهم أطفأوا نور الله بأفواههم ولن تقوم لمحمد وأصحابه من بعدها قائمة ولقد يخرجه أهل يثرب منها. ألا ساء ما يحسبون. إنها أحلام الشيطان أخذتهم فقد مضت الأيام والمسلمون يزدادون عدداً وقوة وتمكناً في الأرض. فعادت إلى قريش فكرة قهر يثرب نفسها. ولعبت دسائس بعض اليهود المطرودين من المدينة ومن حولها بعقول القرشيين فعقدوا الأحلاف مع القبائل المجاورة لمكة وأعانهم على ذلك نفر من بني قينقاع وبني النضير نتيجة علاقاتهم التجارية وقدموا القروض والمال للإعداد.

وفي العام الخامس للهجرة بعد حوالي السنتين من أحد، تجمع بزعامة قريش جيش من القبائل والأحزاب يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل اتجهت جموعهم نحو يثرب. وعرف الرسول بالزحف الرهيب. إنه أكبر جيش تجهزه

القبائل لمعركة ضد واحة لا يزيد من فيها على عدة آلاف ولا يحدها سور أو يدفع عنها حائط. وأشار أحد المسلمين على الرسول أن يحفر خندقاً واسعاً يحول بين المهاجمين وبين المدينة وسرعان ما تحولت الفكرة إلى التنفيذ. اشترك الجميع في الحفر حتى الرسول الأعظم. امتد الخندق على طول الشقة التي يمكن منها العبور إلى يثرب. أما المناطق الجبلية حولها فقام عليها رقباء. كان خندقاً أعرض من أن تقفز فوقه الخيل وقد ألقى ترابه والحجارة دونه فصار كالسور وفوجئت قريش بهذه الوسيلة الدفاعية التي لم تعهدها الجزيرة من قبل فتوقفت حملتها دونها.. وتحولت المعركة إلى تراشق بالنبال والحجارة ومطاولة الحصار.

ولم تكن المدينة على استعداد لما وقعت فيه لذلك أضناها الحصار. وتحرج الموقف جداً حين نقض بنو قريظة اليهود العهد معهم بالحياد وانحازوا إلى الأحزاب. وكانت الخيانة ضربة أليمة للرسول وأصحابه لمعرفة القريظيين بثغرات يثرب ومداخلها. ولكن المسلمين صمدوا وصبروا وصابروا. وطال أمد الحصار ولم تكن القبائل المتحالفة لتنتظر أشهراً. وكانت تظنها غزوة وعوده. وبدأ الملل من البقاء يتسرب إلى الأحزاب واتفق أن هبت ريح صرصر عاتية في بعض الليالي فاقتلعت الكثير من معسكراتهم وفرقت خيلهم والإبل في البادية ونجح المسلمون في بث الفرقة والخلاف بينهم فأخذوا في الانصراف عن قريش ولما وجد القرشيون أنهم يكادون يبقون وحدهم في الساح لملموا معسكراتهم والبنود وطووا الرحال وانصرفوا فاشلين.

وكبر المسلمون تكبيرة العيدين التي تعرف: الحمد لله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده لا شيء قبله ولا شيء بعده. لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرن!.

معارك الرسول مع اليهود

﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود﴾ آية كريمة وتنزيل من عزيز حكيم. والواقع أن اليهود كانوا قبيل الإسلام يشكلون مجموعة مستعمرات على الطريق التجاري العالمي ما بين اليمن والشام وقد توطنوا بعد فترة السبي والتفرق في هذه الواحات الممتدة ما بين تبوك وخيبر إلى أراضي اليمن. ولما كانوا يدينون بدين (يهوا) الإله الواحد ولديهم كتاب التوراة فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أرقى فكراً وأكثر معرفة بالإله والدين وحين شاءت قريش أن تمتحن معلومات رسول الله ذهب وفد منها إلى أحبار اليهود في المدينة يلتمسون منهم ماذا يسألونه؟

ولهذا فوجئ اليهود برسالة الرسول الأعظم ونبوته، ولهذا ناصبوه أشد العداء وما من مؤامرة ضده إلا كان لهم فيها ضلع أو نصيب. وكانوا لا يستطيعون الاعتقاد بظهور نبي من غيرهم (من الغوييم) النبي الأمي (من الأمم الأخرى) وكانوا يرفضونه أبداً... وهكذا كانوا حرباً دائبة على الرسول الأعظم.

بعد معركة بدر الظافرة كان بنو قينقاع أول من نقض مع الرسول فجمعهم في سوقهم وقال: يا معشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما أنزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم قالوا: يا محمد إنك ترى أنا كقومك؟ لا يغرنك إنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة.. إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس. فسار إليهم الرسول بأنصاره وحاصرهم خمس عشرة ليلة

حتى نزلوا على حكم الرسول. فجاءه عبد الله بن أبي سلول الخزرجي حين أمكنه الله منهم فقال: يا محمد أحسن في مواليّ وكانوا حلفاء للخزرج فأعرض الرسول عنه فأدخل يده في جيب رسول الله راجياً والرسول يتلون فقال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن إلى موالي وهم ٤٠٠ حاسر و ٣٠٠ دارع قد تحصدهم في غداة واحدة. وإني والله لا آمن وأخشى الدوائر. فقال رسول الله: هم لك. خلوهم لعنهم الله ثم أمر بإجلائهم وتركوا للرسول ما كان لهم من مال ولم تكن لهم أرضون وإنما كانوا صاغة. فأخذ الرسول سلاحهم وصيغتهم فخرج بهم عبادة بن الصامت وهو يقول الشرف الأبعد الأقصى فالأقصى...

وإثر معركة أحد ومسير الأراجيف بهزيمة الرسول الأعظم انتقض عليه بنو النضير من اليهود فحاصرهم رسول الله وكان الكثير فيهم تجار خمور. وقد تنزل تحريم الخمر وهو محاصر لهم. دام الحصار ست ليال فلم يطيقوه وسألوا الرسول أن يخليهم ويخرجوا آمنين من البلد بما تحمل إبلهم من حمولات الأثاث والمتاع والبضاعة إلا السلاح فأجابهم إلى ذلك فخرجوا... ولكنهم بلغوا من المكر الغاية. فقد خرجوا بالدفوف والمزامير يعزفون ويتراقصون يظهرون بذلك التجلد وعدم الاهتمام... ومضى بعضهم إلى خيبر (كيبور = الغفران) ومضى بعض آخر إلى الشام.

وبعد غزوة الخندق التي جمعت فيها مكة كل الأحزاب بجانبها وجاءت تريد حصار المدينة فاحتفر الرسول الخندق حاجزاً دفاعياً وهُزِمَ الأحزاب بالرياح الشتوية التي كفأت قدورهم وطرحت أقبيتهم ورمت الخلاف بينهم. يومها انتقض بنو قريظة فما أصبح الصبح التالي بعد انكفائهم حتى أمر الرسول عند الظهر منادياً ينادي: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلي العصر إلا ببني قريظة. وقدّم الرسول علياً بن أبي طالب بالراية. ثم نزل على بئر من آبارهم. وتلاحق الناس حتى العشاء الآخرة... دام الحصار لهؤلاء القوم خمساً

وعشرين ليلة وقذف الله في قلوبهم الرعب فلم يستطيعوا الدفاع ولا فك الحصار. ولا طلع منهم أحد. وكانوا حلفاء الأوس فسأل الأوس رسول الله في إطلاقهم كما أطلق بني قينقاع حلفاء الخزرج فقال الرسول: ألا ترضون أن يحكم فيهم سعد بن معاذ وهو سيد الأوس؟ قالوا: بلى. فأمر بإحضار سعد وكان به جرح في أكحله من غزوة الخندق فحملت الأوس سعداً على حمار قد وطئوا له عليه بوسادة. وكان رجلاً جسيماً ثم أقبلوا به إلى الرسول وهم يقولون: يا سعد أحسن إلى مواليك! ووصل سعد فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله قد حكمك في مواليك فقال سعد: أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى النساء والذراري. فقال الرسول قد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة!

وهكذا حبس بنو قريظة في بعض دور الأنصار وحفر لهم خنادق ضرب بها أعناقهم وكانوا /٤٠٠/رجل أو حول ذلك ثم قسم الرسول ما غنمه منهم فكان من نصيبه منهم ريحانة بنت عمرو.

وعرف الرسول الأعظم أن بني المصطلق يأتمرون بهم حقداً وحسداً فخرج إليهم فلقيهم على ماء لهم يدعى المريبع راجين أن يمنعوه منه ليظمأ المسلمون وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار (وهو أبو جويرية بنت الحارث زوج الرسول فيما بعد). فنشب القتال عنيفاً عنيفاً واشتعلت النيران في العروق وتناثر الجرحى على الرمال وعند الماء وانجلى الغبار عن هزيمة بني المصطلق بعد أن قتل منهم الكثير. واستسلم الباقون وكانت جويرية في سهم ثابت بن قيس فكاتبته على نفسها فأدى عنها الرسول كتابتها وتزوجها. فقال الناس من قومها: نحن أصهار رسول الله فأعتق الرسول بتزوجه منها مائة أهل بيت من بني المصطلق... وفي هذه المعركة انكشف نفاق عبد الله بن أبي سلول إذ سمع خصمين ينادي أحدهما يا معشر الأنصار فصاح غضباً: لقد

فعلوها . قد كاثرونا في بلادنا أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منا الأذل ... وبلغ الأمر رسول الله فأمر بالرحيل وهو يكظم غيظه ! ..

وعاد الرسول الأعظم من الحديبية سنة سبع للهجرة فعلم تآمر يهود خيبر عليه . فاستخلف في المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ومضى بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع بين منازل خيبر ومنازل قبيلة غطفان. كان منزله هذا احتياطاً منه لئلا يمد الغطفانيون أهل خيبر وكانوا يظاهرونهم على الرسول . وقد صح توقعه . وحشدت غطفان وخرجت ولكن إشاعة شاعت بينهم وهم على الطريق أن ضجة سمعت في منازلهم وأهليهم فظنوا أن المسلمين أوقعوا بها فعادوا على أعقابهم يحمون منازلهم وانفرد الرسول بخيبر وهي حصون عديدة فجعل يستولي على أموالهم في البرية ثم افتتح أول حصونهم وهو حصن ناعم ثم فتح حصن القموص وكان من سبايا هذا الحصن صفية بنت حيي بن أخطب فاصطفاها الرسول لنفسه (وقد اتهمت فيما بعد بأنها سمت الرسول) ثم أتى أعظم حصون خيبر الصعب بن معاذ ولم يكن بخيبر حصن أكثر ادخاراً للأغذية منه . فحاز المسلمون ما فيه حتى انتهوا إلى آخر الحصون وهو حصن الوطيح فحاصروه بضع عشرة ليلة وامتلأت الأيام بالمبارزات بين الفرسان ومنها مبارزة علي بن أبي طالب الشهيرة مع مرحب اليهودي التي انتهت بمصرع اليهودي ... وفتح الحصن وكانت بعض أموال بني النضير قد خبئت في خيبر فاستخرجها الرسول وسمع أهل فدك بأمر خيبر فبعثوا يقاسمون الرسول على نصف أموالهم يشترون بها الحرب والقتل ...

وإذا كانت خيبر قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالاً فقد كانت آخر معارك الرسول مع اليهود !

ترى لو أمد الله في عمره هل كان أبقى على يهودي في الجزيرة ؟

فتح مكة

ترامت في الجزيرة العربية أنباء صراع قريش مع أبنائها المهاجرين وأنصارهم المسلمين في يثرب . وتسامع الناس بأخبار معركة بدر ومعركة أحد ومعركة الأحزاب . وكانوا بين شامت بقريش أو متعصب لها . وبين مؤيد للمسلمين أو ناقد أو متوجس خيفة ... لكن المقبلين على اعتناق الدين الحنيف كانوا يزدادون ويزدادون !

أما يثرب ، مدينة الرسول ، ومن فيها فكانوا بعد فشل غزوة الخندق والأحزاب يفكرون في الوسيلة التي يردون بها على هذه الغزوة دون تعريض بأنفسهم أو ببلدهم للتهلكة أو للقتال ! كانوا لا يفكرون بالمهادنة فقريش العاتية لا تهادنهم . ولا في المسالمة فالثارات بينهم وبينها قد وقعت والدماء سالت ! وانتظر الناس ماذا يفعل رسول الله ؟ وأعلن الرسول ذات يوم الذهاب للعمرة !

وفوجئ المسلمون بهذا الرد الحاسم على غزوة الخندق . فقريش المشرفة على الكعبة لا تستطيع منع أحد من زيارتها . والرسول الأعظم يريد أن يظهر للناس أنه يقدس هذه الكعبة كغيره من العرب . ومكة أرض حرام لا قتال فيها . إذن فإن المسلمين يستطيعون الدخول على قريش في مدينتهم مكة قهراً دون أن يمنعهم أحد . أليس هذا بأحسن الجواب على الذين حاولوا دخول المدينة على الرسول وردوا على أعقابهم ؟

لم يكن قد مضى على غزوة الأحزاب والخندق سوى عام واحد حتى كان الرسول الأعظم يخرج في ألف وأربع مائة من أصحابه معلناً أنه سيقوم بالعمرة ! وتسامعت قريش بالخبر فطار قلبها شعاعاً . لئن منعته فإنها سبة الدهر ، ولئن

سمحت له دخل عليها مكة دون أن يرفع في وجهها سيفاً أو تجرؤ على رفع سيف في وجهه وحارت قريش ماذا تفعل؟ وخرج جماعة منها لا يريدون رؤية الرسول في الكعبة. وحين وصل موقع الحديبية بعث هو نفسه بموفد إليها يبلغها أنه قادم لإقامة شعائر الدين ودون سلاح وأبطأ الموفد في العودة حتى قلق الرسول عليه وفيما كان ساهماً يفكر تحت إحدى الشجر جاءه عشرة من الصحابة فبايعوه على الموت إن أصاب الموفد شيء. وإنما تأخر لأن القرشيين لم يعرفوا ماذا يقررون. وعاد الموفد ومعه جماعة من قريش إلى الحديبية فسألوا الرسول أن يؤجل عمرته سنة واحدة! ورفض الكثير من الجماعة المسلمة ذلك وكانت تمني النفس بدخول مكة ولكن رسول الله قبل. وأخذوا في كتابة وثيقة الصلح: هذا ما عاهد عليه سهيل بن عمرو (ممثل قريش) محمداً رسول الله ﷺ فاعترض سهيل وقال: لو قد علمت أنك رسول الله ما حاربتك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.. ووجم علي بن أبي طالب وكان يتولى الكتابة لا يريد أن يمحو لقب رسول الله فأخذ الرسول وثيقة الصلح فمحاه وجرى العهد على الصلح بين قريش والمسلمين عشر سنوات.. وحقق الرسول نصراً كبيراً في هذا إذ اعترفت قريش نداً لها رغم أنفها.

صلح الحديبية هذا لم يرض الكثيرين ولكنهم انصاعوا لإرادة رسول الله. وفي العام التالي كانت عمرة الرسول إلى مكة مهرجاناً ضخماً. وفيما كان المسلمون يدخلون مكة كما أمرهم الرسول الأعظم بمشية الكبرياء وهم الذين هاجروا منها في الخفاء كان معظم أهل مكة قد خرجوا منها إلى الجبال المحيطة ينظرون ويتعجبون. كان المسلمون يطوفون بالبيت الحرام متبخترين في خيلاء. بذلك أمرهم الرسول قائلاً: يا لها مشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموقف...

وانقضت العمرة فعادوا كما جاؤا في موكب عز به الإسلام.

على أن قريشاً أخطأت خطيئتها التي لم تدركها بهذا الصلح! كان من

مواده ألا يقبل رسول الله عنده قدوم مسلم منها وأن تقبل قريش المرتدين. وما ارتد إليها أحد ولكن المسلمين القادمين على الرسول، ورفض دخولهم إلى يثرب، تكاثروا على طرق قريش وأخذوا يغيرون على رجالها وقوافلها وتجارتها حتى بعثت قريش إلى الرسول ترجو إلغاء هذه المادة... وكان من مواد الصلح ألا يعتدي أحد الطرفين على حلفاء الطرف الآخر. ونقض أهل مكة بعد سنة وبعض السنة هذا العهد. واعتدوا على بعض أحلاف الرسول فاستجارت القبيلة به وكان ينتظر ذلك ليكون حجة على قريش بعدوانها.

وهكذا سار الرسول الأعظم إلى مكة بجيش من عشرة آلاف من المسلمين. وعلمت قريش بمسيرته وبأنها مغلوبة لا محالة فليست آلافه العشرة المتحدة المؤمنة بالتي تشبه آلافهم العشرة المتواكلة المتنابذة التي ساقوها عليه يوم الأحزاب. واضطربت منها. إنها الحرب.

قبل وصول مشارف مكة كان الرسول قد عبأ جيشه في أربع فرق تدخل كل فرقة إلى مكة من أحد مداخلها. جعل الزبير بن العوام على الجناح الأيسر من الجيش وأمره بدخولها من الشمال. وجعل لخالد بن الوليد الجناح الأيمن والدخول من جنوب مكة. وكان لسعد بن عبادة على أهل المدينة الأنصار أن يدخلوها من جانبها الغربي. أما أبو عبيدة بن الجراح فسار في رفقة الرسول الكريم على رأس المهاجرين ليدخلوا من شمالها بحذاء جبل هند.

لم يكن لمكة سور لذلك طوقت كلها بذلك. وفيما كانت الصدامات تجري على المداخل بعنف محدود. فليس يعي أحد على أحد. وفيما كان التكبير هو الذي يسمع مجلجلاً تردده الأصداء. كان بعض زعماء قريش يخرجون للقاء الرسول ويخضعون! خسروا نهائياً قضيتهم فهم وجوه منكسة وقلوب تنبض حسرة! المعركة كانت قاسية مريرة على المدخل الجنوبي فقد لقي خالد هناك المقاومة الشديدة كأنما تجمع كل كفر مكة في هذا المدخل. ولكن

خالداً عرف كيف يقضي عليه. سمي ذلك اليوم بيوم الخندمة. وقال أحد المقاتلين لأخته التي عيرته بالجبن والهرب:

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمة
ولحقونا بالسيوف المسلمة ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

ودخل الرسول الأعظم أم القرى بعد فراق ثماني سنوات. خرج منها في السر مع صاحبه الصديق أبي بكر وعاد إليها في عشرة آلاف خلفه يهدرون بالتهليل والتكبير! واتجه بأصحابه إلى الكعبة طاف بها الطواف المعروف سبع مرات ثم أمر بإزالة ما فيها من التماثيل والصور. وحطم أصحابه إله القوم الحجري: هبل كبير الأصنام وهو يردد: «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا».

ثم أمر فاجتمع إليه في المسجد الحرام أهل مكة فخطب فيهم يقول:

ـــ يا أهل مكة! ما ترون أني فاعل لكم؟

قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم

فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء...

وتقبل الرسول في ذلك اليوم إسلام من أسلم من قريش. وكانوا يسلمون أفواجاً ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره. إنه كان تواباً﴾! صدق الله العظيم.

المعارك الأولى في سواد العراق

« وجه الفرس كان دوماً ثقيلاً علينا »

كذلك قال الصحابة لأبي بكر الصديق حين استشارهم في معونة فارس برز كالرمح الرديني يحارب بقومه على جبهة فارس . وقال أبو بكر :

ـــ لكنه يبلي أحسن البلاء على جهة الشمال الشرقي بمن معه من رجال القبائل وهم ثمانية آلاف .

وقالوا إنها مغامرة . بل مجازفة .

فقال أبو بكر :

ـــ ولكني مقتنع أن هذا « الفتى » سيكون له شأن . وإنها لفرصته !

ولم يكن أبو بكر مخطئاً فيما توسمه في المثنى بن حارثة الشيباني من الخير لا سيما بعد أن سمع أنه وصل بأصحابه المقاتلين ملتقى النهرين دجلة والفرات . ولم تكن عواطف القرشيين مع الفرس لا سيما وأن تاريخاً طويلاً من العداء والحذر كان يخيم على العلاقات معهم . وكان ملك المناذرة هو العصا التي يسلطونها عليهم .

وعين أبو بكر المثنى أميراً على قومه ثم بدا له أنه قد لا يقوم للفرس عدداً ولا عدة ولا موارد فآزره بجيش طلب إلى خالد بن الوليد وهو في اليمامة ، أن يقوده .

وطلب إلى المثنى الانضواء تحت رايته .

وخرج خالد في عشرة آلاف مقاتل والتقى بالمثنى على أطراف السواد أي أطراف الغابة الشجرية في العراق فما كاد القائد الفارسي هناك هرمز يسمع

بتقدم العرب حتى حشد قواته يمنعهم عند الحفير قرب كاظمة . كان قد اعتاد هجمات بدوية كثيرة من قبلها وكان عمله أن يردها عن السواد وفوجئ بأن هذه الهجمة لم تكن كغيرها فإنها لم تزحزح حاميته فقط ولكنها هزمتها في قتال قصير وطاردتها حتى الجسر الأعظم على الفرات . وغضب كسرى أزدشير لهذه الهزيمة التي لم ينتظر فأرسل على وجه السرعة مدداً كبيراً عسكر عند بلدة المذار انضمت إليه فلول الحفير . ولكن خالد بن الوليد بدد شمل المدد الفارسي في معركة أخرى أشد نكالاً من الأولى . عرف فيها الفرس ضرباً من ضربات السيوف ما عرفوه من قبل . وجندل فيه من الجند والفرسان ما لم يعهدوه من قبل . وكبرت على كسرى الدماء التي سفحت فأمر بحشد القبائل العربية الضاربة على ضفاف الفرات . ليضرب عرباً بعرب . ودفع بينهم بعض الكتائب الفارسية وولى قائده المفضل جاذويه قيادة هذه الجموع التي اجتمعت عند الولجة . ولم تقف السيوف التي أرغمت على القتال إرغاماً للجماعة التي تجاهد في سبيل الله وتعرف أنها تجاهد في سبيله . الرؤوس التي تطايرت منها والأجساد التي تمزقت والنقع الذي ثار وطيران الخيل بالمسلمين من جانب إلى آخر جعلتها تعرف معنى الهول والفزع فانكفأت تلتمس النجاة ، تاركة أسلابها والمؤن والأسلحة للمسلمين ! وتكررت الهزيمة نفسها عند أليس . فإن القائد الجديد جابان لم يكن بأوفر حظاً من سابقيه. والأعراب الذين حشدوا هنا عرفوا ما عرف أصحابهم في الولجة من القراع العنيف . فزلزل الرعب صفوفهم ولم يشاؤوا أن يكونوا أشلاء على الثرى للطير أو للتعفن فتراكضوا منهزمين وسنابك العرب المسلمين في ظهورهم تأسر وتبيد ... ألم ينقص جيش ابن الوليد ؟ بلى جرفت الحرب آلافاً من جنده . ولكن النصر — وعلى الفرس — كان يجعل الباقين بمثل قوة يوم بدأ أو أشد . إنها قوة الإيمان .

بعد هذه المعارك الثلاث وصل خالد إلى أحواز الحيرة فضرب من حولها الحصار . كانت هذه البلدة في الماضي عاصمة المناذرة الملوك . ولكنها الآن

لا تحمل إلا ذكراهم . الفرس جعلوها بعض بلدانهم . فلما تحصن أهلها خلف الأسوار خيرهم خالد بن الوليد الإسلام أو الجزية أو السيف كعادة المسلمين يومذاك . ورفضوا. لكن المقاومة سرعان ما اضمحلت . فقبلوا دفع الجزية . وعقدوا معاهدة مع المسلمين . ودخل خالد الحيرة بجيشه ليجعلها مقر قيادته ... وأتته أوامر الخليفة أبي بكر بأن يلبث في مكانه . فبقي ينتظر وطال انتظاره قرابة السنة حتى كاد يسأم لولا أن عرضت له معركة رابعة . لقد اكتشف تحركات للفرس شمالي الحيرة . في الأنبار وفي عين التمر فسار إليهم . تقدم على ضفاف الفرات حتى وصل الأنبار فوجد أهلها مع الحامية قد احتموا بأسوارها المنيعة . ومن دون الأسوار خندق عميق يحيط بالمدينة قد امتلأ من ماء الفرات ! فماذا يفعل ؟ أمر بنحر عجاف الإبل عنده وإلقائها في مكان ضيق بالخندق واتخذ منها جسراً عبر عليه بقواته . تحت وابل من نبال الفرس . وعلى حوافي السور تسلق رجاله الأسوار ونزلوا بالمدينة فاتحين في حين فر المدافعون مذعورين !

وانقلب خالد بعد ذلك على عين التمر . وكانت مقراً نصرانياً كبيراً على مسيرة ثلاثة أيام في البادية فَروَّعها بوصوله المفاجئ ومن حوله الفرسان شعثاً وغبراً . كانت الحامية قليلة العدد فلم يكن من الصعب هزيمتها وتدمير صمودها . فاستسلمت للفاتحين ...

وهكذا أضحى جانب البادية من ضفاف الفرات كله مرتعاً لسنابك المسلمين . ولم يهدأ خالد بن الوليد فقد وصلته أوامر أبي بكر بمعونة عياض بن غنم في دومة الجندل والمسافة بين الحيرة وبينها تحتاج إلى أسبوعين من خبب الخيل فبلغها في عشرة أيام واحتل مع صاحبه البلدة ثم عاد إلى الحيرة ليرى أمراً آخر وصله بأن يلحق بالجيوش المحاربة في الشام مع نصف القوى التي يقود . وأن يستخلف المثنى بن حارثة مكانه ... ومضى خالد لمهمته الجديدة . لكن المثنى لم يستطع أن يحتفظ بجميع الفتوحات السابقة فتخلى عن عين التمر وعن

الأنبار . وعلى الرغم من أنه هزم حملة فارسية من عشرة آلاف عند أطلال بابل القديمة وتركها بين جريح يئن وقتيل هامد وهارب يرجو النجاة إلا أنه خشي تجمع القوات الفارسية ضده فوجوده قرب المدائن العاصمة تهديد لها . ولو أن الفرس كانوا مشغولين عنه بمشكلة الوراثة والحكم والتنازع في ذلك . ورأى أن يطلع الخليفة بالذات على الوضع العسكري فسافر إليه في المدينة ليجده في الرمق الأخير ...

فلما تولى عمر بن الخطاب بعث إلى القبائل يستنفرها لمعونة المثنى في العراق ولكن تجاوبها كان بطيئاً عسيراً . وجه الفرس كان دوماً كريهاً ثقيلاً على الأعراب . لكن المثنى استطاع أن يحول الإحجام إلى إقبال حين مناهم بالغنائم الوفيرة . ولا يثير الأعراب كالغنائم . فلما عاد المثنى إلى العراق توالت وراءه النجدات دراكاً وانثيالاً . كانت النجدات بقيادة أبي عبيد الله بن مسعود وما وصلت حتى كان الفرس قد اختاروا لأنفسهم الملكة بوران . وقد عهدت إلى قائدها الشهير رستم بطرد العرب من العراق ...

استطاع رستم أن يحرض أهل السواد ضد الفاتحين فانتقضوا عليهم واضطر المثنى أن يخلي الحيرة وحين وصله أبو عبيد بن مسعود بنجداته استعاد المثنى قوته وعاد إلى الحيرة مع المجاهدين . كما أعاد ابن مسعود سواد العراق لسلطته في حين كانت الجيوش الفارسية تجتمع للضربة الحاسمة . وكان على المسلمين ملاقاتها ... وهكذا وقف على طرفي الفرات عند بلدة قس الناطف حشدان يتأهبان للقتال . وأشد ما كان يخيف المسلمين في الجيش الفارسي أنه أنزل معه الفيلة . دبابات ذلك العصر ... وصاح الفرس : تعبرون أو نعبر إليكم وأخطأ مسعود ففضل العبور فما كادت طلائعه تصل الضفة الأخرى حتى ثقبتها النبال وأطاحت بها السيوف فعلى الشاطئ سواقي من الدماء تنزف في النهر وجاءت الأفيال تدوس الناجين فما كاد مسعود يضرب أحدها بسيفه حتى وطأه الفيل بقدمه وقضى عليه ...

وتراجع المسلمون يطلبون العبور ولكن بعض المتحمسين منهم قطع جسر السفن ليمنعهم من التراجع فتدافعوا في الماء وأخذهم التيار فكانت الكارثة التي لم ينقذهم منها إلا شجاعة المثنى الذي توقف مع أصحابه يحمي مؤخرة المتراجعين حتى عبروا بسلام . ولكن بعد أن هلك في معركة الجسر هذه ٤ آلاف قتيل وغرق ألفان وفر ألفان من الميدان ..

ثأر معركة الجسر أدركه المثنى حين جمع فلول الجيش مع النجدات التي وصلت ووقف للجيش الفارسي عند البويب . فلما خيرهم الفرس في العبور قالوا اعبروا أنتم ... وعبر الفرس فكانت النتيجة هزيمتهم وسيوف العرب في ظهورهم . تكررت المعركة بشكل معكوس . وفر الفرس لا يصدقون بالنجاة ...

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾ صدق الله العظيم .

القادسية

وجه الفرس رغم ثقله على العرب كانت جبهتهم معهم في مطالع أيام الفتوح تمتد حتى البادية في غربي نهر الفرات. وقد اهتزت هذه الجبهة أكثر من مرة بين كر وفر فتوغل العرب في أعماقها حتى بلغوا المدائن وتراجعوا عنها حتى لجأوا إلى البادية. بطل هذه الجولات العسكرية كان، مع خالد بن الوليد، هو المثنى بن حارثة الشيباني. ولا تكاد تجد بين أبطال العرب الفاتحين من يماثل هذا الرجل في جرأته وتجرده لله وجهاده حتى الموت في سبيل الله. في معركة الجسر والمسلمون يتدافعون للهرب فوق جسر السفن وقف يحمي مؤخرتهم حتى النهاية. جرح جراحاً بليغة لكنه لم يتوقف عن القتال ثم انتقضت عليه الجراح فأبى أن يترك الدنيا قبل أن يملي وهو في حشرجة الموت تجاربه ونصائحه لخلفه الذي لا يعرفه. وكان هذا الخلف هو سعد بن أبي وقاص، فهو أسبق الناس للإسلام وأبرزهم دفاعاً عن رسول الله. رمى يوم غزوة أحد ألف سهم حتى قال له الرسول: ارم فداك أبي وأمي! ارم أيها الغلام الحزور (أي الجيد الرماية)...

لم يلتق المثنى بسعد فقد لقي وجه ربه قبل وصول سعد وتسلمه قيادة المسلمين الفاتحين سنة ١٣هـ. فنظم تعبئة الجيش وأمراءه في المقدمة وفي الميمنة والميسرة والقلب ووصلته وصية سلفه المثنى فقرأها وبكاه وترحم وعقد زواجه على سلمى أرملته. ثم تقدم بالجيش نحو موقع العذيب ثم القادسية. هذه البلدة في جنوب الحيرة صار اسمها علماً على معركة لا أمجد ولا أعظم من معارك الإسلام الأولى. ألا يكفي أنها أزالت دولة الفرس الساسانية عن خارطة

الدنيا وإلى الأبد؟ قضى سعد في تحركه قرابة شهرين! كان تحركاً حذراً بطيئاً. فالجيش الذي يقوده لا يقارن بجيش الفرس. في العدد كان لدى سعد بضعاً وثلاثين ألفاً ولدى الفرس أربعة أضعاف هذا العدد. وكان جيشه من العرب البداة. وجيش الفرس من الجند المتمرسين طويلاً بالحروب. وفي العدة كان جيش سعد يحمل الرماح القصيرة التي يتهكم عليها الفرس ويسمونها المغازل ويحمل رماحة الفرس أطول الرماح الماضية. وفي السيوف كانت السيوف القصيرة للعرب وسيوف الفرس أطول وأفدح وقعاً. ومع الفرس إلى هذا فريق من الفيلة كالدبابات الساحقة وليس لدى العرب ما يماثلها. ووراء الفرس المياه وشجر السواد أما وراء العرب فليس ثم سوى البادية الشاسعة والسباسب القاحلة. وقاعدة الفرس قريبة من المدائن أما قاعدة العرب وموضع استنجادهم فعلى شهر من المسيرة: في المدينة. كل الأوراق الرابحة كانت في يد الفرس إلا ورقة واحدة يفتقدونها هي ورقة الإيمان فقد كانت في يد العرب! كانت الشهادة في سبيل الله هي غايتهم وليس من قوة تستطيع الانتصار على قوم: الموت أحب إليهم من الحياة!

واختار سعد أن يعسكر في القادسية ليأتي الفرس إليه فلا يتورط في الأرض الزراعية وترعها. فإن هزم جيشه ففي البادية وراءه متسع كبير للحماية وإن انتصر انفتح أمامه الطريق إلى المدائن. وكتب عمر الخليفة إلى سعد «القادسية باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الأبواب وهي منزل رغد خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر ...».

كان كسرى يزدجرد الثالث قد اختار لقيادة جيشه أعظم قادته رستم. وسيره من المدائن وهو كاره لهذه المهمة حتى لقد تلكأ في المسير. واختار سعد وفداً قدم على يزدجرد يعرض عليه الإسلام أو الجزية أو القتال فاهتز غضباً وقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم. ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه

أني مرسل إليه رستم ليدفنكم ويدفنه في خندق القادسية! لم يكن يزدجرد يقدر أن جيشه كان يحمل في داخله عوامل هزيمته. فهو متنوع الأجناس. يغتصب مال الناس في طريقه وفيه ثلاثون ألف مقاتل مسوقون بالسلاسل إلى القتال خوف الهرب!.

أراد رستم إثارة الخوف في العرب فقدم الفيلة أمامه وكانوا ثلاثة وثلاثين فيلاً. واتفق أن سعد بن أبي وقاص كان يشكو من قروح أليمة في فخذيه تمنعه من الركوب فكان يقود المعركة على نشز من الأرض وهو مكب على وجهه وفي صدره وسادة والقادة يختلفون إليه في الأوامر.

واصطدمت صفوف المسلمين بالفرس صدمة هائلة لكن خيول المسلمين ذعرت لمرأى الفيلة الغريب فقفزت على أرجلها وتفرقت.وانتهز الفرس الفرصة فساقوا الفيلة على الميمنة والميسرة وتلقاها الرماة بنبالها فلم تتراجع وداست بأرجلها العديد من المقاتلين فأمر سعد بعض الرجال بالمجيء من خلفها وقطع أحزمتها فتساقط أصحابها عن ظهورها ولم تعد تدري أين تسير فارتد الكثير منها على الجيش الفارسي يضرب فيه خبط عشواء. ولكن بعد أن خسر المسلمون كثيراً من الشهداء. (وسمي هذا اليوم يوم أرماث)

استمر القتال سائر اليوم الأول حتى الليل. وفي اليوم التالي بعد دفن القتلى ومداواة الجرحى عاد القتال أشد مما كان قبل، ووصل مدد عربي مسلم يقوده هاشم بن عتبة في ستة آلاف ثم أرسل القعقاع بن عمرو في ألف آخرين ولجأ القعقاع إلى الحيلة فكان يرسل العشرة وراء العشرة فيكبر المسلمون لوصولهم حتى دب الرعب في الفرس لكثرة النجدات مع أنها لم تكن أكثر من ألف رجل! وفيما كان الفرس ذلك اليوم يصلحون أمور الفيلة وصناديقها وأحزمتها هجم العرب بحيلة مبتكرة إذ وضعوا البراقع على وجوه الجمال وسيروها بركابها عشرة عشرة والفرسان تدفعها بجيادهم فبددت فرسان الفرس

وتركتها هائجة مائجة ولم يتوقف القتال حتى انتصف الليل الثاني . (وسمي هذا اليوم يوم أغواث)

في صباح اليوم الثالث يوم عماث عاد الفرس بأفيالهم يدفعونها على العرب فتدوس وتحطم وكان أشدها فيلان فأرسل سعد إلى القعقاع بن عمرو وعاصم بن عمرو أن يكفا الناس شرهما فترجلا ووضعا رمحيهما في يميني الفيلين وبادرا بالسيف بقطع خرطوم أحدهما فهرول هائجاً بين الصفوف الفارسية وألقى نفسه في نهير بجانب الميدان وتبعته بقية الفيلة تلقي ركبانها عن ظهورها وتتخطى الماء مدبرة عن ساحة المعركة ... على أن القتال ما انقطع واستمر إلى الليل وهي ليلة الهرير . فقد خشعت لهولها الأصوات ولم يكن يسمع فيها سوى صليل السيوف وهرير المقاتلة .

عند الصبح كانت آلاف الجثث معفرة بالتراب وسواقي الدماء متجمدة على الأرض وسار القعقاع بن عمرو في جماعة من جنده المختار يخترق صفوف الفرس إلى قائد المعركة رستم . وعند الظهر تراجعت ميمنة الفرس والميسرة مما فتح الطريق للقعقاع أن يصل إلى فسطاط رستم الذي حاول الهرب فعاجله بضربة سيف كانت القاضية وصاح : قتلت رستم ورب الكعبة !

وتجاوب الميدان كله بالصيحة ودبت الفوضى في صفوف الفرس وأخذوا في الهرب فبعضهم غرق في الماء وبعض من المكبلين بالسلاسل قتلوا في مواقعهم وبعض لجأ إلى بعض قرى السواد . أما الفرح الأعظم للعرب فكان حين حملوا راية الفرس المقدسة (درفش كابيان) إلى سعد رمزاً للنصر . وكبر سعد وكبر الناس ...

هل كان يعلم أن بهذه المعركة أنهى تاريخ الفرس والساسانيين إلى قرون طويلة ؟ .

معركة نهاوند

الزمان قبل ألف وأربعمائة سنة

والمكان تلك الشقة من الطريق الممتدة وسط العراق إلى عاصمة الأكاسرة : المدائن .

على هذا الطريق كان الجيش من مختلف القبائل العربية يسير ، ويثير معه عواصف من الغبار تلتمع خلالها البنود وتسمع خلالها قعقعة السنابك وصهيل الخيل ورغاء الإبل في موكب ضخم كأنه المهرجان . في مقدمة الجيش كان قائده سعد بن أبي وقاص يستهدي الأدلاء ويصدر التعليمات . أما حديث الجند فكان يتقلب بين الحكاية عن المعركة الضخمة التي سلفت ، معركة القادسية الكبرى وبين الحديث عما ينتظرهم في المدائن . كيف تكون ؟. معظمهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عنها .. إنها عاصمة الأكاسرة !!

وتراءت المدينة عن بعد . إنها مدائن سبع لا مدينة واحدة . وتوقفت الفرسان وتوقف الجند مبهورين ينظرون امتداد هذه المدائن على الضفة الشرقية لنهر دجلة . وانعكاساتها على صفحة الماء المتدفق : يزدجرد الثالث ، آخر الأكاسرة هرب إلى هذه المدينة بعد هزيمة جيشه الأعظم في القادسية . حتى هرب في الليل يتسلل إلى قلعة حلوان في الجبال . جبال زاغروس . الفاصلة بين العراق وإيران .

وتقدم الجيش الإسلامي . وكلما تقدم أسرع فرسانه والجند يتسابقون . فلما رأوا ، عبر الماء إيوان كسرى هتفوا وكبروا : هذا أبيض كسرى . هذا ما وعد الله ورسوله ! لكنهم توقفوا أمام الضفة الغربية لدجلة كيف يعبرون ؟ لم يكن

هناك جسر . وقد اختفت السفن على الشاطئ الذي توقفوا عنده .. لم يترددوا طويلاً . قذف الفرسان بخيلهم في الماء يخوضونه في أروع عملية عبور مائية عرفها العصر . وقطعه بعضهم سباحة !

وشهد سكان المدائن تدافع المغامرين في الماء فهرب الجند منها بجلودهم قبل السكان . ووصلت مع موج دجلة إلى الشاطئ الآخر طلائع المجاهدين فإذا المدينة مدينة أشباح . وإذا فقراؤها بدأوا ينهبون ما يصلون إليه من السلب . ثم نصب جسر من السفن عبر عليه باقي الجند والجيش !

ودخل سعد بن أبي وقاص قصر الأكاسرة وهو يكبر . ووقف في إيوانه الضخم السامق فأمر أن يتخذ مصلى للمسلمين . وأقبل عليه الجند المسلم بالغنائم أكداساً لم يشهد مثلها التاريخ قيمة ولا كمية . سيوف . مجوهرات . ثياب . دروع . ستائر . بسط . حرائر . آنية من الذهب والفضة . أحجار ثمينة مما ادخر الأكاسرة لأولادهم . تيجان محلاة . سرج مموهة بالجوهر ... وذهب كثير . وفرق سعد كل ذلك بعد أن أرسل بالخمس إلى الخليفة في المدينة . فبلغت حصة الفارس اثني عشر درهماً (أي ما يزيد على دينار) . ونظم سعد إدارة العراق ولحق ابنه عمرو بالموصل . فاتصل ببطريقها ، بطريق النصارى السريان وهم جل نصارى العراق يومئذ ، فطلب إليه ترجمة الإنجيل إلى العربية فترجمه له . ولم يطلب مثل ذلك من الفرس لأنهم زارادشتيون أو مانوية أو مزدكيون وليسوا بأهل كتاب ــ كان هذا موقفاً من أنبل المواقف في التاريخ الإسلامي : أن يأتي ابن القائد المسلم الفاتح إلى رأس الكنيسة المهزومة فيطلب ترجمة كتابها المقدس إلى العربية . وفي الوقت نفسه تدل هذه البادرة على أن اللغة العربية لم تكن مجهولة في العراق وأن فيه من كان يعرفها أحسن المعرفة ! إن هذا كان من جملة الأسباب التي جعلت العرب المسلمين لا يبدون غرباء عن أهل البلاد .

سنة ٢١ هـ . بعد احتلال المدائن بست سنوات استطاع يزدجرد ، آخر

الأكاسرة، أن يلم شعث جيشه وأن يجمع المتطوعين وفي عزمه تحرير ما اقتطع من بلاده في العراق .. جمع جيشاً كثيفاً يربو عدده في قول بعض المؤرخين، على مائة وخمسين ألف مقاتل. وقد تكون المبالغة لعبت دورها في تضخيم هذا الرقم كما لعبت بعدد الجيش الإسلامي فجعلته ثلاثين ألف مقاتل يقودهم النعمان بن مقرن مدداً لجيش ابن وقاص فأخذ سعد المبادرة وصعد دروب الجبال بجيشه ليلتقي بالجيش الفارسي عند مدينة نهاوند. ومدينة نهاوند كانت مدينة شديدة الحصانة عليها سور مستدير وتمتد على مختلف الآفاق منها سلاسل الغابات المنتثرة. فالميدان محفوف بالمخاطر.

وكانت المعركة شديدة الهول. ذكرت الطرفين بمعارك ليالي القادسية وهريرها الرهيب.. اندفع المسلمون يخرقون بالسيوف قلب الجيش الفارسي يشقونه شقاً. وتتهاوى على طرفيه أجساد الرماحة. في حين كان فريق يقابل استماتة الفرس في القتال باستماتة إسلامية أشد وأزكى حماسة. فالسيوف حتى آخر السواعد دماء وفريق آخر يدمر الجناح الأيسر ويتركه أكداساً من الجرحى والجثث. وشهد يزدجرد الذي كان يراقب المعركة في المؤخرة تمزق جيشه بين جريح وقتيل وفار هارب فحسب أنه يحارب جيشاً من الجن لا من البشر. وحين انحدرت المؤخرة وتدافع الجند على مضربه أخذ أول حصان أمامه وفر هارباً... الهول الذي شهده جعله مع الذين أحاطوا به وفروا معه لا يقفون إلا في أقصى شرق البلاد على حدود خراسان. أما نهاوند فقد فتحت أبوابها للفاتحين.

معركة نهاوند هذه عرفت بفتح الفتوح لأنه لم تقم للدولة الفارسية ولا للأكاسرة بعدها قائمة: كانت الفتوح لبلدان إيران بعدها مجرد معارك محدودة وحصارات تنتهي بمعاهدات استسلام. ويبدو أن المسلمين الفاتحين أمنوا البلاد فقد عقدوا الاتفاقات السلمية مع المرابذة والموابذة، رجال الإقطاع ورجال الدين. وتركوا لهم أمر بلادهم مقابل دفع الخراج. بل اعتبروهم أهل

كتاب فلم يفرضوا عليهم الجزية . ولذلك لم يهتم العرب كثيراً لمصير يزدجرد الملك ولا للمكان الذي لجأ إليه ..

بعد عشر سنوات من ذلك أي سنة ٣١ عرفوا بالمصير البائس لآخر الأكاسرة . يزدجرد الثالث الذي صارت بناته سبايا للمسلمين . لقد كان لاجئاً لدى بعض الطحانين في أقصى خراسان . فقتله الطحان ! هل مرت بخاطر يزدجرد أثناء هربه الطويل الذي امتد ١٦ سنة ذكرى أول الهزائم التي هُزِمها الفرس أمام العرب ؟ من المؤكد أنه تذكر أكثر من مرة تلك الهزيمة . كانت في ذي قار .

يومها بلغ جبروت الفرس أوجه . وكان الفرس يصطنعون الأسرة اللخمية العربية لتحمي الحدود مع العرب . وغضب كسرى أبرويز على آخر الملوك اللخميين النعمان الثالث أبي قابوس فاستدعاه إليه وقتله شر قتلة ! وأقام على مملكة الحيرة بعد ذلك رجلاً من بني طي هو إياس بن قبيصة وعين معه مقيماً فارسياً يشرف على الحكومة ! ثم بدا له فألغى الإمارة العربية كلها احتقاراً لها وولى من قبله حكاماً من الفرس يخضع لهم زعماء العرب ... وانهارت الإدارة الحكومية وازداد ظلم الفرس وركبتهم العنجهية ...

فثار العرب وقامت الحرب بين ابن قبيصة وجيش الفرس وبين العرب من بني بكر بن وائل . فكان النصر حليف العرب واندحر أمير الحيرة والفرس معه .

وحين بلغ الخبر الرسول الأعظم قال : هذا يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نصروا ... ومنذ تلك اللحظة بدأت الانتصارات التي انتهت بزوال دولة آل ساسان إلى الأبد !

معارك الشام الأولى

دروب جبال السراة الطولانية الممتدة بين الحجاز وجنوب الشام، حفيت عليها أقدام القرشيين وهم يذرعونها جيئة وذهاباً قبل الإسلام بزمن طويل. كان سواد القوافل لا يكاد ينقطع على تلك الدروب من واحة إلى أخرى جنوباً إلى اليمن وشمالاً من مكة والطائف إلى بدر إلى المدينة ثم إلى خيبر ثم إلى مدين فتبوك فالبلقاء ومؤتة ثم إلى غزة أو إلى بصرى. سلسلة من الواحات كانت للظل والماء على الطريق التجاري الذي يصل مكة بالشام. وكم سلكه القرشيون. وكم أفنوا عليه السنين والأعمار. كان جنوب الشام لهم مرتعاً وبلاد تجارة وربح. وفي غزة توفي هاشم جد الرسول الأعظم... وفيها كان عمر بن الخطاب مرطساً (أي وسيط تجارة)، وبين فلسطين ومصر كانت تجارة عمرو ابن العاص وإلى بصرى كانت قافلة قريش تنتهي بأحمالها... ولهذا كانت عواطف قريش مع الروم في حربهم قبل الإسلام مع الفرس... ولهذا أيضاً كانت أولى البعوث التي أرسلها الرسول الأعظم تتجه إلى الشام. حتى يوم وفاته كان بعثه الأخير يستعد لتأمين الحدود مع الشام. فلما تولى الأمر أبو بكر لم يشأ أن ينقض عملاً أعده الرسول فأرسل البعث بقيادة أسامة بن زيد فوصل البلقاء وأغار على واحة آبل وعاد مظفراً رغم انشغال الخلافة والناس بحروب الردة.

حين انتهت هذه الحروب وفكر أبو بكر في نشر الدين كانت الشام أولى الجبهات التي تعلقت بها آماله في الجهاد. كانت الحملة الأولى التي أرسلها حملة استطلاع. قادها خالد بن سعيد بن العاص. أوصاه بتجنب

الاشتباك مع الروم والاكتفاء بالدعوة للدين الحنيف . وضرب خالد معسكره في تيماء . وكثر جمعه فيها بمن كانوا يؤمنون من القبائل حولها . وبلغ الروم ذلك . وخشي قائد الحدود البطريق باهان مغبة هذا التجمع . وقد كان الروم قد اعتادوا أن يهاجمهم أمثاله فأخذ الأهبة لمداهمتهم .. وبعث خالد بن سعيد للخليفة بالخبر فأجابه : أقدم ولا تحجم واستنصر الله . وأقدم خالد ففرت قوة الروم أمامه حتى بلغ وادي عربة وهزم الحامية هناك . واندفع إلى الشمال حتى مرج الصفر قرب حوران .

ويبدو أنها كانت خدعة من باهان فقد قطع الطريق على ابن سعيد وأنزل به هزيمة مرة فر منها بنفسه إلى المدينة وأنقذ بقية الحملة عكرمة بن أبي جهل ولكن بعد أن تركت على الثرى أعداداً كبيرة من القتلى وعادت مثخنة بالجراح . كان ذلك سنة ١٢ للهجرة .

في السنة التالية كان جيش إسلامي آخر يجتاز الحدود الشامية .. وعلى رأسه يزيد بن أبي سفيان : هل كان للثأر ؟ والتقى عند أجنادين (وكانت بلدة قرب الخليل) بجيش الروم الذي أسرع به قائد المنطقة أريتيون . (ويدعوه العرب الأرطبون) لدفع الهجمة العربية . كان يظنها كالغزوات الأخرى غزوة نهب وسلب ولم يقم وزناً لما تعمر به قلوبها من الإيمان الجديد ومن حب الموت في سبيل الله . على أنه كان داهية حرب ورجل قتال عنيد . ولم يغن عن أريتيون دهاؤه ولا شدة مراسه الحربي . فقد شهد من المقاتلة المسلمين ما لم يشهد . مقدمته من المشاة لم تلبث ساعة أو بعضها وتمزقت أشلاء وجثثاً . وجماعته من الفرسان فاجأها الهول من السيوف والدماء والتكبير لله وتصادم الدروع وخفق القنا . وانهزم أريتيون منسحباً إلى القدس . ودخل عمرو بن العاص أجنادين . ثم انصرف منها إلى حاميات غزة وعسقلان ونابلس فلم يجد فيها سيفاً يرتفع . استسلمت له . حين علم الخليفة عمر بن الخطاب بالفتح قال : رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ! وهبط عمرو بن العاص بجيشه وادي الأردن تاركاً القدس

للأرطبون . فلها أسوار جديدة منيعة لا يملك عمرو أدوات الحصار اللازمة لها . ولها قدسية لدى الروم كبيرة وفيها كنائس ضخمة وليس من السهل على الروم التسليم بها وإن كانت مباركة مقدسة بدورها لدى المسلمين .

في وادي الأردن ، كان جيش من الروم ضخم (يقولون للمبالغة إنه كان ثمانين ألفاً) يتحرك نحو الجيش المسلم . كان الروم يرجون مرة أخرى مفاجأته بقطع الطريق عليه شمال البحر الميت . وعرف المسلمون ذلك . كانوا من الحذر بحيث لا يمكن أن يخدعوا مرتين .. وفيهم بجانب عمرو بن العاص أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وضرار بن الأزور . وجمع من الصحابة الذين باعوا أنفسهم لله . ونشبت المعركة منذ لحظاتها الأولى حامية مريرة ، صحيح أن جيش الروم مدرب على القتال . منظم . ذو سمعة حربية لها أصداء وأخبار ولكن من ذا يقف لجيش بايع الله على الموت ؟ لا الدروع أفادت ولا البنود والخيول المطهمة المدرعة وقفت ولا طبول الحرب كان لها أثر . السيوف المسلمة وحدها كانت سيدة الميدان . وتقهقر الروم وركنوا إلى الفرار لكنهم تورطوا خلال الانسحاب بأوحال النهر فأدركهم المسلمون مع الموت في الأوحال ! ... وسقطت بعد ذلك بيسان بيد المسلمين ثم طبرية كبرى المدن العشرة في المنطقة !

بعد ذلك كانت معركة اليرموك الكبرى ثم فتح دمشق ثم فتح حمص وشمالي الشام والجزيرة في معارك بعد معارك أفنت الكثير من جهود المقاتلة الروم والغزاة المسلمين . أما القدس فصمدت للمقاومة وأتى الشتاء على المسلمين وهم يحاصرونها فقاسوا منه أكثر مما قاسوا من منجنيقات الروم وحجارتها تهوي عليهم من أعالي الأسوار . استمر الحصار أكثر من سنة وبعض السنة حتى خشي الأرطبون فيها نفاذ المؤن وألا يصالحه المسلمون الصلح الذي ارتضوه في المدن الأخرى . بعد أن صارت القدس جزيرة رومية في بحر من الحكم العربي

المسلم. وخرج البطريق صفرينوس على الأسوار يعلن للمسلمين أن المدينة لا تسلم إلا إلى عمر بن الخطاب نفسه...

وكتب المسلمون بذلك إلى الخليفة فقبل. رغم أن الطاعون طاعون عمواس كان قد عصف بالآلاف من الجيش المسلم ولكن عمر سار إلى الشام ونزل بالجابية من أرض الجولان واطلع على حالة الجيش ونظمه مع القادة ثم انصرف إلى القدس. ويقال إنهم تلقوه فيها بالترحاب بعد أن كتب لهم وهو في الجابية عهداً بالأمان وبألا يمسهم أذى في أنفسهم ولا أموالهم ولا كنائسهم وصلبانهم. ودخل عمر المدينة وأدركته الصلاة وهو في الكنيسة العظمى فرفض أن يصلي قائلاً: أخشى أن يسلبكم المسلمون المكان ويقولوا هنا صلى عمر. وخرج فصلى في ربوة قريبة بني عليها فيما بعد مسجد عرف بمسجد عمر!

منذ ذلك الوقت أواخر سنة ١٥هـ. صارت القدس عربية مسلمة إلى يوم الناس هذا ١٤٠٠ سنة من الإسلام لله الواحد فكيف تتهود؟

معركة اليرموك

لبعض الأرضين ، كما لبعض بني البشر ، حظوظ تمر عليها في فترة من الزمن فإذا باسمها علم على حدث ضخم في التاريخ ثم تعود كما كانت مرتعاً للحراثين أو بستاناً أو بادية كأن لم تكن شيئاً في عمر الزمن. من هذه الأرضين اليرموك . إنها في التاريخ الإسلامي علامة كبرى ومهرجان مجد يتغنى به العرب المسلمون منذ ألف وأربعمائة سنة . لكنها قبل ذلك وبعد ذلك سهل بلقع عند نهير صغير سيلي في الطرف الشرقي للجولان . المحاريث بسككها ونعال الدواب والفلاحين هم زوارها الوحيدون !

كان العرب من قريش والحجاز يعرفون هذه الأرض جيداً فقد كانت قوافلهم تنزل في بصرى الشام إلى الشرق منها ولهم فيها ذكريات لهو وعلاقات تدين وتجارة وفيها رأى بحيرا الراهب الرسول الأعظم وهو بعد فتى صغير فتنبأ له بأمر عظيم . وإلى هذه المرابع هفت نفس الرسول في التحركات الأولى الخارجية حتى التحق بالرفيق الأعلى . وعلى السنة نفسها كان أبو بكر ، فما إن أخمد حروب الردة وصارت الجزيرة العربية في سلطانه حتى بعث البعوث إلى الشام .

أول البعوث .

بعث يزيد بن أبي سفيان إلى تبوك فالبلقاء وولى شرحبيل بن حسنة على بعث ثان يصل بصرى وعهد بجيش ثالث إلى أبي عبيدة بن الجراح يهاجم الروم في البادية شرقي دمشق وجعل على حملة رابعة عمرو بن العاص يناوشهم في جنوب فلسطين . وكان أبو بكر يودع كل جيش بنفسه ويوصيهم خيراً بالجند وبرسل العدو وبرهبان الأديرة وبالحرص في الحراسة والصدق في اللقاء. هل

كان أبو بكر يصطنع استراتيجية المروحة في مشاغلة العدو في أماكن متفرقة؟ أغلب الظن أنه أراد معرفة أماكن الضعف في حاميات الروم ما بين جنوب الشام وأوسطه. لعله يخترقها بأحد هذه الجيوش لا سيما وأنها لم تكن جيوشاً كثيفة ولا يزيد واحدها على سبعة آلاف.

وقد تنبهت حاميات الروم في المنطقة الشامية لهذه التحركات وأخذت أهبتها لصدها وكان لدى قواد الجنوب الشامي ما يعادل أضعاف الجيوش الإسلامية في العدد والعُدد لذلك طال أمر المناوشات ولعل تعاون عمرو بن العاص مع شرحبيل بن حسنة هو الذي فتح عليهما النصر في معركة أجنادين ثم في معركة فحل! وقلق الخليفة أبو بكر لجنده وتوقفهم فرأى أن يرفدهم سريعاً برفد. وكان اسم خالد بن الوليد قد لمع منذ أسلم وصار يلقب «سيف الله» ثم اشتهر في حروب الردة وفي المعارك الأولى على الجبهة الفارسية فكتب إليه أن يتسلم أمر جيوش الشام.

وبين جنوب الشام وجنوب العراق بادية شاسعة ولكن خالد بن الوليد حقق في اجتيازها معجزة حربية إذ قطعها مع نصف جنوده في العراق بثمانية عشر يوماً. عبر إلى دومة الجندل ثم وادي السرحان واجتاز خمسة أيام في مفازة لا ماء فيها مكتفياً بما وجد في بطون بعض الإبل التي أعطشها ثم رواها. ولما وصل الشام كانت جيوش المسلمين قد قررت أن تجتمع معاً في السهل على ضفاف نهر اليرموك. وعرف هرقل بمنزلهم هناك فأمر جيوشه بالوقوف لهم دون هذا السهل لتقطع عليهم الطريق إلى الجنوب. وهكذا تبعاً لتعليمات الإمبراطور الرومي نزلوا في مكان «متسع المواجهة ضيق المخرج» لا يسمح بالانسحاب عند بلدة الواقوصة على ضفة اليرموك نفسه. وجعلوا أمامهم خندقاً عميق الغور ليأمنوا شر التسلل الإسلامي إليهم فيما كان الممر وراءهم بين الواقوصة والنهر ضيقاً لا يصلح للهرب أو الانسحاب. كانت استراتيجية هرقل أن يؤمن لجيشه الكثيف الموقع الآمن وأن يشد عزائمه بسد باب الهرب

وراءه. ولما سمع بذلك العرب المسلمون قال عمرو بن العاص لأصحابه «أبشروا أيها الناس. حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير»!! ووقف الجيشان أحدهما تجاه الآخر ثلاثة أشهر... فلا حراك.

وصل خالد بن الوليد بجيشه إلى أطراف بصرى وكانت من مدن الشام التجارية الهامة وفيها مسرح حجري ضخم وأبنية ومعابد وأسوار ولكنها لم تكن ذات حامية قوية فاقتحمها خالد بن الوليد ليؤمن مؤخرة جيش اليرموك من الشرق ثم انصرف إلى إخوانه النازلين على اليرموك واتفق مع وصول خالد وصول مدد للروم أرسله الإمبراطور هرقل عليه قائده باهان. وقد قدم ومعه الشمامسة والرهبان والقساوسة لتحريض الناس على القتال. وقد بلغت قوة المسلمين حوالي أربعين ألفاً فيما كانت قوى الروم ضعف هذا العدد وقد يبالغ المؤرخون فيجعلونها مائتين وأربعين ألفاً. ولا يتسع السهل هناك لنصف هذا العدد فكيف يتسع للكر والفر والقتال لمثلهم. وكان من عادة العرب أن يرافق الجيش كرام العقائل فكان معهم في اليرموك بنت أبي بكر، وأم معاوية، وزوج عكرمة بن أبي جهل وغيرهن وقد أمرهن أبو عبيدة إن رأين أحداً من المسلمين منهزماً ضربن وجهه بحجارتهن ورفعن إليه أولادهن وقلن له: قاتل عن أهلك وعن الإسلام! ولكن تعليمات خالد لهن كانت أشد قال: أيما رجل أقبل عليكن منهزماً فاقتلنه!

بقي خالد شهراً يدرس الموقف وظل المسلمون معه يتلقون تحرشات الروم العنيفة دون رد جدي لأن قوتهم أقل في العدد والعُدد. ولاحظ المسلمون بعد ذلك حركة غير عادية في صفوف الروم وتأهباً للخروج من الخندق وطاف القسيسون بالجند يلهبون حماستهم فعرف خالد أن المعركة وشيكة. فخطب في جنده يوصيهم ألا يقاتلوا على نظام وتعبئة ولكن بالشكل الذي يرون أنه الرأي. أي بالتلاحم. إن هذا يوم له ما بعده! إن رددناهم إلى خندقهم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها. وعبأ خالد جيشه كراديس أي كتائب

متساوية في القوة وعهد إلى أبي سفيان بمهمة القصص أي الوعظ قبل الحرب . وأوصى عمرو بن العاص جنده الرماحة بأن يجثوا على الركب ويشرعوا الرماح فإذا حمل الروم عليهم أمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة وثبوا في وجوههم وثبة الأسد. وأمر خالد بالزحف العام فارتطمت الصفوف بعضها ببعض أعنف الارتطام والتحم المشاة وتطاردت الفرسان تضرب بالسيوف ذات اليمين وذات الشمال وبدأت الدماء تجري فـي سواق إلى نهير اليرموك فتبدل بمائه الدماء. وحمل الفرسان الروم حملة واحدة زحزحت المسلمين حتى وصلوا فسطاط خالد وتحرج الموقف فهو في كف القدر. وهم بعضهم بالهرب لكن النساء رددنه. وصاح عكرمة بن أبي جهل: قاتلت رسول الله في كل موطن وأفر اليوم. لا والله! ثم نادى من يبايع على الموت فبايعه المئات في صف متراص كرَّ به على الروم الذين ابتعد فرسانهم عن المشاة في ثغرة اندفع فيها خالد بن الوليد قبله فسادت الفوضى والارتباك صفوف الروم. وسد عكرمة عليهم الطريق وهطلت عليهم النبال وابلاً من الموت فنفروا في الميدان في كل اتجاه. وبقي المشاة وحدهم في الساحة وكان قسم منهم مقيداً بالسلاسل خوف الهرب فكانوا طعمة سائغة للسيوف الإسلامية ولما هرب أقوام منهم يرجون الممر الضيق طاردهم المسلمون حتى الواقوصة فهوى أغلبهم في الهاوية وفي النهر!.. وكانت هذه هي المعركة الحاسمة والأخيرة في الشام...

ما أتى الليل إلا وكان خالد بن الوليد في فسطاط قائد الروم! وكان جيش الروم قد أضحى أكواماً من القتلى والجرحى. والممزقين. وبلغ هرقل الخبر وهو في حمص وعرف أنه فقد جيشه كله في اليرموك فانصرف إلى الشمال وعلى مشارف طوروس قال: سلام عليك يا سورية سلاماً لا لقاء بعده!

أو هكذا يقولون!

معركة حصن بابليون

في أواسط ذي الحجة، بعد عيد النحر سنة ١٨هـ فوجئ أهل الفرما المدينة ذات الحصون القوية والكنائس والأديرة على مدخل أراضي مصر الشرقية، بعدة آلاف من البداة يطوقون المدينة. لم يكونوا جنداً ولكن السيوف والرماح والنبال التي يحملونها كانت توحي بأنهم جمع محارب. لم يكن في الفرما إلا حامية قليلة، وكانت أسوارها التي دكها الفرس حين احتلوا منذ فترة قليلة على حالها من التهدم. وفرع النيل الذي يصل إليها كان يسيل وانياً هادئاً عكراً. ما قدر أحد أن هذه الآلاف من الرجال، والتي لا تزيد على أربعة سوف تكون مطلع تاريخ جديد لمصر يمتد إلى ما شاء الله. ولا أنه الإسلام والعروبة يدخلان مصر مع هذه الجماعة المحدودة.

زعيم القوم كان عمرو بن العاص. وكان يعرف مصر ويقصدها للتجارة ولكنه قادم الآن في مغامرة لا يعرف إلا الله مداها. قادم يريد أن يفتح مصر ولم يكن للعرب خبرة واسعة بضرورة القواعد الخلفية وحفظ خطوط الاتصال فما انتهى عمرو من احتلال الفرما بعد شهرين من الحصار حتى أمر بدك أسوارها وتجريدها من وسائل الدفاع مقدراً أنه لا يستطيع مع جيشه الصغير أن يترك بها حامية تحميها!.. هل كان عمرو على علم بأن أهل مصر كانوا امتلأوا حقداً ضد الروم بسبب المذهب الديني الجديد، مذهب الإرادة الواحدة، الذي قرر الإمبراطور هرقل فرضه على جميع البيزنطيين، ومصر البيزنطية تعتنق منذ قرون المذهب اليعقوبي المغاير؟ لا شك أنه كان يعلم بهذه الهوة بين الشعب المصري والحكام الروم ويقدر أنه يكفيه هزيمة الروم ليملك البلاد لا سيما وأن البطريرك

الذي أرسله هرقل لفرض هذا المذهب: قيروس (ويعرفه العرب باسم المقوقس) قد استخدم كل أساليب البطش والتعذيب والتنكيل لنشر مذهبه عشرة أعوام عرفت بعهد الاضطهاد الأعظم وفر منها بطريق الإسكندرية اليعقوبي إلى الصحراء.

كان الخليفة عمر بن الخطاب يعرف من جرأة عمرو بن العاص وطموحه الكثير فأذن له في تردد أن يدخل مصر فاتحاً ثم ألحق به كتاباً من المدينة ألا يفعل إن كان لم يبدأ. وأدركه الكتاب وهو بين رفح والعريش يأمره بالعودة ولكنه أخر قراءة الكتاب حتى وصل الفرما ليضع الخلافة أمام الأمر الواقع. واختار بعد فتح الفرما الطريق الصحراوي الموازي لدلتا النيل. حتى إذا وصل بلبيس وجد فيها قائد الروم المعروف بالأرطبون وكان من قبل في بيت المقدس. فتطاول القائدان شهراً في معارك لم ينقطع فيها القتال والتكبير حتى احتلها العرب المسلمون. وتقدم عمرو حتى وصل ساحل النيل وقرية أم دنين (وهي اليوم حديقة الأزبكية في القاهرة) ولم يكن بها حامية كبيرة لأن القوى الرومانية كانت قد اعتصمت بحصن بابليون. على الضفة الشرقية للنيل.

كان الحصن منيعاً بأسوار شاهقة (ويسميه العرب قصر الشمع) قرب الكنيسة المعلقة في مصر القديمة وكانت حامية الحصن تنزل بين فترة وأخرى فتحارب هؤلاء الوافدين العرب ثم تعود لحصنها وليس لدى عمرو بن العاص من وسائل الحصار سوى مجانيق عتيقة وسلالم مستعملة. وطال الأمر في القتال أسابيع دون طائل. كتب خلالها عمرو إلى الخليفة يطلب النجدات فلم يصله شيء. وخاف عمرو إن هو تراجع أن تكون الهزيمة عليه وإن هو أقدم أن يذوب جيشه قتلاً وجرحاً. فرأى خلافاً لمسلمات الحروب ولقواعدها أن يوغل حتى واحة الفيوم !! وفعل! كانت مجازفة غير مأمونة منه وعبر النيل إليها فدمر وغنم بضعة أسابيع وعاد بأوفى السلب. في الوقت الذي ورده فيه

الخبر بوصول الأمداد ... ويروون أن عمرو بن العاص كان يطارد أسطورة في خياله فقد كان في مصر قبل الإسلام وتوفي ملكها واختلفوا في من يعقبه واتفقوا على إطلاق طائر فمن وقع الطائر في كمه ملك البلد ويقولون إن الطّائر حط ثلاث مرات على البدوي الغريب فقال : لا جرم لأملكنها . إنها أسطورة . ولكنها إنما وضعت صدى لرغبة عمرو بن العاص الملحة في فتح مصر وفي حكمها وفي التشبث بها .

ونزل ابن العاص في منطقة عين شمس (شمالي شرق القاهرة) والغريب أن الروم تركوا لهذا الجيش العربي أن يتنقل في البلاد هذا التنقل دون أن يعرضوا له . قبعوا يراقبون داخل الحصون . وجاءه في عين شمس المدد وهو نحو ثمانية آلاف محارب بقيادة الزبير بن العوام . وهناك نظم جيشه للمعركة . فالمنطقة مرتفعة وفي آبارها ماء وفير ومن حولها كثير من مصادر التموين .

ولكن جيش الروم الرئيسي كان في حصن بابليون يراقب فكيف يخرجه من الحصن إلى ساحة القتال ؟ قائده تيودور مطمئن إلى تفوقه العددي فلا بد من إطماعه . وأبعد عمرو أقساماً من الجيش جعلها كائن وأقبل يناجز حامية الحصن بأعداد قليلة حسبها تيودور مجموعة من النهابين فأزمع الخروج . وخرج في عشرين ألفاً . وشهدت الرمال الصحراوية هناك في الليل كراً وفراً غريبين تحت ستار الليل فما أصبح الصبح حتى كان جيش الروم يحارب كتلة الجيش الإسلامي وهو مطوق بالكمائن التي خرجت عليه من ناحية تسمى الأزبكية بعد ذلك ومن ناحية العباسية . وفي البساتين والأديرة حولهما . وتنقض على مؤخرته وأجنحته . ووقع الروم بين ثلاث جبهات . وكانت عددهم العسكرية من دورع وسيوف وجعب للنبال وغطاء للخيل لا تسمح لهم بالحركة النشيطة التي يتحرك بها محاربو العرب كالدوامات الخفيفة فانهزموا والسيوف تأخذهم من كل جانب والخيل تهوي بهم ولا تدري أين تتجه ... وتساقطوا في كارثة

ماحقة لم تبق منهم إلا على عدد قليل فر عائداً إلى حصن بابليون. تاركين القائد تيودور بين القتلى.

كان الحصن منيعاً وأبراجه الشاهقة ترتفع نحو عشرين متراً وسمك جدرانه حوالي ستة أمتار وفيه أبراج في الجنوب والشرق وهو محمي من الغرب بنهر النيل. وله باب حديدي ترسو عنده سفن الروم. وفي غربه حصون الروضة وبينه وبينها جسر من السفن. ويحيط به خندق عليه قنطرة متحركة لا تتحرك إلا من داخله وكان الوقت صيفاً زمن الفيضان النيلي فكان الخندق ممتلئاً بالماء فهو كالجزيرة الحصينة ولكن ابن العاص حاصره ونصب عليه المجانيق ـــ وكانت أعظم آلات الحصار يومذاك ـــ تمطره بالحجارة لكن مناعة الحصن حمته طويلاً من السقوط.

كان المقوقس في داخل الحصن عند الحصار فهرب منه إلى جزيرة الروضة تحت جنح الظلام وبعث يفاوض عمرو بن العاص بوفد يتعرف أحوال المهاجمين العرب فعاد الوفد يقول: رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم. فأيقن المقوقس بضرورة التسليم وجاءه وفد برئاسة عبادة ابن الصامت يعرض عليه الإسلام أو الجزية أو الحرب فرفض. وعادت حامية الحصن تحاول الخروج فلقيت الهزيمة مرة أخرى واقترب عمرو بن العاص فنقل قيادته إلى بقعة تجاور الحصن هي التي عرفت بالفسطاط حيث بنيت مصر القديمة.

ونجم عن المفاوضة مع المقوقس أن رضي عمرو بن العاص بالصلح على أن يدفع عن كل رأس ديناران ويترك لهم أرضهم وكنائسهم وأموالهم ولا يغزون أو يمنعون من تجارة. ولكن هرقل رفض هذا الاتفاق. وطال الحصار وطال سبعة أشهر وذات يوم سمع المحاصرون تكبيراً عظيماً. لقد توفي هرقل! فاشتدت

بذلك عزيمة المسلمين وقام الزبير بن العوام فوضع سلماً على سور الحصن في الليل وصعد وتبعه الناس ولم يعد السلم يحتمل المزيد ودافع الحامية على الأسوار ثم فتح أبواب الحصن ... كان ذلك إيذاناً بنهاية حكم الروم في مصر .

وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله !

فتح الاسكندرية

دخل العرب الفاتحون مصر من أواسطها فعن شمالهم كانت أرض الدلتا النيلية العظيمة وإلى الجنوب كان يمتد الصعيد... أما النيل فكان يفتنهم بسحره ويهولهم باجتيازه. حصن بابليون الذي كان أول ما احتلوا منها كان على هذا النهر المتدفق كالبحر. أما كان قائدهم عمرو بن العاص يخشى التطويق ومن حوله حاميات تعاديه. يبدو أنه كان لا يخشى أن يأتيه خطر من الجنوب ولكنه كان يخشى الشمال المفتوح على بحر الروم ويخشى بالذات أن يستخدم الروم ثغر الاسكندرية وحامياتها وأمدادها ولذلك أخذ يفكر في ضمان جبهتها ــ بقي سنة ونصف السنة يتردد ثم عزم وتوكل على الله.

على جسر من السفن المتراقصة فوق مياه النيل. بين جزيرة الروضة والجيزة حمل جيشه تاركاً حامية محدودة العدة في حصن بابليون يقودها خارجة بن حذافة السهمي. وسار بالجيش في الطريق الصحراوي غرب الدلتا إلى الاسكندرية. عدد من الأدلاء الأقباط تطوعوا يدلونه على الطريق بدا لهم كالمنقذ من حكم المقوقس البغيض. ساعدوه أيضاً في إصلاح الطريق وفي إقامة الجسور على الترع وفي سرعة الوصول...

على الطريق تمكن من طرد حامية ديروط ولكنه لم يستطع أن يتجاهل مدينة نقيوس وحاميتها ولا حصنها القوي فقد تقطع عليه طريق العودة. كانت تقوم على الشاطئ الشرقي لفرع رشيد النيلي. فلا بد من عبور النهر إليها... وبدأ العبور وما كاد قائد الحصن يعلم به حتى استقل بعض السفن هارباً إلى الاسكندرية. وارتاعت صدور الحامية. لم يكن الغزاة المسلمون فريقاً من الجن

ولكن كانوا شعلاً من الإيمان ودب الذعر منهم في الحامية وأسرعوا يخوضون الماء ليدركوا السفن حول الحصن. لكن عدوى الخوف أصابت الملاحين فيها فتركوا الجند في الماء وأقلعوا بالأشرعة نحو الشمال لا يلوون على شيء. وحين عبر العرب أحدقوا بجنود الروم في الماء يتخبطون بغير سلاح فتصيدوهم عن آخرهم واحتلوا حصن نقيوس!

وسارت طليعة الجيش الإسلامي يقودها شريك بن سمي، تطارد الفلول فإذا بها تصطدم بتجمع للروم كبير يقطع الطريق ويحاصرهم. وانفلت فارس نجد من الفرسان فخرق صفوف الروم وأبلغ عمرو بن العاص. فأرسل قسماً من جيشه كانت كافية لكي تركن جموع الروم إلى الفرار!.

حصن سلطيس الذي فتحه عمرو بن العاص بعد ذلك في معركة محدودة لم يكن كالحصن الأخير قبل وصول الاسكندرية: حصن كريون. كان قائده تيودور يقود حامية ضخمة فيه وقد صمم على إيقاف الزحف العربي. ولنقل إنه كان يحتقره. ولذلك استدعى إليه النجدات من المدن الأخرى ليقضي على الجماعة العربية الفاتحة مرة واحدة. ورأى تيودور أن يقبع في حصنه ويترك للعرب الموت على الأسوار خارجه.

امتدت المعركة بضعة عشر يوماً. وارتطمت هجمات الفاتحين المتوالية بأسوار الحصن وبمقاومة صلبة قوامها مطر النبال وحجارة المجانيق. فلما لم يمنع ذلك من اشتداد الهجمات وتصميم الفاتحين دب الوهن في صفوف الحامية. فلما قام المسلمون بهجمة فتحت ثغرة في الأسوار هرب الروم مسرعين يطلبون الاسكندرية، خلال المزارع والأشجار وعبر الترع وبيوت الفلاحين.

بعد سنة وثمانية أشهر كان جيش الفتح يشرف على الاسكندرية. ووقفت الحملة مبهورة أمام أسوارها السامقة ومنظر أبنيتها الرائع وراء الأسوار وخلفها آفاق البحر ممدودة إلى ما لا نهاية له. كانت الاسكندرية ثانية عواصم الدنيا يومذاك بعد القسطنطينية وفي مينائها التجاري تتزاحم السفن بالأشرعة

السامقة غابة من الأعلام والأعواد ... ولكن انبهار الفاتحين بها لم يمنعهم من أن يتساءلوا: كيف يفتحونها؟ البحر في الشمال يحميها وبحيرة مريوط تقوم دونها من الجنوب وفي ترعة الثعبان. والحصون الشامخة والأبراج تطيف بها من كل جانب؟ وخاف عمرو بن العاص أن يدخل الروع على جنده من قوة المدينة الدفاعية فأمر بالهجوم. لكن مجانيق الروم صبت على المهاجمين سيولاً من الحجارة وانهمرت عليهم النبال كمطر الموت فتراجعوا مذعورين مبتعدين وقد تركوا مئات الجثث على أطراف الأسوار عدا الجرحى والعدد.

وقلق عمرو بن العاص لهذه الهزيمة. كان يعلم أن حامية المدينة تزيد على خمسين ألف جندي وأنها مفتوحة على البحر تأتيها منه الأمداد وأنها ثغر عالمي لا يفرط به الروم بسهولة ويعلم ما فيها من مفاخر الروم من منارة الاسكندرية العظمى إلى معبد السرابيوم وعمود ديوقليسيان وعشرات الكنائس والمعابد الرائعة ويعلم إلى هذا أن ليس لديه سوى اثني عشر ألف محارب. وهم لا يلمون تماماً بفنون الحصار الحربي. وليس لديهم من أدوات الحصار إلا القليل الذي لا يقوم لهذه الأسوار الرواسي. والبقاء دون حركة مع الجيش يذيب قواه ويدمر الروح المعنوية فيه. فصرف هم كتائبه إلى مدن الدلتا يفتحها ويغنم منها. في انتظار الفرج. وجاء الفرج من داخل المدينة!

اتفق أن حدثت في الاسكندرية فتنة أخمدها القائد العسكري بقسوة بالغة أعقبها عودة المقوقس إلى المدينة وهو صاحب السيرة الطويلة في الاضطهاد للقبط إذن فالناس في المدينة في جانب والروم في جانب ... ولكن كيف يجتاز الحاجز النفسي عند الجنود وقد مضى على الحصار أربعة أشهر دون نتيجة؟ وجاءه كتاب من الخليفة عمر يبدي فيه قلقه للإبطاء. ووجه مع الكتاب أربعة من أبطال الجهاد يساعدون ابن العاص. وقرأ عمرو كتاب الخليفة على الجند فالتهبت حماستهم وشعروا بالخزي إن لم ينتصروا بسرعة.

وفي مطلع سنة ٢١هـ . عرفت أسوار الاسكندرية هجمة ما عرفتها من قبل ونصب الجيش المسلم السلالم عليها تحت مطرٍ من النبال والحجارة وفتحت ثغرة ثم أخرى ثم ثالثة . وكان العرب ينفذون منها بالخيول المجنونة إلى شوارع المدينة التي تراكض فيها الروم يلتمسون النجاة وأطل القبط من الأبواب والنوافذ يشهدون هزيمة الجماعات التي كانت تحكمهم . وما أسرع ما كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة : لقد فتح الله علينا مدينة من صفاتها أن بها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام وأربعمائة ملهى واثني عشر ألف بائع للخضر وأربعين ألفاً من اليهود الذميين ...

في المفاوضات التي تلت ذلك . تعهد المقوقس بتنظيم جلاء الروم عن المدينة وعن مدن مصر . وازدحم الميناء بالسفن التي قدمت تنقلهم ... هل يئس الروم؟ لقد عادوا إلى الاسكندرية بجيش كبير يقوده قائدهم مانويل . فقضى على الحامية العربية وزحف حتى حصن نقيوس . لولا أن ابن العاص لقيه واشتبك معه في قتال مرير تطايرت فيه الهام تطاير الطير وجندل فيه مانويل نفسه . وعاد الجيش الإسلامي على الجثث فاسترد الاسكندرية وأمر عمرو بن العاص بهدم سورها لئلا يعود الروم إليها . وليقض الله أمراً كان مفعولاً !

معركة سبيطلة

قبل الاطلاع على فتوح المغرب . قد يظن القارئ لقصص الفتوح الأولى أن أمر المغرب كان كأمر الروم في الشام والفرس في العراق . كانت معركة اليرموك الكبرى كافية لإنهاء الوجود الرومي في الشام وإدخال دين الله الإسلام إليها كما أن معركة كالقادسية أخرجت الفرس من العراق وما وراءه ، ونشرت الإسلام في تلك الربوع . وبالتالي فمعركة . أو اثنتان من مثلهما أدخلتا المغرب في نطاق العروبة والإسلام . والواقع أن فتح العرب المسلمين للمغرب كان ملحمة طويلة مريرة امتدت أكثر من سبعين سنة وأن عدداً من المعارك يزيد على الأربعين أو الخمسين . سفحت في تلك الأرجاء قبل أن يستقر أمر العروبة والدين الحنيف فيها . وهذه المعركة التي سنتحدث عنها هي إحدى المعارك الأولى .

قبل الفتح العربي للمغرب بمائتي سنة كان الفاندال البرابرة قد أخرجوا الروم منه وحكموه فترة ثم سحقوا في النهاية سحقاً.وعاد حكم الروم وبيزنطة إلى المغرب . ولكن الروم رغم جندهم وحامياتهم عانوا أشد العناء من سكان البلاد البربر سواء منهم من كان يسكن المدن أم من كان رحالة في الصحارى . كانت ثوراتهم وتحركاتهم الاستقلالية تجعل حكم البلاد مشكلة إدارية عسكرية كبرى . وقبيل الفتح العربي كان بربر الداخل قد سيطروا عليه واحتلوا القلاع الدفاعية التي بناها الروم لمراقبتهم . وانحسر النفوذ الرومي إلى الشواطئ . وهكذا كان أمام العرب الفاتحين للمغرب قوتان للمقاومة . قوة الروم البحرية المتشبثة بالسواحل وقوة البربر الممتنعة في المدن وفي أعالي الجبال وأعماق الصحراء !

ويبدو أن عمرو بن العاص، بعد فتح مصر، خشي مداهمة الروم من برقة المجاورة فرأى أن يفتحها. وانطلق سنة ٣٢هـ. على رأس حملة من الفرسان غزت برقة في سرعة خاطفة مفاجئة لم تجد أي مقاومة من الروم ورحب بها البربر فصالحت على الجزية وعادت... كان هذا أول تماس مباشر مع المغرب وأول الطريق إليه. وأغرت سهولة الفتح عمرو بن العاص فمد ببصره إلى طرابلس فتقدم إليها عن طريق الساحل وأرسل مجموعة أخرى عن طريق الصحراء. وضرب عليها الحصار الذي امتد شهراً. وراقب بعض الجند أن لا سور على المدينة من ناحية البحر وحين يكون الجزر فبالإمكان المرور إليها وهكذا اقتحم العرب المسلمون المدينة من جانبها البحري وهم يهللون ويكبرون. وما أفاقت الحامية الرومية من الدهشة إلا والسيوف فوق رؤوسهم... كانوا في الأصل حملة رومية بحرية جاءت لحماية طرابلس فلم يكن لها من مهرب إلا إلى السفن التي جاؤوا بها. قتلاهم كان معظمهم عند التراكض إلى السفن في الميناء.

ولا شك أن أبعاد الأرض المغربية الشاسعة كانت غامضة لدى العرب. فقد كان عمرو بن العاص كلما احتل قطعة منها خشي العدوان من البقعة التي تليها فبعد برقة وطرابلس اضطر أن يبث جنده نحو صبرة التي لم يكن نبأ سقوط طرابلس قد بلغها فكانت أبوابها مفتوحة للسيوف المسلمة. وأمره بعدها الخليفة عمر بن الخطاب بالتوقف فعاد... وانحسر النفوذ العربي معه فلم يجاوز برقة التي أضحت فيما بعد قاعدة الفاتحين يتولاها عقبة بن نافع.

في هذه الأثناء انتقلت الخلافة لعثمان بن عفان. فعين لولاية مصر وما وراءها عبد الله بن أبي سرح، أخاه في الرضاع. وكانت موجة الفتوح المظفرة ما تزال في أوجها فأراد ابن أبي سرح أن يكون له نصيب فيها وليس أمامه إلا المغرب فاستأذن الخليفة في ذلك. وبعد المشاورة والتردد أذن الخليفة بمتابعة الفتوح وراء برقة. واهتم بإعداد الحملة الاهتمام البالغ ودعا الناس

للتطوع فيها فلباه الكثيرون واشترك فيها كبار الصحابة وأولادهم ومقاتلون من معظم القبائل . وقدم فيها الخليفة من ماله الخاص ألف بعير وفتح خزانة السلاح فوزعها على الجند . وخطب فيهم يرغبهم في الجهاد في سبيل الله !

وصلت الحملة مصر فضم إليها ابن أبي سرح مالديه من القوات وتحرك بحوالي عشرين ألف مقاتل إلى برقة حيث انضم إليه عقبة بن نافع مع حامية برقة وفي عزم القائد السرحي أن يهاجم معقل الروم الأكبر في أفريقية وهي قرطاجة ! كانت خطته ألا يضيع قوة جيشه الكبرى في حصار المدن الصغيرة على الطريق ليواجه بها جميعاً القوة العاتية التي إن سقطت سقط كل شيء معها .

كان حاكم أفريقية للروم هو القائد غريغوريوس (ويدعوه العرب جرجير) فما كاد يسمع باقتراب العرب حتى مشى بنفسه إليهم ويقولون إنه كان في مائة وعشرين ألف مقاتل .

على الطريق حاصر ابن أبي سرح طرابلس التي تحصن أهلها ضمن أسوارها وحين اعترضت بلدة قابس طريقه تجاوزها متجهاً إلى الشمال نحو قرطاجة بعد أن بث عيونه والأرصاد في مختلف الاتجاهات ليأمن المفاجاءات واخترق العرب المسلمون السهل الضيق بين قابس وشط الجبريد ليجدوا جرجير وجيشه عند حصن قديم على بعد عدة أميال من مدينة سبيطلة . ولم يستعر القتال بين الطرفين بل اتبع ابن أبي سرح الطريقة الإسلامية بدعوة جرجير إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب . ورفض جرجير بالطبع هذا العرض وبدأ القتال ولكنه لم يكن قتالاً بالمعنى المعروف وإنما كان منازلة وعرض قوي . يبدأ كل صباح ويستمر حتى الظهيرة ثم يتحاجز الفريقان إلى اليوم التالي . كانت غاية جرجير أن ينهك الجيش الغازي وتأتي الأيام على مؤنه وذخائره . فينهزم ولم يشأ ابن أبي سرح أن يغامر في معركة يكون الروم فيها ضعف عدد

جيشه كما لم يشأ أن ينسحب دون نتيجة. وهكذا طالت مدة المواجهة ولا طائل سنة بعد سنة.

وقلق الخليفة في المدينة أشد القلق. لم يصله خبر عن الحملة بخير أو شر فاختار مجموعة من الفرسان أرسلهم بقيادة عبدالله بن الزبير إلى أفريقية. الشقة كانت بعيدة وقد انضم إلى ابن الزبير على الطريق من انضم فلما وصل المعسكر المسلم في سبيطلة انتعش المقاتلون بعد أن كانوا أقرب إلى الملل واليأس. وبدأت بذلك المعركة الحقيقية. نصبوا كمائن حول جيش الروم وشدوا في القتال شد المستهينين بالموت. واختلطت سنابك الخيل بالرجالة وتقارعت السيوف شفرات وضراباً لا أعنف ولا أشد ضراوة. وحين أنهك الجيشان انحطت الكمائن على جيش الروم المتعب كالزوبعة العاتية فاقتحموا صفوفه ومرغوا بالتراب بنوده وخر قائده جرجير بين القتلى. حاول بعض الروم الانسحاب إلى حصن قريب ولكن فرسان العرب سبقوهم إليه بجيادهم السريعة فاقتحموه وأبادوهم مع الحامية!

وتقدم الفاتحون بعد ذلك إلى سبيطلة فضربوا حولها الحصار وسرعان ما سقطت بأيديهم فغنموا منها الغنائم الطائلة. وساقوا الحشود الطويلة من الأسرى والأعداد الضخمة من الماشية... كانت البلاد من جنوب تونس حتى مصر قد صارت لهم وجاء زعماء البربر طائعين وبذلوا لابن أبي سرح الأموال على ترك البلاد فقبل ذلك منهم وانسحب بقواته إلى مصر سنة ٢٨هـ. وفي ركابه مبالغ طائلة. ولكنه لم يترك ما بين برقة وتونس أي حاكم أو حامية عربية!..

أكانت المعركة كلها بمرارتها الدامية وبعدها القصي مجرد حملة تأديب وتحذير لقوى الروم لئلا يفكروا في العودة إلى مصر؟.

مغامرة عقبة بن نافع

في صحراء الجزائر، إلى الشرق، وبالقرب من واحة بسكرة، قرية تعرف باسم سيدي عقبة، وفي جامع كان قديماً ذا بهاء ثم أناخ عليه الدهر فهو متهدم مهمل ينام منذ ألف وثلاثمائة وستين سنة البطل العربي الذي أوصل العروبة والإسلام إلى شواطئ المحيط الأطلسي. ولعله الوحيد الذي دفن حصانه معه تحت الرمال السافيات: عقبة بن نافع الفهري! فما حكاية عقبة؟

نحن الآن في سنة ٥٠هـ وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان. وقد فرغ الرجل من الحرب الأهلية مع الإمام علي بن أبي طالب واستقر له الأمر. ويبدو أنه رأى تغطية هذه الحرب المؤلمة بنصر عسكري وفتح مؤزر. ولم يكن أمامه إلا الروم فجهز حملة تقصد القسطنطينية، وأخرى تتجه إلى أفريقية في وقت واحد تلك السنة!

فأما الحملة الأولى فسوف نعود إليها وأما الثانية فقد اختار لها معاوية قائداً من أقدم قواد المسلمين في أفريقية وأبرعهم وأشدهم شجاعة وحزماً: عقبة بن نافع. كان قد أنفق عمره هناك يقاتل البربر فوق الرمال السافية وفي مسالك الصحراء! مستنداً إلى قاعدته برقة.

وجهز إليه سنة ٤٩ جيشاً من عشرة آلاف مقاتل فما وصل الجيش برقة حتى سار به عقبة إلى بلدة سرت ويبدو أنه ـــ والقوة البحرية تنقصه ـــ كان يفضل إخضاع البربر وإدخالهم في الإسلام على مقارعة الروم ومن ورائهم مدد البحر. وكان يرى أن ديانات البربر الرقيقة أقرب إلى قبول الدين الحنيف من جمهور الروم. حتى من تنصر منهم لم يكن تدينه من العمق بحيث يمنعه من

اعتناق الإسلام . ولما كانت قوى الروم متشبثة بالشواطئ فقد تنكب عقبة طريق الشاطئ وفضل أن يسلك في الفتح الطريق الصحراوية الداخلية ويقاتل عليها البربر !

وهكذا اتجه إلى فزان ثم واحة بياض وافتتح بعد ذلك غدامس وقفصة وقسطيلية . ونظر وراءه فوجد أن قاعدته في برقة سوف تصبح بعيدة جداً لو تابع الفتح فلا بد من إيجاد قاعدة متقدمة تساند الجند المسلم عند الحاجة فاختار قبل الإيغال في مجاهل أرض البربر في المغرب أن يوجد هذه القاعدة ولقد اختار موقعها في بقعة بعيدة بعض البعد عن البحر من جهة ليأمن غارات الروم وقريبة من قرطاجة عاصمة الولاية ليظل على الرقابة المتصلة لتحركاتهم البرية كما أنها مطلة من جهة أخرى على تحركات البربر في الصحارى والجبال . هذا المكان الذي اختاره كان أجمة هائلة ملأى بالوحش عند هضاب يتمكن معها من الإشراف على المنطقة كلها .

وانصرف عقبة إلى تخطيط القاعدة العسكرية التي شاء أن تكون مدينة بكل حاجاتها .. فأنشأ فيها المسجد الجامع والأسواق وجعل لها الأسوار وسماها القيروان ! قضى في ذلك أربع سنوات . لم يحاول الروم العدوان عليه من قرطاجة القريبة لأن القسطنطينية نفسها كانت محاصرة من قبل العرب . ويبدو أن حساد عقبة استطاعوا إثارة بعض الريب عند الخليفة ضد عقبة فقد طال توقفه في القيروان وتوقف الجهاد وتوقفت الغنائم وإذا بالخليفة يعزله فجأة سنة ٥٥ ويجعل أمر أفريقية (أي تونس) لوالي مصر مسلمة بن مخلد الذي استعمل عليها أحد رجاله : أبا المهاجر دينار . وسرعان ما وصل دينار إلى أفريقية فأوثق وثاق عقبة وأساء سجنه ولم يفرج عنه حتى أتاه كتاب من الخليفة بذلك فارتحل عقبة إلى دمشق وقابل معاوية . وعاتبه أشد العتاب . أيكون جزاؤه بعد بلائه الحسن في الجهاد مثل هذه المحنة ؟ وطيب الخليفة خاطره لكنه لم يعده إلى أفريقية . فظل في الظل سبع سنوات حتى توفي معاوية وخلفه ابنه يزيد .

في هذه الأثناء كان أبو المهاجر قد انتهج سياسة الملاينة التي انتهجها الروم أيضاً مع جموع البربر. الطرفان أخذا في التقرب منهم ليضمنوا ولاءهم معهم. ترك أبو المهاجر سياسة السيف إلى تآلف القلوب. وحين عرف أن الزعيم البربري الكبير (كسيلة) تحالف مع الروم سار إليه واستماله بالدهاء والمال حتى انضم إليه واعتنق أيضاً الإسلام. وأعجب كل منهما بالآخر رصادقا فخمدت بذلك تحركات البربر وانتشر الدين الحنيف بين ظهرانيهم بسرعة... وسمح هذا كله لأبي المهاجر أن يمد فتوحه بعض المد منذ سنة ٥٩هـ في بلاد البربر. وأن يغزو قرطاجة مرة بعد مرة. وفي كل مرة كان الروم يتنازلون له عن بعض الأرض وكان هذا الأمر تطوراً في مسيرة الجهاد الإسلامي يعني أن العرب قرروا الاستقرار ولم يعودوا يكتفون كما في السابق ببعض المال ويعودون!

وحين توفي معاوية وجاء ابنه يزيد. أعاد عقبة بن نافع إلى ولاية أفريقية لا سيما وقد توفي مسلمة بن مخلد والي مصر وصاحب أبي المهاجر. ووصل عقبة إلى الولاية فأوثق صاحبه أشد الوثاق. وبالغ في الكيد له فكان يحمله معه في غزواته مكبلاً بالأصفاد. ونزل في القيروان التي كان أبو المهاجر قد أهملها، وبدأ معاملة البربر بالقوة والإرغام الحربي. كان البربر هم همه الأول. فقرر اختراق بلادهم من أولها إلى آخرها. كان هذا مشروعاً فيه الكثير من المجازفة. وما لا يوصف من المشقة. وهو في آخر الكهولة. ولكنه صمم عليه. وأراد أن يتفادى قوات الروم وحامياتهم في الشواطئ فاختار شق طريقه على الدروب الصحراوية الداخلية. رغم وعورتها الشديدة. وقفارها. وخشي أن ينتقض عليه كسيلا حليفُ أبي المهاجر وصديقه فسجنه. وبالغ في إذلاله. ليؤكد للبربر أنه لا يخشاهم. ولقد نصحه أبو المهاجر ورجاه في صديقه. وحذره مغبة عمله وثورة البربر. فلم يشأ الاستماع إليه فخبرته الإفريقية علمته أن استعمال السيف أصح من استخدام اللسان! ولم يوثق عقبة كسيلا استهانة به. وفيما كان عقبة

يفتح بعض القلاع في طريقه، فوجئ بفرار السجين وحشده لقواته والتحاقه بالروم. لكن هذا لم يمنع عقبة من متابعة السير إلى قبائل البربر المختلفة يحاربها ويأخذ قلاعها ويتقبل ولاءها. كانت المقاومة له شديدة وكان قتاله أشد نكراً. على جانبي طريقه الطويل كانت الدماء تلطخ الرمال. والجثث تنتثر حتى وصل سهل الزاب الخصيب في المغرب الأقصى. وقد حشد له الروم والبربر في ذلك السهل حشوداً كبيرة يقطعون عليه الطريق عند حصن تاهوت. ولكنه اخترق صفوفهم وبطش بهم بطشة جبار نسي معنى الموت فتمزقوا شذر مذر. وتابع طريقه إلى طنجة ثم اتجه إلى وليلي ووصل شاطئ المحيط الأطلسي فخاض بحصانه الماء حتى ركبتيه وقال: «يا رب! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد حتى أبلغ ملك ذي القرنين مدافعاً عن دينك مقاتلاً من كفر بك».

في طريق العودة لم يخف على عقبة ما قد يدبر له من كيد البربر والروم ولكنه كان من الاعتداد بنفسه للدرجة التي لم يأبه بها لهذه المكائد. وعاد على الطرق الصحراوية التي كان سلك من قبل وحين اقترب من أفريقية أذن لوحدات جنده أن تسبقه إلى القيروان وبقي في عدد قليل من أصحابه. ولكنه فوجئ بعد قليل بحشود هائلة من البربر والروم المتحالفين وعلى رأسهم كسيلا! تطوقه من كل جانب. إنه الموت. فالاستشهاد هو الخيار الوحيد. فالتفت إلى أبي المهاجر بعد أن أطلقه وقال: إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم فسوف أغتنم للشهادة فقال أبو المهاجر وأنا أيضاً أريد الشهادة. فكسر عقبة وأبو المهاجر وأصحابه أغمدة سيوفهم وبرزوا للقتال. وتساقطوا على الأرض التي طالما سمعت وقع سنابكهم وتكبير رجالهم وصليل السيوف...

في مكان هذه الواقعة دفن عقبة وحصانه معاً كمجاهدين!

وأطبق الحزن على القيروان حين وصلها الخبر! ولم تكن نتيجة هذه المغامرة الكبرى سلبية فقط فأعادت البربر إلى ما كانوا عليه ولكنها اضطرت العرب إلى التراجع حتى برقة...

فكأنهم ما قاتلوا ولا جاهدوا ولا فتحوا ! أكان عقبة على حق في مغامرته يا ترى ؟ لقد يكون . ولكن اسمه سيظل شعلة من النور لرجال الجهاد .

زهير بن قيس وحسان بن النعمان

وهذان أيضاً بطلان آخران من أبطال فتح المغرب ، هذا الفتح الذي استمر بين مد وجزر خمسين سنة . كان زهير بن قيس يحكم في القيروان حين وقعت كارثة عقبة بن نافع ولم تكن حاميته تجاوز الخمسة آلاف رجل فاضطر للانسحاب بها إلى القاعدة الخلفية برقة في انتظار مدد يأتيه . ولم يأت المدد فقد كان الخليفة الجديد عبد الملك بن مروان مشغولاً بحرب عبد الله بن الزبير . لذلك استطاع كسيلا بقواته البربرية أن يدخل القيروان دون مقاومة . المسلمون القلائل فيها طلبوا الأمان !

بعد أربع سنوات حين استتبت الخلافة لعبد الملك بدأت الإمدادات تصل إلى زهير مع الأمر بمعاودة التقدم واستنقاذ ما ضاع . فسار على الطريق الساحلي حتى القيروان ووجد أن كسيلا قد أخلاها وفر منها إلى بلدة ممس . أما الروم فقد رأوا أن يقفوا رغم حلفهم مع البربر موقف المتفرجين . فأي من الطرفين انتصر عالجوا أمره بعد النصر ! والتقى جيش البربر بالقوات المسلمة في معركة دمرت العدد والرجال على الجانبين . واختلط الزعيق بالتكبير وانغرست دروع الزرد بالأجساد وطافت النبال العمياء تحمل الموت حيث نزلت . واشتد الهول بالناس فصاروا كتلاً من اللهب والحديد يصطدم بعضها ببعض . بعد ثلاثة أيام من القتال اندحر البربر وكان بين القتلى زعيمهم كسيلا نفسه . ولم يدع زهير وجنده أحداً يفلت منهم فتبعهم بالمطاردة حتى أفناهم !!

في هذه الأثناء كان الروم قد استقدموا من صقلية القريبة أسطولاً ضخماً يقطعون به الطريق على زهير وجنده في برقة ، أي في قاعدة العرب

الأساسية . القوة التي نزلت انتشرت بسرعة تقطع طريق المواصلات على الجيش العربي الإسلامي وتتركه دون قاعدة يستند إليها فيسهل اصطياده وسحقه . ووصل زهير إذ ذاك ليجد قوى الروم تحول بينه وبين مصر . وعلى الرغم من قلة عدد الذين كانوا معه فقد حاول فتح الطريق بالقوة لفك الحصار . ولكن الروم كانوا إنما تأهبوا كل الأهبة لقتاله . ووقعت المعركة غير المتكافئة بين الطرفين . وتكررت مأساة عقبة . إذ سقط زهير وأصحابه صرعى . شهداء في سبيل الله والدين القيم !

هذه النهاية الفاجعة التي انتهى إليها عقبة ثم زهير فتحت الأعين على خطة الروم وهي ترك العرب والبربر يقتتلون ثم يتصدى الروم بأسطولهم وجيشهم الجرار للمنتصر وهو يعني أن استمرار وجود المدن الساحلية في أيديهم خطر استراتيجي كبير . ومصدر عدوان لا ينتهي . فلا بد من ضربهم في مقرهم الأكبر قرطاجة . مضت على التحرك العربي للفتح حتى الآن خمسون سنة دون نتيجة حاسمة . ولا بد إذن من معركة حاسمة . البحر المفتوح أمام الروم يجعل حربهم تمتد إلى ما لا نهاية وعلى العرب المسلمين وضع هذه النهاية .

هكذا اختار عبد الملك قائداً من كبار قادته هو حسان بن النعمان وحشد له سنة ٧٦هـ أربعين ألف مقاتل . وكان هذا أعظم جيش مشى إلى أفريقية . اجتاز به برقة وطرابلس مسرعاً ودون مقاومة حتى وصل سهل تونس حيث انضمت إليه أعداد ضخمة من البربر وعدهم حسان بالخير والغنائم . ونزل بجموعه على قرطاجة ! كانت على درجة كبيرة من المناعة ، بالإضافة إلى أنها متصلة بالبحر قريبة الاتصال بصقلية حيث يتمركز الروم . لكن الحصار الذي ضربه حسان على المدينة كان عنيفاً لعبت فيه المجانيق دورها . فتهاوت جوانب من السور . ولم يستطع الروم سد الثغرات فيه ولا وصلتهم النجدات في البحر . فدخلها حسان بالسيوف التي حالت بالضراب حمراء تقطر دماً

وعرقاً . وبالتكبير يهز الحجارة والناس . كانت خسائره كبيرة ولكن الروم خسروا أضعافها على الأبواب وفي الأزقة والدروب ...

عاد حسان إلى قاعدة القيروان ظافراً لكنه لم يحسب حساب الولاء الزئبقي للبربر . جموعهم كانت تسير مع أهواء الزعماء الذين كانوا يكنون العداء للعرب والروم على السواء وإنما يتعاونون مؤقتاً مع من يحقق مصالحهم . وهكذا سمع حسان أن قرطاجة انتقضت على الحامية العربية وبدرت بمعونة البربر إلى احتلال المدينة وطردوا الحامية العربية . وأسرعوا يرممون الأسوار . ويعيدون التحصينات . فاضطر حسان للعودة إلى قرطاجة مرة أخرى بمعركة أخرى بلغت الغاية من العنف دفعت المدينة ثمناً غالياً جداً في احتلالها الثاني . أكواماً من الجثث والأشلاء التي تعفنت مع الأيام دون أن تجد القبور . وأمر حسان بتخريب الأسوار وهدم وسائل الدفاع وإحراقها . النكسات العنيفة للفتح العربي في المغرب والتي كانت قرطاجة وراءها لم تدع لحسان خياراً آخر .

ماعاد حسان إلى القيروان حتى فاجأه خطر ماكان ينتظره فقد تجمعت في مفاوز المغرب الأقصى وجروده الصخرية قبائل البربر تحت لواء امرأة من قبيلة جراوة اعتقدوا فيها الكهانة والسحر . واتخذت مقراً لها في جبال الأوراس . وتكاثرت جموع هذه «الكاهنة» التي أصبحت الخطر الداهم . وأضحى المغرب كله حتى مشارف أفريقية رمالاً متحركة تحت أقدام العرب المسلمين .

ولم يتردد حسان في الخروج لجموعها الحاقدة في الجبال . سار مسرعاً حتى أنهك الجيش بعبور الوديان وتسلق الصخور تزحف فيها الخيل على بطونها . لهذا استطاعت الكاهنة الانتصار عليه . ولاحقته بالسيوف في الادبار . وجعلته يترك آلاف الضحايا على المهاوي والآكام ... وتراجع الجيش الإسلامي مرة ثالثة عن أفريقية كلها حتى برقة . خسر كل فتوحاته وضحاياه . ولما كانت الكاهنة تعتقد أن العرب إنما تجتذبهم إلى أفريقية الغنائم فقد أمرت بتدمير جميع

معالم العمران حتى غدت البلاد قاعاً صفصفاً . وتنبه البربر متأخرين إلى أن قرار الكاهنة قد حرمهم ثرواتهم ومدنهم وزراعاتهم فاشتكوا . ثم سخطوا . ثم غضبوا . ووصل بعضهم في النقمة درجة الاتصال بالعرب والاستغاثة بحسان لتخليصهم من هذا البلاء المبين ! في حين انتهز الروم الفرصة وأنزلوا في قرطاجة حملة ضخمة بقيادة البطريق يوحنا احتلت المدينة المفتوحة بسهولة . وتقاسم البطريق والكاهنة البلاد كما كانت من قبل فالساحل للروم والداخل للكاهنة والبربر . . .

كان قد مضى على هذا المد والجزر في الفتح والانكفاء عنه ستين سنة حين تحرك حسان سنة ٧٨هـ . يستعيد أفريقية . أمده عبد الملك بالجيوش واستمال إليه البربر الناقمين فانضمت حشودهم إليه والتقى بجموع الكاهنة فردها إلى جبال أوراس ولحقها في أعقابها حتى خرجت له الكاهنة بذاتها تحاربه حمل على جيشها حملة زحزحته عن الصخور التي تمركز وراءها ومزقته وتوزعت جثته بين الطير والتراب . وكان بين القتلى الكاهنة نفسها عند البئر التي تعرف ببئر الكاهنة وقد وضع مصرعها نقطة الختام لحركة المد والجزر في فتح العرب للمغرب . فاستقر الفتح بعد طول قلق في أراضي المغرب واستقر معه الدين الحنيف .

أما قرطاجة فقد هاجمها حسان سنة ٨٣ بجيوشه للمرة الثالثة في معركة نهائية لم تكن أقل عنفاً وشراسة من المعركتين السابقتين وكان اندحار الروم فيها مخزياً لأنهم فروا إلى قطع الأسطول الذي كان ينتظرهم في الميناء يائسين . وأبحروا إلى بيزنطة يقطعون أمل الإمبراطور في استرداد أفريقية والمغرب . أصبحت البلاد للعرب والإسلام . لقد لحقت هذه البلاد بعد طول كر وفر بالخلافة العربية الإسلامية ! وأخيراً جاء نصر الله والفتح وصار الناس يدخلون في دين الله أفوجاً ! وبدأ المغرب مرحلة في التاريخ ما تزال قائمة إلى يوم الناس هذا .

حصار القسطنطِنية

الذين يزورون استامبول يعجبون لموقعها الساحر المشرف على بحر مرمرة بمآذنه الرشيقة وقباب المساجد ولنكهة التاريخ في قصورها العتيقة. لكنهم قلما يذكرون أن هذا الموقع، موقع استراتيجي من الطراز الأول ولا سيما في العصور القديمة لأن الطريق إلى بحر مرمرة مغلق من الجنوب بمضيق الدردنيل ومن الشمال بالبوسفور وكلا المضيقين ممر بحري ضيق والقسطنطِنية بينهما على تل مرتفع تقف كالبوابة الضخمة دون جواز من آسيا إلى أوروبا ...

هذه المدينة منذ بنيت ظلت عاصمة الروم البيزنطيين. وإذا كانت قبل الإسلام عدوة الفرس فقد ظلت بعد الفتح الإسلامي أشد عداوة للعرب المسلمين الذين جردوها من أهم مقاطعاتها العربية ووضعوا في أهدافهم فتحها. قد تكون الحماسة الدينية دافعهم الأول ولكن لا شك أن المضايقات التجارية والبحرية للمسلمين كانت بين الدوافع. فلم يستطع الروم البيزنطيون أن ينسوا أن العرب انتزعوا منهم أكثر من ثلثي إمبراطوريتهم الشرقية. لهذا كان الاستيلاء عليها متمماً للفتح العربي. واستمراراً لهجرة السيوف في سبيل الله.

كانت أول محاولات الفتح نوعاً من الاستكشاف للطريق وللمصاعب. جرى ذلك في خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٢هـ/٦٥٣م. كان قائد الجيش البري هو معاوية بن أبي سفيان والي الشام الذي اخترق الأناضول حتى مشارف القسطنطِنية وكان قائد الأسطول العربي هو بسر بن أرطاة. أتى من طرابلس فاصطدم بالأسطول الرومي قبالة الساحل الشامي. وهزم الروم ولكن

بعد خسائر كثيرة مني بها المسلمون فلم يتابعوا السير وعاد معاوية بجيشه البري. فلا يمكن فتح القسطنطِينية دون أسطول بحري!

بعد ذلك باثنتي عشرة سنة ٤٤هـ، حين صارت الخلافة إلى معاوية لم ينس هذا الرجل حلم الفتح لعاصمة الروم. كانت الحملة هذه المرة بقيادة عبد الرحمن بن سيف الله خالد بن الوليد الذي اخترق جبال الأناضول حتى مشارف القسطنطِينية. ووصل أمير البحر بسر بن أرطاة حتى بحر مرمرة. ولكن الشتاء دخل وأخذت رياح الزمهرير تهب من سهول روسيا الثلجية فتجمد السواعد وتخرق العظام فاكتفى المسلمون بفرض رعبهم وهيبتهم في المناطق التي عبروها وعادوا...

ولا شك أن هذه الغارات الاستكشافية أفادت المسلمين. عرفتهم بطبيعة البلاد الجغرافية وكشفت عن نقاط ضعف العاصمة وعن حاجات الفتح وطرقه ومقدار ما يتطلب من الجهد والإعداد. لذلك نرى المحاولة الثالثة تقوم على جيش ضخم حشد فيه معاوية نخبة قواته واستنفر له في الوقت نفسه الأساطيل من ثغور الشام ومصر بكثافة. واخترق الجيش العربي المسلم هضاب الأناضول بقيادة سفيان بن عوف الأزدي ومعه يزيد بن معاوية وجماعة من أكابر الصحابة والأنصار منهم عبد الله بن العباس (ابن عم الرسول الأعظم) وابن عمر بن الخطاب وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري. وشق الأسطول طريقه في البحر إلى مضيق الدردنيل على أميال معدودة من القسطنطِينية. كان ذلك في ربيع سنة ٤٨هـ/٦٦٨ أو بعد ذلك بسنتين!

على العرش البيزنطي كان يتربع قسطنطين الرابع. وقد بلغه الزحف الإسلامي في البر والبحر. وكان يتوقعه حتى قبل تحركه فلم يبق وسيلة من وسائل الدفاع إلا اصطنعها ولا ثغرة في الأسوار إلا سدها. ووصل الجيش الإسلامي يضرب الحصار المحكم على المدينة. طوقها في البر والبحر بصفوف كثيفة من الجند والأشرعة. أياماً يطاولونها بالهجوم العنيف دون طائل. وصلوا

حتى القرن الذهبي هذا الخليج الضيق المغلق بالسلاسل والذي يقوم كالخندق العميق شمال المدينة .

ويبدو أن المسلمين استهانوا بمنعة الأسوار وبحماسة المدافعين الدينية عنها . فقرروا أخذها أولاً بالمطاولة وإطالة الحصار وتدمير الإطار الزراعي الذي يطيف بها فاتخذوا من جزيرة سيركوس في بحر مرمرة مقر قيادة واستقرار واستمروا يحاربون حتى جاء الشتاء ... ولم تكن الجزيرة تبعد أكثر من ثمانين ميلاً عن القسطنطِينية . وأقبلت الرياح الثلجية فتوقفت الحرب حتى الربيع التالي ثم الربيع الذي يليه . سبع سنوات ظل الحصار قائماً على العاصمة المنيعة والمسلمون يعادونها بالحرب والمعارك وتدمير السفن ...

وفجأة ، في السنة السابعة على ما يظهر ، ارتاع المسلمون لسلاح جديد انهال عليهم من الجانب البيزنطي . كان كتلاً هائلة من النار تنزل بالسفينة فتلتصق بها وتحرق ما تحتها وما فوقها ولا يطفئها شيء . وفتكت هذه النار بالسفن الإسلامية أي فتك . كانت هذه هي النار التي عرفت فيما بعد بالنار اليونانية ، واستخدام النار في الحروب قديم ولكن ما السر في عدم انطفائها بالماء . كان هذا سراً كيماوياً قدمه للبيزنطيين رجل شامي أو مصري يدعى كالينكيوس . وبقي من أسرار الحرب البيزنطية لم ينكشف للعرب إلا بعد حوالي المائتي سنة ولكنه حين ظهر كان كافياً لإدخال الروع في ملاحيهم المحاصرين للعاصمة . ولإجبارهم على الابتعاد الشديد عنها . بعد أن فقدوا الكثير من أشرعتهم ومن السفن ومن المؤن ومن الدواب عدا الرجال . وقرروا الانسحاب ... ولكنه كان انسحاباً مأسوياً . فالجيش البري تعرض في الأناضول للحصار والمطاردة وعصابات الروم المهاجمة . وأما الأسطول فأصابته العواصف . ودارت به في أواخر بحر إيجة ومزقته وأغرقت عدداً من سفنه الباقية وفقد العرب في هذه المعارك المتصلة زهاء ثلاثين ألف مقاتل . كان من بينهم أبو

أيوب الأنصاري الذي اكتشف قبره فيما بعد يوم فتح القسطنطِينة محمد الفاتح . . .

هذا الحصار الفاشل أعقبه بعد ٤٦ عاماً حصار آخر أمر به سليمان ابن عبد الملك وكان القائد له أخوه مسلمة بن عبد الملك . يومها كانت أحوال الإمبراطورية البيزنطية في غاية السوء والعهد العربي الإسلامي في أوجه . وحشد سليمان لهذا المشروع قوات عظيمة في البحر والبر . زودها بكميات هائلة من الذخائر والمؤن والعدد وآلات الحصار وألبسة الشتاء والصيف . كانت الأوامر لمسلمة ألا يبرح القسطنطِنية حتى يفتحها . وعلى الرغم من أن مسلمة عقد اتفاقاً مع بعض المدعين للعرش البيزنطي وهو ليون الأيسوري أو المرعشي على أن يكون نائب الخليفة هناك . وأعانه . إلا أن ليون ما وصل العرش حتى تنكر للاتفاق . وصار من أعتى المدافعين عن العاصمة . قاد مسلمة جيشاً يقدره البيزنطيون بثمانين ألف جندي انتقل بهم إلى الضفة الأوروبية لمضيق الدردنيل بعد أن التقى بالأسطول العربي الإسلامي الذي كان عليه مائة ألف مقاتل . وسار بهذا الجيش اللجب حتى مشارف القسطنطِنية وضرب عليها الحصار في البر والبحر ونصب المنجنيقات الضخمة وحاول عدة مرات اقتحام أسوار المدينة . وفشلت المحاولات ، كانت النار اليونانية هي التي ترد الملاحين والمحاربين معاً مرة أخرى . وعلى الرغم من قطع جميع علاقات المدينة بالبر والبحر وتدمير الحقول حولها بالآلاف . فقد كانت قوة آلات الدفاع ورماة الحجارة والنار يزيدون في مناعة الأسوار وفي صمود المدينة .

الأسطول العربي كان أضخم أسطول حشده المسلمون وقد قسمه أمير البحر سليمان بن معاذ الأنطاكي قسمين قسم في بحر إيجة يقطع الأقوات والمدد وآخر في البوسفور يقطع الطريق الشمالي . لكن العواصف ثارت وأخذت تلعب بالمراكب فتصدم بعضها ببعض في عصف هائل وثورة من الموج . ولم يفت ذلك في عضد مسلمة الذي استعد بالمؤن والرجال لحصار

طويل . لكن أقدار الله كانت ضده فقد توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك ثم توفي أمير البحر سليمان بن معاذ وقدمت على مسلمة في الربيع التالي نجدات بحرية من مصر وليبيا وتونس لكن معظمها كان من الملاحين النصارى الذين ما لبثوا أن فروا إلى الجانب البيزنطي . وأطلعوه على ثغرات الجيش الإسلامي . الذي فتك به البرد الشديد والثلوج التي غطت الأراضي والمخيمات أشهراً . فاشتد ليو الثالث الإمبراطور في الدفاع في حين كان الكثير من دواب المسلمين قد نفق والكثير من مؤنهم قد نفذ ولقوا أروع الشدائد من المجاعة حتى أكلوا الجلود وأصول الشجر والورق وهاجم الأسطول الرومي سفن المسلمين فأغرق بعضاً وأحرق بعضاً ...

كان الجيش المسلم قد بلغ حالة شديدة من السوء حين وصلته أوامر الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز بالانسحاب ... وانسحب الناس وانسحب الأسطول ...

انسحب الجميع ، في انتظار حملة أخرى ... لم تحدث أبداً بعد ذلك فقد وصل العباسيون إلى الحكم واكتفوا بالدفاع وبدعم الحدود ... أما حلم فتح القسطنطِنية فقد تأخر وتأخر سبعمائة سنة !! فقط !!

فتح الأندلس

يوم رأى الإغريق القدماء مضيق جبل طارق بين البحرين المتوسط والأطلسي وشدة القرب بين بري أيبيريا والمغرب نسجوا لذلك أسطورة تزعم أن هرقل بطلهم الأسطوري هو الذي فصل بقوته الجبارة البرين عن بعضهما ووصل البحرين... هذا المضيق الذي سماه العرب بحر المجاز عَرَفَ منذ ١٢٨٣ سنة وربما لأول مرة تحركَ عدة آلاف من الجند تجتاز المضيق (وعرضه لا يزيد على ١٥ كيلو متراً) من الجنوب إلى الشمال. في هدأة الليل كانت الحملة تشد الأيدي على سيوفها وعيونها تبص في الوجوه السمر ويسمع الموج تردادها المكنون: الله أكبر! كان هذا جيش طارق بن زياد.

ما هي إلا ساعتان وبعض الساعة حتى كانت السفن تفرغ الرجال على البر الإسباني. عند أسفل جبل صغير يرتفع، كأنه سرج حصان، حوالي ٤٤٠ متراً. ولم يكن إنزال سبعة آلاف جندي إلى البر بالأمر السهل ولم يكن مباغتاً للقوط حكام الجزيرة لقد سبقت جيش طارق أكثر من هجمة قبله. فتنبه القوط. وزادوا في الحرس. ولقي جنود طارق منذ اللحظة الأولى أعنف المقاومة منهم مما أجبر طارقاً على التريث فوق الموج وتغيير خطته. وقام تحت جنح الظلام بحركة التفاف حول الجبل وتسلقه مع جنده من موضع صخري صعب المرتقى. زحفاً على المجاديف وبرادع الدواب. وفاجأ الحامية في رأس الجبل من حيث لا يحتسبون. فأوقع بها وتمركز في القمة. ثم بنى سوراً حول جنده ظل يسمى سور العرب. كان هذا هو النصر الأول الذي وضع أقدام المسلمين على أول نقطة في البر الأوروبي كله...

هنا يذكر بعض المؤرخين أمرين يجعلان من هذه العملية العسكرية الأولى ومما تلاها من بعدها مسرحية بطولية جديرة بالإخراج الفخم ونحن نرددهما تغنياً بالبطولة ليتعشقها الصغار .

الأمر الأول : أن طارق بن زياد أحرق السفن الأربع التي أتى بها وقد كان كما تقول الرواية قد استعارها من حاكم سبتة القوطي المعادي لملك القوط في إسبانيا . وهي أسطورة حلوة لو صحت ولكن الأسطول العربي كان في تلك الأوقات يغزو ما بين صقلية إلى جزيرة الباليار فهل هو في حاجة إلى السفن الأربع ؟ وهل تحمل هذه السفن سبعة آلاف جندي مع الخيل والأزواد والأسلحة ؟ وكيف يحرقها طارق وهي مستعارة ؟ وكيف أحرقها ليقطع أمل أصحابه بالعودة والتراجع وليس بينه وبين البر المقابل سوى ساعتين في البحر ولو أوقد ناراً على جبل طارق لرآها أصحابه على العدوة الأخرى ؟

هذه واحدة أما الأمر الآخر فهو خطبته العصماء في جنده قبل الالتحام مع ملك القوط . يقولون : إنه جمع الجند فوقف فيهم خطيباً يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله :

أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية وإنني لا أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة وأنا أبدأ بنفسي ... وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ... إلخ هذه الخطبة العصماء ... ولكن هناك ما يضعف الثقة بهذا الحديث كله :

ـــ فقد كانت الكتلة الكبرى من جنود طارق من البربر فكيف يخطب بهم بهذه البلاغة العربية؟ ويفهمون؟
ـــ لم ترد هذه الخطبة في المصادر الأندلسية وأول من نشرها مؤرخ أندلسي بعد ستة قرون!
ـــ صيغة الخطبة البلاغية تقطع بأن صاحبها ليس من رجال القرن الهجري الأول فالسجع والتقطيع والإسهاب إنما كان فيما بعد القرن الثالث.
ـــ وفي الخطبة أخطاء. كحديثه عن بنات اليونان وكان القوط هناك وعن الكفار والمشركين والعلوج ولم يكن الفاتحون الأولون يتحدثون بذلك.
ـــ وأخيراً هل يعقل أن قوماً قدموا للجهاد في سبيل الله يطمعهم طارق بحور اليونان وحور الجنة تنتظرهم؟

الواقع أن طارق بن زياد لم يكن يحتاج لا إلى إحراق السفن لقطع آمال جنده في العودة ولا للخطبة فيهم بأن البحر وراءهم والعدو أمامهم ولا لإطماعهم بالظفر بحور اليونان. إنهم مجاهدون. اشتروا أنفسهم منذ تركوا البر المغربي بأن لهم الجنة.. ولا شك أن طارقاً كان يحسن الكلام والصلة مع جنده ولكنه لا يمكن أن يدفعهم للقتال، وهم إنما جاؤوا له محاربين في سبيل الله، بمثل هذه الأعمال الرخيصة.

الهام أن طارقاً كان من نوابغ القادة. وقد أقام عدا قاعدته على الجبل، قاعدة على الساحل لتلقي المعونات في موضع يعرف اليوم بالجزيرة الخضراء. ثم أقام قاعدة ثالثة عند بلدة طريف الحالية وأقام للقاعدتين الأسوار. أفلا يعني هذا كله أنه كان مخططاً فذاً ولم يكن مع رجاله بالخائف الذي يترقب ويتلصص؟

كان يريد حين يوغل في البر الإسباني أن يكون ظهره محمياً مفتوحاً على البحر نجدة أو تراجعاً. وما أوغل مائة كيلو متر أو نحوها حتى لقي ملك القوط بجيشه وهذا دليل آخر على أن القوط كانوا ينتظرون الهجمة ولم يفاجئهم الغزو

بل حشدوا له من الحشود ما جعل طارقاً نفسه يبعث بطلب النجدات فجاءه خمسة آلاف آخرون . عند بحيرة معروفة باسم لاخندا . وقرب هذه البحيرة في الأرجح كانت المعركة بين المسلمين ومعظمهم رحالة وبين القوط وجمهرتهم من الفرسان ! المعركة لم تكن قتالاً ولكن كانت مجزرة . قاتل المسلمون فيها والقوط القتال الشديد حتى ظن أنه الفناء. ولم تدم يوماً أو يومين ولكن ثمانية أيام ولا في موقع واحد ولكن في مواقع متعددة . كانت سلسلة من المعارك الضارية تشعبت شعباً بين الأودية والغابات وأطراف القرى وضفاف الأنهر . لم تتوقف السيوف إلا حين عرف أن الملك لذريق نفسه قد قتل فيمن قتل . هذه المعركة كانت فيما بين ١٩ ــ ٢٦ من يوليو سنة ٧١١ (الموافق ٢٨ رمضان إلى الخامس من شوال سنة ٩٢) لم تغن عن لذريق العجلات التي تحمل المال والكسى ولا السرير الذي كانت تحمله ثلاث بغلات مقرونات وعليه القبة المكللة بالدر والياقوت . ولا حلية اللؤلؤ التي نظمت عليه بخيوط الابريسم ولا الدواب التي حملها بالحبال لتكتيف الأسرى... حملت المعركة أسماء عديدة منها وادي لكُهْ، ووادي برباط . ومعركة البحيرة . وبعد دهر طويل كانت لا تزال ترى في مواقع المعركة عظام القتلى ! وآثار الدماء والأشلاء !

هذه الواقعة أسلمت إسبانيا للفاتحين المسلمين . وضمت أول قطعة من أوروبا إلى الخلافة العربية في دمشق. وبدأت سمفونية الأندلس التي استمرت ثمانية قرون ثم انقطعت قبل أن تكتمل !

بلاط الشهداء

بين فرنسا وإسبانيا تقوم على الحدود سلسلة جبال صعبة مدببة القمم كثيرة المهاوي والوديان يوشيها الشجر الغابي وتنتثر فيها قرى كأعشاش النسور وممرات لا تكاد تسمح لأكثر من فارس وراء فارس بالمرور نعرفها اليوم هذه الجبال باسم جبال البيرنة أو البرانس والعرب الأندلسيون سموها جبال البورتات (أو الأبواب) تنبسط في شمالها أرض غالية أو فرنسا وكان العرب يسمونها بلاد الفرنجة أو الأرض الكبيرة ...

الغريب المثير أن العرب المجاهدين الأولين كانت عيونهم معلقة دوماً إلى الآفاق الجديدة. لم يكونوا ينظرون إلى الوراء أبداً. لم يكن قد مضى عليهم سبع سنوات في الأندلس حتى تطلعوا عبر جبال البورتات إلى ما وراءها. ما حسب المجاهد منهم أن بينه وبين دمشق العاصمة شهوراً من المسير والإرهاق والعرق والمنازل. ولا أبهوا لهذا السد الجبلي القائم بين الأندلس وبلاد الفرنجة. كان اعتمادهم بعد الله على زنودهم التي تحمل السيوف. وعلى الرغم من الطقس المطير ومن وحل المسالك ومزالق الدروب على الصخر فقد زحموا الممرات الجبلية وأطلوا على الأرض الفرنجية يفتحون ويحملون مع السيف القرآن! عمر ابن عبد العزيز بعث إليهم من الشام من يدرس الدين ويعلمهم الشريعة في جنوب فرنسا! أهي المغامرة المجنونة؟ كلا بل هو الإيمان يسحق كل صعب ويذلل كل مشقة. وانساح العرب الفاتحون في الجنوب الفرنسي على مدن البحر المتوسط كما انساحوا شمالاً مبعدين في السهول والتلال ما بين الأطلسي وجبال الكتلة المركزية الفرنسية.

عبروا نهر الغارون ومدينة بوردو في اكتساح خاطف. عصفوا بالغابات عصفاً. وعلى نهر اللوار كانت لهم واقعة بواتييه!

هذه الموقعة تحمل أسماء عديدة فهي معركة بواتييه، ومعركة تور عند الفرنجة ومعركة البلاط أو بلاط الشهداء أو غزوة البلاط عند العرب. وقد نسج الفرنجة حول هذه الموقعة من الأساطير، والبطولات ما لا حد له كما حملوها من النتائج ما لم تحمله أصلاً. ولكنهم كانوا بحاجة إلى بعض الأمجاد بعد الهزائم فجعلوا من هذه المعركة نهاية عصر وبداية آخر. وزعموها المعركة الفاصلة. واعتبروها معركة الإنقاذ لأوروبا ... من الإسلام ...

في التاريخ الإسلامي، المعركة جرت مبكرة جداً منذ حوالي ١٣٠٠ سنة وسنة (٧٣٢م) في رمضان. كانت الريح الصقعية قد بدأت تجمد الأطراف في شهر نوفمبر من تلك السنة. والمطر ينهمر وابلاً تارة ورذاذاً أخرى وطلاً بين حين وآخر. والوحل يغرق تحت السنابك وينتثر على ظهور الخيل والغمام الأسود الثقيل ينقشع تارة ويتكاثف تارة.. أفق جهم بلى! ولكن شعلاً من الإيمان كانت تخترقه وتخب فيه وتضع بين مرحلة وأخرى.قائد القوم هو والي الأندلس نفسه عبد الرحمن الغافقي، وهو من التابعين خرج من قرطبة بالجيش شمالاً إلى غربي جبال البيرنيه وتابع. لم يكن الولاة في الجهاد إلا على رؤوس أصحابهم دوماً. وعرف الغافقي من بعض عيونه وممن بعث لتنسم الأخبار أن تجمعات ضخمة من مختلف الفرنج تتجمع لملاقاته. ولكنه لم يأبه لها. كان صائماً متكلاً على الله في الجهاد فلم يأبه للأخبار. قد تعود النصر وصار والموت أليفين. ولا شك أنه عرف أن قائد الجيش الفرنجي هو شارل القيم على ملك الفرنجة الميروفنجي الضعيف. ولكن من شارل هذا؟ إنه الولد غير الشرعي لأبيه القيم على القصر! وأما جيشه فمجموعة من أشباه الوحش. بعضهم يحتل على أكتافه المطارق وبعض السيوف الثقيلة يحملها بكلتا اليدين

وبعض على البغال تدب به وبعض من أنصاف العراة. ورائحتهم تجلب القيء....

إنهم لا يعرفون ككل الأوروبيين الاغتسال. ولكنهم جمع كثيف كثيف. من مختلف العشائر الجرمانية المتوحشة ومن المرتزقة فيما وراء الرين ومن الجند غير النظامي يتشحون بجلود الذئاب وتنسدل شعورهم الجعدة على أكتافهم العارية وإنما النصر من عند الله يعطيه من يشاء ﴿وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾.

ودخل المسلمون المعركة. لم تكن الأرض أرضهم فيعرفونها ولا الأجواء أجواء بلادهم الصحراوية فيتقبلونها وتدافعت كتائبهم تترى وسط المطارق والسيوف،عشرة أيام دام القتال حتى ونت الأيدي وتعبت الناس والخيل.

ما انثنت الكتائب ولا نظرت وراءها وهي على ألف كيلو متر من البعد عن المدد البعيد.

كلما انهار حائط من جنود أتبعته بحائط من جنود!

وتسامع الناس فجأة أن مهر القائد الغافقي زلق به في الوحول فقتل. كان القائد لهم أشبه براية النصر فاضطربوا وفتر القتال وتراجعوا إلى خيامهم يتحاورون. فتَّ في أعضادهم مصرع القائد فقرروا التراجع تركوا خيامهم بما فيها من الغنائم وانسحبوا. وحسب الجيش الفرنجي أن الانسحاب خدعة فلم يلحق بهم حتى أبعدوا ولكن المعركة كانت قد خسرت! هل أخطأوا بالانسحاب المفاجئ؟ هل قدروا أن مجموعهم المحدود لا يقف لهذه الجموع الوحشية؟ هل ظهرت بوادر من صعوبة الاستمرار في معركة لا نصر فيها؟

من الغريب وقد يكون من المؤسف أن المصادر الإسلامية لا تعطي أي أهمية استثنائية لهذه المعركة. الذين ذكروها من المؤرخين المسلمين يذكرونها في أسطر لا تزيد على ثلاثة. لكن الطبول الكبيرة التي ضربت لها إنما كانت في أوروبا. اعتبروها النصر العظيم الذي أوقف نهائياً زحف الإسلام. مائة معركة

ناجحة جرت بعدها وربحها المسلمون في فرنسا نفسها ولكنهم يقفون عند هذه المعركة وينشدون الأساطير ويستنتجون ما كان وما لم يكن ويذكرون أن المسلمين خسروها :

ــ لوجود خلاف في الجيش الإسلامي بين البربر والعرب وتلك أسطورة فلم يكن هذا الخلاف قد ظهر بعد .

ــ ولأن الجند خافوا على غنائمهم التي أثقلتهم فلما سمعوا بأن الجيش الفرنجي يزمع تطويقهم تراجعوا إلى الغنائم وهزم الجيش وقتل القائد . وهي أسطورة أخرى لأنهم تركوا الغنائم في الخيام . ما حملوها وهربوا بها .

واشتركت الكنيسة في التهويل ، والإمارات الفرنجية في التغني وجماهير المؤرخين من بعد في تداول الأساطير وقال بعضهم : لولا هذه المعركة لكنا جميعاً مسلمين وكان القرآن يدرس في أكسفورد وجامعة باريس !

وليسوا بالقليلين أولئك الكتاب الغربيون الذين يرون في نصر الفرنجة في بواتييه هزيمة للحضارة والتقدم والذين يعتبرونها نكبة كبيرة لأوروبا وضربة للحضارة وكرامة الإنسان !

ولكن شارل القائد حاز على أي حال لقب شارل مارتل أي المطرقة ! ولم يصبح فقط بطلاً ولكن كان أساس تحول الملك الفرنجي من الأسرة الميروفانجية إلى الأسرة الكاروليخية ! أسرة شارلمان ..

هزيمة شارلمان

شارلمان. هذا الاسم ليس من دارسي التاريخ تقريباً من لا يعرفه. الفرنسيون ينسجون حوله هالة من الأساطير. وكثيراً ما يبدأ بعض الأوروبيين تاريخهم المتألق به: أليس هو شارل الأكبر إمبراطور الفرنجة والجرمان الكبير؟ إنهم لكي يزيدوا في تألقه يقرنونه بهارون الرشيد (فقد كان معاصراً له) ويزعمون تبادل الهدايا بين العاهلين. كأنهما كانا على قدم المساواة. فالرشيد في الشرق وشارلمان في الغرب! وما شارلمان سوى طاغية وحشي، أمي تماماً، وما كسب مجده إلا بطول عهده الذي استمر ٤٨ سنة. وإلا بتحالفه مع البابا الذي توَّجه سنة ٨٠٠م. في كنيسة القديس بطرس بروما إمبراطوراً على الرومان يقابل إمبراطور الروم في القسطنطينية وألبسه التاج. وكانت سمعة جده شارل مارتل قد كبرت وتضخمت بجهد الكنيسة فهو منقذ المسيحية من الإسلام الغازي!!

وقارة أوروبا كانت في ذلك الحين أرض العنف والعسف على ألوانه كنيستها أمية جاهلة مرتزقة وأرستقراطيتها المسيطرة محرومة من كل ثقافة. صاخبة. جشعة. هي أبداً وراء لذاتها وقتالها. وقبل أن يصبح شارلمان الإمبراطور كان قد أنشأ قوة وحشية محاربة جعلت هذه الأرستقراطية تقبل مغامراته الحربية. ومن هذه المغامرات: مغامرته مع العرب المسلمين في الأندلس.

مملكة شارلمان ضخمة تحتل غرب أوروبا تقريباً ووسطها. ولكنها مهلهلة المؤسسات، همجية الطابع وهذا ما أعطاها القوة القتالية. وحين برز

عبد الرحمن الداخل في الأندلس واستقر توجست مملكة الفرنج خيفة من هذه الدولة الناشئة. وقامت بتحريض عدد من العصاة على عبد الرحمن ومدهم بالقوة اللازمة لنقض حكمه. وبخاصة في المناطق الشمالية المتاخمة لها عبر جبال البيرنه (البورتات) قرب الحدود. وذات يوم وصل إلى شارلمان وهو في شمال ألمانيا في سكسونيا أحد هؤلاء العصاة يطلب معونته وتدخله لإيقاف عبد الرحمن الداخل! بلغ العمى الحقدي أن يستعينوا بالفرنج ضد المسلمين. وحبذا الإمارة ولو على الحجارة! لم يكن هذا الثائر العاصي يحكم أكثر من مدينة في شمال الأندلس هي برشلونة واسمه سليمان بن يقظان الكلبي ويعرف بالأعرابي. وقد اتفق مع ثائر آخر يجاوره في مدينة أخرى هي سرقسطة واسمه الحسين بن يحيى الخزرجي: جمع العصيان الاثنين. وقد كاتبهما عبد الرحمن الداخل فلم يجد منهما أذناً تصغي ولا وجداناً يرعوي. فأرسل عليهما جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد فهزما هذا الجيش وأسرا ثعلبة. وذهب هذا الأعرابي بثعلبة إلى شارلمان يقدمه إليه عربون وفاء وولاء ليكون أميراً من جانب شارلمان على ما بيده من برشلونة ويكون صاحبه الحسين مثله في سرقسطة! والمدينتان في شمال الأندلس.

ولا شك أن شارلمان فرح بهذا الخائن. إنه يفتح أبواب الأندلس وراء جبال البيرنه. لهذا لم يعده المساعدة فحسب. ولكنه حشد جيشه وذهب على رأسه طامعاً بدخول سرقسطة. والانسياح بعدها في الأرض الأندلسية. وشهدت جبال البيرنة في الممر الشرقي منها ممر بربينيان. وفي الممر الغربي، ممر رونشفالة عبور العساكر. شعث الشعور بمغافر ذات قرون، وملابس من الجلود تدب معها البغال والعربات وأكوام الأسلحة... كانت خطة شارلمان أن يدخل جيشه من الممرين لسرعة العبور ولكي يصل بسرعة إلى تثبيت أقدامه في سرقسطة!

ولكن شارلمان صدم حين وصل أسوارها! لقد حصنها زميله الأعرابي:

الحسين الخزرجي وتحصن بها . بل دافع عنها بشراسة وتصميم . هل استيقظ ضميره؟ قد يكون . ولكنه في طلب المعونة من شارلمان لم ينتظر أن يكون المعين هو شارلمان نفسه . وذلك يعني ضياع سرقسطة من يده ! وعبثاً حاول صاحبه الأعرابي إقناعه لكنه أصر على الرفض رغم اشتداد الحصار . وطال الأمر ثم طال . وما حسبه شارلمان نزهة أضحى حرباً وما حسبه غنيمة باردة صار دماء تجري وجماجم تدق . وعرف شارلمان أن عبد الرحمن الداخل قد خرج إليه من قرطبة . فارتعد . لم يجد من سبيل سوى الفرار بجيشه فأمر بالانسحاب ... ولكنه أخذ معه الخائن الأعرابي رهينة لا يدري ما يفعل بها . ومر في طريقه بمدينة بمبلونة عاصمة نافاره فصب غضبه عليها ودك حصونها دكاً !!

وعلم ولدا الأعرابي : عيشون ومطروح بارتهان أبيهما فهبا لإنقاذه . جمعا ما استطاعا من المتطوعة المسلمين ، وذهبا إلى ممر رونشفاله حيث يعبر جيش الطاغية فاتفقا مع سكان المنطقة من البشكنس (الباسك) ومن غيرهم . وفيما كان الجيش في مضائق الممر يعبر فارساً بعد الآخر انقضت عليهم الحجارة الضخمة تهوي من أعالي الصخور . كانت مقدمة الجيش قد عبرت ولكن المؤخرة هي التي وقعت في مصيدة المضيق . وفي المؤخرة كان كبار الضباط وأكوام الغنائم وعشرات الألوف من الأسرى في الأغلال وأبيدت القوة كلها واسترجعت الغنائم واستنقذ الأسرى وكان بينهم الأعرابي . وعاد شارلمان بخفي حنين . حاول أحد الضباط الكبار أن يجرب فروسيته فجندلوه على الصخور ! وظلت الصقور تحوم شهوراً حول الجيف حتى امتلأ الجو بنتنها أما هذا الضابط واسمه رولاند . فقد نظم الفرنسيون حوله قصيدة شعبية تصور مصرعه . وما لبثت هذه القصيدة أن شاعت وأضيفت إليها مقاطع بعد مقاطع وأساطير بعد أساطير فإذا هي ملحمة طويلة يعتبرها الفرنسيون أول أثر أدبي شعبي من آثارهم . صارت أنشودة يغنيها شعراء التروبادور أي الشعراء الجوالون للأمراء وللناس على الطرقات . وتعرف حتى اليوم بأنشودة رولاند !

أما شارلمان الذي يدعوه العرب بقارله فقد تاب بعد هذه المغامرة فلم يكررها . بل بعث إلى عبد الرحمن الداخل يطلب السلم والمصاهرة ... وتم السلم . ولكن عبد الرحمن رفض المصاهرة !

لم يقبل أن يكون صهراً لهذه الجموع المتخلفة !

معركة ذات الصواري

يزعم بعض المؤرخين أن العرب الفاتحين لم يكونوا يعرفون البحر ويضيفون تأييداً لفكرتهم أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو ابن العاص يسأله أن يصف له البحر فكتب إليه كتاباً مما جاء فيه : البحر شيء كبير ، الإنسان فيه شيء حقير ، الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود ، والإنسان فيه دود على عود إن هاج أزاغ القلوب وإن هدأ ... وهذا كله حديث خرافة يا أم عمرو . ولو تذكر من يتقبلون هذا الحديث أن الهجرة الإسلامية الأولى إنما كانت على البحر إلى الحبشة وتذكروا أوصاف شعراء الجاهلية للبحر من مثل :

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد

وتذكروا ملاحة اليمن وعمان وتذكروا مفردات الأدوات البحرية في اللغة العربية وأن عمر بن الخطاب نفسه وهو في مكة أو المدينة لم يكن بينه وبين البحر سوى رمية حجر وأنه هو نفسه كان يعمل في الجاهلية مبرطساً أي عميلاً تجارياً في غزة قبل الإسلام وهي على البحر لو تذكروا كل ذلك لما احتاجوا إلى هذه الخرافة لبيان عدم اهتمام العرب بالبحار ...

والواقع أن القوة العربية في مختلف العصور كانت قوة برية في الدرجة الأولى وكانت القوة البحرية حتى في أيام الأمجاد قوة مساعدة أو قوة ثانوية مساندة وإن كان هذا لا يعني أنها لم تكن قوة رهيبة الجانب رائعة الإعداد وقد حققت من الأعمال والفتوح ما لا نزل نفخر به إلى اليوم . وقد غطت الرياح والعواصف على الكثير من أمجادها على الأشرعة وفوق الموج .

ونسجل للتاريخ أن أول من اهتم من رجال العرب السياسيين بالبحر هو معاوية بن أبي سفيان. أدرك وهو في الشام ما للأسطول من قيمة حربية في مناوأة الروم وفي كف أذاهم وردهم عن الشواطئ العربية على البحر المتوسط. كان البحر مفتوحاً لتحركاتهم في حين انكمشت على البر أراضيهم من خليج الاسكندرونة إلى غزة إلى الاسكندرية إلى برقة إلى طرابلس وطنجة في تونس وما وراءها. وهكذا لم ينقض زمن قصير على وفاة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حتى شرع معاوية، في خلافة عثمان، وهو ما يزال والياً على الشام في جمع بناة السفن من الموانئ والثغور وتدبر الأخشاب لهم من جبال طوروس والشام وشرائه من عمال البحار في كيليكيا الرومية. وسرعان ما انتهت في بضع سنوات أعمالهم في عكا خاصة وفي دمياط والاسكندرية بقيام أسطول بحري جنّد له المتطوعين حتى من البحارة النصارى. كان عمل الأسطول جديداً على المسلمين كما كانت المغامرة في البحر لا تلقى الإقبال الكافي من المقاتلة ولكن معاوية تمكن مع ذلك من التحرك بالأسطول الذي اجتمع له إلى جزيرة قبرس سنة ٦٤٩/٢٨هـ.

كانت هذه الجزيرة المتوسطة بين الساحل الشامي والساحل المصري وسواحل الروم أعظم القواعد الاستراتيجية للأسطول الرومي في المشرق. ونزل بجنوده في الجزيرة. وكان قد أوصاه الخليفة أن يحمل مع الملاحين أهليهم ليكونوا أكثر شجاعة. وفي النزول فقد معاوية زوجه أم حرام فكانت أول شهيدة محاربة عبر البحر في الإسلام. ونجح معاوية في التوغل في قبرس وفي الاستيلاء على قسطنطينة عاصمتها. ولم تحصل الروم على الهدنة مع معاوية لمدة ثلاث سنوات إلا بعد أن تعهدت بدفع مبالغ طائلة. ارتاحت خلالها ثغور الشام ومصر من الهجمات البحرية المباغتة.

في سنة ٦٥٤ تجددت العمليات الحربية في البحر. في عنف أشد من ذي قبل. ظهرت أشرعة الأسطول الإسلامي وتعرضت جزيرة رودوس عند

مدخل بحر إيجة للإغارة والنهب وتدمير الحصون . ثم وقعت في أيدي رجاله جزيرة كوس ووصلت غارات التخريب والنهب إلى جزيرة كريت ... هل كان معاوية ينوي من ذلك مجرد النهب والسلب ؟ الواقع أنه كان يمهد لمشروع في رأسه هو الاستيلاء على القسطنطينية . وكان بهذه التحركات المتوالية يحرص على تأمين الطريق البحري المؤدّي إليها بالاستيلاء على قبرص ورودوس وكوس وكريت وكلها على مداخل بحر إيجة !

وضاق الروم ذرعاً بهذه الهجمات البحرية المتوالية وأدركوا الهدف منها لهذا أمر الإمبراطور قنسطانز فجمعوا أسطولهم من مختلف الموانئ حتى من صقلية سنة ٦٥٥/٣٤هـ فكان أضخم قوة بحرية تجتمع للروم وسار الإمبراطور به على الموج على طول الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى . كان يريد تحطيم الأسطول الإسلامي غرقاً تحت الماء . وكان يعرف أنه يتزود بالأخشاب من ذلك الساحل . وتراءى الأسطولان أحدهما للآخر قرب الشاطئ في خليج ليكيا العريض الواسع . غير بعيد جداً من خليج الاسكندرونة ويبدو أن المسلمين كانوا على الحذر الشديد والأهبة للطوارئ . وانقضت الأشرعة الرومية كالصقور على الأسطول الإسلامي الذي يظهر أنه كان يتزود بالأخشاب من ذلك الساحل أو أنه كان يحمل حمولة حسنة منها فتلقى المسلمون الهجمة بثبات وصبر . وأخذت السفن في الدوران والمراوغة ومحاولات تدمير المجاديف وقذف المجدفين بالنبال والتدافع لتحطيم الدَّفات أو شد بعض السفن بالكلاليب للانقضاض عليها وعلى ملاحيها . ومزقت النبال وحجارة المجانيق الأشرعة وكسرت الكثير من الصواري ... وبدا للمسلمين أن المعركة خاسرة إذا لم يقوموا بعمل خارق ... وقاموا بهذا العمل . قربوا سفنهم بعضها من بعض وربطوها بعضها ببعض بالحبال حتى غدت صفاً واحداً هاجموا به مرة واحدة السفن الرومية . فأغرقوا بعضها وحطموا جوانب الكثير منها ونزلوا على ظهورها كأنما يحاربون في البر . ونجحت الخطة فقد تمكنوا من الروم وأسفر القتال عن

انتصار ساحق لهم !! وفرت باقي سفن الروم وعلى ظهرها الإمبراطور قنسطانز نفسه وقد كاد في إحدى الهجمات يقع أسيراً في أيدي المسلمين ... السفن الرومية الهاربة تابعت الإبحار بالإمبراطور حتى صقلية !! وفقد الروم في هذه المعركة معظم سفن أسطولهم وهيبة أسطولهم على البحر !

هذه المعركة هي التي ورد ذكرها في المصادر العربية باسم ذات الصواري . هل سميت بذلك لكثرة الصواري التي تكسرت فيها أم أنها أول معركة بحرية تنشب بين القوتين الإسلامية والرومية . وأنها رفعت يد الروم عن شرقي البحر المتوسط سنين طويلة جداً فلم يظهر لهم شراع يعتدي في أي من الثغور ...

ثأر معركة الصواري لم يأخذه الروم إلا بعد مضي خمس وسبعين سنة !

معارك مجهولة الأخبار

في قرية مغمورة جنوبي مدينة إسكي شهر الحالية في تركيا (وكانت تدعى من قبل دوريليوم) ثم قبة ومزار يلتمس الناس عنده البركة والعون ولو سألت المتبركين به عن صاحب هذا القبر لقال العارفون منهم :

ـــ إنه قبر عبد الله البطال !

وقد يضيف بعضهم إنه البطال الغازي ويعتقدون أنه تركي من الأبطال المحاربين وينسجون لك من حوله الأساطير المتوارثة . فهو الذي كان يمسك في الحرب بعشرة رجال فيضرب بعضهم في بعض وهو الذي كان يضرب بكتفه الأسوار أو أبواب المدن ويهدها وهو الذي بلغ وزن سيفه نصف قنطار إلى ما هنالك من الأساطير التي تجعله من طينة تفوق البشر . وقد تقارنه بهرقل اليونان . والرجل حقيقة واقعة وبطل من أبطال الجهاد وهو عربي عربي وإن حوته الأساطير وقد وجد على جبهة الروم في أواخر عهد الدولة الأموية . وآخر أعماله اشتراكه في معركة أكردينون سنة ٧٤٠م (١٢٢هـ) أو كما يدعوها العرب معركة أفرن (أو أفيون قره حصار) على مسافة غير بعيدة من عمورية .

فبعد أن فشل مسلمة بن عبد الملك في الحصار الثاني للقسطنطنية سنة ٧١٨ دأب الخليفة يزيد بن عبد الملك وهشام أخوه من بعده منذ سنة ٧٢٦ على أن يغير المسلمون سنوياً على آسيا الصغرى . فلا يقر للإمبراطورية البيزنطية قرار وقد دمروا قيصرية وحاصروا نيقية . وفي سنة ٧٣٧ (١١٩هـ) أمعنوا في غاراتهم حتى بلغوا طوانة وكلها من غرب آسيا الصغرى فحاصروها سنة ٧٣٩ غير أنهم لم يحرزوا النجاح الذي يرجون بل تعرضوا في السنة التالية

للهزيمة في معركة أفرن وكانت هزيمة منكرة تراجعت فيها سيوفهم والنبال وخسروا الكثير من الرجال ولحق بهم البيزنطيون في مسالك الجبال استئصالاً وقتلاً . . .

في هذه المعركة قتل عبد الله البطال الرجل الذي يبدو أنه كان قائد القوم والبطل الأشهر وبدأ البطال الأسطوري في الظهور . وكان من نتيجة الموقعة أن جلا العرب عن الجزء الغربي من آسيا الصغرى وتراجعوا نحو الشرق وحين حل العباسيون محل الأمويين ظلت الحدود تقوم على خط متعرج يقطع الأناضول من وسطه ويمر من غرب خليج الاسكندرونة حتى غرب سيواس وطرابزون وغرب نهر آق صو .

وضاعت أخبار عبد الله البطال في ضباب الأساطير . . .

ووجه العرب المسلمون همهم إلى شرقي آسيا الصغرى ولعلهم فكروا بالالتفاف على القسطنطنية من ورائها فيأتونها عن طريق الطواف حول البحر الأسود . يكشف هذا ويؤيده أن مروان بن محمد ابن عم الخلفاء (الوليد وسليمان ويزيد وهشام أولاد عبد الملك) عين لقيادة جبهة القفقاس حوالي ١٢ سنة . ومروان هذا بطل مجاهد وإن ظلمه العباسيون حين سمّوه بمروان الحمار وظلمه الواقع التاريخي حين أصبح الخليفة الأموي الأخير . وخسر معركة الزاب أمام عبد الله بن علي بن العباس فلاحقه الجيش العباسي حتى مصر وقتله في كنيسة أبي صير في الصعيد ورمى أولاده في السجون ما يزيد على أربعين سنة حتى ماتوا فيها .

وعَبْر جبال القفقاس إلى الشمال وحول بحر قزوين كان هناك شعب الخزر . وكانوا من الشعوب البدوية وعملهم الرئيس هو تجارة المرور فقد كان أبعد خطوط التجارة العالمية إلى الشمال والآتي من الصين يمر ببلادهم في طريقه إلى بيزنطة وأوروبا . ولم يكن لهم دين محدد ولذلك كانت تتجاذبهم الأديان الثلاثة : ففيهم بعض اليهود وبعض المسيحيين قبل أن يدخل إليهم مع التجار المسلمين الإسلام . أما كثرتهم فكانت لعبادة الأرواح والقوى الطبيعية .

وإنتاجهم الأساسي من الصيد البري والبحري والنهري والفراء ولهم دولة وملك. وعاصمة على دلتا نهر الفولغا تسمى /إيتل/. ويمتد انتشارها من شبه جزيرة القرم حتى نهر الفولغا الأوسط وحتى الصحارى في شمال خوارزم وكانت علاقات الخزر بسبب التجارة قوية مع الروم البيزنطيين أكثر منها مع المسلمين الذين كانت بين الخزر وبينهم ثلوج جبال القفقاس.

وعلى أي حال فإن تولي مروان بن محمد للقيادة على هذه الجبهة كان له تأثيره في الخزر. ويبدو أن التجار المسلمين صاروا ينفذون من الممر الذي يدعى باب الأبواب على سيف بحر قزوين إلى العاصمة إيتل ويحملون مع تجارتهم الدين الإسلامي للناس. وليس ببعيد أن يكون مروان بن محمد قد استخدم بعض هؤلاء التجار عيوناً له لمعرفة مدى قوة الخزر وما يحتاج لغزو بلادهم.

على أننا في ضباب هذه الأمور المجهولة نعرف أمرين هامين:

الأول: أن ملك الخزر، أغار على الأراضي الإسلامية. عن طريق باب الأبواب دخلها ووصل أرمينية. ثم زوج ابنته سنة ٧٣٣/١١٩هـ، في خلافة هشام بن عبد الملك من قسطنطين ابن الإمبراطور ليو الثالث. وهي المعروفة في التاريخ البيزنطي باسم إيرين وهذا يعني أن حلفاً خزرياً بيزنطياً قام بين الطرفين لضرب العرب في جبهة القوقاز قام به الخزر بدفع من الروم أو بمعونتهم دون شك جواباً على تطويق العرب المسلمين للقسطنطنية. ولتوثيق الحلف تم هذا الزواج السياسي.

ولقد قامت معارك بين العرب المسلمين والخزر دون شك. وكانت معارك مريرة. ولعلها تكررت أكثر من مرة. وإن كنا لا نعرف عنها إلا القليل جداً. وتظهر مرارتها في أعمال الخليفة المنصور العباسي الذي ولي الخلافة بعد ذلك بعشرين سنة ومد السور الذي يقوم عنده باب الأبواب مسافة واسعة ضمن بحر الخزر ليكون ذلك سداً في وجه أي هجوم خزري.

الثاني: تعيين مروان بن محمد قائداً لهذه الجبهة وهو البطل المحارب

الصبور وفيها الأرمن والكرج واللان وشعوب القوقاز الأخرى. ولم تكن هذه الشعوب بالثائرة أو بذات الخطر على المسلمين. ولكن الخطر كان يكمن وراءها ووراء جبال القفقاس الثلجية الوعرة. ونعرف في الأخبار التاريخية أن مروان بن محمد قد عبر باب الأبواب ودخل بلاد الخزر وحاربهم دون شك حروباً عديدة في معارك نجهلها بدورها فلم يسجلها أحد وكل ما قالوه عنها أن مروان عاد من حملاته هذه بمائة ألف أسير وأسيرة ولا شك أن حملاته هذه كانت غزوات سياسية لتدمير الحلف الرومي الخزري ودينية لنشر الديـن الإسلامي. وتجارية للسيطرة على طريق الحرير المار شمال بحر الخزر والبحر الأسود. ووصل في فتوحه إلى ما بعد قازان قرب موسكو.

إن مجرد عودة مروان بهذا العدد الضخم من الأسرى (وبالرغم من افتراض المبالغة الشديدة فيها يدل على أن المعارك لم تكن معركة واحدة ولكنها معارك ولا في موضع واحد ولكن في مواضع عديدة ولكن كيف السبيل إلى معرفة ذلك إلا ظناً؟ وتخميناً...

إن العلم عند الله. عالم الغيب والشهادة! ولقد خسرت جبهة الخزر بتسلم مروان عرش الخلافة فقد تركها مفتوحة على البلاد الإسلامية تغزوها بتحريض الروم وترك انتشار الإسلام فيها فتحولت إلى اليهودية كدين محايد لا نصراني ولا مسلم. وهنا كان الخطر الأكبر. بلى! فمعظم اليهود الروس من هؤلاء الخزر. إنهم القبيلة الثالثة عشرة ولولاهم لما كان لقضية فلسطين اليوم وجود!

المأمون والروم

الخليفة المأمون بن الرشيد خليفة تجمع المصادر على امتداح عقله وعلمه ورعايته للعلماء وترجمته للكتب الفكرية فهو مثال الخليفة المستنير. وهذا المديح يكاد يطغى على أعماله الأخرى فلا يذكر له الناس قتله لأخيه ولا إدارته الفاشلة ولا الثورات التي لم يستطع إخمادها وإن كانوا لا ينسون له بدء الأزمة الدينية التي عرفت بخلق القرآن. فهل يذكر الناس جهاده أيضاً للروم؟ وإذا تخلى أبوه الرشيد عن بغداد في السنين الأخيرة من حياته وقضى تلك السنين بين الغزو للروم والحج فإن المأمون قد تخلى عنها أيضاً في السنوات الأخيرة من خلافته وقضى تلك السنين في إخماد الثورات وفي الجهاد على جبهة لروم...

على أن جهاد الأب للروم كان ذا منطلق ديني. كان نوعاً مما نستطيع أن نسميه واجبات الخليفة. أما جهاد المأمون فكان ذا دوافع مختلفة فقد اختط به ضيق المأمون بثورة عليه هي ثورة بابك الخرمي الذي ثار في منطقة الجبال شمال غربي إيران وفي أرمينية يبشر بالخرمية ضد الإسلام. وما إن اتصل الإمبرالور الرومي تيوفيل. الذي وصل في تلك الفترة إلى العرش مع بابك للتعاودحتى نزح إلى الأراضي البيزنطية عدد كبير من الخرمية ودخلوا في خدمة الإمبراطو لتدعيم مركزه. قام بالوساطة بين الطرفين قائد من أصل فارسي نشأ وتربى في القسطنطنية واشتهر باسمه اليوناني تيوفوبوس فجعله الإمبراطور على رأس هؤلاء الغرباء بسبب فارسيته ومعرفته للغة. على أن هؤلاء الخرمية أرادوا أن يلعبوا دوراً سياسياً بتنصيب إمبراطور آخر فلم يستجب لهم الرجل الذي

اختاروه بسبب أفضال تيوفيل عليه. وترتب على ذلك أن أمر تيوفيل بتوزيع هؤلاء الخرمية وعددهم كما يقولون يزيد على خمسة عشر ألف رجل على ثغور الإمبراطورية فجعلهم في فرق يبلغ عدد كل منها ألفين ـ كان هذا التصرف يعني نشر الثورة البابكية من شمال شرقي العراق إلى شماله وشماله الغربي على طول الحدود مع الروم ودعم ثورة بابك هذا تهديد سياسي خطير للمأمون بوضع هؤلاء الثوار على طول الدربين الرئيسيين اللذين تجري عليهما الجيوش الإسلامية في غاراتها على الروم: درب أبواب كليكيا الذي يزيد في الطول على سبعين ميلاً ما بين هضبة آسيا الصغرى والسفوح الجنوبية لجبال طوروس ومفتاح هذا الممر قلعة اللؤلؤة التي يضرب بها المثل في المناعة. وتتحكم في الطرق والدرب الثاني طريق مرعش ويحميه حصن الحدث. على ضفة نهر آق صو وهو الذي يسلكه الغزاة والتجار.

في سنة ٢١٥/٨٣٠هـ، في الربيع كالعادة تحرك الإمبراطور تيوفيل بعساكره كقطعة من الليل نحو الحدود الإسلامية في قلب الأناضول. يصحبه خاله تيوفوبوس ومحاربو الخرمية. اجتاز الجبال بهم حتى هبط درب كيليكيا. كان واضحاً من كثافة القوى الرومية أن الإمبراطور يقصد غنيمة كبيرة وهزيمة منكرة للمسلمين وكانت مدينة زبطرة بقلاعها الشهيرة أهم بلد في طريقه. وقد قصدها بالفعل ولم تستطع حاميتها الدفاع عنها أمام الجيش اللجب فاستسلمت. فدخلها الروم والخرمية. وكل منهما أشد حقداً من الآخر على المسلمين فأعملوا بها الحرائق والخراب. وقتلوا الأعداد الكبيرة من سكانها. قبل أن تتمكن القوى الإسلامية من إنجادها.

ونقلت الأخبار إلى الخليفة المأمون وهو في بغداد، فبادر بالخروج منها في السنة نفسها ولم يعد إليها بعد ذلك أبداً. (فقد قضى سنواته الثلاث الأخيرة في أرض الروم وفي الشام ومصر) اتجه من بغداد إلى الموصل ثم اتجه غرباً

حتى منبج قرب حلب وعبر بأنطاكية ومنها إلى طرسوس الثغر المجاهد في جنوب آسيا الصغرى.

لم يكن جيشه الجيش الإسلامي الوحيد فقد أرسل ابنه العباس بجيش أضخم منه عبر الحدود من وسطها وانتقلت منطقة الثغور من قبادوقيا إلى كيليكيا إلى مسرح واسع للمعارك. ألقى المسلمون بكل فرقهم في الميادين وألقى الروم بمثلها. ووجه الجيش الإسلامي همه إلى احتلال الحصون المتحكمة في الدروب فسقط معظمها في يديه. وحين حاول الروم استرداد بعضها في هجمة مفاجئة قادها الإمبراطور تيوفيل نفسه هزم وتبعثر جنده في الصخور والشعاب وتحولت الهزيمة إلى هرب عنيف للفرسان الذين زلقت بهم السنابك وسقطوا في المهاوي. وكان من بينهم الإمبراطور نفسه الذي أجاره الحرس الإمبراطوري. وأنقذوه من القتل فتابع طراده هارباً بهم تلحقه عاصفة من الغبار.

وانتهت مجموعة المعارك التي ضربت الحدود كلها بسيطرة المسلمين عليها. وقر رأي المأمون على البقاء مع ابنه العباس على الحدود في انتظار الربيع المقبل، موسم الغزو. استقر المأمون في أذنة (أضنة الحالية) قرب طرسوس وفوجئ هناك برسول من الإمبراطور تيوفيل يعرض على الخليفة إطلاق سراح خمسمائة أسير وتسليمه الحصون التي وقعت في يد الروم مقابل هدنة لمدة خمس سنوات. غير أن المأمون رفض وأصر على متابعة القتال. كان واثقاً من قوة جيشه وقدرته على خصمه. والواقع أن وصوله في أواسط الصيف لم يترك له ولابنه العباس الوقت الكافي للنصر الحاسم الذي اعتزمه. فقبع ينتظر الربيع التالي.

وجاء الربيع، والربيع في مناطق الحدود لم يكن يتفتح أزهاراً فحسب ولكن ينفتح شرايين تسكب الدماء الحمراء. وهكذا استسلمت للمسلمين مدينة هرقلة في قلب الأراضي البيزنطية. أرسل إليها المأمون بجيوشه فأذلت

أسوارها وحماتها. ونقبت حوائطها وتسورتها بالسلالم. ولم يمسها الجيش إلا بأقل الأذى لأن دخولها كان لمجرد الإذلال لا الفتح. وأما العباس بن المأمون فقد تصدى له الإمبراطور تيوفيل بنفسه فأحرز عليه العباس انتصارات متتالية سريعة عنيفة ردته إلى ما وراء الحدود. بعد أن وقعت للعباس مناطق وحصون عديدة.

في فترة الشتاء التالي توجه المأمون إلى مصر يقضي على الفتن فيها. ويلحقها بخلافته. بعد أن اضطرب أمرها. فبقي فيها شهرين من سنة ٨٣٢ قبل أن يعود في الربيع الثالث إلى مسرح العمليات في آسيا الصغرى. ووجه همه للاستيلاء على حصن لؤلؤة المنيع. وهو يشرف على درب كيليكيا ويتحكم فيه.

ضرب المأمون عليه الحصار مائة يوم. وصمد الحصن للحصار الطويل. فمنع المأمون دخول الأقوات والمؤن إليه. وعهد إلى أحد قادته بمتابعة الحصار وعاد إلى طرسوس. ولم يكن قد بلغ هذه المدينة حين جاءه رسول يبلغه أن الحصن استسلم بعد أن يئس جنده من كل مساعدة خارجية وبدأت فيهم عضة الجوع. وكان المعتصم أخو المأمون من شهود هذا الاستسلام.

ووصلت إلى المأمون عدة عروض من تيوفيل. للهدنة ووقف القتال. ولكن المأمون أصر على المتابعة. لم يثق بما جاء في رسائل الإمبراطور من وعود. وجهز حملة واسعة القوى بما اجتمع إليه مع أخيه المعتصم من الجند والمتطوعة. وعبر الحدود البيزنطية. يدمر حصونها ويستولي على حامياتها...

ويشاء الله أن ينقطع بالمأمون عند ذلك حبل الرجاء. فقد أحس التوعك فعاد بقسم من جيشه إلى بلدة البدندون قرب طرسوس. وحلت به حمى شديدة أدت إلى وفاته تلك السنة ٨٣٢/٢١٨هـ وشيع جثمانه ليدفن في طرسوس. كان في الثامنة والأربعين حين توفي.

كان أخوه المعتصم بجانبه عند الوفاة فعهد إليه بالخلافة ، وهو أمي .
لكنه مقاتل عنيد جبار . لماذا لم يعهد بها إلى ابنه العباس ؟ ما من أحد يعلم !
وكما تحولت الخلافة بعد أبي العباس أول الخلفاء العباسيين إلى أخيه المنصور وأولاد أخيه من بعده تحولت الخلافة هذه المرة إلى المعتصم وأولاده من بعده ...
أما العباس بن المأمون فلم ينفعه تمرده ... وقتل لأمر يريده الله !

إمارة باري

باري، المدينة الإيطالية النائمة على شواطئ البحر الأدرياتي في الجنوب، مدينة المعارض والتجارة والأذواق هل يعرف الناس أنها كانت ذات يوم إمارة إسلامية؟ وكانت تتبع الخليفة العباسي؟ ولها صولاتها وجولاتها على الموج وعبر البحر وفي دروب الجبال؟ ولها رغم صغرها، معاركها المنتصرة وخفقة البنود فيها.

لم يكن ذلك منذ زمن بعيد. كان قبل ١١٥٢ سنة، وعلى التحديد سنة ٨٤٣/٢٢٩هـ أيام الخليفة الواثق العباسي ابن المعتصم. في تلك الفترة كان الأسطول الإسلامي سيد البحر المتوسط يرود أمواجه يكتسح سفن الروم فيه فأشرعتها ترتجف لا من الريح ولكن من الخوف. والمسلمون هم أصحاب اليد العليا في معظم المرافئ. حتى تخلت بعض مدن إيطاليا عن الروم وانحازت للمسلمين. مثل نابولي. وكان في الأسطول الإسلامي مجانيق وحراقات وملاحون لا يعرفون إلا ظهر الموج. وسرير الرياح. في تلك السنة أراد أمير بالرمو المسلم في صقلية أن يحتل حصن كيفالو البحرى على الساحل الشمالي للجزيرة فتصدى له أسطول الروم بعنف ومزق أشرعته واضطر للانسحاب. لكن ليعود مرة أخرى بمساعدة أسطول نابولي فيحتل بالصراع العنيف مدينة مسينا التي تتحكم في المعبر بين صقلية وشبه جزيرة كالابريا الإيطالية.

قبل ذلك بخمس سنوات كان أسطول إسلامي اجتمع من كريت وأفريقية فاستولى على بلدة برنديزي آخر المدن الإيطالية الهامة على البحر الأدرياتي في الجنوب. بلى! نهض أسطول من البندقية من ستين سفينة حربية

لحمايتها . دفعته بيزنطة . ولكنه أصيب بكارثة مروعة قرب خليج تورنتو . تحطم كله بالمجانيق والحراقات وبالصدام . وطوق الأسطول الإسلامي سفينة القيادة وما حولها ثم نزلوا على ظهورها بالسيوف . تركوا بحارتها أشلاء على ظهورها ودفات السفن تلعب بها فوق المياه فتتكسر جوانبها وتغرق. هلك معظم من كان في الأسطول من البنادقة فما أسر منهم إلا القليل ... خلال السنتين التاليتين استولى المسلمون على مدينة باري شمال برنديزي الشهيرة بأسوارها المنيعة وأخضعوا أربعة وعشرين حصناً حولها وصاروا يسيطرون على شبه جزيرة أبوليا كلها (أي جنوب إيطاليا) ويشنون الغارات على الجهات المجاورة ومنها المنطقة البابوية في روما وأقيمت إمارة إسلامية فيها بعثت إلى الخليفة العباسي في بغداد تعلن الولاء له وتتلقى براءة المباركة والتعيين وتحمس أباطرة الأمبراطورية الغربية ، في فرنسا ، أحفاد شارلمان للدفاع عن البابا . فقام لويس الكارولنجي المعروف بالتقي يتدخل في الشؤون الإيطالية ليسترد ما استولى عليه المسلمون في البلاد ويوطد سلطانه فيها . ولما لم يكن لديه أسطول قوي فإنه بعد أن اجتاز إيطاليا إلى الجنوب يحارب ويحاصر المعاقل دون فائدة عجز أيضاً عن أن ينتزع من المسلمين المدن الساحلية التي فتحوها . وتعرض لهزيمة ساحقة أمام باري حين حاول الاستيلاء عليها على الرغم من طول مدة حصاره لها سنة ٢٥٣/٨٦٧هـ أربعة أشهر . كان الأسطول الإسلامي ينثر جثث جنوده في الهواء وفرسانه يحومون حول الأسوار ويتلقون من حامية المدينة سيول النبال . واستطاعت حامية المدينة في النتيجة أن تخرج من أبواب المدينة وتفتك بالجيش الفرنجي الفتك الذريع وتجعله يتراجع مهزوماً لا يكاد ملكه لويس التقي يرى طريقه وسط غبار الهاربين .

ولكن عناد هذا الملك جعله يعتبر هذه الهزيمة عاراً . وقد شدد البابا من عزائمه فاتصل بدوق البندقية وبإمبراطور القسطنطنية ليمدوه بالعون الفوري . وجاءته الأساطيل لكنه اختار الهجوم على مرفأ تارانت ليأسه من التغلب على

باري .. في هذه المعركة التي كانت بحرية أكثر مما هي برية أحرزت القوى المتحالفة نصراً بحرياً . واحتلت المدينة وذبحت حاميتها الإسلامية واعتبرت ذلك ثأراً كافياً لهزيمة باري .

وانفرط التحالف بسرعة دون أن يستطيع بسط سلطانه على الساحل الشرقي لإيطاليا أو الساحل الغربي فقد ظل المسلمون يتحكمون بالساحلين .. واستمر سلطان أمير باري سيد المنطقة حتى سنة ٢٦٢/٨٧٦ ستة وثلاثين سنة . حتى جاءها أسطول بيزنطي فقطع مددها البحري . ولم يكن لها من مدد بري فبنو الأغلب في أفريقية وصقلية كانوا في شغل عنها بخصوماتهم الداخلية . كما أن استقلالية الإمارة تركتها وحيدة .. وقاومت المدينة الحصار الذي امتد شهراً وبعض الشهر وانقطعت تجارتها وتحطمت أعداد كثيرة من سفنها في الميناء أو احترقت حوله . فهربت منها الحامية الإسلامية إلى الجبال ودخلها الروم ...

على أن هزيمة باري كانت هزيمة محلية محدودة لأن باقي شبه الجزيرة الإيطالية الجنوبي كان مرتعاً للعرب المسلمين الذين ازداد ضغطهم فيها وأغاروا على غاييتا وسالرنو . وتعرضوا لإمارة البابا بالتخريب والنهب . واستنجد البابا حنا الثامن بالأمبراطور شارل الأصلع ، ملك الفرنجة الكارولنجي وبالإمبراطورية البيزنطية وبقوى المدن مثل أمالفي وغاييتا ونابولي . لكن دعوته كانت صرخات في الفضاء . لم يحفل الروم بمساعدته لما يعرفون من ممالآته للفرنجة الكارولنجيين الطامعين في أملاكها . ولم يكن لدى شارل الأصلع قوة بحرية يستطيع أن يبعث بها لرد المسلمين ومدن كامبانيا فضلت الحرص على صداقة المسلمين الأقوياء فلم يسع البابا ، إزاء ذلك ، إلا أن يدفع الجزية عن يد وهو صاغر /٢٥/ ألف دينار ذهبي سنوية اشترى بها سلامة أملاكه في وسط إيطاليا .

واستطاع المسلمون ، ومعظمهم من المتطوعة ومن محاربي أفريقية أن

يحتلوا جزيرة مالطة ثم أن ينزلوا سنة ٨٧٨ على مدينة سيراكوزا في صقلية . حاصروها تسعة أشهر تعرضت أثناءها المدينة لمجاعة مريعة افترس الناس فيها الموتى وأكلوا الجلود وترتب عليها انتشار وباء هلك فيه عدد كبير من السكان . المعركة هذه المرة كانت معركة عض الأصابع ولم تستطع القوى البيزنطية إنجاد المدينة فقد طرد أسطولها وشرد في البحر ... وسقطت سيراكوزا بيد المسلمين . وكانت صلة الوصل بين صقلية وجنوب إيطاليا . ولم يتوقف ضغط المسلمين في المنطقة الإيطالية إلا بعد سنة ٨٨٠/٢٦٦ أيام الإمبراطور البيزنطي ليو السادس المعروف بالفيلسوف ، والخليفة العباسي المعتمد .

في تلك الفترة أصابت بيزنطة هبة عسكرية وجهت قواها نحو الغرب . وظهر أسطول بيزنطي تجاه صقلية . فاعترض طريق التجارة البحري بين المسلمين وبين مدن جنوب إيطاليا واستولى بالقوة على عدد من السفن التجارية الإسلامية لم يستطع الأسطول الإسلامي حمايتها . جروها بالكلاليب أو طوقوها فوق الماء وأسروا الكثير من بحارتها وقتلوا الكثير . وكان بعضها يحمل الزيت فبلغ من وفرة ماوقع في أيدي الروم منه أن انخفضت أسعار الزيت في أسواق قسطنطنية . وأنزلت بيزنطة في جنوب إيطاليا جيشاً ضخماً يقوده نقفور فوأس . الذي اشتهر على جبهة المشرق . فصارت القسطنطنية سيدة المنطة ...

الطريف أن المسلمين لم يفقدوا أملهم في استرداد باري وبعد مائة وثلاثين سنة استغلوا ثورة اللومبارديين فيها فهاجموها واحتلوها في مايو سنة ١٠٠٤ . حاصرها جيش إسلامي يقوده صفي غلام الأمير جعفر الكلبي صاحب صقلية في البر وضرب عليها الحصار في البحر الأسطول الإسلامي خمسة أشهر . وعانى السكان مرارة الجوع فيها ونفدت الأقوات . وكادت المدينة تستسلم لولا أن قدم لإنجادها أسطول البندقية تولى قيادته دوق البندقية نفسه ولم يجد البنادقة مقاومة تذكر في الميناء ولكنهم لقوا المقاومة العنيفة من الجيش

البري المسلم حين أرادوا النزول مع المؤن. دمر الكثير منها وقتل الكثير من العساكر الرومية ومن المتحالفة معها من البنادقة واللومبارد والروس فضلاً عن أعداد واسعة من الجند الأسيوي. واستمر القتال في البر والبحر ثلاثة أيام متوالية جعلت الميناء بركة من الدماء وسدت الأزقة المؤدية إليه بالجثث والجرحى ... قبل أن ينسحب المسلمون من المدينة ...

أهي نزوة إسلامية أم أن مدينة باري كانت تستحق كل هذا العناء؟

عمورية

نحن الآن في سنة ٢٢١هـ في أيام المعتصم ثامن الخلفاء من بني العباس .

المعتصم، في عاصمته سامراء، وحاشيته وقواده والناس مشغولون بأخبار الثورة التي قامت على الخليفة في منطقة الجبال في الشمال الشرقي من بغداد . اسم صاحب الثورة الذي يتحدى الخلافة العباسية كلها صار على كل لسان : إنه بابك الخرمي . لم يكن ثائراً سياسياً فحسب ولكنه صاحب مذهب ديني يناوئ الإسلام هو الزارادشتية . وكانت هيبة الدولة العباسية كلها رهن ما تسفر عنه الحرب التي دفع فيها المعتصم خيرة جنده . وكان بابك من المكر بحيث مد يده عبر أرمينيا المجاورة له إلى الروم يستعديهم على المسلمين ويحرضهم لقتالهم . إمبراطور الروم تيوفيل كان في بادئ الأمر مشغولاً في البلقان وصقلية وجانحاً إلى السلام مع الخليفة . فلما اشتد مركز بابك سوءاً وحرجاً اشتد في طلب المعونة من الإمبراطور ووصل في إغرائه درجة وعده باعتناق المسيحية وبضم المناطق التي يثور فيها وهي أذربيجان وشرقي أرمينيا إلى دولة الروم وهي معاقل الخرمية .

كان العرض مغرياً وتحرك الإمبراطور تيوفيل بجيوشه يعبر الأناضول لقتال المسلمين وإشغالهم بجبهتين . أغار بقواه على أعالي الفرات . لكي يسهل عليه الاتصال ببابك الخرمي . واستولى في طريقه على بلدة زبطرة فأمر بقتل الذكور من سكانها وسبي النساء والأطفال . وأحرق المدينة ثم استسلمت بعد ذلك ملطية وأطلقت سراح من بها من أسرى الروم !

بلغت هذه الأنباء المعتصم في عاصمته وبلغه أن امرأة في زبطرة صاحت وا معتصماه فاهتز واضطرب وقرر الثأر . فما كاد ينتهي من فتنة بابك الخرمي التي انتهت بمصرعه سنة ٨٣٧م حتى أعد عدته للقيام بضربة تذل الإمبراطور وتقضي على هيبته . وسأل حاشيته أي بلاد الروم هي الأهم والأوجع . فقالوا عمورية ! إنها مسقط رأس الإمبراطور تيوفيل والاستيلاء عليها خطوة للوصول إلى القسطنطنية وتهديدها الدائم فعزم المعتصم أن يزيل عمورية من الوجود باعتبارها أيضاً أهم موقع في جوف آسيا الصغرى وهي «عين النصرانية» ولا تفوقها إلا القسطنطنية !

خرج المعتصم من سامراء في أبريل سنة ٨٣٧ وقد أمر فكتب على ألوية الجيش وتروسه : عمورية إعلاناً لهدفه وعلى الرغم من أنه كان أمياً إلا أنه كان معروفاً بالقوة والفروسية والنجدة . وجعل على مقدمة الجيش قائده أشناس التركي . وقسمه فرقاً تلتقي جميعها معه في أنقرة ليتوجه منها إلى عمورية . وخرج إليه تيوفيل الإمبراطور وأخذ معه من دوروليوم (وهي على مسيرة ثلاثة أيام من عمورية) جميع المؤن والعتاد الذي يقوي به أسوار عمورية وحاميتها وعزائم قائدها أتيتوس .

رسم الإمبراطور خطته على أساس قطع الطريق على الجيش الإسلامي قبل وصوله إلى أنقرة وقبع ينتظره على دروبها ، لم يكن يعلم أن جيشاً إسلامياً آخر قادماً من الشرق إليها بقيادة الأفشين أحد قواد المعتصم . ولا بتغيير المعتصم لخططه والالتفاف على أنقرة من الغرب . فلما علم بجيش الشرق اضطر إلى أن يقسم جيشه قسمين يذهب بأحدهما لملاقاة الأفشين ويذهب بالثاني لملاقاة المعتصم . الجانب الأكبر من الجيش جعله معه ليضرب به ضربة قاسية . والتقى بالأفشين (في شعبان سنة ٢٢٣/يوليوسنة٨٣٨) . في المعركة تفوق الروم أول الأمر . سيطروا بفرسانهم لكن هذه السيطرة لم تدم طويلاً أمام عمل النبالة من المسلمين واستماتة السيوف تبقر بطون الخيل وتدمر فرسانها .

ووقع الاضطراب في صفوف الروم في حين شاع الخبر أن الإمبراطور نفسه لقي مصرعه . ولم يكن ذلك صحيحاً ولكنه فعل فعله في تمزيق جيش الروم وهزيمته وعاد الإمبراطور مع بعض حاشيته إلى معسكره وأنزل العقاب بمن ظفر به من الجنود الهاربين . وأرسل قواته الباقية إلى أنقرة للدفاع عنها . ولكن هذه القوات وصلت متأخرة فقد كان الجيش الإسلامي قد احتل المدينة من الغرب دون مقاومة ... وحين دخل المدينة وجدها شبه خالية من السكان ذلك أن أهلها أفزعهم ما بلغهم من انتصار الأفشين على الإمبراطور . فهربوا من المدينة ولجأوا إلى الجبال . ولم يلبث الجيش الإسلامي أن اكتشف مواضعم فأعمل فيهم السيف في شبه مذبحة ساحقة . ثم انضم الأفشين بقواته إلى المعتصم وأشناس وقواتهما في أنقرة فأنزلوا فيها الخراب والدمار . وأحرقوا منازلها . دمروا الأسوار والأبراج . عاثوا في الحقول حولها فلم يبقوا على شجرة ...

وبعث الإمبراطور تيوفيل إلى المعتصم يلتمس الصفح وإجراء الصلح . أرسل مبعوثين يعرضون عقد هدنة يتعهد فيها الإمبراطور بإعادة بناء زبطرة . وإعادة السكان إليها وأن يطلق سراح من عنده من أسرى المسلمين . وأن يسلم إلى الخليفة كل من ارتكب في زبطرة شيئاً من أعمال العنف والدمار والقتل ... وفكر المعتصم فترة قصيرة ثم رنت في خاطره صرخة وا معتصماه فرفض كل هذه العروض. لم يستجب لتوسلات الإمبراطور وشيع رسله بالاحتقار والسخرية !

وتوجه الإمبراطور متسللاً إلى دوروليه ليكون قريباً من القسطنطينية خوفاً من مهاجمتها تاركاً مدينة عمورية لمصيرها المحتوم وإن بذل كل ما بوسعه للحفاظ عليها بمعاودة المفاوضة عبثاً ! أما المعتصم فقسم جيشه ثلاثة أقسام أرسلها تباعاً وبين كل جيش وتاليه فرسخان وأمرهم بالمسير إلى عمورية . كان أشناس على المقدمة واتخذ الخليفة موقعه في القلب فيما كان الأفشين في المؤخرة . في مسيرتهم أنزلوا ما استطاعوا من التخريب والتدمير بكل ما يجتازون

به من الجهات. دمروا القرى أحرقوا الشجر والبيوت. خربوا الحقول والزراعات. نهبوا الناس وقتلوا ما اعترضهم من حاميات هاربة حتى وصلوا عمورية بعد سبعة أيام من المسير.

شرع المعتصم في حصارها في أول شهر آب (أغسطس) وقد كانت المدينة مشهورة بشدة مناعتها ويحيط بها سور تزيد في حصانته ما يقوم عليه من أبراج تزيد على أربع وأربعين برجاً ويحيط بها بعد السور خندق واسع. وقد تولى الدفاع عنها عدد من كبار قادة الروم وعلى رأسهم أيتيوس. لكن الحصار لم يستمر سوى أسبوعين وأعلنت المدينة التسليم. ودخل المعتصم المدينة وقد دمرها الجند وأحرقوها ومثلوا بحاميتها ووقع قائدها أسيراً مع عدد من ذوي المكانة فيها عدا ما وقع في أيدي الجيش من آلاف النساء والأطفال من الأسرى وعدا آلاف القتلى...

نقل المعتصم معه إلى سامرا اثنين وأربعين أسيراً من القادة فظلوا في سجونه سبع سنوات. وأرسل تيوفيل إلى المعتصم قائد أحد المناطق عنده في جملة من الهدايا مع رسالة يظهر فيها أسفه وندمه لما أنزله بزبطرة من الدمار ويرجو أن يطلق سراح قائده أيتيوس مقابل أن يطلق جميع الأسرى المسلمين عنده فرفض الطلب!

هل كانت ما تزل ترن في أذنه صرخة وا معتصماه؟

غـزو رومـا

روما تاريخ طويل ممتد جذوراً في الزمن إلى القرن الثامن ق . م . وإلى العهد الذي تقول الأسطورة أن الأخوين رومولوس اللذين بنياها أرضعتهما ذئبة . وجاء حين من الدهر كانت فيه روما عاصمة الدنيا بعد أن تغلبت على قرطاجة السورية التونسية وعلى المشرق ومصر وصار البحر المتوسط بحيرة رومانية وتسلسل فيها الأباطرة المشهورون وانتشرت لغتها وسيطرتها وفنونها بل وأذواقها الجمالية على العالم المتمدن . ثم انهار ذلك كله بالتدريج حين انصرف شعبها إلى الملاعب يشاهد صراع الحيوانات مع العبيد ويأكل القمح من سورية وإسبانيا ويسكر بنبيذ اليونان !

روما هذه كانت في العهد الإسلامي مجرد ذكرى تاريخية قديمة مهدمة المعابد ولولا أن البابا كبير أسقفة الكنيسة الكاثوليكية اتخذ من جانب منها (يدعى الفاتيكان) مقراً في محاولة لإحياء الإمبراطورية الرومانية دنيوياً بصورة إمبراطورية دينية لاهوتية وجعل من نفسه ظلاً لله على الأرض . لولا ذلك كانت روما مجرد مدينة عادية تميزها عن غيرها فقط آثارها القديمة من الكولوسيوم إلى مدرجات الملاعب وعمود تراجان والأسوار التي نبت عليها الطحلب !

يوم كان المد العربي في أوجه من الفتح والتألق غزا العرب روما مرتين وكادوا في المرتين يحتلونها . وكانت لهم عند أسوارها معارك ما أحبطها إلا قلة العدد وبعد المدد عبر البحر . كان ذلك بعد أن كان العرب قد احتلوا جزر البحر الأبيض المتوسط كلها : ميورقة ومينورقة وسردانية وصقلية وكريت ومالطة

وقبرص. وكانت يدهم هي العليا في جنوب إيطاليا ومنطقة كالابريا! وأشرعتهم سيدة الموج.صار البحر بحر العرب!

في هذه الفترة وهي فترة القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي وعلى الضبط سنة ٢٣١هـ زمن الخليفة الواثق بن المعتصم وزمن واليه على أفريقية (تونس) محمد بن الأغلب كانت عمارة بحرية ضخمة تخرق الليل في اتجاه الشمال. كانت تضرب المجاديف غير بعيد من الشاطئ الإيطالي، تساير تعرجاته الغربية. وأمكنتها الفرصة فحاصرت ونهبت عدداً من المدن على ذلك الشاطئ ثم انطلقت تعس نحو الشمال حتى مصب نهر التيبر ودخلته. كما كان الفضل بن جعفر الهمذاني والي صقلية هو الذي يقود الأسطول؟ لسنا ندري. كما لم يكن أحد يعلم أن هذا الأسطول الساري يقوى أن يغزو «ملكة العالم» القديم روما... كان الذين غزوها من قبل يهابونها ويحترمون دروبها المثقلة بالتاريخ والتراث الوثني والكنسي أما المسلمون فماذا يحترمون بها؟

البابا الأقدس يومذاك كان سرجيوس الثاني وكان مطمئناً إلى الأسوار القديمة التي تطوق الحي القديم فيها وتحمي في داخلها كنيستي القديس بولس والقديس بطرس. أما باقي المدينة من المعابد والبيوت والمقابر فهي دون أسوار... ولم تكن الشقة بعيدة بين مجرى النهر حيث رست السفن وبين روما فقد عبرها المسلمون المحاربون في ساعات الليل وانقضوا كالصقور على الحي. ويبدو أنهم لم يكونوا ينوون الفتح والاستقرار فلم تكن أعدادهم بالكافية لذلك ولكنهم كانوا ينوون تسجيل الوصول إلى مقر النصرانية الأكبر في الغرب. وهكذا جردوا الهياكل والتماثيل من حليها المنوطة بها وانتزعوا ذهب بيت بطرس وأخذوا هيكلاً فضياً عن قبر القديس بولس وضربوا الحصار على مدينة الأباطرة والقياصرة عدة أشهر لا يرتفع في وجههم سيف!..

وارتاعت إيطاليا كلها لهذه الغزوة. ما كان أحد ينتظرها. وارتاع الإيطاليون واهتز البابا من الرعب فبعثوا إلى كل الأنحاء يستنجدون. كرسي

البابوية ومقر القداسات هو المهدد .. وأسرع ملك الفرنجة اللومباري لويس الثاني في حملة من الجند لحرب المسلمين وأعدت ثغور نابولي وأمالفي وجاتيا حملة بحرية لقطع الطريق على الغزاة في الوقت الذي وصلتهم فيه نجدات إسلامية تحارب معهم ووصلت جنود الملك.وأدرك الغزاة المسلمون صعوبة الموقف فقرروا التراجع لا عن وهن لكن فت في أعضادهم اختلافهم حول هذا القرار فقد كان فريق منهم يصر على متابعة الحصار . والآخرون يهددون بالانسحاب : وهكذا رفعوا الحصار وبدأوا الانسحاب . المعارك التي أداروها بعد ذلك كانت في المؤخرة . وكانت من العنف بحيث يهرب الجند الفرنجي منها إلى الأدغال والأحراج . فإذا عاودوا الكرة لقيتهم من جديد السيوف الدامية وأعين الصقور الحمراء . ثم كانت المعركة الدامية في البحر مع أساطيل الثغور الإيطالية . أرادت أن تقطع عليهم طريق العودة . وكان عليهم أن يخترقوها بالقتال العنيف . نزلوا على بعض السفن بالسيوف والسكاكين . وتركوا على البرج كثيراً من الضحايا وتمزقت الأشرعة وانتشر عليها رشاش الدماء وصدموا السفن العدوة بسفنهم فغرقت كما غرقت بعض سفنهم ولكنهم نجحوا في النهاية بالإفلات من الطوق البحري ووصلوا صقلية بالغنائم والأسرى . ولكن بعد حين !

هذه المعركة كانت السبب في أن ليو الرابع ، وهو البابا الذي خلف سرجيوس أعاد بناء الأسوار في المدينة الرومانية وأدخل فيها بعض الأحياء حولها فما تزال هذه البقعة المسورة تدعى اليوم بالمدينة الليونية . ولم يكتف بذلك بل أغلق مصب النهر على البحر بسلسلة ضخمة من الحديد ... هل كانت هذه الحملة بيضة الديك ؟ الواقع أن التفكير في غزو « مدينة النصرانية » والبابوية ظل في خاطر المغامرين من رجال المسلمين فبعد الحملة الأولى بعشر سنوات تجهزت حملة أخرى ضخمة في أفريقية وفي عزمها اكتساح روما . اشترك في هذه الحملة بحارة من الأندلس أيضاً . وعلى الرغم من غموض الأخبار عنها فالذي يبدو أن محمد بن أحمد الأغلب صاحب تونس وواليه على صقلية محمد

ابن خفاجة كانا وراء تجهيز هذه الحملة وإعدادها بعد أن توغل المسلمون في جنوب البر الإيطالي حتى أحواز نابولي واحتلوا مدينة باري وأقاموا فيها إمارة إسلامية .

رست أشرعة الحملة العربية عند مصب نهر التيبر ، في البحر ولكنها لم تفاجئ في هذه المرة لا البابا ولا روما والإيطاليين . كان البابا قد عقد حلفاً حربياً مع مجموعة الثغور البحرية التي هبت في الماضي لنجدة روما : نابولي وأمالفي وجايتا لذلك سرعان ما تحرك أسطول هذا الحلف نحو المسلمين ونشبت المعركة على الفور

كانت الأشلاء ترتمي على أخشاب السفن لحماً على وضم والدماء تصبغ الماء حول السفن وتلون ذرى الموج والسيوف تبرق كالشهب بين الأشرعة الممزقة . كان قائد الأسطول البابوي قائداً شجاع القلب ، ريق الشباب يدعى قيصر يوس ولكن عاصفة هائلة هبت على جو المعركة فغرقت السفن واصطدم بعضها ببعض . وفيما انحاز الأسطول البابوي إلى الشاطئ يحتمي به كانت سفن المسلمين ملزمة بالمغامرة ضمن العاصفة فغرق عدد منها ... واضطرت للانسحاب ... لكن الرعب منها ظل يسكن أضلاع البابوية وقلوب السكان . حتى اضطر البابا يوحنا الثامن خلف البابا ليون أن يشتري السلامة : فاوض المسلمين على ترك روما مقابل جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون ألف مثقال من الفضة !

ترى لو فتحت روما في إحدى تلك المحاولات فكم كان التاريخ قد تغير ؟

فتح كريت

هل زرت جزيرة كريت ؟ أغلب الظن أن الكثيرين لم يزوروا هذه الجزيرة البهيجة التي تمتد طولانية كالسد لبحر إيجة ، رغم أنهم زاروا أثينا مرات ومرات . وأغلب الظن أيضاً أن القلائل جداً هم الذين يعلمون أن آخر المسلمين أخرجوا منها مرغمين في أواخر القرن الماضي ونقلوا إلى دمشق وأنشئ لهم هناك حي على جبل قاسيون ما يزال يعرف بالمهاجرين وأصله المهاجرين الكريتية ...

فمن أين جاء الإسلام لهذه الجزيرة التي هي الآن جزء من بلاد اليونان ؟

القصة قديمة وترجع إلى ما قبل ألف ومائتي سنة . لقد بعد العهد بها حتى نسيت فما يذكرها ذاكر . وأطرف ما فيها أن أبطال القصة لم يكونوا من المشرق ولكنهم جالية من الأندلس !!

القصة تبدأ هناك في قرطبة على آلاف الكيلو مترات من الشرق الإسلامي . فهناك في أواخر القرن الثاني للهجرة سنة ١٩٨ وقع الخلاف بين أمير الأندلس الحكم المنتصر وبين مجموعة من رعاياه . واستفحل الخلاف واشتد حتى بلغ درجة الثورة . ثار الربض الجنوبي من قرطبة على الأمير . فما كان منه إلا أن أرسل عدة كوكبات من فرسانه مع كتائب من الجند فهاجموا الربض في عملية حربية سحقت الثورة سحقاً . ولطخت بالأشلاء الجدران وروت بالدماء الدروب والدور وهدمت البيوت وأحرقت أهل الربض لكن الأمير لم يكتف بذلك بل أمر بتهجيرهم من الأندلس ! وتحملت الأسر بصغارها وشيوخها على الدواب يسوقها الجند إلى الموانئ . بعضهم اختار الاستيطان في المغرب فنزل في فاس وأنشأ بها حياً كاملاً بجانبها ظل يحمل اسم

الأندلس وبعض اختار موانئ إفريقية فتوزع فيها. لكن جمهرة من هذه الأسر أبعدت في البحر نائية عن الأندلس فنزلت الاسكندرية في مصر ...

كانت مصر إذ ذاك قد عمتها الفوضى في الحكم بسبب الفوضى في المركز بغداد.. فقد قتل منذ قليل الخليفة الأمين ولم تتبع مصر بعد الخليفة الجديد المأمون وانصرف كل صاحب قوة فيها يقيم لنفسه حكماً وإمارة ودخل الربضيون الاسكندرية فأقاموا لأنفسهم كغيرهم إمارة مستولين على الحكم من يد الأمير الحاكم!

ولما كانت الاسكندرية ثغراً من أهم الثغور فقد استغل الربضيون وجودهم فيها لقطع الطريق على السفن البحرية البيزنطية وللإغارة على الجزر التي تواجههم في الطرف المقابل من البحر: كريت ورودس وساموس وغيرها.. يغنمون منها ما يغنمون.

استمر ذلك قرابة ١٣ سنة. حتى قدم عبد الله بن طاهر قائد المأمون سنة ٢١٢ إلى مصر يضمها إلى تبعية المأمون الخليفة الذي استقر له الملك. فقمع الفوضى الأهلية. وألزم الأندلسيين بالخضوع أو الهجرة. وكانت جماعات منهم قد أغارت قبل أعوام على سواحل كريت ونزلت فتوطنت في جانب منها فلما لم يجد الربضيون مناصاً من قبول الأمر الواقع قرروا الهجرة إلى كريت. يلحقون بمن سبقوهم هناك. فالجزيرة خصبة وقد عرفوا ثرواتها في غاراتهم كما عرفوا ضعف حمايتها!!

ولا شك أن الظروف العامة قد ساعدتهم فأوضاع الدولة البيزنطية كانت في منتهى الاضطراب والإمبراطور ميخائيل الثاني، سيد القسطنطينية، كان مشغولاً بقمع الثورة الداخلية عليه وبدفع السلاف عن البلقان فلم تكن كريت من همومه لا سيما والقوى البحرية الإسلامية كانت في تلك الفترة قوية مسيطرة.

هكذا خرجت عصبة من الربضيين وممن انضم إليهم من المتطوعين في

نحو أربعين سفينة عليها عشرة آلاف مقاتل. كانت حملة حربية كاملة وقد قاد هذه الألوف مغامر بحار جريء النفس يعرف بأبي عمر حفص بن عيسى البلوطي. من الربضيين الأندلسيين. في أواخر سنة ٣١٢ كانت هذه الحملة ترسو على الشواطئ الكريتية. ولم تجد كبير مقاومة من حاميتها التي سرعان ما فرت والمسلمون ينقضون على أرض الجزيرة وينبثون في أنحائها. السكان الروم ارتاعوا للمفاجأة التي لم يكن أحد ينتظرها فلأول مرة ينزل هذا العدد من العرب المسلمين بالجزيرة ويحتلونها. الذين تجرأوا على رفع السيف في وجوههم سحقوا. معارك صغيرة وقعت هنا وهناك وربحها المسلمون الذين صارت الجزيرة في أيديهم في أيام معدودة.

ويقول المؤرخون البيزنطيون الروم إن البلوطي بعد أن نزل بجماعته الجزيرة فعل ما قيل إن طارق بن زياد فعله من قبل: أمر بإحراق السفن ليقطع أمل رجاله بالعودة. ويقولون إن الغزاة اشتكوا واحتجوا على هذا العمل فجمعهم البلوطي أبو عمر وخطب فيهم ـــ على قول الروم ـــ فقال: فيم تشتكون؟ لقد حملتكم إلى أرض تفيض باللبن والشهد.. وهذه أرضكم الحقة فانسوا أوطانكم المجدبة. فقالوا: ونساؤنا وأولادنا؟ فأجاب لكم في الأسيرات العوض وسوف تصبحون آباء جيل جديد... وفي هذه الرواية الرومية جانب من الخيال والدس على المسلمين والأرجح أن أبا عمر البلوطي لم يحرق السفن وقد يكون قد تخلص مما أصابه العطب منها. وأما أسر المحاربين فقد لحقت بهم بعد ذلك إلى الجزيرة واستقرت معهم حيث استقروا. في وسط الجزيرة حيث أقاموا مدينة أحاطوها بخندق عميق يحميها حتى سميت الخندق: كانديا!

أقام الأندلسيون في جزيرة كريت أندلساً صغيرة أخرى! أقاموا حكومة كان رئيسها بالطبع أبو عمر البلوطي ثم أسرته من بعده واستغلوا ثروات الجزيرة كما كانوا يفعلون في الأندلس ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يغيرون على الجزر الرومية غارات تدمير ويعتبرون ذلك لوناً من الجهاد في سبيل الله ضد الكفار ووفد

عليهم أفواج بعد أخرى من المغامرين والبحارة وعصابات البحر من مختلف الثغور الإسلامية فكانوا يجدون في كريت التأييد والملجأ الأمين. والغنائم الكثيرة!

وارتاع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني. لقد أضحى المسلمون يطوقونه أيضاً من الجنوب. وزاد في ارتياعه تلك الغارات التدميرية التي يقودونها ضد الجزر في بحر إيجة وضد سكانها وثرواتها فما فرغ من مشاغله الداخلية حتى كان أول همه إعداد حملة بحرية كبيرة قائدها أمير البحر الرومي أوريفاس طافت بجزر الأرخبيل اليوناني تطارد من تسميهم بالقراصنة المسلمين لكنها حين لقيت الأسطول الإسلامي الكريتي لم تستطع الصمود له. تمزقت أشرعتها بالنبال والنيران وذبح على حوافي السفن الكثير من بحارتها وغرق بعضها في اليم بمن فيها وفر ما بقي منها لا يلوي على شيء!...

وجهز الإمبراطور التالي تيوفيلوس حملة كبيرة أخرى لم يكن حظها بأوفى من حظ الحملة السابقة فقد مزق البحارة المسلمون شملها تمزيقاً عند جزيرة تاسوس. وطاردوا فلولها الهاربة على الموج يمطرونها بالنبال وحجارة المجانيق... كانت هذه المعركة البحرية هي المعركة الفاصلة التي أمنت للمسلمين البقاء حكاماً للجزيرة قرناً وثلث القرن. وظهر خلال هذه المدة في الجزيرة، هذه الأندلس المصغرة، علماء وشعراء وقراء ومحدثون حملوا الحضارة الإسلامية إليها قبل أن يستردها الروم في هبّتهم الحربية التي كانت في أواسط القرن الرابع على عهد الأسرة الأيسورية...

هل كان أبو عمر البلوطي يحلم بأن الإسلام الذي حمله معه إلى الجزيرة لن يقتلع منها حتى مطالع هذا القرن العشرين؟

غـلام زرافـة

الدارسون للتاريخ الإسلامي قد يكون مر معهم هذا اللقب في ما يمر. وعلى الرغم مما يثير من إشارات الاستفهام بغموضه فإنه ندر أن أثار فضول أحد. ورغم العمل العظيم الذي ينسب إليه فإنه لا يحظى في التاريخ بأكثر من سطرين أو ثلاثة تزيد الغموض حوله. فمن هو غلام زرافة؟ ومن زرافة في الأصل وما حكايته وما حكاية غلامه؟ لعل زرافة كان رجلاً من المتطوعين المجاهدين في سبيل الله في بلدة طرسوس فقد كانت هذه المدينة الواقعة عند نهري سيحان وجيحان في الشمال الغربي من خليج الاسكندرونة ثغر التطوع والجهاد ثلاثة قرون. وفيها توفي ودفن الخليفة المأمون حتى نبش قبره واندثر سنة ٣٥٨ حين احتل الروم البيزنطيون هذه المدينة. وكانت جميعها بيوتاً للمجاهدين والعباد المتطوعين في سبيل الله. ولها أوقاف من الخيل وتبرعات تصلها من أنحاء الأرض الإسلامية لشراء السلاح وعدة الحرب وبها أسر لا عمل لأولادها إلا التدرب على الحرب. في هذا الثغر ثغر طرسوس ظهر أول ما ظهر اسم غلام زرافة الغامض! ونحن ندين إلى مؤرخ بيزنطي أسر لدى هذا البطل الإسلامي بمعرفة قطعة من تاريخه! إنه يدعى لدى الروم البيزنطيين باسم ليو الطرابلسي ولعله أعظم أمراء البحر المسلمين. وكان اسمه وحده رعب المرافئ الرومية على شواطئ الأناضول وبحر إيجة أواخر القرن الرابع.

يبدو أن ليو الطرابلسي ـــ حسب رواية المؤرخ البيزنطي ولد لأبوين من النصارى في آسيا الصغرى وفي بلدة بامغليا منها. ولعله أسر وهو صغير فاشتراه رجل من طرابلس في الشام بحار اسمه زرافة فعرف باسم غلام

زرافة وتربى على العمل في البحر . ويبدو أنه اعتنق الإسلام منذ صغره وانصرف مع سيده إلى طرسوس فنشأ مع الفتيان فيها . وعلى متن السفن في البحر القريب من طرسوس . اشترك مع العصابات البحرية المسلمة التي كانت ترهق المرافئ الرومية على أطراف آسيا الصغرى وشواطئ بحر إيجة وجزره الكثيرة . وكانت جرأته وشجاعته تجمع حوله الأنصار والمتطوعين المغامرين حتى أضحى مجرد ذكره يرعش فرائص الثغور .

الغزوة الكبرى التي نعرف تفاصيلها اليوم لغلام زرافة الطرابلسي هي غزوته سنة ٢٩١هـ/٩٠٤ وهي التي روى تفاصيلها المؤرخ البيزنطي الذي أسر كامنيانس . وهي تكمل الرواية العربية المقتضبة ... وخلاصة ما كان أن غلام زرافة خرج من بحر طرسوس في أربع وخمسين سفينة في كل واحدة منها نحو من مائتي مقاتل مع جماعة من خيرة الملاحين وانضم إليه في مسيرته أشجع خوارج البحر في مياه البحر المتوسط الشرقي . ولم يجرؤ الأسطول البيزنطي الذي بعثه الإمبراطور ليون السادس أن يقطع الطريق على هذه الحملة فالتجأ إلى مضيق الدردنيل يسده خوفاً من مسيرة الأسطول الإسلامي إلى القسطنطينية . ووجد غلام زرافة بحر إيجة كله مفتوحاً أمامه فاختار الهجوم على مدينة سالونيك (في تراقيا) وكانت من أعظم الثغور الرومية وأغناها وأمنعها وأمامها خليج ضيق تحتمي به السفن ويفصلها عنه سور ضخم يمتد حوالي كيلو مترين ومن حوله قلاع قديمة على رؤوس الآكام ...

واتجه الأسطول الإسلامي إلى سالونيك التي يسميها العرب أيضاً أنطاكية . وراح قائد الحامية فيها يلقي الصخور الضخمة في الخليج وصخور الرخام يعرقل بها توغل الأسطول ويجعله إن دخل عرضة لنبال المدافعين ونيرانهم . ولكن غلام زرافة نجح في عبور الخليج مع ذلك.وكان سكان المدينة يعتقدون أن بركة القديس ديمتريوس تحميهم وتحمي المدينة . فقد ارتد عنها الغزاة من الصقالبة مرات . لكنهم لما علموا باقتراب الأسطول الإسلامي حتى

الأسوار هرعوا إلى الكنائس والقسس يبكون ويستجيرون . وعم الرعب فيهم وتصاعد الصراخ والعويل . آمنوا بالهلاك القريب أو الأسر على الرغم من أن قائد المدينة أغرق في مرفئها عدداً من السفن وقد مدَّت بين ضفتيه السلاسل الضخمة التي تسده ... لكن غلام زرافة هاجم بجنوده المدينة براً من الشرق فانهالت عليه وعلى جنده الصخور تلقيها الحامية . فعاد فأرسل طلائعه تضرم النار تحت أبواب المدينة تحت وابل من السهام ومن تدفق اللهب . وتداعت الأبواب فإذا وراءها أبواب أخرى وقد سدت الطرق فيها بالبناء الحجري وأقيمت فوقها أبراج منيعة سبعة . فلم يجد هذا البحار المسلم منفذاً سوى خطة وضعها ونفذها بمنتهى البراعة والإحكام حدد في الأسوار مواضع معينة يستطيع الاقتراب منها دون كبير مجازفة من جنده . ثم عمد إلى أسطوله ففصل قسماً من سفنه وربط كل اثنين منهما إحداهما بالأخرى . وأقام فوق كل اثنتين برجاً خشبياً مرتفعاً يشرف من أعلاه على أسوار المدينة من عل . وتقدم بهذه الأبراج نحو الحامية والنبال تهمي كالأمطار . والنار اليونانية تعصف بالناس . ولكن الروم تراجعوا عن الأسوار رعباً وفزعاً . واقتحم الجنود المسلمون السور فيما كانت المجانيق تدوي وانقضوا على الأبراج التي استسلمت . ونزلوا ففتحوا أبواب المدينة . فدخلتها طلائع المقاتلين بالسيوف عراة لا يسترهم إلا السراويل ! . ولحق بهم باقي الجند والروم يفرون من كل صوب .

وتقاسم الفاتحون المدينة قتلاً ونهباً وأسراً عدة أيام وكان المؤرخ كامبيانس مع أسرته بين الأسرى . وهو الذي روى كل هذا فقد وقع في يد بعض المسلمين من الأحباش فوعدهم أن يكشف لهم عن المكان الذي خبأت فيه أسرته ثرواتها . فارتضى غلام زرافة ذلك فداء له ولأسرته وأمر بحمله إلى والي طرسوس معه ليبادل به بعض أسرى المسلمين ... لكن الأسرى الآخرين كانوا على قول هذا المؤرخ ٢٢ ألفاً . اختارهم غلام زرافة لغناهم وليفدي بهم . وقد توفي

بعضهم على السفن من البرد والجوع! ورسا في الطريق في ثغر من ثغور كريت الإسلامية ثم وزع القائد الغنائم خلال بضعة أيام وتفرقت السفن بعد ذلك فعادت كل جماعة إلى مرافئها. وسار هو بسفنه الباقية وغنائمه عائداً إلى طرسوس وهناك جرت مبادلة الأسرى. ويبدو أن المؤرخ البيزنطي راوي هذه المعركة الملحمة قد بالغ في أرقام الأسرى فلم تكن سفن هذا البطل الإسلامي لتتسع لاثنين وعشرين ألف أسير. ولعل الرواية الإسلامية المقتضبة تعطينا فكرة أخرى عن غنائمه وأسراه فهي تذكر أنه فتح «أنطاكية» (ويعنون سالونيك) بالسيف عنوة فقتل خمسة آلاف رجل وأسر مثلها واستنقذ من أسرى المسلمين مثلها وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع والرقيق فقسمها مع غنائم أنطاكية فكان السهم ألف دينار!!

ويعود اسم غلام زرافة مرة أخرى بعد هذه المعركة البطولية إلى هوة النسيان فما من خبر عنه ولا عن أعماله. فلسنا نعرف ما كان من أمره؟ ولا متى وأين قضى حياته الباقية؟ ولا متى توفي وأين؟...

ولا يعجب المرء من قسوة هذا البطل المسلم في تعامله مع مدينة عدوة فتحها فقد كانت هذه هي سمة الحروب في ذلك العصر وما كان البيزنطيون بأقل وحشية ولا أقل فتكاً ولكن لنا أن نعجب لشدة إيمان هذا الرجل وعبقريته البحرية سواء في القيادة أم في التسلل في خليج سالونيك بين الصخور أم في إلهابه أبوابها الحديدية بالنار أم في بنائه الأبراج على سفينتين مقرونتين لتتوازن. وأخيراً في جمعه الأسرى من الروم ليفدي بهم أسرى المسلمين.. فأي رجل هذا الذي اجتمعت فيه العبقرية البحرية مع الإيمان؟ والقيادة مع منتهى الشجاعة؟

ترى كم من أمثال هذه المعركة الإسلامية جرى في التاريخ؟ وكم من مثل هذا البطل البحار ذهب نسياً منسياً؟.

فتح جزيرة صقلية

هذه الجزيرة المثلثة التي تقطع البحر الأبيض المتوسط إلى حوضين وتكون رأس الجسر بين أوروبا وأفريقيا تبدأ قصة فتحها في الإسلام بقصة حب يقولون في المصادر الرومية البيزنطية أن نبيلاً من أشرافها يدعى يوفيميوس هام في هوى راهبة حسناء فاختطفها من الدير الذي تعيش فيه. وبلغ الخبر الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني، وكانت الجزيرة تابعة له. فغضب لانتهاك حرمة الدير وعزلة الراهبة فقضى بجدع أنفه! والتجأ النبيل إلى مدينة سرقوسة في الجزيرة حيث يكثر أنصاره وتقوى عصبته وثار على الدولة فاستولى على المدينة واضطربت الجزيرة كلها في الحرب الأهلية التي قامت إثر ذلك ولكن يوفيميوس لم يوفق فيها فهرب من الجزيرة يستغيث بأمير أفريقية (أي تونس) زيادة الله الأغلب ويعده إن أعانه بملك الجزيرة..

هذه القصة الرومانسية التي نقع على مثلها في بعض حكايا الفتوح تحاول كغيرها أن تسلب المسلمين بعض أمجاد الفتح وبجعلها نتيجة دافع خارجي كقصة حاكم سبتة يوليان يوم فتح الأندلس. والمؤرخون المسلمون يتجاهلون قصة الراهبة ويجعلون يوفيميوس مقدم الأسطول البيزنطي. وقد غضب عليه الإمبراطور فأمر بالقبض عليه فثار في سرقوسة. فلما انتزعها منه قائد آخر اسمه بلاطه سار يوفيميوس بسفنه يستعدي زيادة الله الأغلبي ضد صاحبه!..

والواقع أن صقلية بسبب موقعها الاستراتيجي الهام. وقربها من البر الأفريقي التونسي وبسبب العلاقات التجارية معها وكثرة عدوان الروم فيها على

الشواطئ والأساطيل العربية وكثرة خيراتها وخصبها كانت منذ أيام الفتح الأولى وأيام عقبة بن نافع موضع أطماع المسلمين وموضع أوجاعهم معاً. وكان فتحها حلماً يراود الولاة في تونس الأفريقية. وما كان هؤلاء ينتظرون إلا أن يقوى الأسطول الإسلامي ليبادروها بالفتح. وجاءت الفترة الحاسمة سنة ٢١٢ بعد عدد من الغارات التمهيدية وبعوث الاستطلاع. وكان عدوان الروم في صقلية قد استشرى وقد أضروا كثيراً بتجارة أفريقية الموصولة في الجنوب بذهب السودان ورقيقه وثرواته وكانت هذه التجارات في مطالع ازدهارها...

وكان زيادة الله قد أعد أسطولاً ضخماً واختار لقيادته قاضياً من القضاة كان بمثابة الوزير له هو أسد بن الفرات. فسار بالأسطول إلى شواطئ سرقوسة وبالرمو. ونزل الجيش الإسلامي على تلك الشواطئ بالعدد الكثيف القوي. لم يكن مفاجئاً فإن إمبراطور الروم في القسطنطينية كان يحسب دوماً حسابه. ويستعد له بالحاميات القوية لا للدفاع فقط ولكن للهجوم أيضاً لو استطاع على أفريقية الإسلامية. لذلك اصطدم المسلمون بمقاومة شرسة عنيفة في عدد من المواقع. فقد فيها ابن الفرات كثيراً من جنده. وعلى الرغم من موجة الذعر التي شملت الجزيرة فقد كانت أطواق الحصار حول المدينتين غير كافية لفتحهما. وتوزعت المعارك بين الحقول والآكام وكثر القتل في الروم وفي العرب على السواء. وتراكم الجرحى. فكأن الدماء مياه تسفح. وفيما كان ميزان المعارك متوازناً تقريباً وصلت الأمداد للروم. أرسلها الإمبراطور على عجل فإنه لم يكن يستطيع التفريط بهذه الجزيرة التي تشكل الجبهة المتقدمة له. وانقلب الميزان لمصلحة الروم واضطر المسلمون لإخلاء عدة حصون حصلوا عليها وإلى الانسحاب حتى الشواطئ. كان الانسحاب مريراً فقد لاحقهم الروم وسحقوا كتائبهم المتراجعة في مواقع طاحنة خسروا فيها حتى المؤن والعدد وانتشر المرض وبدأ شبح المجاعة يهددهم حتى أكل بعضهم الجلود. وزاد في الشدة أن القائد أسد بن الفرات توفي في تلك الفترة فكان موته كارثة أخرى. وعلى الرغم من

أنهم طلبوا الأمداد فقد أبطأت في الوصول من أفريقية . وهكذا أضحت الحملة كلها على شفا الفناء . بعد سنتين من القتال المرير !

وفجأة وبالمصادفة المحضة لاحت في أفق البحر أشرعة قادمة . وسرعان ما تبينوا فيها أسطولاً بحرياً من السرايا المجاهدة في البحر قادمة من الأندلس تغامر . ولاحت من بعدها أشرعة أخرى . إنه المدد الأفريقي أرسله ابن الأغلب فانقلب الميزان مرة أخرى لمصلحة المجاهدين الذين انتعشت آمالهم فعاودوا الكرة على الروم . وفتحوا مدينة بالرم . وكانت هذه أول مدينة في الجزيرة يضعون أرجلهم بحزم فيها ... ولكن تجربة القتال الماضية سنتين دون كبير طائل كانت في الواقع إنذاراً للعرب المسلمين بأن فتح هذه الجزيرة لن يكون بالسهولة التي تم فيها فتح الأندلس أو فتح كريت . كان الفتح شديد الصعوبة بين مهاوي الأودية وصخور الجبال ووعورة الأرضين وعداوة السكان الروم . وما كان للملك الأغلبي في أفريقية أن يتراجع بعد أن بدأ الهجوم ،الفتح فاستمر يسير الأمداد والبعوث إلى صقلية وهو وأخلافه من بعده سنين طويلة شاقة !

بقيت جزيرة صقلية تشرب من دماء المسلمين وأجسادهم وتفترس جهودهم اثنتين وخمسين سنة حتى استكمل فتحها جميعاً . فتحت على أيدي المسلمين أولاً مدينة قصريانة (كاسترو جيوفاني) ثم جرجنت ثم قطانية ثم مسِّينا ثم غيرها . وعند كل مدينة كانت للمسلمين مع الروم معركة طاحنة تطيح بها الهامات وتمطر النبال وتتكسر الرماح وتهوي الجثث بالدروع وتلتهب النيران بالأسوار وتهوي حجارة المجانيق عمياء بالمنايا ...

وكان الموئل الوحيد للمجاهدين هو صدق الإيمان وشدة العزائم . تقلبت على فتحها ثلاثة أجيال متوالية من المسلمين حتى استطاع بنو الأغلب أن يقولوا إن صقلية تابعة لهم .. وكانت آخر المدن سقوطاً في أيديهم هي سرقوسة سنة ٢٦٤ .

أسس الأغالبة في الجزيرة إمارة شبه مستقلة عينوا لها الولاة . وانثالت

عليها جموع من حملة الثقافة العربية الإسلامية فظهر فيها الشعراء والكتاب والمحدثون والعلماء والقضاة. كانت أندلساً أخرى في وسط البحر المتوسط. وبعد أن كانت شوكة مرة في جنب دولة الأغالبة يعانون منها مايعانون صارت قاعدة بحرية لهم وممر تجارة ومقراً للعصابات البحرية المجاهدة. وقبل أن يتم فتح الجزيرة كاملة بكثير كانت تحركاتها البحرية تنشر الذعر في شواطئ إيطاليا الشرقية والغربية. وكانت مصدراً للأسرى وسوقاً للرقيق والذهب. والعاج والزراعات. وقد انتقل العرب المسلمون منها إلى البر الإيطالي القريب والذي يسمونه البر الطويل فاحتلوا جنوب هذا البر المسمى كالابريا ووصلوا مدينة باري وأقاموا فيها إمارة إسلامية فرضت الجزية على المدن المجاورة واستولت على تورنتو وراكوزة...

أما مدن الشواطئ الإيطالية والثغور فقد اضطر سكانها أن يقيموا على طولها أبراجاً وقلاعاً شامخة الارتفاع لكي لا تصلها النيران التي تضرم في أسفلها إلى طبقاتها العليا خوف الهجوم المفاجئ عليها.

بعد هذه الفترة الذهبية بمائتي سنة ونيف استرد النورماند صقلية سنة ٤٦٤. أعادوها لأوروبا لكن ملامح الحضارة العربية الإسلامية ماتزال تلوح عليها إلى اليوم وتنبض في عروق رجالها وفي أخفى الشرايين.

الشام بين بيزنطة والفاطميين

فيما بين سنتي ٩٩٧م والسنة التالية لها (٣٨٧هـ) كانت بلاد الشام الجنوبية تتبع الخلافة الفاطمية بالقاهرة وكان الخليفة هو الذي يعرفه التاريخ جيداً باسم الحاكم بأمر الله... وإذا كان هذا الخليفة فتىً شاباً لا يستقر على سياسة فقد كانت الشام بدورها مرتعاً لكثير من الاضطرابات والثورات والفتن الداخلية بسبب أن القسم الشمالي منها كان قلق المصير يتدخل فيه الروم البيزنطيون كيف شاؤوا... وكان التنافس بينهم وبين الفاطميين يجعل الشام كله على كف عفريت. كل من الطرفين كان يحرص على امتلاك هذه البلاد الوفيرة الثروة، الكثيرة المقدسات...

وقد حرص البيزنطيون الروم الذين كانوا يحتلون أنطاكية وشيزر حتى أفامية ولهم نفوذهم وإتاوتهم على حلب أن يغتنموا كل فتنة وكل اضطراب لتهديم السيطرة الفاطمية تماماً كما كان الفاطميون يعملون في مناطق الشمال. نوع من الحرب غير المعلنة كانت بين الطرفين.

واتفق سنة ٩٩٧م أن قامت في صور ثورة ترمي إلى طرد النفوذ الفاطمي منها. بتأييد بيزنطة ودسائسها كان سببها كثرة المظالم والضرائب على الثغور الشامية التابعة للفاطميين. كانت الثورة اندفاعاً شعبياً عنيفاً في الميناء ما لبث أن أيدته المدينة. واختار أهل صور أميراً عليهم رجلاً من الملاحين اسمه العلاقة سرعان ما ضرب السكة باسمه وعليها «عز بعد فاقة للأمير علاقة» مما قد يدل على فقره السابق وأصله المتواضع.

على أن هذا الأمير الثائر كان يعرف أنه لا يقوم للخلافة الفاطمية.

لذلك بعث يحتمي بإمبراطور الروم باسيل الثاني بوساطة الدوق الذي يحكم أنطاكية. فسير إليه قوة بحرية تحميه. لكن القوة وصلت بعد أن استقرت الأمور للحاكم بأمر الله في الشام وبعد أن وجه الجيوش لقمع الثورة. وأرسل في الوقت ذاته أسطولاً من مصر من عشرين سفينة مشحونة بالجند. وصدرت الأوامر إلى أمير طرابلس وهو فاطمي بالمسير بأسطوله إلى صور كما وجه الأمر نفسه إلى والي صيدا. وولاة الجهات المجاورة في بيروت وجبيل وعكا ويافا. فاجتمع على باب صور وحول مينائها في يونيو سنة ٩٩٨ (٣٨٨) عدد ضخم من المقاتلين. وعدد واسع من الشلنديات (سفن الحرب) وغيرها وآلات الحصار.

ميناء صور كان من الموانئ المعروفة بقوة حمايته الطبيعية لأن صور نفسها تقع على شبه جزيرة ناتئة في البحر فليس لها إلا باب واحد على البر. فالمعركة مع الثائرين كانت بالضرورة معركة بحرية أطاف بها الأسطول الفاطمي بالأسطول البيزنطي. وأخذ التراشق بالمجانيق والنبال ينزل بالروم من كل جهة. وتكسرت بعض السفن ودار بعضها فاصطدم ببعض. وتقطعت حبال الأشرعة وعلى الرغم من مهارة الملاحين الروم وما أنزلوه من العطب والحريق بسفن مصر وما فقد الجانبان من الملاحين والمقاتلين فقد وضح بعد يوم من القتال أن الأسطول الفاطمي متفوق على البيزنطيين. ولم تستطع إلا عدة سفن بيزنطية أن تفلت من المعركة وتبحر مبتعدة إلى الشمال تحمل جراحها وجرحاها.

أما علاقة فقد قتل على ظهر سفينته. ودخل الجند الفاطمي باب البلد يدمرون ويقتلون. ووقع كثير من أنصار الثورة أسرى أو صرعتهم السيوف. ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي أراد أن يشغل الخليفة الفاطمي، أثناء هذه الثورة، على جبهة أخرى فأوعز إلى دوق إنطاكية ديلاسينوس أن يهاجم مدينة أفامية (شمال حماه) وكانت حصينة جميلة البناء والأسوار واسعة التجارة.. وما كاد الدوق يصلها حتى أطبقت عليها الحاميات تساعدها من دمشق

وصور وبيروت وطرابلس وكلها تابعة للسلطة الفاطمية فدارت المعركة والجند متعب . لكن الكتائب الإسلامية كانت أكثر عدداً وحماسة . فاستطاعت خلال يومين أن تطوق الروم وتحشرهم بينها وبين نهر العاصي . وتجبرهم بدل الهجوم على الدفاع . وحين رأى الدوق ديلاسينوس جنده يتهاوون والفُرسان الروم لا مجال للكر والفر أمامهم بسبب ضيق السهل وكثير منهم جرحى يتسحبون من القتال إلى الشجر المتكاثف أو يقعون أكواماً من الدروع . نزل بنفسه وبأبنائه إلى الساحة يقاتل لعله ينقذ الموقف ففشل . ولقي مصرعه . ووقع في أسر العساكر الفاطمية أبناء الدوق وجماعة من رؤساء العسكر فتقرر حملهم إلى مصر . حيث بقوا هناك أسرى في السجون عشر سنين . إلى أن تم افتداؤهم وإعادتهم إلى بلادهم .

وحزن الامبراطور باسيل الثاني لهذه الكارثة التي حلت بجيشه ودوة أمام أفامية وكان وقتئذٍ يقاتل البلغار في الشمال وبلغ من فتكه بهم أن سم بجزار البلغار . ولم يجد أن يفتح الباب أمام الفاطميين ليتابعوا السير ثم ويستولوا على ممتلكات بيزنطة في شمال الشام فأرسل في الخريف بسرعة سف إلى القاهرة تعرض عليها عقد الهدنة وإجراء الصلح . لا سيما وقد انهزم أسبه قبل ذلك في صور ...

لكن ما أحرزته العساكر الفاطمية مع الأسطول من الانتصارات بلمام دفع الخليفة الحاكم بأمر الله إلى أن يجيب الامبراطورية إجابة جافة بالرفض، مما جعل الامبراطور يغضب الغضب الشديد ويقرر ترك قيادة البلغار لأحدنادته والمسير بنفسه إلى الشام . ولم يكن مقصده المزيد من الفتوح فيها، أو نخول مصر على الفاطميين . ولكن أن يرد إلى قواه الحربية في البر والبحر ما فقدت من الاعتبار والهيبة . وبخاصة بعد الهزيمة الساحقة التي قتل فيها ديلاستوس وأسر أبناؤه وأركانه . وجمع الامبراطور إليه قوات من الروس والمجر والأرمن والكرج والخزر .

وصل باسيل في السنة التالية سنة ٩٩٩ / ٣٨٩ بقواته إلى منعطف نهر العاصي نحو الغرب قرب أنطاكية. ثم انحدر جنوباً مع وادي النهر فاجتاز بسهل أفامية الذي دارت فيه من قبل المعركة العنيفة. فأمر بتشييد كنيسة في الموقع الذي سقط فيه قائده الدوق. ثم توجه إلى شيزر القلعة التي تتحكم بالطريق على نهر العاصي فحاصرها. وضيق الخناق عليها حتى اضطر أميرها ابن كراديس إلى التسليم حين فقد الأمل بوصول الأمداد إليه. ويبدو أن باسيل كان مستعجلاً فقد اشترط عليه ابن كراديس ألا يعترض أحد من الجند البيزنطي سبيل رجاله الذين يرغبون في الخروج معه وألا يتعرض للأذى أهل شيزر ولا أملاكهم وألا يطأ بساط باسيل ويركع أمامه لإظهار الولاء والخضوع أجابه إلى ذلك وأنفذ إليه صليبه للدلالة على موافقته. فخرج حاكم المدينة من يزر بعساكره وبصحبته عدد كبير من سكانها وتوجهوا إلى حماة وبعلبك فيما ند باسيل إلى شحن البلد بجالية من الأرمن.

ولجأ باسيل بعد ذلك وعساكره إلى أساليب التدمير والشدة والعنف عد استيلائهم على الحصون الفاطمية في شمال الشام. كحصن أبي قبيس ومباف ورفنية فلم يسلم حصن منها من القتل والجثث والتدمير والإحراق. واتج الامبراطور بقواته إلى حمص فلجأ أهلها إلى كنيسة مار قسطنطين الكب. لكن الجند الروسي الذي كان بصحبته اقتحم الكنيسة. وأحرقها بعدن قتل من فيها. وجرد مبانيها من النحاس والرصاص. وكان من ديدن الامبرطور ألا يحتفظ بالأسرى بل يقتلهم. كي لا يتوافر لأراضي الشام من الرجال من يفلح ويزرع وكي يتناقص عدد من يؤدون الخدمة العسكرية. فضلاً عن تدمير الزراعة لتشح المؤن. فخلت بذلك بعض البلاد من السكان وانتشرت المجاعات وهلك عدد كبير من الأهلين.

وكان رد فعل الشام عنيفاً إذ حشد أمير دمشق ابن الصمصامة مع جيشه جميع جيوش الشام فاجتمع له ما لم يجتمع لأحد قبله من الجند للدفاع

عن المدينة . غير أن باسيل عطف من حمص إلى حصن عرقة فأحرقه ودمر قلعته . ثم نزل آخر سنة ٩٩٩ / ٣٨٩ على طرابلس وزحف على أسوارها ولما استعصى عليه فتحها أمر بحفر خندق حول عسكره ثم قطع الماء عن البلد بعد أن حمل إليه مركبان من أسطوله ما يكفي لدوابه من المؤن والعلف وبعث سراياه تدمر الساحل اللبناني كله . ولما كثر ما لديه من الأسرى والسبي حملهم في السفن ثم بيعوا رقيقاً في أسواق إزمير وسالونيك والقسطنطنية . ولكنه مني بهزيمة قوية بعد ذلك أمام طرابلس اضطرته للرحيل إلى أنطاكية ثم القسطنطنية ...

وأثمرت جولته التخريبية التي دفع ثمنها عامة الشعب في الشام أن أرسل إليه الحاكم بأمر الله يعرض الصلح ... وكم كان غالياً غالياً هذا الصلح ؟.

بين سيف الدولة والروم

جبال طوروس الواقعة في الشمال الغربي من حلب والشام جبال عسرة بين قمم معممة بالغمام ومهاو من الوديان يضيع فيها الصدى وغابات تموت في ثناياها الشموس. وقد عرفت هذه الجبال في تاريخها الطويل عدة شعوب عبرت بها أو اجتازت مراقيها الصعبة. لكنها قد لا تكون عرفت من الدماء والغلاب الحربي ماعرفته في أواسط القرن العاشر الميلادي (القرن الرابع الهجري).. كان على طرفيها في حلب وبيزنطة خصمان كانت الحرب في دمائهما وفي الشرايين هما سيف الدولة الحمداني في حلب وأباطرة الأسرة المقدونية: قسطنطين السابع ورومانوس الثاني وباسيل الثاني ومجموعة قادتهم في القسطنطنية!..

في هذه الفترة حوالي سنة ٩٤٥ ــ ٩٦٠م/٣٣٥ ــ ٣٥٠هـ. كانت لخيل لا تكاد تنقطع حوافرها على صخور تلك الجبال زحفاً ودبيباً. ولمعُ لأسنة والسيوف متصل عليها. وتدافع التروس والدروع والألوية. صار مألوفاً في الدروب الوعرة بعض صور الملاحم التي تمت بين سيف الدولة وقواد الروم البزنطيين كانت نماذج للبطولات العربية الإسلامية ويوم قال المتنبي:

هل الحدث الحمراء تعرف ربها وتعرف أي الساقيين الغمائم

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم

كانت تلك الدولة الحمدانية الصغيرة في حلب تقف للإمبراطورية البيزنطية بضخامتها وتضع أنفها في الرغام! من فصول تلك الملاحم هذه الأحداث التي يرويها التاريخ:

في سنة ٩٤٩ تحرك الروم في اتجاه الجبهة الإسلامية واستولوا على مرعش في أقصى شمال الشام واستمروا في زحفهم حتى مدينة الثغور الكبرى في طرسوس، بلد الجهاد. فخرج سيف الدولة غازياً في الأراضي البيزنطية ومن ورائه ثلاثون ألف مقاتل. واصطحب معه ثلاثة من الشعراء المتنبي وابن عمه أبا فراس الحمداني وأبا زهير المهلهل وانضم إليه أربعة آلاف من مجاهدي طرسوس. فاستولى على بعض الحصون واستاق معه عدداً كبيراً من الأسرى بوحل فصل الشتاء بزمهريره وعواصفه ومطره الثلجي فأراد العودة إلى حلب في الجنوب غير أن القائد البيزنطي المعروف بالدمستق (واسمه ليون بن فوقاس) حشد جيشه في خرشنة على طريق العودة من جبال طوروس وكمن لسيف الدولة. وفوجئ الأمير الحمداني بالكمين. وضاقت عليه المسالك وتخلى عنه عدد من الجند في حين هلك عدد آخر واسترد الروم الغنائم والأسرى فما نجا سيف الدولة إلا في عدد يسير وعلى ممرات صعبة زحفت فيها الخيل على بطونها...

غير أن سيف الدولة لم ينم على هذه المكيدة فما هاجم الدمستق حصن آمد ورده أصحابه عنه سنة ٩٥٢ حتى كمن له الحمداني وفاجأه بهزيمة تركت جنده للطير وعتاده للغنائم. فما يكاد ينجو بنفسه!

ثم جهز سيف الدولة في السنة التالية حملة لعلها من أهم حملاته الحربية، تدل على ما اشتهر به هذا العاهل من البسالة وبعد النظر والذكاء. فقد جعل همه فيها أن يهاجم إقليم ملطية فهو مصدر خطر على إقليم الجزيرة كله. وأمر قواته أن تجتمع في بلدة دلوك وهي من الثغور على الطريق. والتحق بها حتى وصل سفوح جبال طوروس ومر بمدينة زبطرة التي كانت يومذاك بيد البيزنطيين فنهب أرباضها ثم أرباض عرقة وملاطية... ووافاه هناك جيش الروم وعليه قسطنطين فوقاس. فدارت المعركة سريعة عنيفة دارت الفرسان فيها

كالدوامات وتشققت الدروع بالضراب وحجارة المجانيق واصطبغت الأيدي والمغافر بالدماء وانهزم البيزنطيون في الدروب الجبلية.

ثم علم سيف الدولة أن الدمستق إنما ترك القيادة في ملطية ليهاجم الشام فأسرع عائداً ليعترض طريق عودته عند مرعش. وعلى الرغم من أنه لم يكن معه إلا ٦٠٠ فارس فإنه أقبل على المعركة غير المتكافئة. واستطاع أن يشتت شمل الجيش الرومي ويثخن الجراح فيه ويكثر القتلى ويستنقذ من الروم ما كان في معسكراتهم من الغنائم والأسرى وأن يترك في وجه الدمستق عدداً من الجراح وأن يأسر مئات من الروم كان من بينهم قسطنطين بن فوقاس الذي جرى حمله إلى حلب ولم يلبث أن مات بها وعلى الرغم من أن سيف الدولة أحسن معاملته جداً فقد شاع في القسطنطنية أنه مات مسموماً مما دفع الروم إلى إساءة معاملة الأسرى المسلمين.

في السنة التالية ٩٥٤م. وفيما كان سيف الدولة يشرف على تحصين حدوده ويبني حول مدينة الحدث والقلاع والأبراج الواقية. فوجئ بجيش ضخم يقوده الدمستق يتجه إليه. كان الجيش الرومي يضم عناصر شتى من المقاتلين. فيهم مع الروم أقوام من البلغار والروس السلاف والأرمن والترك والصقالبة والخزر. ولم يكن لهذه الجموع من هدف إلا أنهم من المرتزقة وما كان لهم أن يصدقوا القتال رغم كثرتهم وتوفر وسائل القتال بين أيديهم. على أن عناصر منهم هاجمت جيش سيف الدولة وقاتلتها بشدة وعنف مما أوقع فيها الكثير من الخسائر في الأرواح في حين كان عدد آخر يتوارى عن الميدان ويتسلل من المعركة. وبعد عدة هجمات دموية صادقة قام بها الجيش الإسلامي تفرق الجيش الرومي بدداً وانهزم تاركاً في ساحة المعركة أكثر من ثلاثة آلاف قتيل ووقع عدد كبير من الأسرى في يدي سيف الدولة. أما الدمستق فوقاس فقد استطاع أن ينجو بنفسه بأن اختفى، على حد قول الرواية العربية، في سقاية بالحدث. ولكنه ترك في إسار المسلمين جماعة من أقاربه ومن البطارقة

القادة في جيشه. كل ما فاز به الروم هو إحداث بعض الثغرات في أسوار حصن الحدث!

كانت الهزيمة كارثة للروم. أرسل على إثرها الإمبراطور قسطنطين سفارة إلى سيف الدولة سنة ٩٥٥ يلتمس منه الصلح ورفض سيف الدولة رجاءه والصلح معه... كان سيف الدولة إذ ذاك في أوج قوته ومجده. ونشوة النصر في رأسه. لا سيما وقد تبددت المحاولة الأخيرة التي قام بها الدمستق لمهاجمة الحمداني. وكانت نتيجة ذلك تخلي الإمبراطور البيزنطي عن عدد من قادته الشيوخ ليحل محلهم قواداً جدداً من الشباب.

وعلى الرغم من هالات المجد التي طوق بها العالم الإسلامي رأس سيف الدولة ومن غناء المتنبي له على الدهور بسبب هذه المعارك المنتصرة الظافرة فإن موارد سيف الدولة شحت بعد ذلك وتضاءلت انتصاراته حتى انقلبت في النهاية إلى هزائم وحتى دخل الروم عاصمته حلب. ومن جهة أخرى فإن كل الدماء والمعارك التي كان يقودها على الحدود ويقودها الروم ضده كانت أشبه بالمعارك المحلية رغم قسوتها ومرارتها وانسكاب الدماء الغزيرة فيها. فلم ينجم عنها تغيير في الحدود ولا أعقب أي معركة منها زحف إلى ما وراءها من بلاد الروم. الذين قاسوا مر الحياة على طرفي الحدود وذاقوا الأسنة والنيران والسبي وهدم المنازل وهجرة الديار هم جمهور السكان والفلاحين من المسلمين والروم على السواء. ولما كانت بيزنطة هي الإمبراطورية الأكبر والأغنى فإنها هي التي تابعت الحروب والنصر حين توانت قوى سيف الدولة وتوفي. فقد قادت معركة بحرية رابحة ضد طرسوس وأوغل الجيش البيزنطي في الجزيرة حتى آمد وميافارقين.

فهل كانت هذه المعارك مجرد عرض للقوى؟ ومجرد ضمان لعدم تخطي الحدود؟

إن كان ذلك فيا للخسارة الفادحة!

مغارة الكحل

ليسوا بالقلائل أولئك الذين يعتقدون أن سيف الدولة الحمداني أعطي أكثر من حقه في التاريخ الإسلامي وقد يضيفون أن نصف سمعته التي ترن في الأجيال رنين الأجراس القديمة إنما قدمها له المتنبي بقصائده وشعره. فهو أعظم بوق دعاية بين الشعراء العرب.

فهل كان سيف الدولة فعلاً مجرد نمر من ورق؟ وهل كان المتنبي ينظر إلى صحابه من خلال تلسكوب يجعل من النملة جملاً وفيلاً؟ الحقيقة أن الرجل كان رغم ما ينسب إليه من الظلم ونهب الناس وإرهاقهم بالضرائب والمغارم نموذج البطل العربي المسلم. شجاعة ورأياً ودفاعاً وارتماءاً على السيوف وظهور الجياد. ربح من المعارك الكثير وخسر مثلها. والحرب هي الحرب. يوم لك ويوم عليك. ولقد ترك على صخر طوروس ووديان الأناضول خياله ماثلاً إلى اليوم أقوى ما يكون سواد أو خيال...

وإذا كان قد بقي يحارب الروم قرابة عشرين سنة فقصص معاركه الكثيرة معهم مسلسل لكل حلقة منه جانبها المثير. ذات مرة سنة ٩٥٩ فيما كان إمبراطور الروم يوغل في بلاد الشام حتى حمص وطرابلس تدميراً ونهباً وقتلاً للمزارعين والناس اختار سيف الدولة أن يقطع عليه طريق العودة ويقف له بجيشه في شمال الشام على الدورب المؤدية إلى قلب الأناضول. إن ذلك على الأقل سوف يجبر الإمبراطور على ترك الشام والعودة السريعة.

وعبر سيف الدولة بجيوشه الحدود البيزنطية. فيما كان قائده نجا يسجل نصراً هاماً ويحتل عدداً من الحصون في الشمال منه. ولعل من دواعي

هجوم سيف الدولة رغبته في تخفيف الضغط على كريت وأميرها عبد العزيز وكانت تهاجمها في ذلك الوقت نفسه حملة بيزنطية قاسية .

على أي حال رمى سيف الدولة بنفسه وجنوده على الدورب ... كان عدد من معه من الفرسان يزيد على ٣٠ ألف فارس . وقد نتساءل من أين أتى بهذا العدد من الخيل والرجال . إذن فلنذكر ها هنا أمراً هاماً هو أن موجة بدوية هامة كانت منذ أكثر من خمسين سنة تخرج من بادية نجد وتنساح على أطراف وادي الفرات وكان منها القرامطة ومنها جموع بشرية نزلت في الجزيرة (بديار ربيعة) وفي أطراف الشام من حلب حتى أعالي الحجاز على أطراف بادية الشام ونفذ منها جماعة واسعة إلى مصر هم بنو هلال الذين غرّبوا في التغريبة المشهورة ودمروا المغرب فترة غير قصيرة ولكن ثبتوا فيه العروبة والإسلام .

هذه الهجرة البشرية البدوية كانت المنجم الذي يجند منه سيف الدولة الجنود وإذا كان هذا الرجل قد عرف بقسوته في الضرائب والمظالم فإنه في الواقع لم يكن يريد ذلك لنفسه ولكنها نفقات الحروب التي كان يشنها ونفقات بلاطه الذي كان يؤوي العلماء وجوائز الشعراء الذين كانوا يهبطون عليه وتكاليف القصور التي كان يبني ويتأنق في البناء . ألم نقل إنه نموذج البطل العربي المسلم . فروسية وكرماً وشجاعة وحباً للفخامة ؟.

لم يحفل سيف الدولة بما تركه وراء من الإمبراطور الرومي ليو وجيش الروم في الشام . وكان ذلك في أوائل صيف ٩٦٠ . وعرف الإمبراطور أنه لا يستطيع الصمود لجيش سيف الدولة وفرسانه وسيوفه المسلمة فسار حتى وقف على الدورب التي كان لا بد لسيف الدولة أن يمر بها عند عودته من الغزو من جبال طوروس . وأمعن الجيش الإسلامي في التوغل بأرض الروم يحرق وينهب ويختل الحصون انتقاماً لما جر فعله الروم في الشام . أراد أن يتبع سياسة الأرض المحروقة التي اتبعها الروم فلا يبقى في المزارع والحقول من يزرع وينتج .. وأخذ سيف الدولة من الغنائم والأسرى الشيء الكثير . وأحرق بعد أن فتح عدة

حصون وتابع طريقه حتى خرشنة، عاصمة الثغر المعروف باسمها قرب ملطية في قلب الأناضول.

بلغ الجيش الحمداني، بعد انتصاراته المتوالية، سفوح جبال طوروس الشرقية. بغاله المحملة بالغنائم والذخائر تدب على الصخور دبيباً من الأثقال. والجند موزعون بين فرح النصر وبين الإنهاك والتعب واتخذ سيف الدولة طريقه في درب صخري بين الجبال يرتفع من جانبه حاجزان صخريان كأنهما جدران وكأن الدرب واد بينهما وقد اشتهر هذا الدرب لدى الروم باسم كيليندروس والمؤرخون الإسلاميون يسمونه مغارة الكحل. ويعتبر من أهم الدروب الإسلامية. وكان عليه حصن يحمل الاسم نفسه وقد ذكر المؤرخون أن حاشية سيف الدولة ومرافقيه من القواد أشاروا عليه أن يغير هذا الطريق وأن أهل طرسوس الذين كانوا معه حذروه من إمكان قطع الطريق عليه عنده. وذكروا له أن الروم ملكوا الدرب خلف ظهره وطلبوا إليه عدم المغامرة لأنهم بكل تأكيد سيقفون لسده أمامه. فلم يستمع لهذه النصائح. كان معجباً بنفسه ويحب أن يستبد ولا يشاور أحداً لئلا يقال إنه أصاب برأي غيره ولعله قدر أنه يستطيع اختراق الصفوف الرومية لو تصدت له... وهكذا تراءت له بعد حين قصير طلائع الروم. كان الإمبراطور ليو بقواته هناك وكان سائر قادة الثغور ومنهم قائد ثغر قبادوقيا والبطريق قسطنطين مالينوس اللذان قدما لإعانة الإمبراطور بالقوات المجاورة التي اشتهرت بممارسة الحروب في الجبال..

رابط الأمير ليو في الحصن حتى إذا قدم سيف الدولة بما معه من صفوف الأسرى الطويلة ومن الغنائم بالأكداس انقض عليهم ليو بقواته ووقع سيف الدولة في المصيدة الرومية. ولم تمنع شجاعة رجاله ولا جولات فرسانه من انهيار معنوياتهم. ولم يفلحوا في شق صفوف الروم على الدرب الذي صار درب دماء وأشلاء. وانفرطت حبال الأسرى فبادروا للهرب. وتبعثرت الغنائم المجموعة فهي نهب للروم من جديد. ووضع السيف في أصحاب سيف الدولة فهم

بعد ساعات من المعركة جثث وأشلاء أتى الروم عليهم وأسروا الكثيرين من الهاربين ...

وكان ليو الإمبراطور ينتظر أن يكون سيف الدولة بين الأسرى فلم يجده لأنه استطاع مع ثلاثمائة من رجاله فقط أن يخترق بعض الروم وينفذ من بعض شعب الجبال زحفاً على الصخور حتى نجا.على أن المتنبي يقول لصاحبه :

وقفت وما في الموت شك لواقف   كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة   ووجهك وضاح وثغرك باسم!

ودقت أجراس الكنائس في القسطنطنية فرحاً بهذا الانتصار الذي لم يسبق أن حققته الإمبراطورية قبل ذلك. فيما كان هذا العاهل يسرع برجاله الثلاثمائة عائداً مهزوماً إلى حلب.

ويقولون إنه بقي بعد وصوله العاصمة عدة أيام لا يجرؤ أن يكلمه أحد من التأثر والغضب.

أكان ذلك ندماً على عدم استماع النصيحة أم حزناً على جيشه الذي أبيد؟ أم تفكيراً في الانتقام؟ من يدري؟ لكن أليس من حق هذه الواقعة أن تسمى مغارة الكحل؟.

مـأسـاة عيـن زربـة

معارك سيف الدولة مع الروم ملحمة دامت عشرين سنة وأرخها المؤرخون مختصرة فهي كلمات : انتصر في معركة كذا وانهزم في معركة كذا... فهل عرفوا كم من المشاق والعناء والرعب يكلف النصر وكم من العذاب والمآسي وذوب الأوردة تعني كلمة الهزيمة ؟. لو تفكر الإنسان في وجيف الخيل شهوراً وفي تلاحم السيوف وأنين الجرحى وتساقط الصخور ولذع قذائف النيران . وفي الأعين المشدوهة عند انقطاع الأنفاس والصدور الممزقة والأحشاء المتيبسة على الصخور ... لو تفكر بهذا وأمثاله لتغيرت نظرته إلى المحاربين وحتى إلى النصر والهزيمة .. واستوت عند كلتاهما . فكل منهما قطعة من الجحيم ومن عذاب السعير !

سيف الدولة جعل الحرب هوايته . كان الجهاد حلمه الدائم . قالوا إنه كلما عاد من معركة نفض عنه الغبار ثم جمعه وأوصى متى مات أن يجمع له من هذا الغبار لبنة توضع تحت رأسه يلقى بها الله تعالى يوم القيامة ... ومن قصص جهاده قصة عين زربة . ولنقل مأساتها . فقد كانت مأساة .

كانت من إمارته في موقع متقدم قرب الحدود البيزنطية وقرر الروم قهر سيف الدولة باحتلالها . حشدوا عساكر القسطنطنية وثغور آسيا الصغرى جميعاً فاجتمع لهم جيش هائل العدد يقدر بنحو ١٦٠ ألف جندي يتبعهم قطار طويل من أدوات الحصار ولم يخفوا أنهم سائرون إلى مدينة عين زربة . لذلك لم يستخدموا دروب كيليكيا بل اتخذوا الطريق المباشر من قيصرية إلى عين زربة . وإنما اختيرت لأن حاميتها أضعف من الحاميات الأخرى فضلاً عن

صعوبة قدوم الإمدادات لنجدتها. كانت الجيوش بقيادة نقفور ويعرفه المسلمون بلقبه الحربي الدمستق.

ومدينة عين زربة كانت في سفح جبل عظيم يشرف عليها. شديد الانحدار وكان الموقع منيعاً وللبلد سوران لا واحد. يستديران بها وتتوقف استداراتهما عند الجهة التي تحتمي بالجبل لكن من يحتل قمة الجبل يستطيع أن يصل المدينة بسهولة. فأرسل نقفور كتيبة استولت على القمة في حين تعرضت الأسوار لقذائف المجانيق. وجاءت نجدة للمدينة من طرسوس يقودها رشيق النسيمي فأنزل نقفور بها هزيمة ساحقة هلك فيها نحو تسعة آلاف من الجند ووقع في يده عدد كبير من الأسرى!..

لم يؤثر ذلك على حصار نقفور لعين زربة وتضييقه عليها بالدبابات فلما رأى أهلها امتلاك الجبل وتضييق المجانيق ووصول الروم إلى السور وشروعهم في نقبه طلبوا الأمان فأمنهم نقفور وفتحوا له أبواب المدينة فدخلها لكنه لما رأى أصحاب الجبل نزلوا المدينة ندم على الأمان ونادى في البلد أول الليل أن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع ومن تأخر في منزله قتل. فخرج من أمكنه الخروج فلما أصبح أنفذ رجالته في المدينة وكانوا ستين ألفاً وأمرهم بقتل من يجدونه في منزله. فقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان وأمر بجمع ما في البلد من السلاح فجمع فكان شيئاً كثيراً. وأمر من في المسجد أن يخرجوا من البلد حيث شاؤوا يومهم ذلك ومن أمسى قتل فخرجوا مزدحمين فمات في الزحام جماعة وانصرفوا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون فماتوا في الطرقات من البرد والجوع وقتل الروم من وجدوا بالمدينة آخر النهار وأخذوا كل ما خلفه الناس من الأموال والأمتعة. وأمر نقفور بهدم سوري المدينة وأقام في هذا البلد المسلم واحداً وعشرين يوماً. وفتح حول عين زربة أربعة وخمسين حصناً للمسلمين بعضها عنوة بالسيف وبعضها بالأمان.. ومن القلاع التي استولى عليها قلعة سيس الهامة غير بعيد عن عين زربة.

واتفق في بعض الحصون التي فتحت بالأمان أن أمر نقفور أهله بالخروج عنه فخرجوا فتعرض أحد الأرمن ببعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة عظيمة فجردوا سيوفهم فاغتاظ نقفور لذلك. فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا أربعمائة رجل وقتل النساء والصبيان. ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق. وأظهر في هذه الحملة من الشدة والقسوة والصرامة ما اعتقد أنها تلقي الرعب في نفوس السكان من المسلمين بهذه الجهات الواقعة على أطراف إمارة سيف الدولة. ليجلوا عنها. فلقي السكان من النكال والعذاب والتشريد والقتل ما أدى إلى هلاك عدد كبير منهم. ومن نجا من القتل من الأطفال جرى عليهم الرق وامتدت يد التخريب إلى الأشجار والنباتات فأمست الجهات المجاورة لعين زربة خراباً يباباً. نجت منه فقط بلدة بغراس التي بذلت له مائة ألف درهم.

وأدرك نقفور موعد الصوم النصراني فانصرف على أن يعود بعد العيد عيد الفصح وخلف جيشه بقيصرية والمعروف أن نقفور كان يشتهر بشدة الورع والتقوى!! بعد كل الذي أوقعه في الناس!.

وما كاد يرتحل بجنده إلى الأراضي البيزنطية حتى نشط سيف الدولة من جديد فتوجه إلى كيليكية ليرقع الخرق الذي أحدثته تلك الكارثة! ولم يكن الاستيلاء على هذه المنطقة يتطلب إلا الاستعداد اليسير من نقفور ولكنه لم يفعل. ولم يتعرض للمصيصة أو لطرسوس أو يحاصرهما. ويبدو أنه استبقاهما لحملته بعد عيد الفصح متعمداً لإنزال الهزيمة بأتباع سيف الدولة. واحداً بعد الآخر وبكل قواته ليهد خصمه اللدود هداً. ويخضع أقاليمه ويهاجم عاصمته! وعليه في هذه اللحظة أن يستولي على ممرات جبال الأمانوس ليكفل الاستيلاء على كيليكيا والنفاذ الآمن إلى الشام!

وأدرك سيف الدولة الخطة الرومية فسار بجيشه إلى المنطقة نفسها يساند قواها وكان ألمه شديداً فيما يبدو من صاحب طرسوس: ابن الزيات لأنه قطع

الخطبة لسيف الدولة لتوانيه عن نصره وخرج في أربعة آلاف رجل من الطرسوسيين يقاتل نقفور. وكان سهلاً على القائد الرومي أن يوقع بأكثرهم وقتل في المعركة أخ لابن الزيات أيضاً فعاد إلى طرسوس ليجد أن أهلها أعادوا الخطبة لسيف الدولة وراسلوه في ذلك. فلما علم ابن الزيات حقيقة الذي وقع صعد إلى روشن في داره فألقى بنفسه منه في نهر تحته فغرق! وحين وصل سيف الدولة إلى طرسوس لم يجد ابن الزيات ووجد أهله فنقلهم إلى حلب.

وأقبل بعد ذلك على عين زربة يعيد تشييد ما تخرب منها. أنفق في ذلك ـــ على ما يذكرون ثلاثة ملايين درهم (حوالي ٢٠٠ ألف دينار) ولكن جراح المدينة كانت من العمق وبعد الأثر بحيث لا تلتئم بسرعة. وفقدت المدينة مكانتها وما كان لها من شأن حربي وتجاري لأن البيزنطيين لم يقدموا على الاستيلاء عليها مرة أخرى...

وأرسل سيف الدولة جنداً من طرسوس بقيادة حاجبه جرجويه فأغاروا على الأرض البيزنطية وبعث بغلامه نجا إلى ميافارقين ليبث بين أهلها الهدوء والسكينة. وفي أثناء عودته التحم في معركة عنيفة مع الروم عند حصن زياد (٩٦٧). وعلى الرغم مما رافقها من العنف وضرب المجانيق واشتباك الفرسان رؤوساً وأعناقاً. لم تكن أكثر من ملحمة متكافئة. وانفض الطرفان دون نصر أو هزيمة لأن الروم انسحبوا دون أسرى ولا غنائم ولم يلاحقهم المسلمون...

حين عاد سيف الدولة إلى حلب حضر الصلاة في جامعها. وكان القارئ يقرأ قوله تعالى:

﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾!.

الـروم فـي حلـب

حلب ، المدينة الكبرى في شمال الشام، والتي يقترن اسمها غالباً باسم بطلها سيف الدولة الحمداني . فـي تاريخها الإسلامي دائرة واحدة حمراء هي دخول الروم إليها لأول مرة وآخر مرة . وكان ذلك أيام سيف الدولة . القائد الرومي نقفور فوقاس لم يكن قد صار بعد إمبراطور الإمبراطورية البيزنطية يوم استولى على الطرق المؤدية إليها في جنوب الأناضول سنة ٩٦٢/٣٥١هـ . ووعد بالعودة بعد فترة الصيام وعاد .

صحيح أن سيف الدولة بين انصراف نقفور وعودته عمر المدينة التي نكبها نقفور عين زربة وواسى أهلها لكنه ما وصل عاصمته حلب حتى سمع بعودة نفقور . كان الوقت شتاء في ديسمبر والثلوج في الجبال والدروب أوحال وسيول ومع ذلك اجتاز الروم دروب جبل الأمانوس في اتجاه شمال الشام .

وخرج سيف الدولة من حلب إلى عزاز على مسيرة نهار من حلب في أربعة آلاف فارس وراجل . ولما تبين أنه لا يقوم لجيش الروم الكثيف القادم رجع إلى حلب وأقام معسكره خارج المدينة ليجري القتال في معزل عنها . ثم جاءه الخبر أن الروم مالوا نحو سهل العمق ، في غرب حلب فأدرك أنهم إنما يقصدون حلب بالذات . وألهبه القلق . وسينقذها مهما كان الثمن غالياً ، بعث أولاً غلامه نجا وهو أشجع قواده وأشدهم إقداماً في أربعة آلاف فارس يرجو أن يوقف الزحف البيزنطي . لكن الروم كانوا قبل ذلك قد امتلكوا عدداً من مدن الإمارة الحمدانية على الطريق . امتلكوا دلوك وعينتاب وانفصل قسم منهم بقيادة ابن أخت نقفور فنزل منبج وكان أميرها أبو فراس الحمداني خارج

المدينة فالتقى به كشافة الروم وجواسيسهم وعلى الرغم من الشجاعة البالغة التي أبداها في الدفاع عن نفسه فقد أصابته جراح عديدة ووقع في أسر الروم وظل مدة أربع سنوات كتب فيها قصائد من أمتع الشعر في أسره يقول وقد تركوه بثيابه :

يمنون أن خلوا ثيابي وإنما   عليَّ ثياب من دمائهم حمر
وقائم سيف فيهم دق نصله   وأعقاب رمح فيهم حطم الصدر !

ودبت الحماسة لهذه الانتصارات في البيزنطيين واعتقدوا أنهم في الطريق إلى قبر السيد المسيح الذي يناديهم في القدس. وتقدم نقفور بجنده يحرق ويدمر كل ما في طريقه. وأراد مباغتة سيف الدولة الذي علم بتقدم الروم فأعد العدة للدفاع عن حلب بتجنيد جميع من فيها وتألف من ذلك جيش كبير فيما أرسل خيرة جنده مع قائده نجا لمنع التقدم البيزنطي السريع لكن وفيما كان نجا يتجه إلى الغرب. عرف الروم بواسطة عيونهم اتجاهه فانحرفوا إلى الشمال الشرقي ليتجنبوا الصدام معه. ثم اندفعوا إلى الجنوب لمباغتة حلب فالطريق إليها مفتوح أمامهم. ولم ينتظر سيف الدولة وصولهم وبادر بنفسه للقتال ونادى في الناس من لحق بالأمير فله دينار. فما سار فرسخاً حتى علم أن الجيش الرومي سيصبح في حلب من الشرق. فارتد بقواته ونزل على باب اليهود (وهو من أبواب حلب) وبذل خزائن السلاح للناس.

أقبل البيزنطيون في ثلاثين ألفاً من الفرسان فوقع القتال العنيف في مواقع متفرقة. ثم قدمت مؤخرة الجيش الرومي في أربعين ألف راجل بالرماح واتخذوا مواقعهم على نهر قويق (نهر حلب) وأحاطوا بسيف الدولة فارتد عليهم بحملة تراجعوا فيها ولكنه انحاز بعيداً عن المعركة. فيما كان القتل يستعر في جنده ويلقى جماعة من الأعيان ومن أسرته مصرعهم ...

واستولى نقفور على دار لسيف الدولة كانت خارج حلب فوجد فيها ثلاثمائة بدرة من الدراهم وأخذ له ألفاً وأربعمائة بغل ومن خزائن السلاح

ما لا يحصى. نهب كل شيء ثم خرب الدار وملك الضواحي والأرباض وحاصر المدينة. فقاتله أهلها أشد القتال. وأحدث البيزنطيون في السور ثلمة فقاتل أهل حلب عليها ولم يلبثوا أن أصلحوها وتراجع البيزنطيون إلى جبل جوشن قرب حلب على أن رجال الشرطة في المدينة عمدوا إلى نهب المنازل وخانات التجار فتخلى الناس عن مواقعهم على الأسوار ومضوا إلى دورهم يدافعون عنها. ولما أدرك البيزنطيون ما وقع من الاضطراب والفتنة في داخل المدينة اقتحموها فوضعوا السيف في الناس وقتلوا كل من لقيهم. وكان في البلد من أسرى البيزنطيين ألف ومائتا رجل فأطلقوا سراحهم وحملوا السلاح ضد المسلمين. وكان سيف الدولة قد أعد من الروم سبعمائة رجل ليفادي بهم. فأخذهم نقفور. وسبا من المسلمين بضعة عشر ألف صبي وصبية. وأخذ من خزائن سيف الدولة وأمتعة التجار ما لا يوصف كثره. ولما لم يكن معه من الدواب ما يكفي لحمل هذه الغنائم أحرق ما تبقى منها بالنار. وعمد إلى المستودعات التي يحفظ بها الزيت وهي آبار في الأرض فصب فيها الماء حتى صار الزيت على سطح الأرض واختلط بالدماء والأشلاء. وخربت المساجد ونهبت الدور والقصور!..

دام ذلك تسعة أيام.

على أن نصر نقفور على المدينة لم يكن قد اكتمل بعد فلحلب قلعتها الحصينة التي تقوم على تل مرتفع في وسطها. وحين توغل الروم في المدينة وجدوا أن عدداً حسناً من المقاتلين قد لجأ إلى القلعة لا سيما من الديالمة المتطوعين ومن رجال الحكومة ومن أصحاب الأموال. فضلاً عن كثير من العلوية ومن بني هاشم. وعلى الرغم من سوء الأحوال التي تعانيها القلعة وما تعرض له اللائذون إليها من الشدة بسبب قلة المؤونة فإن الحامية فيها صارت خطراً على الجند الرومي لأن جندها صاروا ينقضون بين حين وحين على البيزنطيين الذين انصرفوا للنهب والسلب فينالون منهم النيل الكثير.

وتحرج الموقف وكان لا بد لنقفور أن يهاجم القلعة لكنه خشي بعد بقائه تسعة أيام أن تلحقه النجدات الآتية من الشام والموصل إلى حلب . وكان يرى أن يترك المدينة ويكتفي بما نزل بها وبسيف الدولة من الهزيمة . لكن ابن أخته تيودور أصر على أن يستولي على القلعة فوافقه على كره منه . فترجل تيودور وأخذ سيفاً ودورقة وصعد راجلاً . والمسلك إلى باب القلعة ضيق . لا يحمل أن يسلكه أكثر من واحد فصعد وتبعه أصحابه واحداً واحداً فضربه أهل القلعة بحجر ورمى أحدهم بخشب فنفذ في صدره . فحمله أصحابه إلى نقفور جثة هامدة . فلما رآه مقتولاً أحضر من كان في أسره المسلمين فضرب أعناقهم أجمعين ...

ونودي في المدينة بالانسحاب فانسحب الروم يمرون فوق الجثث والسنابك تطحن عظامها والجماجم وأزقة حلب قد لطختها الدماء وجدران قصورها ومساجدها متداعية .. والنيران ما تزال تلتهب في عدد من دورها .. في حين دبت صيحة الجهاد في مدن الشام والعراق وفارس . وتشكلت الحملات الضخمة للإنقاذ ويقولون إن نقفور لم يسمح لجنده بنهب وتخريب حدائق ومزارع حلب لحرصه على أن يعود إليها في السنة التالية ويتخذها قاعدة لأعمال حربية أخرى . وقال للناس لا تقصروا في العمارة فأنا بعد قليل عائد إليكم ...

لكنه لم يعد إليها بعد ذلك ولا عاد رومي غيره أبداً .

وإذا كانت هذه أفعال نقفور وهو المسيحي التقي جداً حتى كأنه راهب . ترى ماذا كان سيعمل لو لم يكن تقياً راهباً ؟

من حلب إلى تل الدم

حديثي حول نكبة الروم لمدينة حلب له تتمة. قطعها الوقت ولا بد أن تكتمل لتتم الصورة. فما الذي كان بعد حملة نقفور الشرسة الوحشية على المدينة ؟ وماذا كان من سيف الدولة ؟

كان سيف الدولة في فترة الاحتلال البيزنطي لحلب مستقراً في بالس قرب الفرات يراقب ما يجري وليس بدون ألم وحسرة وبدون تحرق العاجز فما إن انسحب الروم من حلب في مطلع ٩٦٣ حتى دخلها سيف الدولة ما هد كيانه وجسمه من الدمار.. والحريق والأحزان تسرح في الأزقة مع لطخ الدماء. وأين قصوره وبهجة قصوره يلقى فيها العلماء والشعراء والقادة... إنها بزخرفها وساحاتها والقاعات خراب يباب فانصرف إلى إزالة آثار العدوان واهتم بأن يعيد إليها ما تفرق من سكانها ولكن هيهات فقد كان بعضهم وصل بغداد والموصل وبعض فلسطين ومصر فالمدينة ظلت مهجورة لفترة. فنقل إليها سيف الدولة ما استطاع جمعه من سكان قنسرين، المدينة المجاورة والتي تعرضت بدورها أيضاً للحرائق والسبي على يد الروم وأعاد سيف الدولة عمارة بعض القصور وعمارة الأسوار وشيد من جديد ميناء أنطاكية...

وفيما كانت أحداث حلب قد أثارت نفوس المسلمين في الموصل وأميرهم ابن عم سيف الدولة فأغلقوا الأسواق واجتمعوا بالمسجد الجامع والتقوا بالأمير ناصر الدولة الذي وعدهم بالمضي للجهاد حتى بعض الأرمن تجمع منهم جماعة كبيرة وقصدوا الرها (أورفة) وأغاروا عليها وعادوا بغنائم كثيرة وفيرة.

في الخريف كان قد اجتمع لسيف الدولة مجموعات كثيرة من الجند

بذل الجهد الكبير في تنظيمها ثم قسمها ثلاثة جيوش . أرسلها في ثلاثة دروب مختلفة فعسكر طرسوس الثغر أوغلوا في عدد كبير حتى قونية في قلب الأناضول وأوقعوا بالروم وهزموهم وعادوا منهم بغنائم وافرة . فلما ارتدوا إلى الدرب (درب كيليكيا) اعترضهم جيش رومي يقوده رجل عرف لدى المؤرخين العرب بالملايني (وهو قسطنطين جلانيوس) فنشب القتال بين الجانبين . واندفع الفرسان المسلمون ببنودهم والأعمال كالعواصف فشقوا الطريق وحاصروا الروم من الخلف في حين كان الرجالة يقاتلونهم وجهاً لوجه . ونزلت الضربات هائلة في الروم بكرات الحديد ذات الأشواك والنبال وبالسلاح الأبيض وانجلى الموقف عن هزيمة مرة للروم وتدافعوا للهرب في شعاب الجبال .

أما جيش سيف الدولة الثاني فقاده غلامه نجا إلى ناحية ملاطية ثم إلى ناحية ميافارقين فالتقى بفرسان متطوعين من خراسان تبلغ عدتهم خمسة آلاف فضمهم إلى جيشه وكانوا يقصدون حلب . ليحمي الجزيرة من الشمال وأما سيف الدولة فعلى الرغم من المرض الذي أصابه فقد توغل بعساكره في الأراضي البيزنطية . لم يكن همه الفتح ولكن نهبها والإضرار بها . فلم يقف إلا عند بعض الحصون وعاد وقد ساق من وراءه خطاً طويلاً من السبي يبلغ أكثر من الألفين . ومن المواشي مائة ألف بعد أن أحرق الزروع ودمر القرى !

هذه الحملات الحمدانية أثبتت أنه لا هزائم سيف الدولة ، ولا حتى دخول حلب أوقف الجهاد الإسلامي .. وأن الإمارة الحمدانية الحلبية هي الباب لبحر هائل من المسلمين وراءها . لا تنضب جنده ولا المحاربون ولكن بيزنطة كانت بالمقابل في نهضة عسكرية قوية وعلى رأسها مجموعة من القواد العسكريين كل منهم يفتش عن مجد يتسنمه للوصول إلى العرش الإمبراطوري . وهكذا ظهر الشمشقيق احنا تزمسك في أواخر ٩٦٣ مرة أخرى على درب قليقية . يقاتل . حاصر مدينة المصيصة . كان في جيش ضخم وعدة سابغة وأدوات حصار قوية وأقام على المدينة سبعة أيام وأحدث في

سورها ما يزيد على ستين نقباً غير أنه فشل في الاستيلاء عليها . دفعه أهلها عنها بالقوة . فلم يسعه إلا جمع جنده والانصراف بعد أن كان عساكره قد تعرضوا لقلة الأقوات والهلاك وارتفاع الأسعار بعد أن كانوا يظنونها نزهة عسكرية والواقع أنه خاف أن يحصر بين قوتين . ففي أثناء ذلك الحصار خرج جيش من طرسوس تبلغ عدته خمسة عشر ألف فارس وراجل بقيادة أمير طرسوس لنجدة المسلمين في المصيصة . فتركها الشمشقيق ليتفرغ للجيش القادم والتقى بهم في أرض أذنة (أضنة) في أرباضها ودار القتال مستعراً مريراً تحركه في الطرفين أصداء النكبات الماضية . وإذا كانت المعارك كلها تتشابه في الصراع . الفرسان وغلاب الرجالة ورشق النبال والحجارة والنفاطين فقد تميزت هذه المعركة بالشراسة العنيفة كأنما كان أهل طرسوس ينتقمون لكل ما سمعوا عن حلب ونكبة حلب . وأحرزوا الانتصار الباهر وطاردوا الروم الهاربين فوق الصخور لكنهم لم يعرفوا أن كميناً رومياً نصب لهم استطاع أن يحصر منهم حوالي أربعة آلاف رجل . لقوا مصارعهم بالمباغتة وانحاز باقي الجيش الإسلامي إلى تل مرتفع صعدوه رجالة وتركوا دوابهم عند سفحه . وقاتلوا البيزنطيين يومين متتاليين دون نتيجة وفي اليوم الثالث تقدم ابن الشمشقيق صفوف جيشه وصعد بصعوبة بالغة مراقي التل والتحم مع الجيش الإسلامي عليه في معركة ما كان أصعب وأقسى . تحولت إلى صراع بالأيدي وبالرماح المتقصفة وبالسيوف تلتمع لتخترق الأحشاء أو الصدور . وقطرات الدماء من الأكواع وغام عن الأعين كل شيء إلا الأجساد المتصادمة وانفلات الدروع .

وكانت كارثة للمسلمين واشتهر هذا الموضع بعدها باسم تل الدم ! وذاع خبرها في العالم الإسلامي في رجة هائلة جعل اسم ابن الشمشقيق رمزاً للشيطان الرجيم ! وأحرق ، بعد أن ظل يتلوم خمسة عشر يوماً في المنطقة أرباض المصيصة وطرسوس وأذنة وشرع في الرجوع بعد أن ترك حاميات في بعض الحصون والقلاع . وتراجع المسلمون إلى ما وراء الأمانوس . أما الخراسانيون الذين

جاؤوا نصرة لله والمسلمين فإنهم بعد واقعة المصيصة وشدة الغلاء وقلة الأقوات في المنطقة تفرقوا في الثغور وعاد جماعة منهم مع سيف الدولة إلى حلب وانصرف أكثرهم إلى بغداد ...

وعلى الرغم من أن الشمشقيق هدد قبل انصرافه فقال لأهل الحصون والثغور التي فتح إن انصرافه ليس عن عجز ولكن لضيق العلوفة وشدة الغلاء وأنا عايد إليكم فمن انتقل منكم فقد نجا ومن وجدته بعد عودتي قتلته . ولكنه لم يعد بعد ذلك وما كانت هذه التصريحات إلا لإرعاب المسلمين فيها واستلام أرضهم دون جهد أو حرب . ولكن الذي عاد هو نقفور نفسه . كان قد أصبح إمبراطوراً . وعاد ينزل كما اعتاد على عين زربة ! صارت كأنما هي رمز لمجده ! احتلها . واحتل أذنة . واحتل عشرين حصناً يجاورهما ثم قرر المسير إلى الشام وأراد قبل ذلك احتلال المصيصة وطرسوس بعد أن ضعفت المدينتان جداً بالمال والمؤن والرجال . ولا ناصر لهما . كان يعتزم إرسال ثلاثة جيوش واحد إلى الشام وواحد إلى الجزيرة العليا وثالث يبقيه معه لفتح المدينتين : وقدم بنفسه على المصيصة فأقام عليها ثم تغلب على حاميتها ودخلها عنوة ووضع السيف في أهلها في مقتلة رهيبة كانت الخيل فيها تمسح تسامح السيد المسيح بالسنابك . الشيوخ كانوا يقتلون كالمحاربين والزهاد كقطاع الطرق وأمر أن يساق من بقي بعد القتل في المدينة من الرجال والنساء والصبيان مشياً إلى القسطنطنية وكانوا نحو مائتي ألف شخص فلم يصل منهم النصف !

أما طرسوس فقاومت أول الأمر ! جرى بين نقفور وبينها معارك كثيرة . سقط في إحداها ابن الشمشقيق على الأرض وكاد يؤسر لولا أن خلصه أصحابه وقاتلوا دونه وأسر الطرطوسيون بطريقاً من البطارقة ورحل الروم عنهم بسبب الغلاء الشديد لكنهم تركوا فريقاً يتابع الحصار . وبدأت المجاعة تفترس الطرفين وكثر الوباء لقلة الأقوات لكنه في طرسوس كان أشد وأكل أهلها الكلاب والجلود . ثم اضطروا إلى التسليم . وكان تسليماً مشرفاً . ودخل نقفور المدينة

ودعا كبار أهلها إلى مائدته ثم أمرهم بالانتقال منها ويحملوا ما يستطيعون حمله . وخرجوا بعض إلى أنطاكية وبعض إلى السفن وجعل نقفور من المساجد اصطبلات لدوابه وأحرق المنبر ونقل ما كان فيه من القناديل إلى بلده ... فأضحت منذ ذلك الوقت ثغراً ومعقلاً مسيحياً . أما ضريح الخليفة المأمون فيها فقد بعثر مع الريح بعد أن استراح فيه مائة وأربعين سنة !

لم يكن تل الدم معركة واحدة ولكن مجموعة معارك قام بها « راهب » فيما يقولون بثياب إمبراطور .

الروم وكريت الإسلامية

الشام ومصر وأفريقيا حتى صقلية ظلت لعدة قرون هاجس أباطرة الروم . كأنما كانت تزورهم في الأحلام فهم لا ينسونها أبداً . عداء سياسي ديني كان يلهب صدورهم جميعاً . فما تحين فرصة من الفرص حتى تجدهم بجيوشهم وأساطيلهم حضوراً لاستغلالها . لم يستطيعوا الاقتناع مرة بأن النصف العربي من إمبراطوريتهم قد ذهب ... وإلى الأبد ...

وكان حقدهم يبلغ أوجه حين يتعلق الأمر ببعض البقاع المجاورة مباشرة لهم مثل كريت وكم من معركة مريعة فرضوها عليها فما كاد يمر على فتحها على أيدي الربضيين الأندلسيين واستقرار المسلمين فيها بضع عشرة سنة حتى قاد وزير القسطنطنية تيوكنستوس ربيع ٨٤٣/١٢٢٧م حملة بحرية لا أضخم ولا أوسع على الجزيرة . بلغت هذه الحملة من القوة والاستعداد ما لم تبلغه قبله سائر الحملات التي وجهها من قبل ميخائيل الثاني . ولم يلق تيوكنستوس صعوبة في النزول بعساكره في الجزيرة غير أن المسلمين لعبوا ضده بحرب الشائعات . أشاعوا أن الإمبراطورة الوصية في القسطنطنية تيودورا جعلت أحد أخصامه قسيماً لها في الحكم ! وثارت مخاوفه على مركزه ومكانته فترك قيادة الحملة وعاد على قدمه على القسطنطنية ! تاركاً جانباً كبيراً من الجيش في كريت . وعلى الرغم من أن المسلمين وجدوا صعوبة كبيرة في قتال هذا الجيش فقد انتصروا عليه في هزيمة ساحقة . أرغمته على الهرب في الماء إلى السفن تاركاً مؤنه وأسلحته وخيامه الملآى بالجرحى والقتلى للشيطان .

كانت كريت ما تزال تابعة لسيادة الخلافة العباسية ولصاحب مصر وكانت الاسكندرية تمدها بالمؤن ويبدو أن الإمبراطورة تيودورا وحاشيتها اقتنعوا بأن قوة كريت مستمدة من مصر لذلك تجهزت في القسطنطنية حملة ضخمة سنة ٨٥٣/٢٣٧ (أيام المتوكل العباسي) فاقت في التجهيز والفخامة كل ما كان معروفاً وقتذاك من القوات الحربية. تألفت هذه الحملة من ثلاثة أساطيل تشتمل على ثلاثمائة سفينة. وبالغت القيادة الحربية في الاحتياطات فكان أسطول واحد منها يعرف أنه يتجه إلى مصر. أما الأسطولان الآخران فلا يعرفان الجهة التي يقصدانها. ويبدو أن أحدهما كلف القيام بأعمال حربية وبرقابة أرخبيل بحر إيجة أما الثاني فلمراقبة سواحل الشام.

وسار الأسطول الثالث إلى وجهته في ٨٥ سفينة عليها خمسة آلاف محارب. تولى القيادة أمير بحري تدعوه الكتب العربية ابن قطونا. ويبدو أن اسمه الرومي هو نيكيتيانس. ولما كانت دمياط في مطالع ازدهارها التجاري وتوسع قوتها فقد نزل عليها ولم تكن فيها حامية عسكرية فإن والي مصر عنبسة بن إسحق، آخر الولاة العرب في مصر. استدعى الجند من أنحاء مصر كافة للاحتفال بعيد الأضحى في الفسطاط! وأحس أهل المدينة بالحملة الرومية منذ تراءت أشرعتها في الأفق فبادروا إلى الهرب. ونزلت الحملة بالمدينة نهباً وقتلاً وحريقاً. استمرت الغارة يومين. كان لهب النيران في الليل ينير الليل كله وينعكس حمرة متموجة على البحر كموج السعير. ونهبت كميات كبيرة من المؤن والذخائر كان قد جرى إعدادها لوالي كريت. وأسر من السكان نحو من ٦٠٠ أسير من المسلمين والقبط على السواء. بعد أن قتل أضعاف ذلك في الطرقات والميناء. كانت الغارة رغم ضخامتها غارة تأديبية وقطعاً لأمداد كريت. في اليوم الثالث أقلع الأسطول الرومي بالسفن إلى جزيرة تنيس. غير أنهم ما لبثوا أن تحولوا عنها بعد أن أدركوا ما قد تتعرض له سفنهم من الخطر بسبب ما يكتنف الجزيرة من الكثبان الرملية. وتوجهوا إلى حصن أشتوم على

بحيرة المنزلة وكان مشهوراً بمناعة أسواره وبأبوابه الحديدية الصفيقة . فحاصروه ولم تكن حاميته بالكافية وفتحت لهم أبوابه فأقبلوا يدمرون ما يعثرون عليه من أدوات الحرب والمجانيق . ويهدمون الأبراج ... وحين أحسوا أن الأسطول الإسلامي قد يصل للنجدة وقد يغلق عليهم الممر إلى البحر . أطلقوا أشرعتهم للريح هاربين ...

عرف أهل كريت بهذه الحملة التدميرية فانطلقوا يغيرون على جزر الأرخبيل في بحر إيجة ونزلوا في جزيرة لسبوس الكبيرة بمثل ما تعرضت له دمياط من النهب والتخريب والقتل والإحراق . كانت معركة بمعركة حتى اضطرت القسطنطنية إلى نقل رهبان الأديرة من مواقعهم إلى البر اليوناني خوفاً من تكرار الغارة . وعادت ترمم المرفأ وتبدل الكثير لإعادة بناء الحصون المهدمة وتطمين المزارعين وإعادتهم لقراهم .

وعاد إمبراطور الروم ميخائيل الثالث الشاب السكير سنة ٨٦٢ بمحاولة جديدة لاسترداد الجزيرة . أعد حملة بحرية كبيرة سنة ٨٦٦ من أقوى سفنه وأكبرها . أقام احتفالاً ضخماً يوم غادرت بأعلامها ومحاربيها ثغر تراقسبون . حيث اجتمعت سائر الأساطيل والجند القادمين من ثغور آسيا الصغرى ... على أن هذه الحملة لم تصل . لم تفرقها العواصف ولا اتخذت وجهة أخرى . كل ما في الأمر أن أعداء الامبراطور قضوا عليها في البحر باغتيال قائدها بارداس !

وتنفست كريت الصعداء فترة من الزمن بعد ذلك . فالخليفة الواثق عقد هدنة مع الروم لما على يديه من مشاكل الدولة : ثورة دمشق الأموية . ثورة الأكراد في شمال العراق . فتن الخوارج . سوء الإدارة وتفشي الفساد وفتنة خلق القرآن التي حرقت الطبقة المثقفة دفعته للهدنة . ولم تكن القسطنطنية بأحسن حالاً بعد هزائمها في كريت وصقلية وقيام مشكلة البيالصة بمذهبهم الديني ضد المذهب النصراني السائد في الروم وانحيازهم للمسلمين .

ولا شك أن أهل كريت المسلمين ، بعد هذه الحملات عليهم عرفوا ضرورة العناية بالأسطول ، وبرعوا مع الأيام في ركوب الموج والأشرعة واستخدموا مهرة اليونان والملاحين المسلمين في أعمالهم البحرية لبسط سلطانهم بخاصة على بحر إيجة وجزر الأرخبيل وساحل البيلوبونيز اليوناني . كما أخذوا يتعاونون باستمرار مع الأسطول الشامي وفي سنة ٩٠٢ أغار الأسطولان معاً على جزر إيجة وحاصروا مدينة ديمترياس (سالونيك) فهدوا أسوارها في معركة طاحنة بين البر والبحر وعبروا خليجها ونصبوا عليه الأبراج . وسمحت لهم كثرة سكانها وغناها التجاري بأعداد كبيرة من السبي وكميات كبيرة من الغنائم .

وتلا ذلك غزوة ليو الطرابلسي سنة ٩٠٤ فهاجم الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى واستولى عنوة على مدينة أطاليا بمعونة الأسطول الكريتي . وكان في عزمه الهجوم على القسطنطنية فاجتاز بالأساطيل مضيق الدردنيل ودخل بحر مرمرة واستولى على جزيرة أبيدوس . وهي الميناء الرئيسي للسفن عند مضيها إلى القسطنطنية ولكن ارتحل بشكل مفاجىء فخرج من المضيق ليستدير حوله وينقض مرة أخرى على سالونيك ... ويكيل لها العذاب والمهانة وهي ثاني مدن الامبراطورية . كانت السفن تعمل معه وقد استخدم أسطوله قاذفات اللهب فأحرز الانتصار الحاسم الذي يدل عليه عودته بنحو ٢٢ ألف من السبي ذكوراً وإناثاً . باعهم في أسواق الرقيق في الخندق بكريت وفي طرابلس ! تاركاً القتلى والجرحى على الأسوار وأطراف المدينة للتعفن !!...

وعمدت الامبراطورية البيزنطية إلى تقوية أسوار سالونيك وإلى توسيع الأسطول ولكن بعد فوات الأوان فوجهت أسطولها بقيادة الوزير همبريوس إلى غزو قبرص فأحرز هناك نصراً باهراً على المسلمين شجعه عليه أن يهاجم اللاذقية على الساحل الشامي ويقتحمها مدمراً نهاباً سنة ٩١٠ . وآنس من نفسه القوة فمضى في السنة التالية بأكبر هجمة على جزيرة كريت : ٧ آلاف فارس ٣٤ ألف مقاتل . خمسة آلاف من المردة . ٧٠٠ مرتزق روسي . على أن

أسطول الروم اضطر للانسحاب بعد قتال طويل لعدة أشهر دون جدوى. وأثناء عودته قطع عليه الطريق أسطول إسلامي يقوده ليو الطرابلسي وداميان اليوناني المسلم أمير صور وقائد الأسطول الشامي، عند جزيرة خيوس فأجهزوا على الأسطول الرومي في معركة ساحقة ملأت سطح البحر خشباً وأقلعة ممزقة وأشلاء يتقاذفها الموج...

وبلغ من حزن همبريوس أن دخل بعدها الدير!

هزيمة في كريت للروم

في أواسط القرن العاشر كانت الإمبراطورية البيزنطية في يقظة حربية واسعة تكسر معظمها على تروس سيف الدولة ودروعه. كان الصخرة التي أوهت عليها الإمبراطورية قرونها وأبطالها العسكريين على أنه قبل أن يموت كان قد وهنت قواه وقلت موارده للإنفاق على الحروب وعلى عمران عاصمته ومدن الحدود وعلى القلاع وعلى حاشيته من الشعراء والعلماء مما جعل شعب إمارته في ضيق من المصادرات والسخرات. في حين كانت موارد الدولة البيزنطية، دولة الروم، وافرة غزيرة تمكنت معها من مواصلة يقظتها الحربية الواسعة. وهكذا أطلقت جيشها في عمق الجزيرة إلى بلاد آمد وميافارقين وديار بكر. وبدا في لحظة من اللحظات أن إمبراطور الروم ينوي مهاجمة بلاد الشام والعراق فقد عقد معاهدات الصلح مع الأقوام التي تجاوره أمثال البلغار والروس والمجر والفرنج بل مع المعز لدين الله الفاطمي يوم كان في أفريقية وذلك ليأمن عدوانها واستثنى الجبهة الإسلامية فلم يتقدم للصلح معها ولكن لحربها مستغلاً خلاف البويهيين في بغداد مع الحمدانيين في الموصل وحلب ليحتل ما يستطيع من أراضي الجزيرة كالحدث سنة ٩٥٧ وسميساط في السنة التالية وغيرهما...

غير أن هذه الانتصارات التي مدت الحدود البيزنطية في جنوب شرقي آسيا الصغرى ومدت السيطرة الرومية في أعماق منطقة الجزيرة الإسلامية لم تلبث أن تبددت بما لحق الأسطول البيزنطي من هزيمة ساحقة على الطرف الجنوبي من بحر إيجة، في جزيرة كريت الإسلامية.

كانت كريت تتمتع بموقع ممتاز لمراقبة التحركات الرومية في البحر

بفضل قيامها كالسد الطويل على مدخل بحر إيجة من الجنوب وبفضل قربها من شبه جزيرة موره وجزر الأرخبيل الإيجي. وقد صارت لها السيطرة على جزيرة ناكسوس التي أخذت تؤدي لها الجزية السنوية وانبسط بحارتها يجوسون خلال جزر بحر إيجة. تطلع أشرعتهم حيث شاءت ويجدفون إلى الجزيرة التي يشاؤون ويعودون منها بالغنائم. وصار بحر إيجة مستعمرة عربية إسلامية! وصارت موانئ كريت أوكاراً لمن يريد الجهاد في البحر أو للقرصان المغامرين من المسلمين وغيرهم. وتقلصت سيطرة بيزنطة لا في بحر إيجة فقط ولكن في الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

وما أحرزه قسطنطين السابع الإمبراطور الرومي في السنوات الأولى من حكمه من الانتصارات على المسلمين في الجزيرة وفي أرمينيا شجعه على أن يعمل على أخذ الثأر لما أصابه بعدها من الكوراث وعزم على فتح كريت وإخراج المسلمين منها وإعادة بطريقها، وأسقفها الشرعي إليها وهو الذي اتخذ مقراً له في مدينة سالونيك منذ فتح المسلمون الجزيرة قبل ١٢٥ سنة.

وهكذا استعد الإمبراطور قسطنطين السابع بأسطول ضخم يتألف من ١٣٧ سفينة كبيرة عدا السفن الصغار وشحن من هذا الأسطول خير ما تحتويه ثغور أوروبا وآسيا البيزنطية من البحارة الملاحين والقوات والقواد. عدد البحارة كان في إحصاء مؤرخ بيزنطي ٩٧٠٧ منهم ٦٢٩ من الروس و٦٣٨ من التالباش و ٧٠٠ أسير من مختلف الأجناس وثلاثة آلاف من المردة في الغرب و١٥١٢ من ثغر كيبريوت ومن المردة بالشرق سكان جبال أمانوس الشامي في السابق.

أما القوات البرية التي حشدها فتشتمل على ٤٧٤٣ جندياً. فيهم خيرة الحرس الإمبراطوري وفيهم جند من ثغري مقدونيا وتراقيه ومن الصقالبة ومن الأرمن سكان ثغري الناطليق والتراقسيون وأنفق فيهم نحو ٣٧٠٦ من الدنانير الذهبية. وأضاف إلى ذلك مقادير هائلة من عدد البحرية وأدوات

الحصار والقتال كالمجانيق والكباش والدروع والتروس والرماح والسيوف والأشرعة والعربات والنبال والأقواس... كانت حملة متكاملة العدد والعُدد. ما شك الإمبراطور لحظة في أنها كافية وظافرة لا سيما وقد أرسل قوات بحرية تراقب أساطيل المسلمين في الأندلس وفي أفريقيا وصقلية ومصر لمنعها من التحرك لمساعدة المسلمين في كريت.. فالخطة كانت إذن محكمة حتى من هذه الناحية.

قاد هذه الحملة الحربية الضخمة قائد ثغر ساموس: وهو قسطنطين غونجيل. من أساطين الحكومة الكبار.. واختار غونجيل موقع النزول إلى كريت وأنزل قواته لكن أخبار الحملة كانت قد ذاعت لدرجة دعت حكومة كريت الإسلامية للحذر ويبدو أنها في ترقبها وصول الحملة قد وزعت قواتها وقوات المطوعة معها بحيث لا تمكن غونجيل حتى من تحصين معسكره أو من اتخاذ حراس له أو من إرسال كشافين يكشفون مواقع المسلمين. فقد انقض هؤلاء عى الجند البيزنطي كالصواعق الماحقة. خالطوا المعسكرات. جالوا بالسيوف وارماح فيها. ذبحوا المتعبين قطعوا أطناب الخيام على من فيها وأفنوهم تحتها طافو بالسفن فأحرقوا بعضاً وأغرقوا بعضاً. ودارت معاركهم على ظهورها، فمعركة البر جزء من معركة البحر. وتزحزح الروم في البر يريدون العودة للسفن يحمونها أو يحتمون بها فغرق الكثير وسالت جثث الآخرين على الشاطئ وسبح بعض الجرحى في الماء حتى وصلوا السفن وطفت على وجه الموج الأشلاء...

وانجلى الغبار في النهاية عن استيلاء المسلمين على المعسكر والملمة الأسرى. وكاد القائد قسطنطين نفسه يقع أسيراً لولا أن حال دون ذلك غلمانه فدافعوا عنه حتى وصل الشاطئ والتحق ببعض السفن!

كانت هذه الهزيمة فضيحة للقوة البيزنطية وللأسطول البيزنطي بالذات. وانتشر الهلع والخوف في الروم وكان لزاماً على الإمبراطورية أن تمحو عارها بنصر آخر في أي مكان. ولو كانت الدولة البويهية أو الحمدانية أو الأخشيدية في

تلك الفترة في حالة تمكنها من الهجوم على الروم لبلغت منها الكثير لكن من المؤسف أن الروم هم الذين اتخذوا المبادهة بسبب وهن القوى الإسلامية المشرقية وتهافتها .

ولعل أهم ما نجم عن هذه الهزيمة الرومية أنها أيقظت ، بجهود قسطنطين السابع ، الروح القتالية الدينية في الروم . وحكم على كل نصراني أن يتسلح ليقاتل المسلمين «أعداء سيدنا المسيح» . ولهذا يعتبر أول من استهل الحروب الصليبية ! وقد أعلن بعض القسس عثوره على المنديل المقدس الذي مُسح به وجه السيد المسيح فرده الإمبراطور إلى مدينة الرها بمظاهرة دينية ضخمة تزيد على أشهر ما أحرزته بيزنطة من الانتصارات ! ..

وكان هذا بدء التحول في الفكر النصراني من المسالمة التي آمن بها السيد المسيح إلى فكرة «الجهاد» المسيحي ! والقتال لنصرة المسيح !

قصة بطل

كم تراه يجري من المعارك خلال خمسمائة سنة بين دولتين جارتين مختلفتين في الدين ، وفي اللغة والحضارة ولكل منهما أطماعهما في أملاك الأخرى وبينهما في كل سنة أكثر من صدام حربي ؟

ذلك كان حال العرب المسلمين مع الروم البيزنطيين على حدودهما الطويلة التي تقطع أواسط الأناضول من الشمال إلى الجنوب وتهتز دون انقطاع فتارة تعصف بها قوة حربية إسلامية فتبلغ بها مشارف أنقرة ونيقية في غرب آسيا الصغرى وتعصف بها تارة أخرى بالعكس فتدفع بها شرقاً حتى منابع الفرات وأعالي الجزيرة .

إنها ملحمة كبرى لا تنفد أخبارها ولا تنتهي تفاصيل ورجالاً وجيوشاً وقتلى وحصوناً تهدم وأخرى تبني وزحوفاً يسحقها الونى وأسواراً تنقب وخيلاً تحفى على الصخور وعويل نساء وسبايا في الدروب وسياطاً تئز حول الأسرى ودماء بكل واد وعلى حوافي الطرق . واجمع ما شئت أن تجمع من صور النكبات والمآسي فدونك التاريخ الذي يزري بالخيال . وتتخلل المعارك صور ومفارقات أخرى . . .

من الصور وما أكثرها صورة السوق الضخمة التي أقيمت في شتاء ٨٤٥/٨٤٦م على ضفاف نهر اللامس في آسيا الصغرى على الحد الفاصل بين الطرفين . نصبت الخيام وانتشر الجند من الطرفين بالسلاح الكامل وجاء كل طرف من ورائه شريط طويل من الرجال . إنهم الأسرى الذين تقرر تبادلهم بين الجانبين . وكان ينادى على كل أسير باسمه ويطلب أصحابه فلاناً أو فلاناً

من أسرى الآخرين فداء له أو يسألون عمن يعرض الطرف الآخر فداء له. وتهتز رؤوس القادة بالقبول أو الرفض ويستمر السوق أياماً عدة حتى يتم الفداء وفيه نساء وأطفال ومحاربون وذميون من رعايا الخليفة أيضاً بلغ عددهم أربعة آلاف.

وقد نظن هذا التبادل يعني السلام والهدنة. ولكنها هدنة أيام وتنتهي ليبدأ القتال من جديد ويحل محل الأسرى السابقين أسرى آخرون... تكررت هذه السوق أكثر من مرة ومنها ما كان سنة ٨٥٦... فلم يكن قد مضى على تبادل الأسرى فترة قليلة حتى خرج الإمبراطور ميخائيل الثالث المعروف بالسكير لمهاجمة أملاك المسلمين خرج لقتال أمير ملاطية عمر بن عبد الله. لماذا هذا الأمير بالذات؟ لأنه آوى وشجع البيالصة ولم يكن هؤلاء لصوصاً أو أصحاب دين مخالف للنصرانية ولكنهم أصحاب مذهب من النصارى غضب عليه الإمبراطور لأنه يقول بتحريم عبادة الصور والرسوم والصلبان. ويعتبر من يقوم بذلك من عباد الأصنام. وقد انتشرت نحلتهم في آسيا الصغرى حتى أرمينيا. فاضطهدوا ثم اضطهدوا. ولجأ زعيم من زعمائهم كان أمير منطقة على الحدود إلى أمير ملطية العربي المسلم ولجأ معه خمسة آلاف رجل من الجند. وكان الزعيم الأكبر لهؤلاء البيالصة واسمه قريباس يسكن حاضرتهم تفريق كانوا مهددين بالإبادة وقد أرسلت القسطنطنية عليهم حملة ضخمة أسلمتهم للمذابح وهلك عدد كبير منهم قتلاً أو حرقاً. ومن نجا هرب إلى ما وراء الحدود إلى المسلمين واستولت الدولة على ممتلكاتهم!

لهذا انحاز صاحب البيالصة إلى والي ملاطية وإلى والي طرسوس المسلمين وأغار معهما على الحدود البيزنطية سنة ٨٥٦ وما سمع الإمبراطور ميخائيل بذلك وكان فتىً غراً لا يجاوز الثامنة عشرة حتى تحرك بالجيش للرد والانتقام وبصحبته خالاه بارداس وبتروناس عن يمين وشمال! وكانت القيادة العامة لبارداس اتجه الجند الرومي إلى سميساط وعرف الوالي المسلم عمر بن عبد

الله بخبر الجيش القادم فاستعد له فكمن له وداهمه على حين غرة فتضعضعت صفوفه وتراجع الفرسان إلى الجبال وتداخل الجند بالدروع الثقيلة فداس بعضهم بعضاً ووقع الاضطراب الشديد في كتائبهم واستحر القتل ونفذ الجيش الإسلامي إلى حيث كان الإمبراطور الفتى فلاذ بالفرار ولحق به المسلمون فتولى الدفاع اليائس عنه بعض الحرس واستمرت مطاردته فترة قبل أن يفلت بصعوبة بالغة في ثنايا الكهوف الجبلية .

وعلى الرغم من أن تبادل الأسرى استمر كأن لا علاقة له بالحروب ولا بالدولتين وقامت سوقه سنة ٨٥٩ ولم تمض أسابيع قليلة عليه حتى كان ميخائيل الثالث الإمبراطور على رأس جيشه في الطريق إلى الحدود الإسلامية صحيح أنه عاد حين فوجئ بالخطر الروسي يهدد العاصمة لكنه ما إن انتهى منه حتى عاد يكمل طريقه إلى الحدود . سلك الإمبراطور الطريق الإمبراطوري المعهود عبر الدرب الطويل الذي يشق جبال الأناضول ويؤدي إلى أعالي الفرات . عن طريق أنقرة وسيواس ؟ ونصب معسكره في سهل توقات ، في المكان الذي أنزل الأفشين فيه بأبيه من قبل هزيمة ساحقة يوم عمورية والمعتصم . غير أن عمر بن عبد الله كان قد سلك طريقاً مختلفاً وأخذ الجيش البيزنطي على غرة . فقد قاد جيشه صوب الشمال عبر التلال ولما هبط إلى السهول به اتخذ له ولجنوده موضعاً في موقع يدعى خوتاريون . قرب المعسكر البيزنطي ونشبت بين الفريقين معركة ذكرت الإمبراطور بهزيمته السابقة . فقد هبط الجند الإسلامي على الروم على حين غرة . وأرهقه هجمات متتالية ودوس سنابك وطعن سيوف ورماح . وأجبر الجند الرومي على اتخاذ موقف الدفاع . الذين تحركوا للهجوم طوقوا بكثافة . وكثر قتلاهم والجرحى . وبدأ الهرب فكان الجند الإسلامي يتصيد الهاربين الذين كانوا يهربون من الموت إلى الموت . وانتهت المعركة مرة أخرى بهزيمة ساحقة للبيزنطيين . وفر الإمبراطور إلى قمة التلال . فحاصره الجيش الإسلامي مع حاشيته فترة من الزمن غير أن المسلمين لم يلبثوا أن انسحبوا بسبب قلة المؤونة

ونفاد الماء. وتقدم عمر بن عبد الله بعد الانتصار الذي أحرزه حتى بلغ بلدة سينوب على ساحل البحر الأسود. ثم عاد بعد ثلاث سنوات (٨٦٣) فخرب منطقة ثغر الأرمينياك الشمالية واستمر في زحفه حتى ساحل البحر الأسود مرة أخرى. فاستولى على مدينة سمسون وهي في ذلك الوقت من أكبر موانئ بيزنطة وتجارتها حتى مع المسلمين بالإضافة إلى الخزر والروس.

وبلغ الغضب أقصاه لدى الإمبراطور ميخائيل حين وصلته الأنباء. شبابه الغض كان قابلاً للاشتعال بسرعة فأعد جيشاً كبيراً جداً يزيد على خمسين ألفاً. وجعل قيادته لخاله بتروناس. فيما كان عمر بن عبد الله يتخذ طريقه على ضفاف نهر هاليس إلى مدينة طوانة والبدندون جعل بتروناس خطته على أساس اعتراض طريقه وإيقاف تقدمه. وتطويقه بين نهر هاليس وبحيرة تطا جنوبي النهر.

جمع بتروناس لهذه الخطة جيوش أربعة ثغور في الشمال. وجيوش ثلاثة ثغور في الجنوب والجنوب الشرقي ووقف هو بمن معه من عساكر ثلاثة ثغور في الغرب ليعترض طريق الجيش الإسلامي ولم يكن بينه وبين معسكر المسلمين سوى تل استطاع بتروناس أن يحتل قمته وينحدر بقواته على عساكر المسلمين... ووجد عمر نفسه مطوقاً تماماً. وعلى الرغم من ذلك فقد شن هجوماً خاطفاً كان يرمي من ورائه إلى شق الطريق وسط الجيوش البيزنطية ليسير إلى الشمال أو إلى الجنوب إلا أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً وارتبك جيشه واختل نظامه وليس معه إلا حوالي عشرين ألفاً فعرف أنها الشهادة. فأقبل مع جنده يقاتلون قتال اليأس. حتى لقي مصرعه ووقع الكثير من جنده بين القتل والأسر!..

لم يكتف ميخائيل بهذا النصر ولكنه أراد أن يعززه بنصر آخر فأنفذ جيشه في عمق الجزيرة الفراتية حتى مدينة ميافارقين قرب ديار بكر وفي المعركة

مع قوات المنطقة التي أخذت على غرة سقط أميرها علي بن يحيى صريعاً بدوره...

هذه البطولات الإسلامية المؤمنة هل يذكرها اليوم أحد؟

وقعة المجاز

في القسطنطنية وفي ليلة ١٠ ـــ ١١ ديسمبر سنة ٩٦٧/٣٥٧هـ. تسلل إلى القصر الإمبراطوري هناك ثلة من الجند على رأسهم الشمشقيق (حنا بزمسكيس) سهل لهم الدخول الطواشية والجواري بأوامر من الإمبراطورة الحسناء تيوفانو. كان بغضها لزوجها البشع المغرور الإمبراطور نقفور فوقاس لا يعدله إلا حبها لصاحبه الشمشقيق واتفقا على قتله. دخلوا غرفته فوجدوه نائماً على جلد نمر على الأرض على عادته منذ تنبأ له بعض المنجمين أنه سيقتل في فراشه. ركله المتآمرون بأرجلهم فلما استفاق قطعته السيوف وأصيب بجراح كثيرة وربطوا رجليه وجروه بين اللعنات وشد اللحية بعيداً ثم ضرب الشمشقيق بسيفه في جمجمته فحطمها وفيما كان هذا المتآمر يتوج إمبراطوراً كان رأس نقفور يعرض من نافذة القصر للناس. ثم دفن في السر.

كل أمجاد هذا الرأس. كل أحلامه بالفتح. سيل الدماء الإسلامية الذي أجراه بكل مكان في حلب حقده الديني الأسود كلها انتهت في لحظات مأسوية ضاع معها حتى تقاه وتوجهاته الروحية... أكان ذلك انتقاماً إلهياً؟ قد يكون... على أن السنوات التي قضاها في الإمبراطورية كانت شؤماً على المشرق الإسلامي ولكنها كانت شؤماً عليه أيضاً في صقلية في الغرب.

حين وصل العرش الإمبراطوري سنة ٩٦٣ قبل مقتله بست سنوات محمولاً على «أمجاده» التي حققها ضد سيف الدولة وضد كريت الإسلامية التي استردها. وحسب أنه سيحقق مثلها في صقلية التي احتلها العرب المسلمون. لم يبق منها سوى ثغر واحد هو ثغر طبرمين بيد بيزنطة مع بلدة

رمطة الصغيرة بجانبها وكان الروم يدفعون جزية سنوية للمسلمين فرأى نقفور أن من العار دفع الجزية وقدر ـــ وقتل كيف قدر أن سكان الجزيرة المسيحيين سيثورون متى رأوا الأسطول البيزنطي ضد المسلمين .

كانت صقلية تتبع أفريقية وفيها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (الذي فتح مصر) وقد سير المسلمون جيشاً بقيادة الوالي أحمد بن الحسن إلى قلعة طبرمين وضربوا عليها الحصار . وكانت من أمنع الحصون وأشدها على المسلمين فاحتمى أهلها وراء الأسوار ودام الحصار عليهم أشهراً وتنبه المسلمون إلى مسيل الماء الذي يدخل المدينة فقطعوه عنها وأجروه إلى مجرى آخر . فاشتد العطش على المحاصرين لدرجة التسليم المهين . طلبوا الأمان على أنفسهم والخروج من البلد على أن يكونوا رقيقاً للمسلمين وأموالهم فيئاً يوزع بينهم وامتلك المسلمون الحصن (آخر سنة ٩٦٢/ذي القعدة سنة ٣٥١) بعد سبعة أشهر من الحصار وسكن الحصن نفر من الجند يعرفون بالمعزية (نسبة إلى المعز سيدهم) وأضحت صقلية بكاملها في أيدي العرب المسلمين ، بعد ستين سنة من النضال المتقطع التدريجي . بقيت للبيزنطيين فقط البلدة الصغيرة التي تدعى رمطة! وهي معقل لا يمكن الوصول إليه لأنه متوغل بين الجبال في أقصى الشمال الشرقي من الجزيرة . غير بعيد من مدينة مسينا . لكن هذا الحصن لم يعجز المسلمين الذين ما إن استولوا على طبرمين حتى زحفوا إلى رمطة . سار إليها جيش يقوده الحسن بن عمار فحصرها وضيق عليها وتشدد .. كان ذلك بعد سبعة أيام فقط من تتويج نقفور في القسطنطينية .

وحسب نقفور أن بإمكانه اتخاذ رمطة وقلعتها قاعدة جسر لاسترداد الجزيرة . بعد ما حل بطبرمين من كارثة الاستسلام فجهز حملة .. وكان يود المسير على رأس الحملة بنفسه لكن مشاغله الإمبراطورية الجديدة منعته فبذل أعظم النشاط والجهد في إعداد الحملة بجيش ضخم وأسطول لا يتناسب مع

صغر القلعة الأخيرة في الجزيرة ولكنهما يعبران عن اهتمام نقفور بالجزيرة كلها ورغبته في استردادها أو استرداد بعضها على الأقل.

عهد الإمبراطور بقيادة الأسطول البيزنطي سنة ٩٦٤ إلى ابن عمه البطريق مانويل وهو جريء شجاع لكنه صغير السن وأصغر من أن يتحمل مسؤولية هذه الحملة الضخمة. وكان معه في قيادة الأسطول الطواشي نيكيتاس. ولم يكن نقفور موفقاً في اختيار الاثنين وإن كان أرسل معهما مستشاراً مجرباً مشهوراً بالتقوى اسمه نقفور. قديم العمل بالحركة الكنسية في بيزنطة. وكانت مهمته أن يصبح حاكماً على جنوب إيطاليا.

جرجت الحملة أواخر الصيف إلى صقلية اشترك فيها عدد كبير من السفن الحربية وبلغت عدة الجند أربعين ألفاً من خيرة العساكر الإمبراطورية وفيهم عدد كبير من الأرمن وعدد من الروس المشهورين بشدة البأس والضراوة في الحروب. وفيهم بعض البيالصة وحملت السفن عدداً كبيراً من آلات الحرب والحصار وفي أواخر الخريف تراءت القلوع الرومية في أفق صقلية.

كانت رمطة ما تزال محاصرة والمسلمون يطوقونها منذ شهور ولم يكن استعدادهم للحرب بأقل من استعداد بيزنطة فقد أرسل أبو صقلبة إلى الخليفة المعز يخبره بقدوم الأسطول البيزنطي في حملة كبيرة ويطلب المبادرة بالإمداد. في حين شرع هو في إصلاح الأسطول وزيادة سفنه وجمع المقاتلة من الرجال في البر والبحر. وفرق الخليفة المعز الأموال الجليلة في جمع الجند وسيرهم إلى صقلية فسار قسم إلى رمطة يتابعون حصارها مع المحاصرين وبعض نزل مدينة رمسين لتخرج إلى الشمال وتهاجم الغزاة.

لقي الفرسان الروم أشد العنت في النزول من المراكب ثم في التحرك لمساعدة رمطة بقيادة مانويل فوقاس فلما سمع الحسن بن عمار بمقدمه ترك بعض جنده للحصار وهرع يقاتلهم من وراء ظهورهم فلم يتيسر له ذلك لأن الروم تقدموا للقتال في غرور من يعتد بكثرة العدد والعدة. وجرى القتال مريراً

شرساً واشتد الأمر بالمسلمين الذين دفعهم العدو إلى خيامهم وأيقن الروم بالظفر حين رأوا كثرة القتلى والجرحى من المسلمين فلما رأى الجيش الإسلامي عظم ما نزل بهم يئسوا واختاروا الموت والشهادة فذلك أكرم لهم من الهزيمة فحملوا حملة رجل واحد على الروم والحسن بن عمار على رأسهم وحمي الوطيس حينئذ وتطايرت الأشلاء والهام. ولم تغن الدروع من الموت ونفق الكثير من خيول الفرسان فانهارت شدتهم. وعلى الرغم من أن بطارقة البيزنطيين حملوا مع عساكرهم وحرضوهم ووعدوهم الوعود فلم يجد ذلك فتيلاً واخترق مانويل قائد الروم بعض الصفوف الإسلامية فطعنه المسلمون طعنات عديدة لم تؤثر فيه لكثرة ما عليه من الزرد فرمى بعضهم فرسه فقتله واشتد القتال حوله بين مهاجم ومدافع فلقي مصرعه ... وحلت الهزيمة بالبيزنطيين. فأكثر المسلمون فيهم القتل وظلت المعركة دائرة من الصباح حتى العصروالمسلمون يقاتلونهم بكل ناحية حتى هلك ما لا يقل عن عشرة آلاف منهم. وغنم المسلمون من السلاح والخيل وصنوف الأموال ما لا يحصى. ولم يحفل المسلمون بأخذ كل الأسرى.. احتفظوا منهم بجماعة من البطارقة ليحصلوا على فديتهم. وأرسل القائد الإسلامي إلى الخليفة المعز مع الأسرى والروس سيفاً هندياً وزنه مائة وسبعون مثقالاً جرى استخدامه من قبل في بعض غزوات الرسول.

إثر هذه المعركة ضعفت نفوس أهل رمطة وقلت الأقوات فيهم فأخرجوا من فيها من الضعفاء وبقي المقاتلة فضيق المسلمون الخناق عليها وظلوا يقاتلونها ليلاً ونصبوا على أسوارها السلالم فملكوها عنوة وقتلوا من فيها وسبوا الحريم والأطفال وغنموا ما كان فيها وكان شيئاً عظيماً.

أما الأسطول البيزنطي فاختبأ في مياه مدينة ريو لا يجرؤ على الخروج فلما اجتمعت إليه حاميات الحصون التي احتلها المسلمون قرر الخروج فلحق به الأمير أحمد في المراكب بعساكره وزحف إليهم فوق الموج فهو يأتي ماء ويرتد دماء. وألقى جماعة من المسلمين بأنفسهم في الماء يخرقون السفن الرومية

ويخسفون بها فغرق الكثير من الأسطول الرومي وقتل على الأخشاب الكثير. وحصلوا على عدد كبير من الأسرى وعلى غنائم وفيرة أرسلت إلى بلادهم.

هذه الواقعة الأخيرة تعرف في التاريخ باسم واقعة المجاز وكان من الأسرى فيها قائد الأسطول الرومي نفسه نكيتاس الذي ظل أسيراً في المهدية لدى الفاطميين سنتين!

وعادت كالابريا تدفع الجزية عن يد وهي صاغرة. ولم يعد نقفور إلى الثأر لهزيمته المرة لأنه مع كل أمجاده سقط صريعاً في قصة حب حرام!.

أمـراء أقـزام

في مطالع القرن الخامس الهجري/١١م. كانت الحدود بين الروم والمسلمين قد تآكلت كثيراً في آسيا الصغرى احتفظ المسلمون ببعض المدن كالرها ولكنهم فقدوا مدن الثغور حتى أنطاكية وكثيراً من مدن الجزيرة. صارت المدينة الكبرى المواجهة لهم هي حلب. ولولا أنهم كانوا يخشون أطماع الفاطميين الذين يملكون معظم الشام، فيها لاقتحموها أيضـاً. ولكن حكام حلب وهم بنو مرداس كانوا يمسكون العصا من الوسط فيدارون الفاطميين ويداهنون الروم ويدفعون لهم الجزية. تلك كانت وسيلتهم كالكثيرين للبقاء في الحكم!.

وكانت الشام في تلك الفترة في فوضى يتقاسم السيطرة فيها ثلاث فئات من البدو عجز الفاطميون عنهم فاستغل الفرصة دوق أنطاكية البيزنطي ميخائيل فخرج يقاتل أمراء حلب دون أمر من الأمبراطور رومانـوس في قسطنطنية. لكنه أصيب بهزيمة مذلة دارت فيها الدوائر على فرسانه وعسكره وترك في الميدان الأشلاء والجثث وتراجع يرجو الصلح!..

سمع الإمبراطور رومانوس الثالث بالخبر فعز عليه أن يهزم قائده على الحدود ولم يكن ثم سبب جوهري للقيام بحملة إمبراطورية على الشام ولكنه أعلن ذلك سنة ٤٢١/١٠٣٠ فقد كان حريصاً على أن يذيع صيته أو يشتهر اسمه ويقرن بأسماء اللامعين المنتصرين من الأباطرة مثل نقفور وتزمسكيز وباسيل وأخذ في إعداد حملة ضخمة حشد لها مالم يحشد في الحملات السابقة ويقدرون عدد من حشد بثلاثين ألف مقاتل. وقرر أن يتولى بنفسه توجيه

العمليات الحربية وأول ما فعله أنه عزل دوق أنطاكية وأرسل بدلاً منه زوج أخته في جيش جهزه بدوره بحملة حربية حملت معها ما تحتاج من آلات الحصار وأدوات دك الحصون وبعثه قبله يقاتل أمير حلب دون أن يشتبك معه في معركة حاسمة . كان يريدها حرب استنزاف وأن تبقى المعركة الحاسمة له !

على أن ما جمعه رومانوس من الرجال لم يكونوا رجال حرب وخبرة ولا دراية لهم بالقتال وإنما اتخذهم التماساً للكثرة . وأشرك فيهم عساكر من الروس والأرمن والبلغار والبوشناق والكرج والخزر . وحاول كبار القادة أن يثنوا الإمبراطور عن عزمه لتخوفهم من نتائج الهجوم غير أن جماعة من أجل عسكره قربوا إليه أخذ حلب وصغروا في نفسه حال العرب المسلمين فاغتر بكلامهم وصدق مقالتهم لموافقته لهواه . وصرف سمعه عن مشورة الناصحين له بخلاف ذلك . وأغفل ما تقتضيه السياسة من التحفظ واليقظة .

المسلمون من جهتهم أبدوا اهتماماً كبيراً بالحملة والحرب المتوقعة . فبعثوا إلى الإمبراطور يخطرونه أنهم غير راغبين في القتال وأنهم لا زالوا متمسكين بشروط الهدنة مع أنطاكية . واعترف أمير حلب المرداسي بالمعاهدة المعقودة من قبل مع الإمبراطورية البيزنطية . وعرض أن يحمل من القطيعة والإتاوة ما كان يحمله أولاد سيف الدولة إلى باسيل . على أنهم حين أدركوا عزم الإمبراطور على المضي في القتال وطنوا أنفسهم على مواجهة الأمر الواقع . وعادت سفارة أمير حلب خائبة يتبعها جيش الإمبراطور ! ..

نزل رومانوس في أنطاكية وقد فشا في عسكره المرض لشدة الحر . ثم سار بهم إلى قرب منطقة أعزاز شمال شرقي حلب . وعسكر في سفح جبل لا ماء فيه . وضرب حوله جنده خندقاً عظيماً تولى حراسته الرجالة خوف المفاجأة . في حين كان المعسكر الإسلامي ينزل إلى الجنوب منه في مناطق غزيرة الماء . .

حرص رومانوس على أن تبدأ المعركة بصدمة كبرى على مواقع

المسلمين. فأرسل قوة حربية نحو حصن أعزاز تكشف الطريق وتستبين مواقعهم فيما كانوا بدورهم يترقبون قوات الروم. وكانت الحرارة الشديدة التي لم يتعودوها تصهرهم. فضلت القوة في الطريق. وفاجأها عدد كبير من المسلمين. فاضطرب الروم ولم يستبينوا أين يتحركون. واختبط بعضهم في بعض فرساناً ورجالة. وهلك عدد كبير منهم قبل أن يبادروا الحرب. ووقع قائدهم أسيراً في يد الحلبيين. وانهارت بذلك الخطط الحربية التي وضعها الإمبراطور في حين اندفع المسلمون في حماسة بالغة يحاولون تطويق المعسكر الرومي ويقطعون عنه الماء والمؤن حتى يهلكوه جوعاً وعطشاً.

ولم ينجح البطارقة في الجيش في رد المغيرين عليه. واستبد الرعب في الجند وانهارت روحهم المعنوية فأخذ بعضهم يولون الأدبار. يسابق الرجالة الفرسان (أغسطس ١٠٣٠). وأسر المسلمون عدداً كبيراً من البيزنطيين وطاردوا الهاربين ثم داروا بالعسكر وقد ضعفت نفوس من بقي منه وضيق المسلمون عليهم. وناوشوا من كان في أطرافه من الرجالة وحملوا عليه. واجتازوا الخندق وهجموا على السوق الذي بالمعسكر ونهبوه. وتخاذل الروم عن دفعهم وحربهم. فتوسع المسلمون في الإغارة والقتل والجند الرومي يحترق عطشاً.. ورأى الإمبراطور أن الوقت غير مناسب للغزو فقرر الرحيل. ولم يتوقف الفرسان المسلمون عن ركوب أقفية الجيش الرومي المرتد إلى أنطاكية. فتحول الارتداد إلى هزيمة شاملة. ووقع في أيدي المسلمين غنائم وافرة من الأسلحة والأموال والثياب. فضلاً عن سرادق الإمبراطور المصنوع من الحرير. وقد ظن الروم أنه قتل.

أما الإمبراطور فقد هام على وجهه حتى رآه بعض رجاله الذين اتفق مرورهم به أثناء الهرب فعرفوه من لون خفه (فقد كان الأباطرة يلبسون الخف الأحمر أما رومانوس فاختار الخف الأسود) فالتقوا به. وذاع الخبر بأن

الإمبراطور لا يزال حياً فالتف حوله عدد كبير من رجاله. وأهم من ذلك أن أحد العساكر حمل إليه إيقونة تسمى «أيقونة أم الإله» درج الأباطرة على أن يحملوها معهم أثناء حملاتهم ويتخذوها هادياً ودليلاً للجيش. ولم تقع الأيقونة بيد المسلمين حين فقدها الأمبراطور فيما فقد. ووجدها الجندي فردها للإمبراطور الذي استرد بها بعض شجاعته وعزا إليها نجاته ـــ فيما زعم ـــ من موت محقق وأرسل يدعو الجند الهاربين للقدوم إليه واجتمع بقادته. وتقرر الرجوع إلى العاصمة القسطنطنية!

وانتهت بهذا الشكل الهزلي ـــ المأسوي معاً أوديسة رومانوس الثالث الذي أراد أن يعود بفتح مبين فعاد بخفي حنين!!

الشيء الوحيد والهام الذي حققه هو أنه عاد فذكر المسلمين في الشام بأن الدولة البيزنطية مازالت تطمح لاحتلال البلاد لأن الإمبراطور أعطى تعليماته لقواد الحدود بذلك وكان من نتيجة هذا الاحتمال الذي يخافه الناس أن تحرك دوق أنطاكية الرومي فاحتل حصن المنيقة على طريق حلب. وأن قام الرومي حاكم المدن على أطراف الفرات والذي يتخذ سميساط مقراً له فهاجم أقرب المدن الإسلامية إليه وأكثرها ثروة وغنى وهي مدينة الرها (أورفة الحالية). فاحتلها رغم إمدادات البلاد الإسلامية لها من حران وحلب ودمشق وحمص ومنبج والموصل وبغداد والجزيرة. وكان أيضاً من نتيجة هذا الخوف المحتمل أن تشجع أمير طرابلس على الخروج عن طاعة الفاطميين التامة. وفتح لبيزنطة الموانئ الشامية.. وتعهد بدفع جزية للإمبراطور سنوية. وجدد أمير حلب معاهدة آبائه مع بيزنطة ببذل الخدمة لها والاشتراك بقواتها في كل حملة تنفذها إلى الشام. ويعترف للإمبراطور بأن يسير تحت طاعته ويدفع له خمسمائة ألف درهم كل سنة إتاوة وجزية. وحين جاء مندوب الإمبراطور إلى حلب لتوقيع المعاهدة من أميرها بعث معه الأمير جملة من الهدايا والتحف كما

بعث إليه شعر القديس مار يوحنا المعمدان... فحسن وقع ذلك لدى الإمبراطور !!

أقزام وأمراء صغار كانوا يشترون بقاءهم بدل الاتحاد بتملق العدو تفرقوا فركب ظهورهم الروم ! وما أشبه الليلة بالبارحة !.

غزو الروم لصقلية

صقلية، الجزيرة التي نعرف، ظلت دوماً خلال العصور الوسطى، عقد الإمبراطورية البيزنطية. سواء حين كانت تابعة لها في القرنين الأولين للهجرة أم حين تبعت الدولة الأغلبية الإسلامية في تونس منذ فتحت في القرن الثالث للهجرة. توالى الأباطرة بل توالت أسرُ الأباطرة أسرة بعد أخرى عدة قرون وصقلية هاجس يحلم الأباطرة بالعودة إليه. وكم بذلوا من جند وأساطيل وجهود في ذلك حتى خرجت من أيديهم نهائياً وأيدي المسلمين معاً في النصف الثاني من القرن الخامس. أخذها النورمان المغامرون.

وقصص محاولات بيزنطة لاسترداد هذه الجزيرة عديدة منها هذه القصة:

ففي سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥ اندلعت في الجزيرة حروب داخلية بين المتنطعين لحكمها أو حكم بعض أقسامها وهذا ماجعل بعض الأخصام يلجأ إلى بيزنطة. ولعل أسباب هذه الفتن ما تأصل من العداء، منذ زمن، بين عدة فرقاء: بين أهل صقلية الذين اعتنقوا الإسلام وبين أهل أفريقية (تونس) المسلمين. وبين سلالة الأسر العربية التي توطنت في الجزيرة منذ سنوات عديدة وحازت أملاكاً كثيرة وبين المهاجرين من البربر الذين قدموا حديثاً في أعداد كبيرة إلى الجزيرة من الشمال الأفريقي ولم يمتزجوا بعد بسائر السكان.

حاكم الجزيرة كان وقتذاك الأمير أبو جعفر أحمد الأكحل الذي ولي الحكم منذ سنة ٤١٠ (١٠١٩م) بعد ثورة دامية ثار بها أهل مدينة بالرمو على أخيه جعفر وأرغموه على التنازل عن الحكم ومغادرة البلاد وإذا أصلح الأكحل الحكم الداخلي فإنه في سياسته الخارجية لم يغير شيئاً من سياسة

الولاة الذين سبقوه ظل يتابع الحملات على جنوب إيطاليا ويهز النفوذ البيزنطي هناك. كما ظل هذا النفوذ يهتز ويتداعى لأن الجماعات الوطنية في هذا الجنوب كانت تكره بيزنطة. قواداً وحكومة ونفوذاً لدرجة إعلان العصيان والتمرد عليها.

على أن الأمير الأكحل وهو عربي الأصل كان يكره العنصر الأفريقي ويبغضه. فلما نشبت ضده سنة ١٠٣٥ ثورة قام بها أهل صقلية والمغاربة بزعامة أخيه الآخر أبي حفص لم يسعه إلا طلب المساعدة من البيزنطيين الروم. والتحالف معهم. جاءه في ربيع تلك السنة الطواشي حنا ليعقد معه هدنة ثم أنفذ إليه مندوباً دبلوماسياً بارعاً اسمه جورج بروباتاس فاستقبله الأكحل في بالرمو الاستقبال الحافل وتقرر أن يحصل الأكحل على لقب ماجستروس من بيزنطة، وأن تبعث إليه الجند لقتال أخيه الذي يتزعم الثوار وأن يذهب ليكون رهينة في القسطنطنية ضماناً للصداقة ولحسن نية الأكحل.

وحرص أبو حفص على مصالحة أخيه فلم ينجح. فالتجأ إلى جهة أخرى يلتمس منها العون هي تونس والقيروان. وكان الحكم فيها للمعز بن باديس الزيري الذي ورث الحكم الفاطمي. ثم استقل عنه. واستقبل المعز مبعوثي صقلية بالحفاوة فقالوا: نريد أن نكون رعية لك فإذا لم تقبل صرنا رعية الروم والنصارى وأحرزت هذه السفارة نجاحاً عظيماً إذ أرسل المعز إلى أبي حفص ستة آلاف مقاتل نصفهم من الفرسان ونصف من الرجالة وجهزهم بكل ما يحتاجون من السلاح وجعل ابنه عبد الله على قيادتهم. لم يشترط المعز سوى أن يكون أمير صقلية من أتباعه.

لم يستطع الأكحل رغم دعم الروم البيزنطيين له أن ينتصر. هزم على يد العساكر القادمة من أفريقيا وعساكر أخيه. فعاد مرة أخرى يستنجد بحاكم كالابريا الرومي الذي حشد له سنة ٤٢٩ ما لديه من الجند البيزنطي واجتاز بهم إلى صقلية وهزم العسكر الأفريقي بقيادة عبد الله بن باديس.. لكنه لم يستطع المضي في عملياته الحربية لما صادفه من مقاومة شديدة مستمرة بسبب

تفوق القوات الأفريقية في العدد. فاضطر أن ينسحب إلى أيطاليا. وكل ما كسبه في هذه الحملة أنه حمل معه نحو ١٥ ألفاً من الأسرى النصارى الذين كانوا في صقلية فضلاً عن أن كثيراً من نصارى الجزيرة نزحوا معه. وبقيت ولاية صقلية لعبد الله بن المعز بن باديس والزيريين أما الأكحل فقد لقي مصرعه على يد أشياعه في بالرمو!

ولم تحفل القسطنطنية إلا بشيء واحد بعد هذا هو استغلال الفتن والخلافات في الجزيرة لاستردادها وبلغ من حماستها لذلك أن أعدت حملة شديدة الضخامة بذل الإمبراطور ميخائيل الرابع ورجاله كل جهدهم في تجهيزها وإعدادها. قضوا في ذلك سنتين. وجعلوا قيادتها لأكفأ قائد بيزنطي لديهم: جورج مانياكس الذي اشتهر بحروبه للمسلمين في المشرق.

جمع لهذه الحملة خيرة الجند: فرق من الروس واليونان الروم ومن ثغر الأرميناق وفرق من النورمان وأخرى من السكان وجموع من اللومبارد وعلى رأس هذه الفرق زعماؤها البارزون. وجعلوا لمساندة هذا الجيش أسطولاً قوياً يقوده صهر الإمبراطور وقائد الثغور الإيطالية. وجمعوا له بكل أساليب العنف والشدة الأموال الضخمة والحشود العسكرية مما زاد في تذمر المناطق الإيطالية الجنوبية من البيزنطيين. وبخاصة من ثغور أبوليا وكالابريا.

غادرت هذه الحملة، حين اكتملت، ميناء ريو واجتازت المضيق ونزلت في صقلية ثم زحفت على مدينة مسيني واستطاع القائد مانياكس بفضل مساعدة النورماند والسكان المواطنين أن يستولي عليها بعد معركة شديدة فرت منها الحاميات الإسلامية بعد أن فتك بها القتل مما سمح لمانياكس أن يفتح بعدها ثلاث عشرة مدينة أخرى على الساحل الشرقي لصقلية دون كبير جهد حتى وصل سيراكوزة. وهذا الساحل هو أخصب مناطق الجزيرة وأكثرها سكاناً وإنتاجاً.

ضرب الحصار على سيراكوزة في مستهل سنة ١٠٤٠ (٤٣٢هـ)

وتجهم الجو بالغبار وكر الخيل. واشتد القتال شدة مذهلة. وكان يسمع في الميدان صيحات المحاربين بمختلف اللغات وترى مختلف أنواع الأسلحة من الدبابيس وكرات الحديد التي تطيح بالرجال والسيوف الثقيلة وشفرات السيوف الرقيقة والنبال يشتبك بعضها ببعض في كل اتجاه والخيل تشرد وتصهل. وتجلت بطولة المسلمين في الدفاع عن المدينة بعد أن نسوا ما كان منهم من منازعات واستبسلوا في القتال. وأفادوا من مناعة أسوار المدينة. فطال أمد الحصار. واغتنم عبد الله الزيري القائد هذه الفرصة فحشد من أقاليم الجزيرة ومن أفريقيا جيشاً ضخماً يزيد على ستين ألف مقاتل. وهاجم مؤخرة الجيش البيزنطي وأرغمه على التراجع وفك الحصار عن سيراكوزه. فتحول مانياكس الرومي لقتال عبد الله بالقرب من أثنا.

واشتدت الحرب بين الطرفين في مواقع عدة ظل النصر فيها معلقاً لتوازن القوى. وفيما كان المسلمون يستردون بكل صعوبة وبكل نفس ذائقة الموت المدن التي احتلها مانياكس وصلت إلى هذا القائد الأوامر بالعودة للقسطنطنية. تخوفوا من أطماعه فاستدعوه. فلم يبق في أيدي الروم من الجزيرة سوى مدينة مسيني. دافع عنها الروم بشراسة شديدة ثم اضطروا إلى تسليمها للأمير صمصام الدولة أخي الأكحل سنة ١٠٤١ وعادت الجزيرة كلها لأيدي المسلمين...

ولم تخسر بيزنطة استرداد صقلية ولكنها خسرت أيضاً كالابريا وجنوب إيطاليا لأن اللومبارديين اغتنموا فرصة الضعف البيزنطي فأثاروا الفتن واغتالوا الموظفين الروم وحرضوا على الثورات وانتصروا بمساعدة النورماند على بيزنطة...

لكن ليعود هؤلاء النورماند فيسلبوهم حكمها بعد قليل...

وكما أخذوا البلاد بالمجان ذهبت عنهم بالمجان!

الألمان والمسلمون في جنوب إيطاليا

الخلافة الفاطمية التي نبتت بسرعة في أفريقية (تونس) آخر القرن الثالث الهجري ورثت ملك الأغالبة الذين كانوا هناك وطردت آخرهم. وكان بين ما ورثوه جزيرة صقلية التي قضى عليها الأغالبة في فتحها ستين سنة! أخذوها من الروم البيزنطيين. في معارك شديدة الإيلام والتضحيات. ودأب الفاطميون، على سنة الأغالبة قبلهم على أن يجتازوا بقواهم البحرية مضيق مسينا الضيق إلى جنوبي إيطاليا ويوجهوا حملاتهم لنهب سواحلها. هذه المنطقة التي تقوم فيها ثغور كالابريا وأبوليا وباري كانت مرتعاً للأشرعة الفاطمية لا سيما حين كان الروم مشغولين بالحرب الأهلية بسبب ثورة مريعة لديهم عرفت بثورة بارداس كل مافعلوه أنهم عهدوا بإدارة هذه الثغور إلى قائد جعلوه مطلق التصرف يدعى نقفور.

كان حكم هذا القائد من الضعف بحيث أنه أصدر أمراً يلزم المدن الإيطالية ببناء شلنديات (أي سفن حربية) وتجهيزها لحماية الشواطئ والثغور من المسلمين فلم يستجب له الناس لا سيما في كالابريا لكره الناس للروم وللحرب وما تجره من المصائب. بل إن أهل بلدة روسانو في الجنوب الإيطالي أشعلوا الحرائق فيما يجري بناؤه من السفن الحربية بمينائهم وذبحوا القادة الموكلين بها وأعلنوا تمردهم على الأوامر لولا أن توسط مواطنهم الراهب نيل بينهم وبين نقفور على أن يدفعوا غرامة كبيرة مقابل سوء تصرفهم وماأنزلوا بالأسطول من خسائر.

على الرغم من ذلك تشكل من هذه الاستعدادت الحربية أسطول بحري

هاجم شواطئ صقلية سنة ٩٧٦ (٣٦٥) يريد الانتقام من المسلمين واشترك في هذه الحملة أهل بيزا وأسطولهم بالأجرة . وانقض الأسطول على مدينة مسينا وكانت نقطة ارتكاز الموانئ والتجارة الإسلامية في الجزيرة . فدمر قسماً من الميناء وأحرق البضائع المكدسة . وفرق المراكب الإسلامية التي حاولت المقاومة . وترك صواريها وأشرعتها محطمة ممزقة . كانت معركة سريعة كمعارك القرصان ما إن سمع بها أبو القاسم والي الجزيرة حتى نهض بجيش صقلية كله فطوق مسينا ونفذ من سورها . فهرب الإيطاليون إلى السفن مع جند الروم . ثم طاردهم بالأسطول أثناء اجتيازهم المضيق ونزل على شاطئ كالابريا وألقى الحصار على جزيرة كوسنتا . ولم يغادرها إلا بعد أن اشترى أهلها سلامهم منه فضلاً عن قيامهم بضيافة العساكر الإسلامية ... وأعقب ذلك أن هجم أبو القاسم بأسطوله على مدينة أبوليا في داخل شبه الجزيرة وهاجم أخوه أبو العباس كالابريا فلم يعودا إلا بغنائم وفيرة وأسرى كثيرين ...

وفجأة ظهر على المسرح مدع جديد يعتبر جنوب إيطاليا من أملاكه هو الإمبراطور أوتو الثاني إمبراطور ألمانيا ... وكان لهذا الادعاء أنصاره من السكان الذين يكرهون الروم البيزنطيين والفاطميين المسلمين على السواء وقلقت القسطنطنية لهذه الأطماع الألمانية . كانوا يؤثرون أن تكون الثغور الإيطالية في أيدي المسلمين ولا تسقط في أيدي الألمان . ولم يأبه الملك الشاب أوتو لغضب القسطنطنية أو رضاها . فظهر على السفوح الجنوبية من جبال الألب مع جيوشه سنة ٣٦٩/٩٨٠ وكان في روما صيف ٩٨١ وتوجه في أغسطس إلى شواطئ بحيرة شيلانو لإعداد حملة ضخمة لقتال المسلمين بحجة حفظها للمسيحية !

جنود الإمبراطور أوتو اشتهروا بالشدة والإقدام رغم قلة عددهم . وكان معظمهم من السكسون واجتمع إليه كثير من الجند من إيطاليا وخاصة من اللومبارد في الشمال . على أن الحظ ما لبث أن تخلى عن أوتو لأنه كان يعتمد

اعتماداً كبيراً على أمير منطقة سالرنو وكان من أعظم أنصاره وذا كلمة مسموعة. فتوفي في تلك الفترة فكانت وفاته خسارة بالغة للإمبراطور وإن بذل أبناء الأمير جهدهم في دعم الحملة الضخمة معه. وتوغل الجيش الألماني حتى احتل مدينة باري وأخضع نابولي وأمالفي دون مقاومة تذكر. وهي أملاك بيزنطية. على أنه أراد قبل المغامرة في الهجوم على صقلية أن يؤمن قواعده والمواقع الحصينة التي أخذها من الروم البيزنطيين لئلا تصيبه الهزيمة فلا يدري أنه يلجأ بجيشه وزحف على تورنتو وهي من أمنع حصون بيزنطة فاحتلها سنة ٩٨٢/٣٧١ وعند هذه المدينة التقت قواته الجرمانية بالعساكر الإسلامية.

لم يحدث منذ معركة بواتييه (بلاط الشهداء) في فرنسا أن التقى الألمان والمسلمين في قتال. إلا في هذه المعركة. واشتد الحماس الديني في كل من الجيشين حتى تدفقت الشرايين لهباً. واستطاع الألمان أن يحوزوا النصر أول الأمر ولقي أبو القاسم قائد المسلمين مصرعه. لكن المسلمين لم يغادروا ساحة المعركة كما حدث في بلاط الشهداء بل استماتوا. وقاتلوا الألمان قتال الإيمان والمرارة. يريدون الانتقام لمصرع قائدهم. وتراجع الألمان فلحق المسلمون بهم في معركة ثانية قرب رأس كولون (جنوب نابولي) ووقع الاضطراب بين صفوف الألمان فأخذتهم السيوف المسلمة في مذبحة مريعة دمرت فيها التروس والرماح وسقطت الأجساد بدروعها الحديدية. وهوت الفرسان دامية واهية. ولما كان الموضع بين الجبال اللافحة الحر والبحر فقد امتلأ الشاطئ بالدماء والغارقين. وغصت السفوح بالهالكين الذين لا يحصون من الألمان. وشربت السيوف حتى ارتوت. ولم يكن مصير اللومبارديين الذين انحازوا إلى الألمان خيراً من مصير هؤلاء فقد نزل الموت بهم بالمئات. ومن لم يلق مصرعه منهم وقع في أسر المسلمين وجرى بيعه في أسواق بالرمو بصقلية أو المهدية عاصمة أفريقية أو في القاهرة.

الإمبراطور أوتو نفسه لم ينج من الموت أو الأسر إلا بأعجوبة. فعلى

الرغم من تطويق المسلمين لموقع المعركة استطاع أن يفلت في ثياب جندي عادي دون أن يفطنوا له . وركب سفينة (شلندية) حربية توجهت به على جناح طائر إلى شاطئ روما . لا يصدق أنه نجا . وملء خاطره لمع السيوف وسكب الدماء... ظل يهجس بهذه المعركة سنة كاملة وبعض السنة حتى وافته المنية في ديسمبر سنة ٩٨٣ وجرى دفنه في كنيسة القديس بطرس (في الفاتيكان) بروما . أما الأحلام التي كان يحلم بها من طرد العرب من صقلية أو من الثأر لهزيمته الساحقة في ستيلو فقد ذهبت مع الريح .

والغريب أن الإمبراطورية التي لم تشترك في هذه المعركة كانت الرابح الوحيد فيها . فالمسلمون اكتفوا بهذا النصر الرائع وانسحبوا إلى صقلية وأما الروم البيزنطيون فقد استفادوا من هزيمة أوتو ثم من وفاته السريعة في إعادة سلطانهم على مدينة رافنا لمدة طويلة وعلى روما والفاتيكان وفي التدخل لاختيار البابوات . وأهم من كل ذلك في توطيد نفوذهم في إيطاليا وخاصة في الشمال فلم يعد الألمان ولا عاد نفوذهم في إيطاليا الجنوبية إلا همساً ولماماً .

وقديماً قالت العرب في أمثالها رب ساع لقاعد !

موقعة ملازكرد

منازجرد ملازكرد. منزكرت. ملازكرت. ألفاظ مختلفة النطق لكلمة واحدة. هل في الناس من سمع بها؟ هل في الناس من يعرف هذه الأحرف اليوم؟ ومع ذلك فهي معركة من أعظم معارك الإسلام في التاريخ ولعلها هي التي جعلت تركيا، كل تركيا اليوم مسلمة! منذ ٩٥٤ سنة كانت هذه المعركة الحاسمة.. وفي منطقة معروفة في شرقي تركيا وإن كنا نجهلها نحن هي بحيرة ملازكرد التي خلد اسمها بسبب هذه المعركة.

كانت البلاد الفارسية والبلاد العربية الشرقية ومناطق أرضروم قد غزيت منذ عهد قريب بقبائل بدوية من الترك السلاجقة الذين ما لبثوا أن سيطروا على الخلافة العباسية ببغداد واتخذوها ستارة لغزواتهم. وبحجة حماية الإسلام والسنة ملكوا البلاد. وبحجة الجهاد ضد الكفار احتلوا شرقي تركيا الحالية التي كانت تحت حكم الروم البيزنطيين. وبعد أن كانوا ينطلقون من مناطق تركستان البعيدة اتخذوا بلاد أذربيجان مقراً لهم وصارت عرباتهم تغدو خفافاً وترجع ثقالاً بما تحمل من النهب وكانوا من القسوة بحيث هرب الفلاحون من المناطق الأرمينية (الشرقية. تركيا اليوم) وبقيت البلاد فارغة إلا من حماة بعض الحصون المنيعة. وتحولت الأراضي الزراعية إلى مراعي لسوائمهم.

أرطغرل بك كان ملك السلاجقة. ولكن وراءه مجموعات من رؤساء القبائل كلهم بكوات (أمراء) وكل بك كان يغزو لحسابه الخاص. وبعد أرطغرل تولى ابن أخيه ألب أرسلان الذي أراد فتح الشام وجاء بجيش ملأ السهل والجبل لاحتلال حلب. وكان بها حكم ضعيف لبني مرداس. واضطر

الأمير المرداسي أن يستسلم ويدوس بساط السلطان الذي أكرمه وأبقاه على إمارة حلب .

بعد هذا « الفتح » طلب الجند من السلطان دستوراً أي أن يسمح لهم بالعودة لأهاليهم فسمح لهم بذلك . وتفرقوا عائدين عدا فئة محدودة من الحرس وبعض الجند . وكان السلطان بدوره عائداً نحو إيران حين وصله عند الموصل الخبر الذي هز كيانه : إن إمبراطور الروم قادم بجيش فيه من الخلق ما لا يحصى يريد طرد جموع السلاجقة من أراضيه والدخول على أراضيهم وفتح أصفهان عاصمتهم ... وقرر ألب أرسلان أن يتحول لمواجهته . بعث يستعيد بعضاً من جنده ولكن من له بجمع كل الجند الذي تفرق أيدي سبا . وبعث إلى إمبراطور الروم يهادنه في مراسلات متعددة والإمبراطور رومانوس يأبى إلا أن يدخل أصفهان عنوة !

وهكذا فرضت المعركة نفسها فرضاً على ألب أرسلان . ولم يكن معه سوى أربعة آلاف غلام . ونترك الكلام هنا للمؤرخين يقولون ــ ولم ير الرجوع لجمع العساكر فتكون هزيمته . فأنفذ نظام الملك وزيره مع الأثقال إلى همدان وأمره بجمع العساكر وإنفاذها إليه وقال لوجوه عسكره الذين بقوا معه : أنا صابر صبر المحتسبين وصائر في هذه الغزاة مصير المخاطرين . فإن نصرني الله فذاك ظني في الله تعالى . وإن تكن الأخرى فأنا أعهد إليكم أن تسمعوا لولدي ملك شاه وتطيعوه وتقيموه مقامي . فقالوا سمعاً وطاعة !

وبقي ألب أرسلان جريدة مع العسكر الذين ذكرنا ومع كل غلام فرس يركبه وآخر يجنبه . وسار قاصداً ملك الروم وأرسل أحد الحجاب الذين كانوا معه في جماعة من الغلمان مقدمة له . فصادف عند بلدة أخلاط صليباً يحمله مقدم الروم في عشرة آلاف فحاربهم فنصر عليهم وأسر المقدم وكان من الرؤوس وأخذ الصليب . وبعث إلى السلطان بذلك فاستبشر وقال هذه إمارة النصر .

وأرسل بالصليب إلى همذان وجدع أنف المقدم ثم أمر بأن يحمل إلى الخليفة في بغداد .

ووصل إمبراطور الروم إلى منازكرد . فأخذها بالأمان . ثم قصد السلطان فبعث إليه ألب أرسلان بأن يرجع إلى بلاده ويتم الصلح الذي توسط به الخليفة العباسي بين الطرفين فقال : لا أرجع حتى أفعل ببلاد الإسلام مثل ما فعل ببلاد الروم . وقد أنفقت الأموال العظيمة وكيف أرجع ؟

وأقام السلطان يومين حتى كان يوم الجمعة وجمع وقت الصلاة أصحابه فقال : إلى متى نحن في نقص وهم في زيادة ؟ أريد أن أطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي جميع المسلمين يدعون لنا فيها على المنابر فإن نصرنا الله وإلا مضينا شهداء إلى الجنة . فمن أحب أن ينصرف فلينصرف مصاحباً فما هاهنا اليوم سلطان . وإنما أنا واحد منكم وقد فتحنا على المسلمين ما كانوا عنه في غنى . فقالوا : أيها السلطان . نحن عبيدك ومهما فعلت تبعناك . وكان قد اجتمع إليه عشرة آلاف من الأكراد وإنما اعتماده بعد الله تعالى على الأربعة آلاف الذين كانوا معه . وملك الروم في مائة ألف مقاتل ومائة ألف نقاب ومائة ألف حرفي ومائة ألف صانع وأربعمائة عجلة تجرها ثلاثمائة جاموس عليها نعال ومسامير . وألفي عجلة عليها السلاح والمجانيق . وآلة الزحف . وكان في عسكره خمسة آلاف بطريق ومعه منجنيق يمده ألف رجل ومائتا رجل ووزن حجره عشرة قناطير وكل حلقة منه مائتا رطل بالشامي . وكان في خزانته ألف ألف دينار ومائة ألف ثوب ابريسم ومن السروج الذهب والمناطق والمصاغات بمثل ذلك . وكان قد أقطع البطارقة البلاد سلفاً : مصر والشام وخراسان والري والعراق واستثنى بغداد وقال : لا تتعرضوا لذلك الشيخ الصالح فإنه صديقنا (يعني الخليفة) .

ويضيف المؤرخون : « قام السلطان ورمى القوس والنشاب من يده وشد ذؤابة فرسه بيده وأخذ الدبوس وفعل أصحابه مثله وبغتوا الروم بغتة وصاحوا

صيحة واحدة ارتجت لها الجبال وكبروا وصاروا في وسطهم فقاتلوا وما لحق الإمبراطور يركب فرسه وما ظن أنهم يقدمون عليه في مثل هذه الساعة . فنصر الله المسلمين عليهم فتفرقوا بدداً هاربين ولم ينج منهم إلا القليل . وأسر الإمبراطور بيد جندي عادي هاجمه ومن حوله الرايات والصلبان فتدخل الحرس لئلا يقتله فأحضر إلى السلطان الذي ضربه ثلاث مقارع ورفسه برجله ووبخه وندد به وبصلفه والإمبراطور صامت . القيود في رجليه والغل في عنقه فقال السلطان : ما تظن أني فاعل بك ؟ قد عفوت عنك على أن تفتدي نفسك » .

كان هذا أول وآخر إمبراطور بيزنطي يأسره المسلمون . وافتدى نفسه بألف ألف دينار وبدفع جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف وستين ألف دينار وأجلسه السلطان على سريره قبل أن يسيره إلى بلاده معززاً مكرماً بعد أن قتل من أصحابه خلق عظيم .

أما العساكر فغنموا الأموال بحيث تقاسموا الذهب والفضة بالأرطال وغنم أهل ملاذكرد ما استغنوا به مدة قرن من الزمان ! ولكن دفعوا ودفع العسكر الكثير من الدماء ثمناً لهذا النصر .

وهل يأتي النصر العظيم إلا بالجهد العظيم ؟

احتلال أنطاكية

في السنة الأولى من حروب الصليبيين في المشرق ، كانوا لا يزالون في شمال الشام لم يحتلوا شبراً منه بعد ، جرى حدث غريب يظل تفسيره إشارة استفهام أمام المؤرخين ... إن لم نقل إنه لغز ضاع بين الألغاز .

كانت الحملة الصليبية الأولى قد وصلت عبر جبال طوروس وانحدرت إلى السهل الذي يجري فيه نهر العمق ونهر العاصي نحو البحر وتوقفت أمام أنطاكية . المدينة كانت من أحصن المدن الشامية . أسوارها الحجرية تحيط بها من أعلى الجبل الذي بنيت عليه المدينة حتى أسفله . وأبراجها التسعون تنتصب فوق الأسوار كالحراس الجبابرة .. أجراس الكنائس فيها كثيرة فمعظم سكانها كانوا من النصارى . وحين تدفقت أمواج السلاجقة الترك على الأناضول والشام كانت أنطاكية من جملة البلاد التي تسوروها وفتحوها وضموها إلى البلاد الإسلامية .. ولم يكن قد مضى عليها ثلاثون سنة في يد السلاجقة حين نزل عليها أول أفواج الفرنجة الصليبيين ! وتوالى تدفق هؤلاء جموعاً هائلة فلم يمض شهر حتى كان حول أنطاكية جموع بشرية كثيفة بشعور مبعثرة شقراء في الغالب وعيون زرقاء وفي دروع معظمها مهلهل ممزق . ومجانيق من كل نوع وتختلط الخيام بالدواب وتصهل الخيل وتنعر البغال أمام العربات . وتعلو في الضجيج الهائل أصوات المحاربين مع صليل السيوف ودبيب أدوات الحصار الثقيلة وترانيم المصلين مع بكاء الأطفال ورطانة النساء . وترتفع بين جماعة وأخرى خيام القادة النبلاء فهذه لغودفروا دي بويون وهذه لبوهيموند النورمندي وتلك للكونت الفلاني وتلك الخيمة المزخرفة المزوقة لممثل البابا .

وروائح الطعام تزكم الأنوف . فيما كان القسس يطوفون بين الجموع قذرين ، تتدلى شارة الصليب من أعناقهم كما ترتسم على البنود والأعلام . أكثرهم سطوة وخطراً راهب قميء المظهر إلا أنه جهير الصوت : إنه بطرس الراهب . الكل يعرفه فهو يمثل روح هذه الحملة البشرية التي قدرها المؤرخون بمائة ألف محارب رمتهم أوروبا على المشرق . لماذا ؟ قالوا لتخليص القبر المقدس قبر السيد المسيح من أيدي الكفار المسلمين ...

الواقع أن هذه الجموع لم تكن كلها تقية الدين ، كان فيها التجار والباعة والمغامرون وصغار النبلاء الباحثين عن أرض يحكمونها . واللصوص وقطاع الطريق وفيها من هرب من الدائنين ، ومن هرب من زوجته ! .. مشت جموعهم فقتلت وقوتلت على الطرق الممتدة من أوروبا إلى المشرق أكثر من خمسة آلاف كيلو متر وحفيت نعالهم والأقدام على الحصا والصخور والغبار والوحل . فكانت مظاهرهم ، وهم في العادة لا يغتسلون مظهر قبائل الجن المتوحشة ! هذه هي الحملة الصليبية الأولى التي طوقت أواخر صيف سنة ١٠٩٩ مدينة أنطاكية .

كانت المدينة من أملاك السلاجقة وفيها قائد واضح الشجاعة والحزم ، تركي الأصل اسمه ياغي سيان وهو من سبي السلاجقة جعله سيده ملكشاه سلطان السلاجقة الأكبر حاكماً لهذا الثغر يحميه ويدافع عنه . وحين وجد الرجل كثرة هذه الجموع وتصرفاتها الوحشية بعث يستنجد بالسلطان وبزملائه حكام المدن الأخرى . حلب . حمص . دمشق . الموصل . بغداد . والغريب أن أحداً لم يستجب له . لم يقدر أحد منهم ثقل الحملة البشرية الحربية الذي وقع عليه ... ملك حلب وهو زوج ابنته لم يتحرك رغم قربه منه لخصومة بينهما . ملك دمشق وصل منتصف الطريق إلى شيزر فلما شهد الطلائع الصليبية النهابة عاد من حيث أتى . صاحب حمص لم يكن عنده ما يقف لبعض هذه الحملة الوافدة . صاحب الموصل تغافل في انتظار أوامر السلطان . والسلطان

بعيد . في أصبهان . والخليفة في بغداد لا يسمع صوته أحد ... وبقي ياغي سيان وحيداً يدافع .. تسعة أشهر . نفدت خلالها المؤن عنده فاضطر لإخراج النصارى من المدينة توفيراً للزاد ولكنهم خرجوا ليعينوا الفرنجة الصليبيين ضده ...

وتحرج الموقف جداً حين وصل الخبر بأن كربغا حاكم الموصل قد وصله أمر بمعونة ياغي سيان وبقيادة جميع الجيوش الشامية معه وأنه تحرك من بلده ! ولكن الرجل أراد أن يستفيد من حملته هذه بفتح مدينة لنفسه فمال في الطريق على مدينة الرها وحاصرها أسبوعين فلما امتنعت تركها وتابع الطريق إلى أنطاكية ...

في هذه الفترة بالذات كان بوهيموند أحد قادة الحملة الصليبية من النورماند يفاوض سراً أحد حراس الأبراج من أنطاكية على تسليمه البرج . ونجحت المفاوضات . وفوجئ حماة أنطاكية بالعلم الصليبي يرتفع فوق هذا البرج فتهاوت عزائمهم وأخذوا في الهرب . وكان ياغي سيان من جملة الهاربين وغلغل في الغابات المحيطة بالمنطقة يرجو النجاة . وفي بعض الطريق عرفه بعض الحطابين فقتله ! انتهت بذلك لا ملحمة الرجل ولكن ملحمة أنطاكية لأن الصليبيين تدفقوا إلى داخلها ينهبون ويسلبون ويحتمون بالأسوار ... ووجدوا أنفسهم فجأة بعد أن كانوا محاصِرين محاصَرين . لأن حملة كربغا . وصلت بعد ثلاثة أيام فقط من دخولهم المدينة . ولما كانت هذه الفترة لا تكفي لتموين المدينة التي كان الحصار قد استهلك من قبل كل المؤن فيها . فقد وجد الصليبيون أنفسهم في المصيدة وليس عندهم أي مؤونة !! صحيح أنهم احتموا بأسوار أنطاكية بعد أن كانوا معرضين للوقوع بين نارين : المدينة من جهة وحملة كربغا من جهة أخرى . ولكنهم الآن معرضون ضمن الأسوار للموت من الجوع ... وبدأ الفرار من المدينة إلى الجبال . هرب الكثيرون ووصل بعضهم

إلى القسطنطنية ينذر بهلاك الحملة فليس من شك في ذلك. وكان بطرس الراهب من جملة الهاربين ...

وطوق المسلمون المدينة.. وكان قد انضم جيش حلب بالرغم عنه وجيش دمشق لقيادة كربغا وأشار القادة عليه أن يهاجم هؤلاء الجوعى. فأبى وتركهم للمزيد من الجوع. هكذا قال! وطال الحصار والجيش الإسلامي متوقف يترقب. والصليبيون ضمن الأسوار يزدادون يأساً. وقد حاول بعض القساوسة رفع روحهم المعنوية فادعى أنه رأى في منامه السيد المسيح يدله على المكان الذي دفنت فيه الحربة التي طعنوا جنبه بها وهو مصلوب. وحفروا واستخرجوا حربة قديمة دفينة واعتبروا ذلك إيذاناً بالفرج ...

بعد فترة قصيرة فوجئ الجيش الإسلامي بالصليبيين يفتحون باب أنطاكية المواجه لهم ويندفعون كتلاً بشرية مجنونة صاخبة. ترتمي على المحاربين المسلمين! كان اليأس ألجأهم إلى الخروج للموت: ولكن أسنة المسلمين لم تتحرك. لم يسمح القائد كربغا بالهجوم. واستعدت السيوف للضرب لكنها بقيت قائمة... واقترب الفرنجة ثم اقتربوا وتزعزعت بعض صفوف المسلمين ولا أمر بالهجوم... حين صدر الأمر كان الوقت قد فات وتحول الأمر إلى هرب الجيش الإسلامي. وكان جيش حلب وجيش دمشق أول الهاربين. ثم تحولت شدة الهرب إلى هزيمة مجلجلة فقد فيها المسلمون عتادهم ومؤنهم والخيام والبنود وآلاف القتلى فقدوا كل شيء! وانتصر الصليبيون! من قلب اليأس انتزعوا نصراً لا ينتظرونه ولا يستحقونه!

لماذا امتنع كربغا عن الهجوم وتباطأ؟ ما من أحد يعلم؟ ولكن النتيجة كانت كارثة. لم يأخذ الصليبيون أنطاكية لمدة مائتي سنة فقط ولكنهم أبقوا العالم الإسلامي يحاربهم أيضاً مائتي سنة! على طول الشام وعرضها! تأخر الأمر كان ساعة أو بعض الساعة. لكنه كلف المسلمين قرنين من القتال!

احتلال القدس

منذ تنزل في القرآن الكريم بإسراء سيد الرسل ﴿إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾ صارت للقدس مكانتها الدينيـة الـكبرى في الإسلام وصارت هذه المدينة مثلثة التقديس لدى أهل الديانات السماوية الثلاث. وصارت زيارتها محجاً لهم. ولم يكن لليهود فيها سوى ذكرى الهيكل يبكونه عند جدار المسجد الأقصى فقد كان للنصارى فيها قبر السيد المسيح وكنيسة القيامة وللمسلمين المسجد والصخرة المباركة.

بحجة تخليص القبر المقدس من أيدي المسلمين «الكفار» زحفت الملايين من أوروبا إلى المشرق! كالسيول المتقطعة كانوا ينحطون على الشواطئ والمدن. وحين وصلت أول حملة منهم إلى السهول المجاورة ليافا كانت قد بلغت نهاية الرحلة الطويلة التي امتدت ثلاث سنوات من غرب أوروبا خاصة إلى فلسطين سنة ١٠٩٩. في أثناء هذه الرحلة وقبل نهايتها توقفت قرابة السنة أمام أنطاكية في شمال الشام... حتى فتحتها!

واختلف رجال الحملة بعد ذلك. بوهيموند الذي فتح بمؤامرته السرية مع فيروز أحد حراس أبراج أنطاكية اعتبر أن المدينة له. وجد أنه يستطيع إقامة إمارة له فيها فاستغنى عن الذهاب إلى القدس وعن تخليص الـقبر المقدس. وعبثاً جادله الآخرون وحين يئسوا تركوه لغنيمته وقرروا المسير! قابلتهم في الطريق معرة النعمان بلد أبي العلاء المعري. حاصروها. جموعهم البشرية تكاثفت حولها كالدبابير الجائعة. ضربتها بالمجانيق وإلقاء النيران حلقت شجر الزيتون الذي كان يحيط بها كالغابة. كاثرت حامية المدينة برمي النبال حتى

تراجعوا عن الأسوار وفتحت المدينة لتعمل بها حرقاً وقتلاً ونهباً . كان احتلال المعرة مذبحة ما عرفتها المذابح من قبل.وحين رأى الفرنجة مخازن الزيت في الآبار عمدوا إلى المياه فصبوها فيها ليطفو الزيت ويتدفق في الدروب مع الدماء .

أثار احتلالهم المعرة موجة رعب هائلة في الشام لم يثرها احتلال أنطاكية . فلما وصلوا شيزر وهي قلعة على الطريق قدم لهم صاحبها الأدلاء لينصرفوا عنه . وقبل أن يصلوا حمص انحرفوا يتجهون نحو الساحل . كانت مسيرتهم في مدن الشام الداخلية مسيرة خطرة والأمداد تأتيهم من البحر فساروا إلى شاطئ البحر . وهناك تقوم المدن الساحلية التي تتبع الدولة الفاطمية في مصر . والفاطميون أصدقاء لهم وقد أرسلوا إليهم وفداً يهادنهم وهم على الطريق . وهكذا وصلوا طرابلس وكان أصحابها من بني عمار تجاراً ولم يكن لها جيش يحيمها . وإن احتمى أهلها بالأسوار . فحاورهم صاحبها الفاطمي وقدم لهم المؤن والأدلاء لينصرفوا عنه سائرين نحو الجنوب على طول الساحل اللبناني حتى وصلوا عكا ثم حيفا ثم يافا . كانوا من الحذر بحيث لم يكرروا مذبحة المعرة لئلا يضيعوا الوقت والجهود على الطريق . فلم يحاصروا المدن وإن نهبوا ما استطاعوا على الطريق . هل اعتبروا هذه المدن من المواقع الصديقة ؟ سنرى

في السهول وراء يافا تجمعت أعدادهم الهائلة . لم تعرف تلك السهول قبل هذه الفترة جموعاً بمثل عيونها المفترسة وسيوفها الثقيلة جداً فهي تحمل بكلتى اليدين . ومجانيقها تجرها البشر والبغال والثيران ويسمع خلال جموعها بكاء الأطفال مع صراخ المحاربين وصلوات القسس . وشاع في هذا المعسكر الضخم أن الزعماء يتداولون فيما بينهم : هل يذهبون بالحملة إلى مصر البعيدة أم يسيرون إلى القدس وهي على مرمى السهم منهم . وهي المدينة التي قضوا السنوات يحلمون بالوصول إليها وإلى القبر المقدس ...

تفكير بعض الفرنجة في احتلال مصر كان له ما يبرره. فقد كانت الخلافة الفاطمية هناك. وكانت قد اتصلت بهم وهم على أنطاكية تعرض عليهم أن يحتلوا شمال الشام وتحتل هي جنوبه. وراوغوها. وحين ودعوا وفدها وهو مسافر في البحر أهدوه مجموعة من رؤوس السلاجقة القتلى عربون صداقة! كان الفرنجة يعلمون أن الشام كانت للفاطميين وأن السلاجقة قد أخذوها منهم قبل وقت قصير وأخرجوهم حتى من القدس ولم يبقوا لهم إلا المدن الساحلية... ولكن الفاطميين انتهزوا فرصة انشغال السلاجقة عند أنطاكية فاحتلوا القدس. فهي الآن فاطمية فإن احتلوها اضطروا لمحاربة أصدقائهم ولم يأمنوا أن تشن القاهرة حملة ضخمة تأتيهم من الجنوب لأخذ القدس... وأصحاب رأي احتلال مصر أولاً كانوا يرون أن من الأفضل أن يهجموا هم عليها من أن ينتظروا هجومها عليهم فإن انتصروا أخذوا مصر وطرق تجارتها وإن انهزموا تراجعوا إلى القدس. أما حين يحتلون القدس فأين يذهبون إن جاءتهم القوات المصرية الفاطمية؟ لا سيما وأن الكثيرين جداً إنما اشتركوا في هذه الحملة الأولى ليفتحوا القدس وينكصوا عائدين إلى بلادهم؟ على أن وجود الجموع الهائلة على مسيرة ساعات من القدس وتصاعد الحماسة الدينية إلى أوجها مع الاقتراب من موضع القبر المقدس غلبت على الرأي الاستراتيجي. وأعطيت الأوامر للمسير إلى القدس.

ضرب الحصار على المدينة قرابة شهر ونيف. كان هذا الحصار يعني القطيعة في صداقة الصليبيين مع الفواطم وقد كانت في الأصل صداقة هشة كاذبة، لم يمنع الفرنجة من مهاجمة المدينة بالمجانيق والنقابين وإمطارها بالنبال وانتظر قائد الحامية أن يصله مدد من مصر يعينه ولكن لم يظهر في الأفق أي مدد. وحين لجأت الحامية إلى قلعة المدينة، قلعة داوود، أيقن السكان أن القدس ساقطة لا محالة. فتكاثرت جموعهم هاربة إلى المسجد الأقصى. وملأته وملأت رحاب قبة الصخرة في جانبه. حتى النصارى الأرثوذكس اضطربوا خوفاً

فالقادمون من متعصبة الكاثوليك. فيما كان الفرنجة يطوفون حول المدينة بالتظاهرات الدينية وهم يحملون أعلامهم وينشدون ويرتلون بأصوات هائلة.

وحين فتحت الأبواب تدفق الفرنجة كالسيول الجامحة يهوون بسيوفهم الثقيلة حتى على الدواب. وسرعان ما صاروا يمشون في الدروب على أكوام من الجثث. وزادتهم مناظر الدماء التي تلطخ الجدران أو تسيل من الشرايين والجراح هياجاً في القتل وحين اقتحموا المسجد الأقصى كان الهياج قد بلغ حد الجنون فقتلوا كل حي فيه. قتلوا الزهاد والعباد قتلهم للنساء والأطفال. وقتلوا المحاربين كما قتلوا العجزة. كتبوا للبابا إننا نخوض في دماء المسلمين إلى الركب. عدد القتلى كان فيما يقدرون سبعين ألفاً وقد يكون في الرقم بعض المبالغة ولكن المدينة فرغت عملياً من السكان. جندل الجميع على الثرى ولم يستطع الهرب بنفسه إلا القليل. بعد أيام تحولت الجثث جيفاً أفسدت جو المدينة. وأهلكت أعداداً من الفرنجة والصليبيين.

لم يبق أمام الفرنجة سوى الحامية الفاطمية بقيادة افتخار الدولة التي اعتصمت بالقلعة. فاوضها الصليبيون على الانسحاب مع الأمان فقبلت وانسحبت فيما كان عمال الفرنجة ينصبون صليباً مذهباً فوق قبة الصخرة! وتداولوا في أمر حكم القدس. لمن يكون الحكم فيها وتهيب الزعماء من قدسية المدينة وحين عرض تاجها على الكونت ريمند صنجيل أكبر نبلائهم رفض قائلاً:

ـــ لا أضع على رأسي تاجاً من الذهب في المكان الذي وضع فيه على رأس السيد المسيح إكليل من الشوك وعرضوا التاج على نبيل صغير هو غودفري دي بويون فكان من براعته أنه قبل وقال:

ـــ ليس لي أن أكون ملكاً للقدس وإنما أنا حامي القبر المقدس!

وبهذه الصيغة صار سيد المدينة ولكن الجموع الصليبية التي اعتبرت

أن مهمتها انتهت باحتلال مدينة القبر المقدس أخذت تركب البحر عائدة إلى أوروبا وفرغت المدينة مرة أخرى من السكان ففتحها غودفري للنصارى من سكان الضفة الشرقية للأردن ...

وبدأ الفرنجة فترة حكم للقدس استمرت أربعاً وثمانين سنة !

كانت أربعاً وثمانين سنة من الدماء.

موقعة حران

لم يكن قد مضى على احتلال الفرنجة الصليبيين لبعض سواحل الشام سنة ١٠٩٩ سوى سنوات معدودة حتى كانت أطماعهم في المشرق الإسلامي تنمو أضعافاً مضاعفة. حسبوه قطعة جبن يقتطعون منها ما يقدرون عليه بعد أن دخلوه الدخول الدموي السهل المفاجئ وقتلوا مئات الألوف من أهله وطرحوهم جثثاً للطير ما بين أنطاكية والمعرة والقدس. التخاذل الذي لقوه من المحاربين السلاجقة أطمعهم في التوسع بل في الاستهتار بالقوى السلجوقية الإسلامية وهي المدافع الرسمي عن المسلمين.

ومن أبرز نماذج هؤلاء الصليبيين الأولين الأمير بوهيمند النورماندي الذي دبر بالرشوة دخول الجيش الصليبي إلى أكبر مدن الشام الشمالية: أنطاكية. واكتفى بهذه الغنيمة وأخرج باقي الصليبيين يتابعون طريقهم إلى القدس. لتكون المدينة له وحده. لكنه لم يكتف بها بل هاجم اللاذقية وأخذها وأقام لنفسه جبهة عريضة على الساحل ثم توسع شرقاً حتى ضواحي حلب. وضواحي أفامية أيضاً والقلاع المجاورة لهما مثل سرمين وزردنا. وهزم ملك حلب نفسه واتفق أن أميراً أرمنياً في مدينة ملاطية، في أعالي الفرات استنجد به ضد الملك غازي ابن الدانشمند فتراكض إليه ينجده في ٥٠٠ فارس... كان مغروراً بقوته فسرعان ما أوقعه السلاجقة في كمين انتهى بأسره وذبح رجاله. كانت هذه أول كارثة للصليبيين في المشرق. لأن اسمه كان بسبب تحركاته العسكرية السريعة يثير الرعب حتى خراسان!

فرح البيزنطيون الروم بأسر بوهيمند بقدر فرح المسلمين. لأنهم كانوا

يعتبرون إمارته في أنطاكية واللاذقية من حقهم وحرصوا على شرائه بالمال من ابن الدانشمند كما حرص سلاجقة الروم على شرائه أيضاً ولكن آسره الملك غازي أطلقه! بعد ثلاث سنوات من الأسر بمائة ألف دينار. غير أنه عاد إلى أنطاكية وهو أشد شراسة وكرهاً للمسلمين من ذي قبل. عاد كارثة أشد عليهم وعلى البيزنطيين الروم أيضاً فاحتل بلدة مرعش البيزنطية وفرض الجزية على قنسرين وعلى ملك حلب وأرسل إلى أهل العواصم وما جاورها يطالبهم بالإتاوة ودحر الأجزاء الشمالية والشرقية من حلب وأحرقها واحتل القلاع في المنطقة وبخاصة ما بين حلب وأنطاكية.

عاد اسم الأسير السابق يلمع ويخيف. لهذا ما إن تحرك أمير الرها الصليبية في أعالي الفرات ليتوسع إلى الشرق ويأخذ حران حتى طلب المعونة من بوهيمند. وأدرك بوهيمند أن احتلال هذه المدينة يقطع الصلة بين المسلمين في العراق وفارس وبين إخوانهم في الشام فضلاً عن أنه يعطي الصليبيين امتداداً عميقاً ضمن الأراضي الإسلامية ويضع الجزيرة تحت تصرفهم كما يفتح أمامهم الطريق إلى بغداد ... حلم جدير بمهووس صليبي مثل هذا الأمير بوهيمند الذي كان بعض أهله يحاربون المسلمين في إسبانيا والأندلس وبعض يحاربون المسلمين في صقلية ويقيمون فيها مملكة!

وعلى الرغم من تفرق كلمة السلاجقة وضعف سلطانهم المركزي وخلاف بعضهم مع بعض فقد شكل صاحب ماردين معين الدولة الأرتقي مع خصمه شمس الدولة جكرمش أمير الموصل حلفاً للوقوف لهذا المشروع الصليبي. إدراكاً منهم لمعنى تعمق الصليبيين في الأراضي الإسلامية فالتقيا عند بلدة رأس العين على نهر الخابور ومع الأرتقي سبعة آلاف فارس ومع صاحب الموصل ثلاثة آلاف من الترك والعرب والأكراد عدا الرجّالة والمؤرخون الغربيون يجعلون الرقم يصل إلى ثلاثين ألفاً ... لتبرير ما سوف تنتهي إليه المعركة.

دارت المعركة في مايو سنة ١١٠٤ على ضفاف نهر البليخ. السيوف

الصليبية الضخمة كانت تقد شرراً وهي ترن على الصخور والتداعي للحرب باللغة التركية كان يختلط بالرطانة النورماندية ووجوه تركية مزوية الأعين خزر تفترس العيون الزرقاء والدماء من الطرفين متشابهة السكب حمراء حمراء. فيما كان الجو يعج بالنشاب السلجوقي البعيد المدى والمطارق تهوي لتفلق الجماجم وتكسر الظهور ...

وفجأة انسحب الجيش الإسلامي شبه المنهزم ولحق به الفرنج يحسبون النصر جاءهم. طاردوهم مسافة فرسخين حتى إذا اطمأن المسلمون أنهم زحزحوا الفرنجة عن مواقعهم ومعسكرهم ارتدوا عليهم ردة رجل واحد. إنها مكيدة حربية يتقنها السلاجقة تماماً ولكن الفرنج فوجئوا بها فاضطرب أمرهم واصطدم الهاربون منهم بالراكضين قدماً. وداست السنابك الكثيرين والتصقت بالشجر أشلاء وبالصخور أشلاء وأمعاء. وشدت الخيل المفزوعة بفرسانها وانحطت على الجثث والجرحى وسواقي الدماء. وقطع برنارد بطريق أنطاكية ذيل فرسه لئلا يجذبه منه أحد الأتراك ويفتك به ...

وانجلى الغبار الكثيف عن جموع صليبية تلوذ بالفرار في حين وقع أمير الرها أسيراً بيد المسلمين. ووقع معه في الأسر أيضاً أمير بلدة باشر. أما بوهيمند الذي عرف الأسر الإسلامي من قبل فقد لاذ بالفرار مع أقسام من بقية جيشه بعد أن بلغ بهم الذعر والاضطراب حداهما الأقصيان. على الخيل الهارب ظلوا قرابة أسبوعين يعبرون الوديان ويزلقون على الصخور والتلال حتى بدت لهم أسوار أنطاكية!..

هذه المعركة أوقفت للمرة الأولى والأخيرة تحرك الفرنج الصليبيين نحو الشرق. فلم تعد خيولهم ذات الحوافر الضخمة تدوس تلك الأرضين مرة أخرى. وتشجع ملك حلب فاسترد القلاع التي أخذها منه بوهيمند حول حلب وثار أهل معرة مصرين وسرمين وغيرها على حامياتهم الصليبية فطردوها

منها ومن البارة ومعرة النعمان وكفر طاب ولطمين فلاذت بالفرار إلى أنطاكية !
حتى الأرمن النصارى في بلدة أرتاح استدعوا ملك حلب بدل الصليبيين !

وانتهز الروم البيزنطيون الفرصة فاستولوا على المدن شمال الإمـارة في جنوب كيليكية وعلى اللاذقية وانطرطوس وقلعة المرقب ... وانكمشت إمارة أنطاكية التي وسعها بوهيمند وهو يحسب أنه أقام مملكة فلم تعد تزيد على المدينة نفسها إلا قليلاً فأضحت بعد انتفاخ كالديك المنتوف ! تهاوت كنمر من الورق .

ولم يحتمل بوهيمند هذه الهزائم كلها . وإذا لم يكن يقيم وزناً كبيراً لملك حلب فمن له بالوقوف في وجه الإمبراطورية البيزنطية التي تعاديه ؟ لذلك قرر أن يتوجه لأوروبا . للنورمان عشيرته هناك . وفي أواخر سنة ١١٠٤ كان يركب الشراع مع صاحبه البطريق دايمبرت إلى إيطاليا وفرنسا وصقلية يجمع المحاربين لقتال بيزنطة والمسلمين معاً وزار البابا وملك فرنسا وصاهرت أسرته الأسرة المالكة . وفيما هو عائد بجموعه هاجم بلدة دورازو في البلقان وهي تابعة للروم فطوقه إمبراطور الروم براً وبحراً وتركه للجوع والأمراض مع جموعه حتى استسلم ! وخضع للإمبراطور معترفاً بحقه في أنطاكية أيضاً ...

وكان استسلاماً مذلاً له . فلم يعد إلى أنطاكية أبداً ولكنه انسحب كالقط المقهور إلى إيطاليا يقضي حياته محتجباً عن الأنظار ويموت بعد سنوات ... لتدفن أمجاده الوهمية معه !

الفاطميون والصليبيون

غرائب المصادفات في التاريخ لا تنتهي . فمن يخطر في باله أن مقدرات الخلافة الفاطمية قبل الحرب الصليبية بأربع وثلاثين سنة وبعدها بتسع وعشرين أخرى كانت في يد اثنين من المماليك الأرمن هما بدر الجمالي وابنه الأفضل الجمالي ؟ الأول صار وزير المستنصر الفاطمي والثاني ورث الوزارة عن ابيه .

وقد تدفق الفرنجة الصليبيون على الشام الذي كان قريب العهد بالحكم الفاطمي فاحتلوا القدس من الفاطميين . والآمر الناهي في القاهرة هو الوزير الأفضل الجمالي ... وهو صاحب الفكرة في التقارب مع الصليبيين وتقاسم بلاد الشام معهم وهم ما يزالون على أنطاكية . ولما احتلوا القدس لم يغضب الأفضل ـــ وإن حزن ـــ ولكنه بعث يعتب عليهم فلم يقيموا وزناً لعتبه أو رضاه !

كان الصليبيون في حصار القدس قد ذاقوا الظمأ المحرق . يقول مؤرخهم إنهم كانوا يمشون ستة أميال لإرواء خيولهم من نبع سلوان وكان الماء يباع لهم بالثمن الغالي . وقد أسن الماء الذي حملوه معهم في جلود الثيران والجواميس ونتن في الأيام الأخيرة من الحصار واقتصر طعامهم على خبز الشعير حتى هرب بعضهم عائدين إلى الشواطئ ... ولم يدخل الفرنجة المدينة إلا بعد أن جاءهم مدد من سفن جنوا في البحر تحمل مع التموين والماء والذخيرة وأدوات الحصار . ففتكوا بها ما فتكوا .

وحين تبين الأفضل الجمالي أن دبلوماسيته الخرقاء لم ينجم عنها سوى ضحك الفرنج عليه تحول بسرعة إلى الحرب ، لا سيما حين رأى الصليبيين

يحتلون فلسطين مدينة مدينة وقرية قرية دون تردد أو مهلة لالتقاط الأنفاس ! البلاد كلها مفتوحة أمامهم. أرسوف التي قاومتهم قرابة شهرين ترصدها الفرنجة حتى إذا خرج فلاحوها إلى حقولهم انقضوا عليهم وأسروهم وانتقموا منهم الانتقام الوحشي. قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم. ثم استولوا على جبال الجليل. وأعلن حكام عسقلان وقيساريه خضوعهم لقوى الفرنج. النقمة الشعبية كلها انصبت على الخلافة الفاطمية. فقد كانت فلسطين تحت حكمها... وكان الناس ينتظرون خفق بنودها آتية من سيناء ورفيف أشرعتها تشق البحر... وكان ذلك عبثاً. صحيح أن الأفضل خرج بجيشه لإنقاذ القدس ولكن القدس سقطت وهو في عسقلان فتوقف بالجيش فيها يتدبر الأمر.

عرف الفرنجة بخبر الجيش وكانوا مخمورين بالنصر أو بالانتصارات التي كانوا يحرزونها بكل فج فما ترددوا في المسير إليه. ودارت المعركة على الفور قرب البحر. ما حسب الأفضل حساب القتال الشرس الذي قابله به الصليبيون. ولا حساب سيوفهم الثقيلة وخمار الظفر في الرؤوس. وعلى الرغم من أن كبير نبلائهم قد انسحب قبل المعركة لأنه وجد أنه لم يربح شيئاً من كل الانتصارات الصليبية إلا أن الجيش الصليبي قاتل بالعنف الدموي حتى تشتت شمل الفاطميين، وحتى أن بعضهم لم يجد نجاة إلا في البحر. فألقوا بأنفسهم فيه فطوتهم الأمواج. واحتمى بعض آخر بشجر الجميز، وهو هناك أشبه بالغابة في كثرته وكثافته فأحرق الإفرنج الشجر حتى هلك من كان فيه. أما الأفضل الوزير فقد هرب إلى مدينة عسقلان مع بعض رجاله وركبوا سفينة من هناك تحملهم إلى مصر في البحر. فيما كانت سيوف الفرنج تتمكن من المسلمين فتأتي على الراجل والمطوعة وأهل البلد وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس وهرب الفرسان. ونهب العسكر لكن لم يدخل الفرنجة عسقلان لأن قواتهم كانت أضعف من أن تدخلها. فظل هذا البلد شوكة في جنب الصليبيين ٤٩ سنة !

إثر هذه المعركة هبطت سمعة الفاطميين إلى الحضيض. وكان لا بد للأفضل الجمالي أن يدافع عن سمعته وعن هيبة الخلافة التي هو وزيرها وصاحب الأمر والنهي فيها. ودفع في أربع سنوات متوالية أربع حملات ضد الفرنجة. مستنداً إلى هذه القاعدة القوية في جنوب فلسطين: عسقلان.

كانت الحملة الأولى في ربيع سنة ١١٠١. وكان قائدها سعد الدولة القواسي. تجمعت عند عسقلان بعد أن كابدت الكثير من العنت في اجتياز الطريق من القاهرة إلى سيناء وعبرت رفح إلى العريش. الطريق صحراوية مملة. ولكن العنت الأكبر جاءها بعد ذلك فقد بقيت عدة أشهر دون قتال في انتظار أن يتكامل عددها الآتي من القاهرة دون أن يأتي المدد. وأخيراً اتجهت إلى الرملة. كان قصد سعد الدولة أن يضرب مواصلات الفرنج في تلك العقدة فيقطع طريق الفرنج عن يافا ويزحف إلى القدس.

وعرف الفرنج بمسير الحملة فسارع ملكهم بغدوين الأول. ولم تكن قوتهم تزيد على مائتين وستين من الفرسان و ٩٠٠ من المشاة فتصدوا للجيش الفاطمي وهو أضعاف هذا العدد. في صباح السابع من سبتمبر تراءى الجيشان والتحما في معركة تطاير فيها الشرر. واستبسل الفرنج يرتمون بين النبل والسيوف على الجيش المسلم فيبلغون منه. وجنود الفاطميين كسكارى وما هم بسكارى ولكنه الهول زعزعهم وأربكهم فهم ينهزمون! قتل منهم العدد الكبير وفر الباقون عائدين يطلبون عسقلان تاركين قائدهم سعد الدولة بين القتلى. ولحق الفرنج بالمسلمين يطاردونهم ويقتلون الشوارد منهم حتى أسوار عسقلان... وغنموا الأموال الطائلة التي تركوها والعدد... وتركوا الجثث للتعفن!

وانتشرت أخبار الهزيمة الثانية فزادت في حرج الأفضل والفاطميين فما جاء الربيع التالي حتى كانت حملة أخرى تتجمع أيضاً في عسقلان.

كانت محاولة منه لإزالة الأثر السيئ لفشله . وسارت الحملة أيضاً إلى الرملة واللد وبلدة يازور . وكان هدفها احتلال يافا لقطع الشريان الذي يصل القدس بأوروبا . في المعركة انهزم الفرنج أول الأمر وكاد الملك بغدوين يسقط في المعركة لولا أنه اختفى في أجمة من القصب فأحرقها المسلمون ولحقت النار ببعض جسده وفر إلى الرملة . وسقطت الرملة بيد المسلمين ... وما هي إلا أيام حتى عاد الفرنج بقوى أخرى طوقت الجيش الإسلامي بغتة فهزموا هزيمة مرة ولحق الناجون مرة أخرى بعسقلان وهم يستعيذون بالله من مطارق الصليبيين وضربات سيوفهم الثقيلة !

جواباً على هذه الهزائم قرر الصليبيون احتلال عكا . كانت لا تزال بيد الفاطميين وكان بحكم مركزها المتوسط ومينائها الضخم وأسوارها المتينة مفتاح ديار الشام ومصب تجارتها . وهاجمها بغدوين بالحصار الشديد وضيق عليها وتحطمت على أسوارها مجانيقه وضاعت مئات الألوف من نباله عبثاً . واضطر لرفع الحصار بعد أن كاد يحتلها خوفاً من أن يفاجئ الفاطميون القدس ولكنه عاد في السنة التالية بعد أن أمن على عاصمته فعاود الحصار ... ومن الغريب أن الفاطميين لم يهتموا كثيراً لنجدة المدينة وتموينها بعد الحصار الأول ودافع عنها قائدها زهر الدولة الجيوشي حتى عجز . واستجار فما من مجير فاضطر للتسليم سنة ١١٠٤ فقتل في التسليم خلق كثير كثير ! .. وأحس الفاطميون أن العيون المسلمة الغاضبة تشير إليهم وأن أصابع الاتهام تكاد تفقأ عيونهم فعادوا في حملة برية بحرية إلى يافا وحصارها . سار الأسطول الفاطمي في البحر والجيش في البر . حتى يافا تلك المدينة واختلف قائد البحر وأميره تاج العجم مع قائد الجيش القاضي ابن قادوس . رفض القائد البحري أن يأتمر بأوامره ولكن بأوامر الأفضل الوزير ولم يحضر عنده ولا أعانه . فأرسل ابن قادوس إلى قاضي عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم وتواقيعهم بأنه أقام على يافا عشرين يوماً واستدعى تاج العجم فلم يأته ولا أرسل رجلاً ... وفي المعركة هزم

ابن قادوس بالطبع في سهول الرملة سنة ١١٠٥ وتمزقت قواته في الحقول وبين الشجر تطلب النجاة ...

بعد هذه الهزائم المتوالية تاب الأفضل . واكتفى بأن يحصن عسقلان . وتاب الصليبيون فلم يهاجموا الحدود مع مصر إلا لماماً ... وانقضت ٤٣ سنة قبل أن يحتلوا عسقلان !

لكن هذه المعارك جعلت احتلال مصر أحد الأحلام الاستراتيجية للفرنج ! ولم يكد يفارقهم هذا الحلم .

احتلال طرابلس

ذات يوم من ربيع ١٠٩٩ فيما كانت الحملة الصليبية الأولى بقضها وقضيضها تنحدر نحو جنوبي الشام بعرباتها وبغالها والخيام والخيل والجموع الجرارة كالجراد المنتشر وصل إلى طرابلس على الساحل الشامي موفد يلهث. قصد قصر حاكمها القاضي ابن عمار يصرخ

ـــ أدركوا عرقة. الفرنجة يحاصرونها. يضربون القلعة بالمجانيق!

وعلى الرغم من أن ابن عمار اهتز للنبأ إلا أنه لم يجد حيلة ولا طريقة لدفع هذا البلاء. لقد وصلته من قبل أنباء حصار هذه الحملة لأنطاكية تسعة أشهر ووصلته أخبار مذبحة المعرة الرهيبة. وها هم أولاء الفرنجة قرب أبواب طرابلس فليس بين بلدة عرقة وطرابلس سوى مرحلة واحدة. ولم يكن لديه سوى حامية محدودة والبلد بلد تجارة فالميناء غاص بالبضائع والبلد بلد علم فمكتبة ابن عمار تزيد على أربع مائة ألف مجلد. والبلد غني غني فإن سقط خرب البيوت. والمال جبان فماذا يفعل ابن عمار؟ هيأ نفسه لاستقبال الصليبيين!

خرج إليهم بالمؤن الوفيرة وبالمعونات وبالأدلاء يدلونهم على الطريق الساحلي إلى فلسطين. ما وقف وقفة عرقة التي صمدت للحصار حتى خاف الفرنجة إضاعة الوقت أمامها فغادروها ولا وقفة صيدا الجريئة التي تعرضت للحملة وأنزلت بها أفدح الخسائر. ولو أن الصليبيين خربوا مزارعها وبساتينها والحقول ثم غادروا إلى الجنوب. ولا وقفة الرملة التي قاومت الغزاة رغم تهدم أسوارها وقلة أهلها الذين نزح معظمهم إلى البراري وترك الفرنجة طرابلس... ولكن إلى حين.

وجاء هذا الحين بعد خمس سنوات سنة ١١٠٤ بعد أن احتلوا بلدة طرطوس في شمالها وبلدة جبيل في جنوبها في معارك دامية أناخوا فيها بكل ثقلهم على هذه البلاد الصغيرة وجاء دور طرابلس. والذي وقف أمامها يناجزها القتال والحصار هو كبير نبلاء الحملة الصليبية الأولى الكونت ريموند صنجيل هذا الكونت النبيل الذي ندم على تعففه يوم عرض عليه تاج بيت المقدس وقال:

ـــ لا أضع على رأسي تاجاً من الذهب في البلد الذي وضع فيه على رأس السيد المسيح تاج من الشوك فانقلب يفتش عن إمارة يحكمها ولم يجد على الساحل السوري أوهى من طرابلس. فتحمل برجاله ونـزل عليها يضرب الحصار. ولكنها كانت مبنية على رأس ممتد في البحر كأنها شبه جزيرة فلا بد من قوة بحرية لاحتلالها وإذا حوصرت من البر فباب البحر مفتوح أمامها للمؤن والإمدادات. وسفنها متصلة بالاسكندرية ومصر فهي تتبع ولو بالاسم الدولة الفاطمية وإن كانت مستقلة بشؤونها.

وأقام صنجيل على الحصار. ولكي يقطع أمل أهل طرابلس بنى على الجبل تجاه المدينة قلعة ما تزال تعرف إلى اليوم بقلعة صنجيل. وأحكم الحصار لقطع تجارتها مع البر الشامي كله. وقد حاول بنو عمار إشعال النار في القلعة فور بنائها ففشلوا. وتوالت الإمدادات بالمقابل على الفرنجة من جزيرة قبرص فصار أهل طرابلس يتصيدون السفن ويدمرونها نهباً وغرقاً أو يسوقونها إلى ميناء طرابلس بما فيها من المؤن والأسرى وطال الحصار وطال. وأهـل طرابـلس صامدون. حتى ساءت أحوال المدينة وارتفعت فيها أسعـار المؤن ارتفاعـاً فاحشاً. وصار الفقراء يتسللون منها هرباً وافتقر الأغنياء. ولم يبالوا ببيع أعز ما يملكون من الحلي والأواني والجوهر لشراء ما يلزمهم من المؤن. وبعث ابن عمار إلى صاحب دمشق يستنجد وإلى خليفة الفاطميين في القاهرة فلا الأول استجاب ولا الثاني رد الجواب وتركا طرابلس لمصيرها وللمتطوعين معها ...

امتد الحصار ثلاث سنوات وصمد أهل طرابلس لمصائب الحصار الطويل. استعانوا بكنوزهم التجارية من الذهب والفضة فكانوا يستوردون بها المؤن من كل مكان حتى من أنطاكية التي يحتلها الصليبيون ومن قبرص ومن البنادقة ...

وحين اشتد الحصار قرر فخر الملك ابن عمار أن يسافر في ربيع سنة ١١٠٨ إلى دمشق وبغداد يطلب النجدة فكانت مأساته الإنسانية المثيرة. أناب عنه ابن عمه في حكم طرابلس ودفع مرتبات الجند مقدماً لستة أشهر وخرج يحمل الهدايا الفاخرة. وصل دمشق فاحتفى به صاحبها كل الاحتفاء لكنه اعتذر عن النجدة وقصد بغداد فلقي المزيد من الحفاوة لدى الخليفة ولدى السلطان السلجوقي لكنه لم يلق النجدة التي يطلب وعاد خائباً بخفي حنين. ولما وصل طرابلس وجد أن الفاطميين انتهزوا فرصة غيابه فأرسلوا من يحتل المدينة من قبلهم ومعه كميات من القمح أسكتت جوع الجوعى فهتفوا للفاطميين... ونسوا ابن عمار! أما ابن عمه الحاكم فقبضوا عليه وأرسلوه سجيناً إلى مصر ...

خلال هذه الفترة كان الكونت صنجيل قد مات وتراكض ابن غير شرعي له من فرنسا فتسلم حملته وأطماعه والحصار. فلما حاول صاحب دمشق انتهاز الفرصة واحتلال بلدة عرقة (وهي تتبع طرابلس) وضمها إليه. لم يستطع البقاء فيها ثلاثة أيام لأن الفرنجة الصليبيين تصدوا له. وحاصروها ثلاثة أسابيع حتى يئست الحامية فيها ففرت تحت ستار الليل. وتركت القلعة خالية.. فاحتلها الفرنج في اليوم التالي وظلوا يطاردون جند دمشق حتى مشارف حمص...

أما طرابلس فعادت الأحوال فيها إلى السوء. بضاعة الفاطميين من المؤن والقمح سرعان ما نفدت ولم تلحق بها نجدة مؤن أخرى. وتأخر الأسطول المصري فهم يلتمسون ظهور أشرعته في الآفاق التماس الناس لقمر رمضان

أو العيد ... وفي هذه الأثناء استطاع ابن صنجيل أن يجمع القوى الصليبية في أنطاكية مع قوى القدس لمعونته ضد طرابلس. وتجمع كل أمراء الفرنج أمام أسوار طرابلس في حزيران سنة ١١٠٨ وتمت تصفية الخلافات فيما بينهم وتعاهدوا على الحملة حملة رجل واحد ضد المدينة. وحملوا. كانت المعركة رهيبة عنيفة وفيما كان النقابون يفتحون الثغرات في الأسوار كانت نبال الفرنجة ترجم الحامية وتوسعها إرهاقاً بحجارة المجانيق وبالنيران وتتسلق الأسوار بالسلالم بكثافة. ولم يبال الصليبيون بالخسائر فإن أساطيل البيازنة جاءتهم بالمتطوعين والأمداد وضربت الحصار البحري حول المدينة المجاهدة فما لها من متنفس أو معين ولما بلغ الفرنج قمة الأسوار استسلمت المدينة ...

دخل الفرنج بسيوف عطشى للدماء ونفوس أشد عطشاً للقتل. المذبحة شملت الشيوخ والنساء والأطفال مع المحاربين. ما تركوا صدراً يتنفس. وأحرقوا الدور بعد أن نهبوا ما فيها. اقتحموا قصر ابن عمار ينهبون ويدمرون ويحرقون وقد ارتكبوا أفجع مأساة حضارية حين أحرقوا بالنيران مكتبة بني عمار وكانت من أعظم مكتبات العالم الإسلامي وفيها من نفيس المخطوطات ما لا يقدر بثمن. وكان لدى ابن عمار عشرون نساخاً يعملون ليل نهار في نسخ الكتب له حتى اجتمع فيها ما يزيد على أربع مائة ألف مجلد ! ...

ويكتم المؤرخون الغربيون هذه الفضيحة الحضارية لا يذكرونها ولا يشيرون أبداً إلى ما خسر العلم بفقدها.

بعد أن سقطت طرابلس بأيام وصلت النجدة من مصر ولكن بعد أن قابلتها على وجه الموج جثث المذبوحين وأشلاء القتلى... ذلك أن إقلاع الأسطول تأجل بضعة أشهر لفض المنازعات بين قادته ! فيما كانت طرابلس تعاني سكرات الذل والاستسلام ثم ملحمة الذبح الفاجع !

واستمر الحكم الصليبي في طرابلس بعد ذلك مائة وثمانين عاماً.

حطين الأولى معركة الصنبرة

حطين. معركة تتألق في التاريخ الإسلامي ولا تألق النجوم يقترن اسمها بصلاح الدين ويقترن صلاح الدين بأسماء الأبطال النادرين في التاريخ. فهل تعرف يا ترى أن هناك قبلها بكثير، كانت وفي المكان ذاته حطين أخرى جرت بين المسلمين والصليبيين ولها بطلها الضخم وإن طواه الزمن والنسيان؟

صاحب هذه المعركة قائد مسلم، لم يكن قد مضى على وجود الصليبيين في الشام اثنتا عشرة سنة حين برز كمجاهد قدير ومحارب شديد التقوى والورع والتمسك بمبدأ الجهاد الديني اسمه شرف الدولة مودود بن التونتكين. كان أتابك (أي حاكم الموصل) اعتباراً من سنة ١١٠٩ أي بعد سقوط القدس بيد الفرنجة بعشر سنوات فقط. وسرعان ما قام سنة ١١١٠ بحملة على إمارة الرها. وكاد يأخذها لولا تجمع القوى الصليبية كلها والمسيرة إليه. فانسحب شرقاً ليلحقوا به بعيداً عن قواعدهم. ولكنهم لم يفعلوا فعاد مرة أخرى. وفي ركابه عدد من أمراء الإسلام في المدن المجاورة. أصحاب خلاط وتبريز وديار بكر وهمذان وخوزستان. ومراغة في أذربيجان وإربل وماردين. اجتمعوا عند سنجار ولكن هذا الجيش على كثرته لم يستطع فتح الرها. ثم دعاه ملك حلب لمعونته فلما وصل لم يسمح له بدخول المدينة فاتجه مودود بقواه إلى حوض نهر العاصي يسترد ما أخذه الفرنج فيه من البلاد والتحق به صاحب دمشق أيضاً هناك لكن تجمعت ضده كل القوى الصليبية وهي تزيد على ١٦ ألف محارب في حين انسحب الأمراء المسلمون من جيشه واحداً تلو

الآخر . وفشلت حركة الجهاد هذه . فانسحب مودود وانسحب الفرنج . بعد أن تراءى الخصمان على طرفي نهر العاصي .

حماسة مودود للجهاد كان يرفدها العاطفة الدينية اللاهبة . فما إن دعاه صاحب دمشق واسمه طغتكين لمعاودة التحرك في السنة المقبلة لضرب الصليبيين في فلسطين حتى قبل رغم بعد المسافة ما بين الموصل ودمشق وفلسطين وقلع مضاربه التي كان نصبها على أسطح قلعة شيزر ورجع إلى بلده .

ولم يتأخر مودود في العودة في السنة التالية بقواه من الفرسان والمشاة وآلة الحرب وكان عند سلمية (قرب حماه) في منتصف مايو سنة ١١١٣ ومعه بعض أمراء الجزيرة . واتجه الجميع إلى دمشق واستقبلهم في ظاهرها طغتكين . صاحبها وهو بين الفرح لوصولهم كي يقمع بهم تهديدات الفرنجة وبين الغصة والريبة من هذا الجمع ومن مودود خاصة خشية أن يحل محله في حكم دمشق وإمارتها الغنية . كان طغتكين متمسكاً بها تمسك المعدم برغيف الخبز . ومودود أعلى منه مكانة لدى السلطان وأشد قوة حربية . وهكذا دفع الخوف إلى الوراء وبقي الفرح بقوة هذه النجدة التي سار بها الجميع جنوباً عبر الجولان حتى هبطوا بحيرة طبرية .

حاصرت القوة مدينة طبرية على الضفة الغربية للبحيرة فلم تفتحها ولكنها دمرت الممتلكات الصليبية المجاورة كلها حتى جبل الطور . وحين سمع مودود وطغتكين باقتراب الجيش الصليبي انحازوا إلى منطقة نعرفها اليوم بالحمة الحمراء وراء مصب نهر اليرموك في نهر الأردن عند نهاية بحيرة طبرية ...

كانت القوة الفرنجية تجمع جميع الإمارات الصليبية وجندها في كتلة واحدة : أمراء طرابلس وأنطاكية مع ملك القدس الذي ازدهاه الفخر بهذا الحلف فتعجل الهجوم على السلاجقة . ولم يفطن إلى أن مودوداً وطغتكين قد نصبا له كميناً في الطريق عند موقع يسمى الصنبرة حتى وقع فيه مع جنده وأخذهم السيف بغتة وجهاً لوجه وتناثر الفرسان وازدحم النشاب فوق

رؤوسهم وفي الصدور فلم ينجح الملك ومعه البطريق أرنول في الهرب إلا بمشقة بالغة في حين وقع المشاة خاصة ومعهم متاع الملك نفسه وثقله والكنيسة في أيدي الجند الإسلامي. وغرق منهم من غرق في نهر الأردن أو في بحيرة طبرية. كانت خسائر الصليبيين في هذه الموقعة حوالي ألف ومائتين من المشاة وحوالي ثمانمائة من الفرسان.. ويقول ابن الأثير إن الملك نفسه أسر في المعركة فلم يعرفه المسلمون فأخذوا سلاحه وأطلقوه!

ووصلت النجدات الفرنجية بعد فوات الأوان. ومع ذلك فقد جمعت قواتها ونظمت صفوفها لملاقاة القوة الإسلامية السلجوقية. وقد أحسوا بتفوقها العددي فتحاشوا الدخول معها في معركة فاصلة واكتفوا بالاحتماء في بعض المرتفعات غرب بحيرة طبرية. وظلوا قابعين في ملجئهم ستة وعشرين يوماً. ومرتقى الجبل صعب والقتال على صخوره أصعب ومع ذلك فقد لازمهم المسلمون وأحدقوا بهم كالنطاق، يظهرون بإزائهم يرمونهم بالنشاب. ومنعوا الميرة عنهم والعلوقة لعلهم يخرجون إلى قتالهم فلم يخرج منهم أحد!

في هذه الفترة وفيما كانت جميع القوى الصليبية مطوقة في جبل الطور (وهو بالمناسبة قرب حطين) كانت القوى الإسلامية تنساح في فلسطين جميعاً لا تردها الحاميات الضئيلة التي بقيت في المدن ولا تقف لها. فخربت المراكز الصليبية في إقليم الجليل حتى وصلت بيسان ونابلس ولم يبق بين عكا والقدس قرية عامرة. وأعانهم البدو على ذلك من طائيين وكلابيين. ووصلهم منهم الأزواد والروايا والإبل ولم يبق في بلاد الفرنج مسلم إلا وأنفذ يلتمس الأمان من مودود ووصل إليه بعض ضرائب نابلس ونهبت بيسان. وكتائب المسلمين تتصيد الفرنج حيث ثقفتهم!

وازداد موقف الصليبيين حرجاً حين علموا بأن حامية عسقلان قامت بهجوم على بيت المقدس نفسها مستغلة غياب ملكها وجموده مع القوى الأخرى بعيداً على جبل الطور. ووجود حامية ضئيلة فيها. وتقدم الجيش

الفاطمي يدمر وينهب حتى وصل أسوار القدس. ولكنه كان صغير العدد لا يستطيع القيام بعمل ضخم كاحتلال القدس فشرعوا في العودة. فلسطين كلها بمدنها وقراها كانت عند ذلك مفتوحة للقوى السلجوقية الإسلامية في الشمال والقوى الفاطمية في الجنوب ... ولٰكن هذه الفرصة النادرة التي تشبه فرصة حطين فاتت دون أن يستفيد منها لا السلاجقة ولا الفاطميون. ولا فكر الطرفان في اللقاء.

ثم تحسن موقف الفرنجة بعد شهر بوصول دفعة من الحجاج المحاربين عدتها ستة عشر ألفاً ولكن بعد أن قرر مودود وطغتكين ترك المحاصرين والعودة إلى دمشق! وهناك أذن مودود لرجاله في العودة والاستراحة للاجتماع في الربيع المقبل لمعاودة الغزاة ... التي لم تحدث قط!

ذلك أن مودوداً آثر البقاء في دمشق ينتظر. ونزل في حجرة الميدان الأخضر وبالغ طغتكين في إكرامه واحترامه وإعظامه وتولى خدمته بنفسه وخاصته. وواصلا صلاة الجمعة جميعاً في المسجد الجامع بدمشق والتبرك بالنظر في مصحف عثمان المحفوظة فيه. لكن ...

لما كان يوم الجمعة الأخير من ربيع الثاني سنة ٥٠٧ (١١١٣) دخل الأمير مودود من مخيمه بمرج باب الحديد إلى الجامع على رسمه. ومعه أتابك. فلما قضيت الصلاة وتنفل بعضها مودود وعادا جميعاً. وأتابك طغتكين أمامه على سبيل الإكرام له وحولهما من الديلم والأتراك والخراسانية والأحداث والسلاحية بأنواع السلاح من الصوارم المرهفة والصمصامات الماضية والنواحل المختلفة والخناجر المجردة ما شاكل الأجمة المشتبكة والغيضة الأشبة والناس حولهما لمشاهدة زيهما وكبر شأنهما، فلما حصلا في صحن الجامع وثب رجل من بين الناس لا يؤبه له ولا يحفل به فقرب من الأمير مودود كأنه يدعو له ويتصدق منه فقبض ببند قبائه بسرعة وضربه بخنجره أسفل سرته ضربتين أحداهما نفذت إلى خاصرته والأخرى إلى فخذه، هذا والسيوف تأخذه من كل

جهة وضرب بكل سلاح وقطع رأسه ليعرف شخصه فما عرف . وأضرمت له نار فألقي فيها ... وأحاط بطغتكين بعض أصحابه ومشى معه مودود متماسكاً بضع خطوات ثم سقط والناس في اضطراب شديد يتساءلون عن الفاعل ...

واتجهت أصابع الاتهام إلى طغتكين ! فهل هو الذي دفع القاتل ؟ ذلك سر ما يزال إلى اليوم علمه عند الله . والله يعلم السر وأخفى !

معركة صور

إذا ذكرت مدينة صور في التاريخ مر أمام عينيك شريط طويل من الجهاد والمآسي والحروب والحصار شريط يزيد على ماعرفته تلك الأحجار القائمة فيها وعند مرفئها. كما لو كانت أسنان هذه العجوز الدهرية وذكريات آلامها وبطولاتها. هي ثغر على البحر المتوسط شال بها الدهر فصارت من ثغور العالم وحط بها الدهر فهي ميناء مهمل. ولكنها في الحالين لم تفقد مرة أهميتها ومكانتها. من قصص أيامها الخالية هذه القصة مع الصليبيين الفرنجة.

كان ذلك سنة ٥٠٥/١١١٢م. وكانت ثغراً هاماً للفاطميين بمصر على ساحل الشام. وكان هذا الساحل قد احتل في معظمه منذ سنوات معدودة من جانب مجموعات البرابرة الأوروبيين الذين تدفقوا على سواحل الشام وسماها التاريخ باسم الحملة الصليبية الأولى. أنشأوا ثلاث إمارات في الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة في بيت المقدس.

بغدوين الأول ملك بيت المقدس هو الذي طمع بأخذ هذه المدينة من أيدي الفاطميين. وحولها دارت معاركه ومؤامراته ويذكرون أن بغدوين جمع في هذه السنة جموع الفرنج وقصد صور. وواليها عز الدين كان قد قطع الأمل من معونة مصر له. لذلك بادر هو وأهل البلد إلى مراسلة صاحب دمشق طغتكين يستنجد به ويسأله المبادرة والتعجيل باتخاذ عدة وافرة من الجند للحماية فإن تأخرت المعونة قادتهم الضرورة إلى تسليم البلد للفرنج. بعث إليهم طغتكين مائتي فارس من الرماة واندفع إليهم رجالة كثيرون من منطقة صور وجبل عاملة ودمشق وتابع طغتكين المدد فيما كان بغدوين يشتد غيظه

وتصميمه على احتلال المدينة وقد هاجمها وأخذ في قطع الشجر والنخل حولها وبناء البيوت لإقامة جنده . وقاتلها عدة دفعات كان يعود بعدها خاسراً لم ينل منها غرضاً . وقيل إن أهل صور رشقوا في بعض أيام مقاتلتها في يوم واحد بعشرين ألف سهم . وخرج طغتكين حين عرف نزول بغدوين على المدينة فخيم في بانياس وبث سراياه ورجاله الحرامية في أعمال الفرنج وأطلق لهم النهب والقتل والسلب والإضراب والحرق طلباً لترحيلهم عن صور ليدخل المزيد من المدد إليها فلم يتزحزح بغدوين عن حصاره . وهاجم طغتكين واحتل حصن السواد وهو من أهم معاقلهم . وقتل من كان فيه فلم يتزحزح الصليبي عن مكانه بل بنى برجين من الخشب زحف بهما إلى أسوار صور . وجاءه طغتكين من وراءه يهاجمه ليخرج أهل صور فيحرقوا البرجين لكنهم وكلوا بهما أقوى رجالهم من جميع الجهات ورتبوا الرجال على الخندق لحفظهما ولم يحفلوا بما كان يجري على أعمالهم من الغارات والفتك . وهجم الشتاء فلم يضر الإفرنج لأنهم كانوا في أرض رملة صلبة . وطغتكين في أرض زراعية أوحل فكان من المقام بها شدة عظيمة . ولكنه مع ذلك قطع الجسر الذي كان يعبر عليه إلى صيدا لقطع الأقوات عنها وعن الفرسان فيها فصاروا يرسلون الميرة في البحر من جميع الجهات . وعاد طغتكين إلى ناحية صيدا وأغار على ظاهرها وقتل جماعة من البحارة وأحرق تقدير عشرين مركباً على الشط وهو لا يهمل إرسال كتب التشجيع على الصمود لأهل صور وعلى المصابرة .

وقد تم عمل الفرنجة للبرجين وكباشهما في حوالي ٧٥ يوماً . وشرعوا في تقديمهما إلى سور البلد واشتد عليهم القتال وكان البرج الصغير يزيد على أربعين ذراعاً والكبير يزيد على الخمسين . وخرج أهل صور بالنفط والحطب والقطران وآلة الحرق فلم يتمكنوا من الوصول إلى شيء . فألقوا النار قرب البرج الصغير فاحترق بعد المحاربة الشديدة ونهبت منه زرديات وطوارق واتصلت النار بالبرج الكبير فشد الفرنج على المقاتلة حتى أبعدوهم عنه وأطفأوه ورتبوا عدة وافرة من

المقاتلة لحمايته وأقاموا المنجنيقات من جميع الجهات .. ظلوا في ذلك شهراً وقربوا البرج من السور وطموا الخنادق أمامه ولكن أهل صور هدموا أمامه تعاليق الأسوار فامتنع تقديمه . وجره الفرنج إلى برج آخر وصدموا بكباشه السور فانبرى رجل طرابلسي بعمل كلاليب حديد تمسك الكبش إذا نطح السور ويجذبه الرجال بالحبال حتى يكاد ينقلب البرج . واستمر القتال على هذه الحال في محاولات قتالية من الطرفين استخدمت فيها كل الحيل وقفاف النفط والنيران حتى استحكمت من البرج واحترق ونهب أهل صور ما عليه من السلاح والآلات ولم يتم على برج من الأبراج ما تم على هذا البرج من إحراقه من رأسه إلى أسفله ...

وييئس الفرنج أخيراً بعد أربعة أشهر ونصف الشهر من القتال فشرعوا في الرحيل وأحرقوا البيوت التي كانواعمروها في منزلهم لسكناهم وأحرقوا كثيراً من المراكب التي كانت لهم على الساحل لأنهم كانوا أخذوا صواريها وأرجلها وآلاتها للأبراج وكانت عدتها تقدير مائتي مركب كباراً وصغاراً منها تقدير ثلاثين مركباً حربياً . وحملوا في بعضها ما خف من أثقالهم ورحلوا إلى عكا .. وفقد أهل صور في هذه المعركة ٤٠٠ قتيل وفقد من الفرنج ضعفا هذا العدد .

وكان أهل صور قد وعدوا بتسليم البلد إلى طغتكين فلم يفوا بذلك ولم يظهر لهم في ذلك قولاً فقال : إنما فعلت ما فعلت لله تعالى وللمسلمين لا لرغبة في مال ولا مملكة ووعدهم إذا دهمهم خطر أن يعود لمعونتهم !

على أن الفرنج ما ترحلوا إلا ليعودوا في السنة التالية . واشتد خوف أهل صور منهم فبعثوا في السر رسولاً إلى دمشق ولم يجد طغتكين فيها لأنه كان في شمال سورية وخاف الرسول فوت الوقت فاتفق مع بوري ابن طغتكين ونائبه على إرسال فرقة من الجيش بكلّ معداتها وحاجاتها إلى صور وحين عاد صاحب دمشق كتب إلى الأفضل الجمالي وزير مصر : إن بغدوين جمع وحشد للنزول على صور واستنجد أهلها بي فبادرت بإنهاض من يتولى أمرها

ويذب عنها ومن وصل إليها من مصر من يتولاها سلمتها إليه . وأرجو ألا يهمل أمرها وإنفاذ أسطول بالغلة إليها وبالجند . فأقر بذلك الأفضل وبعث إلى طغتكين بالخلع والهدايا . وغضب بغدوين الملك حين علم بهذا التساند وانتهز فرصة مرور قافلة تجارية ضخمة من مصر إلى الشام عن طريق فلسطين فهاجمها وهرب من بها واستولى الإفرنج على ما فيها من الأمتعة والبضاعة وحصل بغدوين منها ما يزيد على خمسين ألف دينار وثلاثمائة أسير ولم يبق بلد من البلاد إلا وقد أصيب بعض تجاره بهذه القافلة .

وانتظر الفرنج بعد ذلك حتى سنة ٥١٨/١١٢٥ ليعاودوا الهجوم على صور . وكانت المدينة خلالها في إدارة وال من دمشق لكن مصر أرسلت أسطولاً بحجة المعونة فلما نزل الوالي إلى الأسطول لتحية قائده اعتقل . وأخذ إلى مصر حيث أكرم . وعاد الفاطميون يديرون البلد وعند ذلك تحركت أطماع الفرنج ونزلوا عليها . وعرف الوالي الفاطمي أنه لا يقوم للفرنج وبعث يستنجد ولكن خليفة مصر لم يكن بذلك الرجل ورأى أن يرد حكم البلد إلى طغتكين صاحب الشام فكتب منشور الولاية باسمه ... وكان طغتكين قد شاخ فندب لولايتها جماعة لا غناء فيهم ولا كفاية ولا شهامة على قول المؤرخين ففسد أمرها فيما كان الفرنج يجمعون وينزلون عليها بثقلهم العسكري وآلات الحرب . وضايقوها بالقتال والحصار براً وبحراً واشترك معهم في الحصار البحري أسطول من أهل البندقية من ٣٠٠ سفينة عليها ١٥ ألف محارب . وكان هذا الأسطول قد دمر الأسطول المصري في عسقلان قبل ذلك وأسر أسطولاً إسلامياً من عشر سفن محملة بالبضائع . وقد وعدهم الوصي على عرش القدس بامتيازات ضخمة وبأحياء بكاملها في المدينة وإعفاء من الضرائب . وهكذا أحكم الحصار إلى أن قلت الأقوات فيها وعدمت الميرة . وتوجه طغتكين إلى بانياس لتخفيف الضغط عليها فلم تفلح مناورته ولا جاء من مصر من يعين البلد إلى أن ضعفت النفوس وأشرف أهله على الهلاك ووقع اليأس من المعونة . فراسل

طغتكين الفرنج يطلب الهدنة بين الترغيب والترهيب إلى أن قبلوا تأمين كل من في صور ويخرج من أراد الخروج من العسكر والرعية بما يحملون ويقيم من أراد الإقامة .

ووقف طغتكين في عسكره بإزاء الفرنج وفتح باب البلد وأذن للناس في الخروج فخرج كل منهم بما أطاق حمله بين الصفين ... خرج الجميع إلا الضعفاء . وتفرقوا في البلاد ...

وكانت صور آخر ثغر احتله الفرنج في ساحل الشام ! .. وأعظم ثغر !

سبخة البردويل

قرب بلدة تنيس القديمة على بحيرة المنزلة في مصر كانت هناك سبخة (مستنقع) كانت حتى عهد غير بعيد تعرف بسبخة بردويل. وقد جرت العادة الشعبية بأن يرجمها المارة بالحجارة كلما مروا بها. وإذا كان الرجم معروفاً في مناسك الحج لإبليس اللعين فما حكاية الرجم في هذه السبخة؟

القصة تعود إلى أيام الحروب الصليبية. وتعود بالذات إلى سنة ١١١٨م. وأما اسم البردويل فهو تحوير شعبي لاسم بغدوين، أول ملوك القدس الصليبيين. فما الذي جاء به من فلسطين إلى تنيس؟

تبدأ القصة بمشروع خبيث مر برأس هذا الملك. فكر فيه سنين طويلة وراح ينفذه. لقد حاربته الدولة الفاطمية في مصر منذ سنة ١٠٩٩ واحتلال القدس في ست حملات متوالية. وعلى الرغم من أنها فشلت فيها لأسباب شتى وكادت تحرقه هو نفسه في غابات القصب عند الرملة فإن حروقه أكدت له ما يفكر به من أنه لا أمان لمملكة القدس إلا باحتلال مصر... ولكن كيف له بذلك والطريق إليها وإلى إمدادها مفتوح من الحجاز والشام عبر وادي العربة؟ إذن فإن على بغدوين أن يغلق هذا الطريق أولاً ليأمن ظهره. وهكذا ما استقر به العرش حتى قاد حملة ضد الضفة الشرقية للأردن. لم يذهب منها شمالاً إلى حوران والشام ولا شرقاً إلى قرى الأردن عجلون والشوبك ومأدبا ولكن إلى الجنوب يفرض سيطرته على البحر الميت ويمتد منه جنوباً على طول وادي عربة. اعتبر هذا الوادي خط الدفاع عن القدس. أليس احتلاله يعزل مصر عن كل الإمدادات من الشام والحجاز والعراق ويقطع الطريق البري إليها

ويضعه تحت رقابة الفرنج ورقابة بغدوين نفسه؟ يضاف إلى ذلك أنه يأمن، هجمات القبائل البدوية التي كانت ترتع في الأردن وتواصل غزوها للفرنج عبر وادي الأردن. لقد دمر بغدوين بهجمته هذه مضارب هذه القبائل ومنازلها وأتى على كهوفها ومغاورها ونهب قطعانها ومواشيها وعاد بها إلى القدس غنائم وأسلاباً. وأهم من كل ذلك أنه قطع طريق القوافل التجارية العابرة بين مصر والشام فصار يهاجمها متى شاء من وادي موسى جنوب البحر الميت وينهب ما تحمل من الثروات والبضائع!

وفي سنة ١١١٥ تحرك بحملة عسكرية من مدينة الخليل وزحف إلى وادي عربة حتى وصل بلدة الشوبك وبنى هناك قلعة الشوبك فكانت نقطة حراسة الطريق. أقام هناك حتى بناها قلعة ضخمة ولم يتركها حتى عهد بها إلى حامية عسكرية قوية وشحنها بالذخائر وأطلق عليها اسم جبل الملك! من هناك كان يطل على البحر الميت من جهة والبحر الأحمر من جهة أخرى وعلى البادية وراءه وهضاب سيناء الرملية البعيدة أمامه. في السنة التالية جاء بحملة أخرى يتفقد القلعة التي جعلها نقطة ارتكاز وانطلق منها جنوباً حتى ثغر أيلة (العقبة) على البحر الأحمر. وأنشأ فيها قلعة أخرى ثم امتد عبر البحر إلى جزيرة تعرف بجزيرة فرعون فأقام بها قلعة ثالثة... سلسلة القلاع هذه شحنها بالمؤن والذخائر وبالحاميات العسكرية. وحين وصل الفرنج مع بغدوين إلى العقبة هرعوا بخيولهم يستحمون فيها ويصطادون السمك. في حين لاذ سكان المنطقة بالفرار أو لجأوا إلى سفنهم الصغيرة وركضوا بالمجاديف يبتعدون! فما من أحد يقف له!

وكشف بغدوين عن مشروعه الخبيء في حملته الثالثة. كانت عسقلان تسد طريقه إلى مصر ولا يريد أن يضيع قوته عليها ولذلك اختار الطريق الصحراوي الأبعد. تحرك من غزة وخرج منها إلى العريش يريد مصر، عبر سيناء من وراء عسقلان! وواصل السير إلى الفرما في ربيع سنة ١١١٨ واستولى

عليها . ونهبها نهباً وأخذ منها غنائم وفيرة ! .. وكان احتلال هذه المدينة الواقعة على برزخ السويس سهلاً . المعركة هناك لم تكلفه الكثير ، هي باب مصر الداخلي . وكان فيها منذ عهد الفراعنة حامية تحميها وتحمي حدود مصر الشرقية ولكن بغدوين ما وجد فيها إلا القليل من السكان ومن الحراب . هرب السكان إلى الصحراء حين سمعوا بالحملة الصليبية . ناجين بأنفسهم تاركين أموالهم ومتاعهم نهباً !

وتحرك بغدوين إلى الجانب الشرقي من أعالي الدلتا حول بحيرة المنزلة فوصل إلى تنيس والبلدة مشهورة بعمالها النساجين و « التنيسي » كان من أغلى النسيج الحريري وقد يرصع بالذهب ويصدر إلى الآفاق ووصل مصب نهر النيل في فرع دمياط . ولم يتحرك سيف للقائه . انكمش الوزير الفاضل في القاهرة كأن الأمر لا يعنيه وتوغل الجيش الصليبي في البلاد كأنما هي ليست لأحد ... ويقولون إن بغدوين سبح في النيل عند تنيس وخرج فأكل أكلة سمك على بحيرة المنزلة أو أن جرحاً قديماً انتقض عليه بهذه السباحة فاعتل علة شديدة . وتحولت معركته مع الجيش الفاطمي إلى معركة مع القدر فقرر العودة . ولكنه لم يصل العريش حتى توفي ! وبعضهم يقول : بل توفي عند تنيس نفسها وشق أصحابه بطنه واستخرجوا أمعاءه وما فيها فرموها هناك وصبروه وحملوه خشبة جافة إلى القدس . حيث رميت أحشاؤه في السبخة صار مكاناً للرجم واللعن الشعبي إنها سبخة البردويل ! الهام هو أن هذا الملك هو الذي رعى المؤسستين الدينيتين الحربيتين اللتين كانتا أشد المتعصبة الفرنج ضد المسلمين واللتين قاسى منهما المسلمون مر البلاء : الداوية والاسبتارية .

هذا وخليفة القاهرة الفاطمي الآمر بالله ناعم في قصره بالقاهرة وراء الستائر الحريرية ومخازن السلاح في خزائنه محلاة بالجوهر وألويته مطوية ... وفي أيامه أخذ الفرنج كل أملاك مصر الشامية عدا عسقلان . أخذوا منه عكا سنة ٤٩٧ وطرابلس سنة ٥٠٢ وبيروت سنة ٥٠٣ وعرقة وبانياس وصيدا سنة

٥٠٤ وتبنين سنة ٥١١ وأخذوا صور سنة ٥١٨ ولولا أن القدر تدخل في النهاية لظلوا يحتلون بعد الفرما سنة ١١١١ تنيس وما يدري إلا الله بعد تنيس ! . يقول المؤرخ ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ، كتابه التاريخي : وهذا كله قد جرى بتخلف هذا المشؤوم الطلعة عن الجهاد !! وكانت حملة بغدوين التي وصلت تنيس لا تزيد على مائتين من الفرسان وأربعمائة من المشاة ... فقط . الشعب وحده كان يعرف كل ذلك ويألم للخسائر ويعبر عن ألمه برجم السبخة ولعن الاسم الذي تحمله !

صحيح أنها لم تكن حملة حربية واسعة ، ولكنها طليعة استكشاف وتحد . ولكن ألم يسجل بغدوين بها وجوده على أرض مصر بعد وجوده على الأراضي التابعة لمصر في الشام ؟ ألم يحقق قول المتنبي دون أن يعرفه :

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام !

... وسقط الصليبيون أمام دمشق

كان ذلك سنة ١١٤٨/٥٤٢هـ .

كان ملك دمشق أبق بن بوري . الاسم تركي غريب ليكن ذلك . فذلك لا يهم لأن الهام أن هذا الملك كان في قلعة دمشق نائماً حين طلب أتابكه (أي مربيه) أنر (وهو تركي بدوره) مقابلته . والدنيا ليل بهيم ولكن الجو ناعم والنسيمَ رخي إنه الربيع ونيسان : ولكن أنر ألقى إليه بالخبر المزعج الذي رفع حرارة الجو حوله حتى الغليان .

ــ قرر الفرنجة الهجوم على دمشق . بذلك جاءت رسالة الحمام الزاجل .

ــ ولكن بيننا وبينهم هدنة . كنا نخاف زنكي بن أقسنقر فقتل وتخلصنا منه ثم صرنا نخاف ابنه نور الدين فتحالفنا مع الفرنج لنأمن وها نحن يأتينا الخطر من هؤلاء الفرنج ! زنهار ! (أمان)

ــ هذا هو الواقع . لقد فرضت علينا الحرب . وقد أعطيت الأوامر بحراسة الأبواب والأسوار ودب النفير في الناس .. ونحن في كف القدر ...

هذا الحديث جرى بالتركية فهي لغة الحكام يومذاك والقصة تبدأ قبل ذلك بسنوات خلت . يوم وحَّد زنكي بن آقسنقر (والد نور الدين) إمارتي الموصل وحلب ثم ضم إليهما حمص وبعلبك ولم يبق في طريقه لتوحيد الشام مع شمال العراق سوى مملكة دمشق ! ومملكة دمشق في ذلك الوقت يحكمها أسرة طغتكين التركية وهي حريصة على ألا تفلت من يدها بأي ثمن . فما إن قاربها زنكي حتى هدده حكام دمشق بالاتفاق مع جيرانهم الفرنج في البقاع وفلسطين .. تكررت محاولاته ففشلت . وفيما انصرف زنكي إلى الشمال ففتح

إمارة الرها واستولى عليها كان حكام دمشق يمدون ، مقابل ذلك أيديهم للفرنج ويخوفونهم إن ملك زنكي دمشق أن لا يبقى لهم مقام في الشام : أرسلوا إلى ملك القدس فولك ثلاث سفارات في ثلاث سنوات متوالية بين سنة ١١٣٧ وسنة ١١٤٠ . كان السفير هو الفارس المعروف أسامة بن منقذ . ونجحت مفاوضاته مع الفرنج واتفق معهم باسم دمشق على دفع هجمات زنكي عنها ووعدهم أن يسلم لهم حصن بانياس المشرف على بحيرة الحولة والتزم بأن تدفع دمشق ٢٠ ألف قطعة من الذهب مقابل هذه الحماية كل شهر . وأن يودع عندهم عدد من الرهائن من أهل البيت المالك ضماناً للوفاء والتنفيذ .

ولم يخجل أنر الأتابك ولا سفيره أسامة من زيارة فولك ملك الفرنج في بيت المقدس وتبادل الأيمان معه وتبادل الهدايا . وعبارات الود ولا من زيارة معالم القدس ثم التنقل في فلسطين بين نابلس وحيفا وعكا وطبرية . وسبسطية ! وحين حان موعد تسليم بانياس لم يتأخر جيش دمشق من الوقوف مع الفرنج يحاصرها طويلاً . فلما استسلمت تركها لسيوف الفرنج يعملون في حامياتها وأهلها الذبح !

ورجع الملك فولك مزهواً بهذا الحليف يقف معه ضد زنكي الذي يحاول توحيد الشام . وشرع الفرنجي في بناء الحصون الوقائية في صفد وفي يبني وتل الصافية وبيت جبرين . وأخيراً حصن الكرك في الأردن . وعلى الرغم من أن مصرع زنكي قد حمل الفرح إلى دمشق والقدس إلا إن بروز نور الدين ابنه من بعده قضى بسرعة على هذا الفرح . فقد استطاع الاحتفاظ مع أخيه في الموصل بمملكة أبيهما . وتابع نور الدين مشروع هذا الوالد بتوحيد الشام ...

على أن ثورة أوروبا لسقوط إمارة الرها الصليبية كانت قد جرفت من فرنسا وألمانيا خاصة عشرات الألوف بغية تحرير الرها . وعلى رأس هذه الجموع الهائلة كان هناك ملكان ، لويس السابع ملك فرنسا والإمبراطور كونراد إمبراطور ألمانيا . الزحف عبر الطريق من أقاصي أوروبا إلى الشام أخذ سنة

ومقصده الرها ولكنه لم يتجه إليها واتجه إلى ملك القدس يتشاور معه. وعقد الملوك الثلاثة مجلسهم الحربي في عكا وطلعوا بقرار قبله ملك القدس على مضض: أن يهاجموا دمشق ويحتلوها!

كانت غوطة دمشق زاخرة بأهليها وبالثمار في أواخر يونيو سنة ١١٤٨ حين تسامع الناس بمسيرة الجيش الفرنجي الضخم. جيش الملوك الثلاثة إلى دمشق. وتدافع الفلاحون وأهل الغوطة على أبواب دمشق يخيمون وراء أسوارها. فالمذابح الفرنجية أصبحت من هواجس الناس. ولم تمض أيام على تجمع الجيوش في طبرية حتى كانت طلائعها تعسكر أمام دمشق. وتحتل الضواحي اللصيقة بها. المزة والربوة. جاؤوها من الغرب. حيث تجري إليها المياه وضربوا الحصار حولها. وأدرك حكام دمشق أن لا أمل لهم بنجدة أحد فهم حلفاء للفرنجة الذين يهاجمونهم الآن فلجأ الأتابك للمناورة وهدد المهاجمين بعدوه نور الدين وكتب إلى هذا العاهل يستدعيه بالفعل ولكن شريطة ألا يدخل دمشق وأن يظل يحارب بجيشه الفرنج خارجها!

ولكن دمشق لم تعدم مع ذلك من الأجناد وأحداث المتطوعة والغزاة والزهاد والعباد فيها وفي أطرافها من يجتمع لنصرتها. على رأس هؤلاء كان ثمة شيخان الحلحولي والفندلاوي وقد نزلا بسيفيهما بين المتطوعين وقتلا في الربوة... واستمرت المعركة خمسة أيام. قطع الفرنج فيها منذ اليومين الأولين أشجار الغوطة وتحصنوا وراءها بعد أن ابتلعوا مشمشها وانتشروا في البساتين ثم نقلوا مخيمهم أمام باب الجابية... ورأى الدمشقيون ذلك فكبروا وأعولت النساء وتعالى الصراخ ولجأ الناس إلى ساحة الجامع الأموي الواسعة يحثون التراب على رؤوسهم والرماد. ما شك أحد بأن المدينة سقطت بأيدي الكفار وأنهم إما للذبح وإما سبايا لأسواق النخاسة. كان الفرنجة قد تقاسموا سلفاً أحياء دمشق للنهب ولكنهم اختلفوا: فيمن يأخذ حكم المدينة فملك فرنسا برأي وإمبراطور ألمانيا برأي.ورأي فولك أنه في هذه المعركة هو الخاسر الوحيد. لم

يربح شيئاً وخسر الجزية التي كانت تأتيه عفواً كل شهر فبدأ في التقاعس واقترح نقل المعسكرات إلى شرق المدينة بدل غربها لأنها هناك أقل حصانة فلما انتقلوا افتقدوا وجود الماء. فالماء هناك سبخ وأقذار...

في اليوم الخامس ركب أحد قسيسهم حماره وحمل الصليب ومشى نحو باب الجابية على رأس جماعة تلتهب حماسة وبأساً فخرج إليه أحداث البلد في هجمة واحدة. وكانوا قبل ذلك يتصيدون الفرنج في البساتين ويأتون برؤوسهم إلى القلعة لينالوا الجوائز. أما هذه المرة فقد هاجموا هذا الرتل المجنون في وجهه فخر حمار القسيس مع صاحبه قتيلين وفتك الأحداث بالمهاجمين المذعورين فردوهم على الأعقاب...

وخشي الفرنجة مجيء نور الدين فيقطع عليهم طريق العودة ورأى ملك فرنسا مع المقاومة الشديدة بُعْد النصر وكان يظنها نزهة فانسحب من المعركة وتلاه إمبراطور الألمان ثم ملك القدس ولحق بهم أهل دمشق يقتلون على الطرقات وينهبون. والسلاح مرمي على الدروب والجرحى يئنون على الدواب. كان جيشاً في حالة اندحار... وكانت هذه هي نهاية الحملة الصليبية الثانية تحطمت على أسوار دمشق.

منذ ذلك اليوم كسبت دمشق لقباً شرفياً هو أنها المدينة التي لا يدخلها الكفار!.. لكن أتابك دمشق كافأ ملك القدس مرة أخرى بمعاهدة كالمعاهدة الأولى وبجزية مثلها... وزار في هذه المرة ملك الفرنج وباروناتها دمشق. عسكروا أمام أسوارها ورحب بهم أنر ودخلوا حوانيتها ودروبها. وكان جباتهم يأتون كل شهر لأخذ الجزية!

نور الدين هو الذي خلصها من هذه المذلة ومن حكامها الأذلاء!

دمياط وصلاح الدين

في السنوات العشر الأخيرة من الخلافة الفاطمية في مصر بين سنتي ١١٦٠ ــ ١١٧٠م. كانت البلاد كالكرة بين فريقين: يقذف بها فريق ويتلقاها فريق. وكل يطمع في ملكها لنفسه. الفرنجة قاموا عليها بست حملات لم تفشل إلا بسبب تدخل الفريق الإسلامي وعلى رأسه نور الدين الذي كان إذ ذاك يملك الشام كله...

الملك عموري الأول ملك القدس الصليبي حين رأى توسع نور الدين ثارت مخاوفه ومطامعه معاً. وجد أن حماية القدس لا تكون في الشام ولكن في مصر فهي البعد الاستراتيجي لفلسطين. وفيها الخيرات الوفيرة والأموال إن استطاع نور الدين أخذ القدس. لم يكن عموري أكثر من شاب في السابعة والعشرين ولكن مربيه وليام الصوري المؤرخ الفرنجي علمه الكثير من شؤون الحياة والحرب والدين. فما إن تسلم الحكم وراثة عن أخيه حتى قام بحملته الأولى على مصر ووصل حتى بلبيس على طريق القاهرة. وفشلت الحملة لأن الشعب أغرق الأراضي بمياه الفيضان وعاد عموري خائباً ولم يكن مضى على تتويجه بضعة أشهر... واستنجد به في السنة الثانية وزير الفاطميين ضرغام ضد خصمه الوزير شاور الذي استنجد بنور الدين فوجد في مصر جيش نور الدين قد سبقه واتفقا على الانسحاب. ولكن بعد معارك متقطعة دامت سبعة أشهر. لم تكن حاسمة. وبعد أن رأى الفرنج أعلام قلاعهم في الشام يرفعها أسد الدين شيركوه، قائد نور الدين فوق بلبيس تشهيراً وتخويفاً. وكان الفرنج تحت أسوار القاهرة يقاتلون فيما يشبه المعركة الفاصلة. وقتل الوزير ضرغام

الذي كان يحرضهم فلم يبق لهم مقام ووافقوا على الانسحاب ليجد عموري أن خمسة من أمراء الصليبيين قد وقعوا أسرى في يد نور الدين وبينهم أمير طرابلس عدا أمير أنطاكية الذي قتل وأهدى نور الدين رأسه ويده اليمنى إلى الخليفة في بغداد .

وقام عموري بالحملة الثالثة سنة ١١٦٧ حين استنجد به الوزير شاور نفسه ، عميل نور الدين ضد نور الدين والتقى مع شاور في بلبيس أيضاً وعسكر معه على ضفة النيل الشرقية فيما كان جيش نور الدين قد سبق فاجتاز النيل وعسكر على الضفة الغربية عند الجيزة . في القاهرة كان الخليفة الفاطمي يستقبل سفراء الفرنجة ويعقد معهم معاهدة يدفع لهم فيها ٤٠٠ ألف دينار مقابل إخراج الجيش النوري ... كان الخليفة العاضد يومذاك في أتعس أيامه ذلاً وخيانة . وحاول الفرنج عبور النيل فهرب أسد الدين شيركوه قائد نور الدين إلى الصعيد ولم يكن معه سوى ألفي فارس . ولحق به الفرنج وشاور في جنده عند بلدة الأشمونين . ودارت المعركة قاسية دمية . قاتل مع أسد الدين أعداد من أهل مصر . والكفة لم تكن متكافئة في العدد وتدخل الإيمان القوي يشدد من العزائم الإسلامية وشهدت معركة البابين هذه انهيار الجيش الفرنجي وجيش شاور معاً سقط بعضهم في الترع جرحى أو غرقى وهرب بعضهم بين الزروع . وقضى الذين ثبتوا للقتال تحت السيوف والرماح وبين الدماء المسفوحة !

وكان أسد الدين قد أرسل ابن أخيه صلاح الدين لحماية الاسكندرية فلقي في الدفاع عنها ضد الفرنج مر القتال والضيق حتى حلف لا يرجع أبداً إلى مصر . وأخيراً جرى الاتفاق على انسحاب الجيش النوري من مصر . فانسحب مرغماً في حين بقي عموري قرابة شهرين فيها يضع القواعد لتنفيذ الحماية التي فرضتها المعاهدة معه على مصر . وصار له في القاهرة شحنة أي حاكم عسكري وحامية على الأبواب من الفرسان وتدفع مصر لهم كل سنة مائة

ألف دينار ... ورأى المصريون وهم في منتهى الغضب شعبهم يسام الذل والهوان من فرسان الفرنج وتصاعدت الشكوى إلى الخليفة الذي كان هو نفسه أول المذلولين فكتب إلى نور الدين يرجو إنقاذه من هذا الاحتلال المفروض وأرسل مع الكتاب قصاصات من شعور نسائه في قصره لإثارة النخوة ... وعرف عموري بالأمر فأسرع إلى مصر ولكن أهل بلبيس منعوه من دخولها .. أغلقوا الأبواب وقالوا لا تدخلها إلا بالسيف أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها فأجاب : هي جبنة نعم والقاهرة زبدة ! وفيما كان يكمل طريقه إلى القاهرة كان جيش نور الدين وفيه أسد الدين وصلاح الدين يلحقه إلى مصر عند بلبيس .

حول هذه المدينة دارت المعركة الطاحنة بين الفريقين وامتدت ميادينها على طول الطريق حتى القاهرة . فرشاش الدماء على التراب . والكر والفر قائمان ويتعثر المحاربون بالجثث والأشلاء والدروع المحطمة وبقايا السيوف والنبل يخرج من بين الزروع ويختفي والكمائن في كل منعطف تحمل الموت ــ وغبار الفرسان يعمي العيون وحمى الحرب لا تدع عيناً تبصر ...

واستشرى الفرنج وبقدر ما استشروا زاد بغض الناس لهم وحقدهم عليهم . أحرقوا مدينة بلبيس دوراً وأسواقاً بمن فيها . قتلوا من أهلها خلقاً عظيماً . خربوا ما بقي منها بعد الحريق وقاوم أهل القاهرة مقاومة ضارية فعمد الفرنج إلى إحراق الفسطاط (مصر القديمة) فلجأ أهلها إلى القاهرة . وألقى المصريون مختلف الأخشاب وجذوع النخل والنواعير في الترع ليحولوا دون تقدم أسطول الفرنج . وشاركت النساء في القتال فقد جز بعضهن شعورهن ليباع في الأسواق ويضاف ثمنه لمجهود الحرب . وقاتل بعضهن بإلقاء المياه الساخنة والزيت المغلي على الفرنج من فوق السطوح ... وانتهى الأمر بفشل عموري الفشل الذريع وإعطاء الأمر بالانسحاب . ما من أحد يقبله في مصر إلا الوزير

شاور الذي عاد إلى عموري يحرضه على دخول مصر ، انتقاماً لفشله ، ولكن عن طريق دمياط في البحر والبر على السواء .

وثارت في عموري حمية الشباب المغرور فقبل المغامرة الثانية في حين آمن أسد الدين قائد نور الدين أن الوزير شاور هو أساس البلاء وأن ترك مصر سوف يلقي بها في يد الفرنج . لاسيما بعد أن أضاع عليهم شاور أموالها وأقطعهم الإقطاعات وأنزلهم دور القاهرة وبنى لهم فيها أسواقاً تخصهم وجعل منهم شحنة البلد (أي قائدها العسكري) .

ودبر أسد الدين مقتل شاور ونهبت قصوره وأمواله ولكن بعد أن كان عموري قد تحرك تبعاً لنصيحته إلى دمياط في البر والبحر . لاسيما وقد ملك أصحاب نور الدين مصر بعد الشام وصار الخطر كبيراً على مملكة بيت المقدس . وقد أرسل ملكها عموري يصرخ النجدة النجدة . طلبها من فرنج الأندلس ومن فرنج صقلية وبعث يصالح إمبراطور بيزنطة ويدعوه لمشاركته في احتلال مصر . وأبحر الأسطول البيزنطي من مياه مرمره عبر الدردنيل إلى قبرص وانضمت إليه قوات إضافية سارت كلها إلى عكا أكبر ثغور الفرنج حيث وضعت الخطة الهجومية على مصر .

ناقش مجلس الحرب الفرنجي الخطة بالتفصيل وتوزع الأسلاب والغنائم سلفاً وخصص للفرسان الاسبتارية النصيب الكبير من موراد مصر ومدنها ومنها قوص ودمياط والفيوم وأسوان ؟ كان للمؤامرة جانبها الداخلي الذي عرف به صلاح الدين فسحقه سحقاً وبدد شمل الفاطميين السود المشتركين فيه ولكن من له بدحر المؤامرة الخارجية ؟ أقلع الأسطول البيزنطي إلى دمياط في الوقت الذي زحف فيه فرنج القدس إلى دمياط عن طريق الفرما ونصبوا عليها المنجنيقات وآلات الحصار والدبابات . كان أسطول الفرنج ألف مركب تحمل على ظهرها مائتي ألف فارس وراجل . إنه أسطول « الأرمادا » التاريخي ! وكان صلاح الدين قد أضحى بعد موت عمه وزير الخليفة الفاطمي فشحن

دمياط بالرجال والسلاح واستنفر نور الدين المتطوعة من الشام وأمدهم بالمال والسلاح وفتح الجبهات عليهم في الشام لتخفيف الضغط على دمياط . وحلف ألا يظله سقف حتى يثأر من الفرنج وكانت معركة ضارية بين البر والبحر . لم يستطع الأسطول الفرنجي عبور مصب النيل في البحر بسبب المآصر (السلاسل الحديدية) التي كانت تغلقه وقام أهل دمياط بأعمال من الفداء غريبة . عبأوا الأواني الفخارية بالمواد المشتعلة وأرسلوها مع مجرى النهر إلى سفن الأعداء فأنزلت بها النيران . وكانت مجانيق الصليبيين تعمل ليل نهار وتقذف الحجارة والنيران على المدينة . وامتد الحصار خمسين يوماً . وشحت الأقوات وارتفعت الأسعار وصبر الناس صبر المجاهدين ... حتى احترقت مئات المراكب الفرنجية وغرقت وهلك عدد من أمرائهم والكثير من الجند دون طائل ودمرت المنجنيقات وتقاذفت الأمواج آلاف الجثث من بحارة الفرنج أياماً طويلة ... وهزموا ! علق المؤرخ ابن الأثير على هذا بقوله : خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين !

يوم حطين

حطين اسم يقترن منذ ثمانمائة سنة ونيف باسم صلاح الدين فهو الذي شال باسم هذا التل الصغير المجاور لبحيرة طبرية من الغرب وجعله شعلة من المجد يهزها الخطباء كلما احتاجوا هزة عنفوان ونصر. ولقد ألفت وسوف تؤلف المجلدات في حطين فهي أيام أعراس...

بدأت هذه الأيام في مطلع سنة ٥٨٣/١١٨٧م.. بقرار اتخذه صلاح الدين وهو يفكر في مملكته الواسعة التي مدها له الله من شمالي العراق إلى الشام إلى مصر وبرقة إلى الحجاز واليمن... ماذا يريد المسلمون منه بعد هذا وكان يعرف الجواب. يريدون الخلاص من الفرنج الصليبيين وتحرير بيت المقدس. أيستطيع أن ينسى ذلك؟ والفرنج في طبرية على مسيرة يوم واحد من عاصمته دمشق أو أنطاكية على مسيرة يوم من حلب. أو في عسقلان على أبواب مصر؟ ولقد هادن ملك القدس ليتفرغ لغيره ورضي بأن يقاسمه نصف خراج السلط والبلقاء وجبل عوف والجولان والسواد إلى بلد حوران مؤقتاً. فهل يبقى على ذلك. وقد نقض أرناط صاحب الكرك الهدنة معه ولم يحرك ملك القدس ساكناً

دعا صلاح الدين أمراء الحرب إلى القاعة الكبرى في قلعة دمشق يتشاور معهم. وعلى الرغم من معارضة بعض القادة فقد أصر السلطان على أن الوقت قد حان لمعركة مصيرية مع هذا الداء المتكلب بالشام وأيده أكثر الأمراء. قالوا إن الناس يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار وقاتل المسلمين. والرأي أن ندخل بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي فإن برزوا لنا قاتلناهم

والنصر من عند الله... ولا يكف الألسن إلا هذا. فإن نصرنا الله فهو ما نرجو. وإن هزمنا عذرونا.. فقال صلاح الدين: الرأي عندي أن نلقى بجميع المسلمين جميعَ الكفار. ولا نعلم قدْر الباقي من أعمارنا. فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان. ولا ينبغي وقد اجتمع الناس لنا أن نغادرهم إلى الدار الآخرة ولم يبلغوا ما يريدون من العدو...

وانفض المجلس بكتاب أرسله صلاح الدين إلى جميع أمرائه في الأقطار يدعوهم إلى الجهاد والتجهز الكامل له بالمال والعتاد. وخرج فخيم خارج دمشق ينتظر وصول القوى العسكرية في القريتين وعشترا وغيرهما حتى غصت بالخيل الربى والوهاد واستعرضها ينظم أمرها فلكل أمير دور ولكل كمين مكان ولكل أداة حصار فريق. وبذل الأموال ونثر السلاح وأنفق الذخائر واتجه بقلب الجيش إلى قرية خسفين بالجولان ثم نزل على الأردن عند جسر الأقحوانة فأحاط بطبرية من الغرب وراح يجوس البلاد الفرنجية حتى بيسان وعلى الرغم من أن طبرية كانت من توابع أمير طرابلس وفيها أميرة صليبية فقد طوقها وأخذها في مساء من نهار واستولى على ما فيها من الميرة والذخيرة.

ولم تخف على الفرنج تحركات صلاح الدين منذ تحرك في دمشق فقد لبى أمير أنطاكية دعوة ملك القدس إلى مجلس حرب يعقد في عكا. وجاء أمير طرابلس وكان بينه وبين صلاح الدين هدنة لا يريد نقضها فعارض في الحرب وفضل المفاوضة. فلما سمع بسقوط طبرية وافق على الحرب.. ولكن أين يحاربون صلاح الدين إن بينهم وبينه مرج ابن عامر الواسع وسلسلة طويلة من الهضاب يعقبها المنخفض الانهدامي الضخم الذي تقع فيه بحيرة الحولة ويجري فيه نهر الأردن إلى طبرية ومنها إلى البحر الميت. وتغلب بينهم الرأي القائل بالمسير إليه. في حين آثر صلاح الدين أن يبقى بجيشه في مكانه غرب طبرية. والمنطقة قفراء مجدبة. وهضاب حطين تشرف على مواقع جيشه فلا يخفى عليه في قدومهم خافية.

كان الجيش الصليبي يغلي برجاله ودروعه والبنود والمجانيق عند صفورية حيث الظل والماء الوفير فجاءه الأمر بالمسير إلى الشرق نحو طبرية. حين علم صلاح الدين بذلك استبشر وقال: «قد حصل المطلوب وجاءنا ما نريد» فقد استدرج الصليبيين إلى الفخ. ذلك أنهم سيصلون متعبين وجيشه مستريح وسيحاولون الوصول إلى طبرية ولا ماء في طريقهم فيرهقهم العطش. ويصلون والقمر في المحاق فيدبون في الليل الأسحم فلا يميزون الطريق من الحجر. مشى الجيش الصليبي يومين ووافى طبرية في الليل. كان ماؤها يلتمع رغم الظلام ولكن الجيش المسلم كان واقفاً كالسور بينه وبينها. ولا سبيل إلى الماء.. وزاد في العطش أن الوقت كان في أوائل يوليه، عشية الثالث منه وأنهم صاروا على شفا المنخفض الانهدامي الحار وقد قضوا المسيرة كلها على بعض الماء الذي حملوه!.

قضى صلاح الدين ليلة المعركة ساهراً يطوف بين الجنود من كل فئة ويملأ جعابهم بالنبال حتى فرق فيهم أربعمائة حمل. وأسفر صباح الرابع من يوليو عن شمس لافحة محرقة ورياح كاللهب والصليبيون قبل اللقاء يلهثون عطشاً. وحاول بعضهم أن يفتح ثغرة يصل بها إلى الماء فقتل. دون أن يصل واندفعت الجموع تلقي بنفسها إلى التهلكة فَثَقَّبت أجسادها النبال. وتراجعت الخيل ترمي فرسانها. ولجأ الجيش الصليبي إلى هضبة حطين وقد نصبت في قمتها قبة الملك. فما لبثوا أن وجدوا أن الهضبة بكاملها قد طوقت بالجيش المسلم وأن الزحف الإسلامي قد لحقهم. وأشعل المسلمون النار في الأعشاب حول الفرنج وكانت جافة فالتهب العشب بسرعة وصار الصليبيون بين ثلاث نيران: نار السهام ولهب النيران ونار العطش ولم ينفعهم أن يكروا مرة بعد مرة فقد كانت السيوف تطيح بهم يمنة ويسرة والدماء تزلق بأرجلهم على المنحدرات. وكم مرة حسبوا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه فكانوا لا يحملون حملة إلا وقد قتل منهم الكثير وعاد أقل من القليل... واشتد عليهم

القتال من كل صوب فلم يستطيعوا نصب خيامهم ولا الراحة من العناء والإنهاك .

الأمير الوحيد الذي نجا بنفسه وجنده هو أمير طرابلس الذي فتح له المسلمون ثغرة هرب منها فلم يقف بجنده إلا وراء أسوار مدينته ! أما ملك القدس فبقي في أعلى التل في مقدار مائة وخمسين فارساً وقد حاول القيام بهجمة أخيرة يائسة . وكان صلاح الدين يشهدها وهو يصيح كذب الشيطان ولكن المسلمين ردوه ثم كر ثانية حتى وصل الجنود الإسلاميون إلى خيمة صلاح الدين وعادوا فردوه وصاح ابن صلاح الدين وهو فتى : هزمناهم فقال الأب . اسكت حتى تسقط تلك الخيمة من أعلى الهضبة ... فلما سقطت خر صلاح الدين ساجداً لله . وبكى من الفرح ...

حين جلس صلاح الدين أمام خيمته ساقوا إليه الأسرى : فإذا ملك القدس في مقدمتهم وأرناط أمير الكرك وهمفري أخو الملك وأمير جبيل وابن همفري وابن أمير الاسكندرونة وأمير مرقية وجمع كبير من فرسان الداوية من البارونات ومن الاسبتارية . كلهم في الأصفاد والحبال .

أما ميدان المعركة فكان مغطى بآلاف الجثث . وقال أحد الذين شهدوا المعركة : من شاهد القتلى قال ما هنالك أسير ومن شاهد الأسرى قال ما هنالك قتيل وقد رأيت في حبل واحد ثلاثة وأربعين فارساً يقودهم فارس وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يراقبهم حارس واحد . وكانت المعركة رؤوساً طائرة وعيوناً غائرة وجثثاً مقطعة المفاصل . مجذوفة الرقاب مقصفة الأصلاب موزعة الأقدام مفقوءة العيون مبعوجة البطون . مسلوخة الليات منثورة الشعور مهتومة الأسنان مقلصة الشفاه ...

في خيمة صلاح الدين أدخل ملك القدس ومعه أخوه والفارس أرناط وناول صلاح الدين الملك كأساً من الجلاب المثلج شرب منها وناولها أرناط فقال صلاح الدين للترجمان قل للملك أنت الذي سقيته وليس أنا . ثم قام لأرناط

فضربه بسيفه حتى فك عنقه وألقي خارج الخيمة . وارتعش الملك فرقاً : فقال صلاح الدين : طب نفساً فلم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ...

وسيق الأسرى إلى دمشق ! . وسقطت فلسطين كلها ومعظم مدن الساحل الشامي بيد صلاح الدين .

ألا تستحق حطين هالة المجد التي تطوقتها منذ ثمانمائة سنة إلى اليوم ؟

تحرير القدس

هما صورتان تاريخيتان بين الأولى والثانية ٨٨ سنة من سني الناس ولكن بينهما مليون سنة من سني الحضارة والموقف الإنساني .

الصورة الأولى صورة الجموع الصليبية الوحشية التي هبطت القدس سنة ١٠٩٩ كالبلاء الأعظم والسيوف الثقيلة في أيديها تهوي كالمطارق وتسبح في دماء المسلمين وأشلائهم صارخة ديوس لوفولت : أي الله أراد . والصورة الأخرى كانت سنة ١١٨٧ يوم دخل صلاح الدين المدينة نفسها منقذاً ومحرراً . ولا شك أن الصورة الأولى كانت في خاطر صلاح الدين وفي صدره هو في حطين والمعركة تحتدم سيوفاً ودماءً ولهباً وكان يضع في خاطره ويصور الصورة الثانية ، لو فتح الله عليه القدس ... رغم التناقض الشديد بين الصورتين ولعله كان يضع هذه الصورة قبل ذلك بزمن طويل وهو يحوم حول فلسطين بجيوشه فيقتنص أميراً ويهدم حصناً .

وكان الفرنج يدركون أن تحركات صلاح الدين إنما تستهدف تدمير الوجود الصليبي في الشام كله ولكنهم مع ذلك كانوا يستبعدون ذلك فهم : ثلاث إمارات قوية ومن ورائهم ملوك أوروبا وشعوب أوروبا وأساطيل أوروبا ... وكل تعصب أوروبا الأعمى . وبين المعرفة بنوايا صلاح الدين واستبعادها كانوا يشهدونه وهو يهاجم الداروم في فلسطين ودير البلح وغزة وعسقلان . ثم ينزل الخراب والدمار في اللد والرملة . ويتابع الغارات حتى يصبح عند أسوار قلقيلية وأرسوف ونابلس . كما كانوا يقومون من جهتهم ببناء خط دفاعي من الحصون وينشئون عند جسر بنات يعقوب حصناً يقطع الطريق بين دمشق وصفد

وحصناً آخر شمال بحيرة الحولة على جبل هونين يتحكم في مياه الأردن ... وحين خرج صلاح الدين لحماية الفلاحين الذين استخدم الفرنج هذين الحصنين لنهب مواشيهم وطردهم من المنطقة نشبت معركة حامية ربحها صلاح الدين وأصيب خلالها ملك الفرنج إصابات خطيرة عاد بعدها محمولاً في محفة . في حين توفي أحد أمرائه همفري ودفن في حصنه ويقول المؤرخون : « وما أدراك ما همفري . كان يضرب به المثل في الشجاعة والرأي في الحروب » !

كان هذا في ربيع سنة ١١٧٩ وفي يونيو صار صلاح الدين يقوم بغارات يومية عند تل القاضي على الفرنجة وفي معركة عند مرج عيون انتصر فيها وقعت بالصليبيين هزيمة ساحقة قتل فيها كثيرون وأسر عدد من قادتهم وأمرائهم . وتلتها بعد شهرين معركة أخرى هاجم فيها صلاح الدين حصن بنات يعقوب عند الجسر وعزم على فتحه وتدميره . كان الحصن بالغ المنعة . كان عرض حائطه يزيد على عشرة أذرع وتزيد حجارته على عشرين ألف حجر كل حجر منها سبعة أذرع طولاً وعرضاً وكان لا بد لصلاح الدين من تدميره ليجعل الطريق بين دمشق وبين فلسطين المحتلة مفتوحاً ولتصبح دمشق نفسها في أمان من العدوان . وفتحه صلاح الدين في شهر أغسطس وغنم فيه مائة ألف قطعة من الأسلحة الحديدية وشيئاً كثيراً من المؤن وأسر نحو سبعمائة وهدم الحصن حتى سوى به الأرض . وشهد أهل طبرية النيران وهي تلتهم الحصن في جسر بنات يعقوب .

وهاجم أسطول صلاح الدين صور وصيدا وبيروت وعكا وهي قسطنطنية الفرنج ثم هاجم في السنة التالية سنة ١١٨٠ طرطوس وأنزل بها الخسائر الفادحة ... ولم يعد لدى الفرنج شك في نوايا صلاح الدين فاضطر ملك القدس لمهادنة صلاح الدين . وهادنه هدنة تمتد عشر سنوات . انصرف فيها إلى تصفية جبهته الداخلية من المنافقين والمتآمرين . فلما خرق أرناط صاحب الكرك سنة ١١٨٧ هذه الهدنة وأغار على القوافل التجارية وهاجم

سواحل البحر الأحمر يريد الوصول إلى قبر صاحب الرسالة ولم يتحرك ملك القدس لمنعه وهو من أتباعه كان جواب صلاح الدين على هذا الخرق العودة للحرب ...

ونزل بجيوشه المجتمعة إلى وادي الغور واحتل طبرية ولما جاءت الجيوش الصليبية لملاقاته محقها محقاً في معركة حطين وأسر ملوكها وأمراءها وقوادها كالعصافير المبللة عند خيمته وما كان يريد حطين لمجرد النصر فيها وكان يريدها درساً للإنسانية والحضارة يسطره في القدس. ولذلك تابع طريقه بعد حطين في خطوات مدروسة. قام بها أولاً بتصفية جميع القوى الصليبية الباقية في البلدان والمدن والتي قد تتجمع للاعتصام بالقدس. لم يتعجل. بدأ أولاً بعكا وهو يعلم أنها المعقل الأكبر وأكثر ثغور الفرنج حصانة بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي. سار إليها ولاحت أعلامها وقد توافدت عساكر الإسلام إليها من وعرها وسهلها فلما قرب منها خيم وراءها وحاول أميرها الفرنجي الدفاع. ولكن أنى له القوة؟ ما إن وصلت طلائع صلاح الدين إليها حتى انهار وانهارت مقاومته وعرض التسليم وأرسل مفاتيح المدينة لصلاح الدين الذي منح الأمان لأهلها وأطلق أربعة آلاف من أسرى المسلمين كانوا محتجزين فيها.

بعد تصفية إقليم فلسطين الشمالي بين طبرية وعكا نزلت قوات صلاح الدين بالمدن والبلدان الفلسطينية الأخرى كالبرق الخاطف. في بضعة أيام سقطت الناصرة وصفورية في معركة واحدة ثم سقطت قيسارية ثم حيفا وأرسوف على الساحل واستسلمت نابلس وسبسطية في المنطقة الوسطى وسقطت بلدة الفولة وجنين واللجون وبيسان والبصة كما سقطت قلعة تبنين في جنوب لبنان ثم صيدا وصرفند وبيروت وجبيل ثم اتجهت قوات صلاح الدين جنوباً إلى عسقلان فحاصرتها أربعة عشر يوماً وسقطت غزة وبيت لحم والنطرون حتى تعرت القدس تماماً. بقيت وحدها بمن لجأ إليها.

كانت حامية المدينة تريد المقاومة بزعامة قائد اسمه باليان وعرض عليهم

صلاح الدين تسليمها مع الأمان فرفضوا . ثم كرر عرضه فأصروا على الرفض لم يكن سهلاً عليهم التسليم بالقدس بعد حوالي تسعين سنة من الاستقرار فيها وإقامة مملكة تحمل اسمها . فنزل صلاح الدين عليها بعد شهرين من معركة حطين . وبدأ هجومه في الجانب الشمالي منها عند باب العمود . وحمل المسلمون حملة رجل واحد حتى وصلوا سور المدينة ونقبوه . وعرف القائد الصليبي عبث المقاومة فقد كان في المدينة رجل واحد مقابل كل خمسين من النساء والأطفال . فطلب التسليم بالأمان فأجاب صلاح الدين لا أفعل بكم إلا ما فعلتم بأهل القدس حين ملكتموه . أجزي السيئة بمثلها .

فخرج باليان بنفسه يستعطف ويهدد بتدمير المدينة كلها إن كان لا بد من الموت . ولم يكن تهديد صلاح الدين جدياً لأنه وافق على خروج الفرنجة من المدينة بفداء عشرة دنانير للرجل يستوي فيها الغني والفقير وخمسة للمرأة وواحد للطفل وأما الفقراء فيدفع عنهم مبلغ إجمالي قدره ٣٠ ألف دينار ...

وخرج الفرنجة وكان مما أدهش الناظرين أن يروا بطريق القدس يدفع عن نفسه عشرة دنانير ويغادر المدينة بأحمال من الذهب والفضة على العربات وبنفائس الكنيسة التي نهبها دون أن يبالي بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم فافتداهم صلاح الدين نفسه مع العجزة واليتامى من ماله الخاص! ونادى بعضهم بهدم كنيسة القيامة ومعاملة الفرنج بمثل ما عاملوا به المسلمين فنهى صلاح الدين عن ذلك وأمر باحترام الأماكن المقدسة المسيحية والتزام روح التسامح . وسمح لنساء الصليبيين أن يخرجن معززات مكرمات ومعهن أموالهن وأتباعهن وحشمهن وسمح لزوجة الملك الأسير ولأرملة أرناط بالخروج الآمن ...

ثم جمع صلاح الدين هؤلاء الخارجين في ثلاث مجموعات مجموعة قادها الداوية وأخرى قادها الاسبتارية وثالثة قادها باليان وأرسل الجميع مخفورين خوفاً

من أن يتعرض لهم أحد أو يتعرضوا لاعتداءات البدو ... والغريب أن بعضهم تعرض ... ولكن لاعتداء الصليبيين أنفسهم وطردهم أهل طرابلس من مدينتهم ورفضوا دخولهم ...

هما صورتان اثنتان وشتان بين وحشية التعصب الأعمى الصليبي وروح السماحة في الإسلام ! وتلك الأيام نداولها بين الناس !

معركة عكا

عكا هذا الثغر الشامي الهادئ اليوم تجر وراءها في التاريخ سلسلة من المعارك ندر في تواريخ المدن ما يماثلها كثرة . وعنفاً . فصل من فصول هذا التاريخ وقع لصلاح الدين الأيوبي معها وكان مأساة وجرحاً على سمعته التي ترن كالأجراس الملائكية في الجباه . هل نتحدث عنه ؟

بعد معركة حطين التي وضعت غار المجد على رأسه ، وبعد احتلال القدس ، وبعد احتلال المدن الصليبية الأخرى بما فيها عكا ووصول فتوحاته المظفرة إلى إمارة أنطاكية الصليبية وإمارة طرابلس ... بعد كل ذلك كانت قصته المأسوية مع عكا . جيش صلاح الدين كان يتكون من مجموعات محاربة يأتيه بها الأمراء التابعون له ونفقات هذا الجيش هي بدورها مما يدفعون إليه من المال . وبعد حطين والفتوح تناقص هذا الجيش جداً بانسحاب الأمراء كل إلى إمارته وتناقصت الموارد بتقلص الجيش وانسحاب الأمراء .. وما اهتم صلاح الدين أول الأمر فقد سمح للصليبيين المنسحبين من مختلف المدن أن يتجمعوا في مدينة صور . سارت جموعهم إليها زحفاً وعلى البغال والحمير . تخلي المدن والقلاع وتتجه إلى صور . بعد أن أخذ عليها العهد بألا تعود لمحاربته !

بعض المؤرخين اعتبر هذا التسامح خطأً في السياسة وقد صدقته الأحداث فليس لهؤلاء الصليبيين عهد ولا يمين . وحين وجدوا أنفسهم كثرة في صور أغراها اجتماعها فخرجت محاربة تريد استرداد عكا . معتمدة على الإمدادات التي كانت تأتيهم في البحر .

أرسل صلاح الدين يطلب من الأمراء المعونة بالجند والمال لخنق هذه

النكسة قبل استفحالها ولكنه كان يضرب في حديد بارد . كانت الردود بطيئة مترددة أو معتذرة وخاصة في التمويل . ما حسبوا أن قضية عكا تحتاج الكثير من الجهد وأن باستطاعة صلاح الدين قمعها وحده .

سارت حملة الصليبيين (في رجب سنة ١١٨٩/٥٨٥) بعد حوالي سنتين من أحداث حطين . وكانت تساير الساحل ترافقها في البحر المراكب الحربية . وما وصلوا عكا حتى ضربوا عليها الحصار براً وبحراً . ثم وصل صلاح الدين بمن اجتمع له وبالأسطول فحاصرهم في البحر في حين نصب معسكره على تل مشرف وحاصر في البر . فكانت عكا ضمن طوق صليبي بري بحري كامل من ورائه طوق مسلم من مثله ..

وأخذت المناوشات تتصاعد وتمتد ووصلت أنباء الغليان الأوروبي إلى الصليبيين وتحرك الإمدادات فاشتد ساعدهم وازدادوا قوة حين وصلتهم الإمدادات وعرفوا بتحرك ملوك أوروبا للقيام بالحملة الصليبية التي عرفت بالثالثة فالتهبوا حماسة وتصميماً . ورأى صلاح الدين وسمع كل ذلك فبعث النفير إلى مختلف الأمراء ولكن أصداءه لم تكن كما يشتهي فلم يستطع أن يضرب أي ضربة قاضية واضطر لأن يكتفي بتقوية عزائم الحامية المحصورة ضمن عكا ومحاولة إرسال الأمداد بمختلف الوسائل إليها .

وامتد الحصار شهراً وشهرين وثلاثة . وامتد سنتين طويلتين . مل فيها المقاتلون القتال حتى تصادق المحاصرون في الخنادق بعضهم مع بعض والمعارك بين احتدام وخمود واشتداد وهدوء .. وظهرت من الطرفين ضروب من الشجاعة والبسالة جعلت ميزان القوى متكافئاً بينهما : وفي أواخر فترة السنتين بدأ وصول الحملة الثالثة وصلت أولاً حملة الفرنسيين يقودها ملك فرنسا فيليب أوغسطس (الكبير) فهلل الصليبيون لوصولها وزادوا من حملاتهم على أسوار عكا وحاميتها المرهقة .

وأسقط في يد صلاح الدين . لم يكن له من وسيلة تفك الحصار عن

المدينة فقد استنفد في ذلك جهد نداءاته. لم يكن لديه سوى إرسال التعليمات وبعض المال للحامية وكان يتطوع لإيصالها غواص شهم جريء عرفه المعسكر الإسلامي كله باسم عيسى الغواص. كتب المؤرخ صلاح الدين بن شداد عنه فقال :

« ومن نوادر هذه الواقعة ومحاسنها أن عواماً مسلماً كان يقال له عيسى. وكان يدخل إلى البلد (عكا) بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من العدو وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو. وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر وعام في البحر فجرى عليه من أهلكه وأبعد خبره عنا. وكانت عادته إذا دخل البلد طار طير عرفنا بوصوله. فأبطأ الطير فاستشعر الناس هلاكه. ولما كان بعد أيام بينا الناس على أطراف البحر في البلد عكا وإذا بالبحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً. فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام. ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب. وكان الذهب نفقة للمجاهدين. فما رؤي من أدى الأمانة في حال حياته وقد أداها بعد وفاته إلا هذا الرجل» !

بعد وصول الفرنسيين عمد الصليبيون إلى صنع الأبراج الخشبية العالية وتركيبها على عجلات ودفعها حتى توازي الأسوار ويصعد إليها المحاربون. واستطاع المدافعون إحراق البرج الأول الذي صنعوه بمواد مزجها وأعدها لهم مدافع دمشقي ثم ألقى فيها النار فالتهب البرج وشوى أجساد من كانوا عليه يتسلقون ثم صنعوا برجاً ثانياً فصب مدافعو عكا عليه من هذه المادة النارية ما أشبعوه بها ثم صبوا عليه النار فاشتعل...

في هذه الأثناء كانت الأخبار الخارجية تصل المسلمين وهي مقلقة جداً فالحملة الألمانية التي جاءت بها الحملة الصليبية الثالثة دبت الرعب في الشام كله. تحدث الناس أنها تزيد على مائة ألف ألماني يقودهم الإمبراطور فريدريك بربروسا (ذو اللحية الحمراء) وقال ابن الأثير عن هذه الحملة أنها لو وصلت

لكان يقال كانت هذه بلاد المسلمين. ولكن شاء القدر الإلهي أن تمر هذه الحملة عبر نهر سالف في أرمينيا لكن الإمبراطور الألماني نفسه غرق وهو يعبر النهر. وذهبت محاولات إنقاذه عبثاً في وادي النهر مما جعل الجيش كله يضطرب ويتشتت ورجع غالبه إلى ألمانيا أما بقيته فقد امتطى السفن إلى عكا بقيادة ابنه فريدريك دو سواب ولكن هذا الابن مات بدوره على الطريق فلم يصل عكا من ذلك الجيش العظيم سوى عدة آلاف.

خلال هذه الملحمة الألمانية وصل إلى عكا أخيراً القسم الثالث من الحملة الثالثة. ووصلت الحملة الإنكليزية يقودها ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد. بعد أن عبثت عاصفة بأسطوله قرب قبرص فاحتلها ثم جاء عكا برجاء من يسمي نفسه ملك بيت المقدس والذي كان صلاح الدين قد أسره وسجنه ثم أطلقه على ألا يرفع سيفاً في وجوه المسلمين!

وانقلب بوصول الإنكليز ميزان القوى تمام الانقلاب لمصلحة الفرنجة الصليبيين وأضحت جهود صلاح الدين عبثاً في فك الحصار عنها لاستحالة نجدتهم داخل المدينة واستحالة الظفر على الصليبيين في معركة خارجها. وفي ظهر يوم الجمعة سنة ٥٨٧/يوليو ١١٩١ فيما كان صلاح الدين يستشير خاصته فيما ورد عليه من عزم المحصورين على الاستسلام والمصالحة ارتفعت الأعلام الصليبية على أسوار مدينة عكا معلنة احتلالها. وفوجئ المسلمون وارتاعوا فما لهم إلا أن يقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

كان من شروط الصلح خروج المدافعين دون سلاح من عكا وخرجوا ولكن الجند الصليبي انقض عليهم وعلى المدينة. وغشى الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة ووقع في العسكر النواح والعويل والبكاء ووقف صلاح الدين على مقربة من الأسوار وقد هاله سقوط المدينة وتدمير أسوارها وأبراجها وذبح أهلها المجاهدين وأخذ يبكي ويلطم رأسه وينتف لحيته الشائبة ويبكي بالدمع الغزير وما أمر بكاء الأبطال.

وأخيراً ما الرأي ؟ هل كان صلاح الدين محقاً في تسامحه مع الصليبيين . وهم المسؤولون عن غدرهم وقلة وفائهم أم أنه غير محق لا سيما وقد دفع المسلمون من بعده ثمن هذا التسامح أكثر من مائة سنة من القتال . حتى طردوا الصليبيين ؟

نقفور والرشيد

في ربيع سنة ١٦٣هـ/٧٨١م كان باب الشام، أحد أبواب بغداد يموج بالبشر. الازدحام بالمناكب والأرجل وعلى الأكتاف على أشده. كانوا ينتظرون موكب الخليفة المهدي الذي سيخرج لوداع ابنه الشاب هرون الرشيد ذي السبعة عشر عاماً للجهاد على جبهة الروم. الجيش بدبابده والدروع وجعاب النبال والمجانيق وبكبار القادة كان صفوفاً متراصة ينتظر. وأطل موكب الخليفة فهللت الجموع وكبرت وتعانق الأب مع ابنه الأثير. ثم قال له:

ـــ سر على بركة الله.

لم تكن هذه أول حملة حربية ضخمة تخرج من بغداد العاصمة التي لم يمض على بنائها ١٥ سنة ولكنها كانت أيضاً أول حملة حربية ضخمة يخرجها بنو العباس لقتال الروم. وقد اختار لها المهدي كبار القادة عنده وجعل على رأسها ابنه هارون ليعطيه السمعة ويبرزه فيما بعد ولياً للعهد قبل ابنه الأكبر الهادي. وكانت هذه الحملة أول مغامرة حربية للرشيد!

سارت الحملة على حوافي الفرات إلى منبج. ثم عبرت جبال الأمانوس إلى كيليكيا. كان على عرش الإمبراطورية البيزنطية الإمبراطورة إيرين وهي أول امرأة تنفرد بحكم هذه الدولة. لم تتول على أنها وصية فقط على ابنها الصغير السن. ولكن تولت الحكم «كإمبراطورة» كما كانت تلقب نفسها ولم تكن محبوبة من الناس وبخاصة في آسيا الصغرى. وقد قاسمت ابنها قسطنطين السادس الحكم بالرغم عنه. وكان هذا الابن من الضعف بحيث سلم لأمه إدارة الدولة وإن كان في سبيل المحافظة على سلطانه أمر بسمل عيون عمه نقفور

المتطلع للعرش وقطع ألسنة أعمامه الآخرين وبسمل عيني قائد ثغر الأرمنياق . فزاد ذلك في بغضه لا سيما حين طلق زوجته وتزوج من إحدى وصيفات القصر . وتوجها إمبراطورة في حفلات باذخة ! مما جعل الكنيسة من بطريقها إلى أصغر قساوستها من أعدائه ... فلم يرحمه أحد حين سملت أمه إيرين عينيه وعمره ٢٧ سنة عام ٧٩٧ ! في الحجرة الأرجوانية التي شهدت مولده وانفردت بالحكم !

وتوغل الجيش الإسلامي في قلب آسيا الصغرى القسطنطنية مشغولة بأحداثها الداخلية وبالرغم مما أرسلته من النجدات والأمداد إلى قائدها المهدد بالهجوم الإسلامي في تراقسيون فإن هذا الهجوم كان من العنف والقوة بحيث زلزل الجيش الرومي . وطوق عدداً من كتائبه وأطاح بالفرسان ولم تدع الدفعات الكثيفة من الجند الإسلامي فرصة للجند الرومي كي يسوي صفوفه . كانت النبال الإسلامية تحصده حصداً وتطيح بقادته حتى تشتت شمله في هزيمة مجلجلة .

وركضت الأخبار إلى الإمبراطورة التي خشيت أن يتابع المسلمون الزحف إلى القسطنطنية فلا شيء يمنعهم من ذلك . فأسرعت تطلب الصلح . وفرض الرشيد شروطه على قادة الروم الذين حملوا عرض الصلح وأولها أن تدفع الإمبراطورية البيزنطية لبغداد سبعين ألف دينار سنوية وأن تستمر الهدنة ثلاث سنوات تتجدد بعدها . وقد تجددت مرة أخرى وهدأت جبهة الروم بذلك سنوات . وتخللها نقض للهدنة وعودة إليها مرات . لكن انقلاباً جرى في القسطنطنية أطاح بالإمبراطورة إيرين سنة ٨٠٢ وأتى بنقفور إمبراطوراً على العرش وأول ما فعله أنه رفض متابعة دفع الجزية بل إنه طالب ، حسبما تحكي المصادر العربية برد ما كانت دفعته الإمبراطورة إيرين من الجزية . ويروي التاريخ أن نقفور كتب : إلى هارون ملك القسطنطنية أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق . فحملت إليك من أموالها

ما كنت خليقاً بحمل أمثاله إليها . لكن ذلك ضعف النساء فإذا وصلك كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموال وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك . فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يكن أحد ينظر إليه . دون أن يخاطبه . ثم دعا الرشيد بدواة وكتب على ظهر الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام . وعلى الرغم من أن الأيدي قد لعبت بصيغة الكتاب على هذا الشكل المهين فإن الكتاب اعتبر عند الرشيد إعلاناً للحرب وأمر من فوره بإعداد الجيوش .

كان الرشيد يستقر إذ ذاك في الرقة على الفرات بشمال الشام وكان يفكر في أمر البرامكة ومع ذلك فقد استعد للغزو وتحركت ألويته لإنزال الهزيمة بالإمبراطور البيزنطي سنة ٨٠٣ في وقت كان جانب كبير من جيش الروم مشغولاً بثورة قائد يدعى باردانس دانت لزعامته جميع ثغور آسيا الصغرى . ولم يكن الإمبراطور نقفور رجل حرب ولا من الأسرة الملكية ولا من رجال الكهنوت ولكنه موظف شغل وزارة المالية وثورته نجحت لإفلاس الخزينة ولبغض الناس للإمبراطورة إيرين . لم يستطع إيقاف الحملة الإسلامية التي توغل فيها الرشيد عبر منطقة كيليكيا واجتاز دروبها حتى بلدة هرقلة . فأرسل إليه نقفور يصالحه ويعرض دفع الجزية السنوية . فعاد الرشيد مسرعاً إلى الرقة . ومنها ذهب إلى الحج بجميع أركان الدولة وقد رسم خطة كاملة للخلاص من البرامكة .

على أنه لم يكد ينتهي من هذه المشكلة بالنكبة المعروفة حتى وردت الأنباء بأن الإمبراطور نقفور نقض العهد . وخشيت حاشية الرشيد إبلاغه الخبر حتى دخل إليه شاعره يقول :

نقض الذي عاهدته نقفور   وعليه دائرة البوار تدور

فانتفض الرشيد وقال : أو قد فعل؟

وأمر بالجيش وزحف به عائداً للإغارة من جديد على الأراضي

البيزنطية . كان الجيش ضخماً يبلغ حوالي ١٣٥ ألفاً من المرتزقة النظامية فضلاً عن عدد كبير من المتطوعة فاستولى على أعداد من الحصون المنيعة على الحدود واخترقها فاحتل هرقلة وغنم ما بها من مستودعات الحبوب ثم استولى بالسيف على بلدة طوانة على طريق قيصرية واتخذها قاعدة عسكرية يرسل منها سراياه وجنده في جميع الاتجاهات كالمروحة وأرسل قوة كبيرة إلى أنقرة يفتتحها . وبدا في لحظة من اللحظات أن طريق الرشيد إلى القسطنطنية غدا مفتوحاً فبعث نقفور يعرض دفع خمسين ألف دينار مقابل انسحاب القوات الإسلامية .

ويبدو أنه لم يكن في مشروع الرشيد ولا في نيته أكثر من تأديب الإمبراطور وتأمين الحدود ولذلك قبل العرض على أن يكون المبلغ فدية عن نقفور وابنه وبطارقته وسائر الروم . فقد اعتبرهم الرشيد أسرى . وجعل فدية الإمبراطور أربعة دنانير . وفدية ابنه ثلاثة . وفدية كل بطريق ديناراً واحداً مبالغة في الإهانة ولم تعرف جبهة الإمبراطورية البيزنطية الهدوء إلا بعد موت الرشيد سنة ٨٠٩ واختلاف ولديه .

خلافهما ترك الجبهة تنعم بالسلام سنوات وسنوات ...

حملة الروم على الشام

ذات يوم من سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م . جاء وفد من أهل الجزيرة معولين مستنفرين يقصدون باب الخليفة الطائع لله ــ صاحوا وبكوا أمام الأبواب ومنعهم الحرس من الدخول فانقلبوا إلى الجوامع والناس في موكب حزين ــ نحن أهل نصيبين وديار بكر . لقد سبى الروم نساءنا وأحرقوا بيوتنا وغنموا أموالنا وخربوا حقولنا والمزارع فيا غوثاه . يا للإسلام والمسلمين .. ما تحرك أحد لنصرتنا . أما من قلب يتحسر ؟.

وكان الناس يحوقلون ويعوذلون ثم تجمعت جموع منهم مشت في شبه مظاهرة ضخمة إلى دار الخليفة غاضبة تصيح وحاولت الهجوم عليها فأغلقت الأبواب دونهم فوقفوا يسمعون الخليفة ما يكره.ثم تقرر أن يكتب إلى أبي تغلب ابن الزاد الحمداني بالاستعداد ويزود بما يحتاج من المؤن والعلوفة للجيش . وهو صاحب ديار بكر على أي حال . وعليه الدفاع .

في السنة التالية أغار قائد القوات البيزنطية في الشرق واسمه مليح الأرمني مرة أخرى على أعالي الفرات وتوغل في الجزيرة . ولم لا يتوغل وليس من سيف يمنعه بعد أن نهب في السنة الماضية ديار ربيعة وديار بكر ؟ إنه يتوجه الآن لنهب وإحراق بلدة آمد . وكان يحكمها أبو تغلب الحمداني فاتفق أخوه مع قائد ابن عمه أبي الهيجاء على الاجتماع لحرب هذا الدمستق الرومي .. وتحركت الخيل والرجالة بينما كان إمبراطور الروم قد قضى سنتين يجهز لهذه الحملة وينفق عليها ويحشد إليها الجند والعدد . واطمأن إلى أنها ستكتسح شمال العراق.وقد جرت الموقعة على منابع نهر دجلة قرب مدينة ميافارقين في يوليو سنة ٩٧٣

(رمضان سنة ٣٦٢) . وكان الدمستق في كثرة من الجند والعدد كبيرة تزحف على أطراف الوديان والسفوح الجبلية . فتغطيها سواداً . ولكن اللقاء كان في مضيق بين الجبال لا تجول فيه الخيل . ولم يكن الروم على استعداد للحرب فقد كانت هجمة الجيش الإسلامي مفاجئة لهم . وضاق بالفرسان المجال لا تستطيع أن تتعاون مع الرجالة الذين نزلت بهم السيوف والرماح تطعن صدراً وتقطع يداً وتزجي التروس والرؤوس . وتلصق الأحشاء بالصخور . وتراجع الجيش الرومي يخرج من المضيق الجبلي فقطع عليه الجيش المسلم الطريق . وتصيد الهاربين أسرى . وكان من بينهم مليح الدمستق نفسه وأعداد من ذوي الرتب العالية في الجيش يبلغون الأربعين سيقوا إلى آمد مع باقي الأسرى مكبلين بالحديد !

وعلى الرغم من أن الدمستق نفسه وأصحابه لقوا من أبي تغلب الحمداني المعاملة الطيبة إلا أنه لم يستطع أن يقرر فيهم أمراً وأرسلهم إلى بغداد . ومرض الدمستق وبالغ أبو تغلب في علاجه لكنه لم يلبث أن فارق الحياة سنة ٣٦٣ ! أما ما فتحه من البلاد فعاد إلى المسلمين .

حين عرف الإمبراطور واسمه حنا ترمسكيس بما كان ، أقسم أن ينتقم لقائده الذي فقده .. ومع أن حلب الحمدانية قد أضحت تدين بالولاء لبيزنطة ومن امتداد الحدود البيزنطية ضمن الأراضي الإسلامية من كيليكيا إلى أنطاكية بما في ذلك الثغور الشامية : طرطوس والمصيصة وأذنة التي احتلوها في حروب سابقة فقد ظل الحقد الرومي مشتعلاً في الصدور . كانت الأسرة الحاكمة في القسطنطينية وهي الأسرة المقدونية قد انقلب عليها قادة الجيش واحداً بعد الآخر وكل يجرب حظه على الحدود وأهمها الحدود الإسلامية ويسلخ قطعة منها . مما جعل مناطق الحدود في حالة دائمة من التوتر والرعب . وكان حنا ترمسكيس آخر هؤلاء القادة المغامرين . وكان مشروعه للانتقام أن يدخل الشام ويسترد بيت المقدس !!

ولمن كانت بلاد الشام وبيت المقدس؟ كانت حتى ما قبل سنوات معدودة تابعة للخلافة العباسية في بغداد ولكنها تبعت منذ سنة ٣٥٨ للخلافة الفاطمية التي جاءت من أفريقية (تونس) فاحتلت مصر واستقرت في القاهرة وفتحت الشام وكان خليفتها المعز لدين الله قد وصل سنة ٣٦٢ لتوه إلى عاصمته الجديدة البناء ونزل فيها...

ومع أن الفاطميين كانوا يشكلون خطراً جديداً على الروم باحتلال الشام إلا إن الإمبراطور الرومي فكر في أن ينال حصته من هذه الفوضى. فوضى انتقال الحكم في الشام من دولة إلى أخرى. وكل من الدولتين عدوة له! هل كان تفكيره في القدس فكرة صليبية؟ إن كان ذلك فإنه يعني أن الحروب الصليبية قد بدأت واندلعت في الشام قبل أن تندلع في إسبانيا وصقلية بمائة سنة.. والأرجح أن مشروع الإمبراطور الرومي لم يكن يحمل هذه الفكرة ولكنه يحاول استرداد أرض كانت قبل أربعة قرون من أملاك بيزنطة والروم! واستعد إمبراطور الروم كل الاستعداد لمشروعه الجديد واستعان عليه بحلفاء من أوروبا جعلته شديد الشبه بالحملات الصليبية إذ اتفق مع البنادقة، تجار البندقية وبيزا وأمالفي بناء على دعوة الدوتشه كبير البندقية على منع أي تاجر أوروبي من بيع الأخشاب أو السلاح الحديدي للمسلمين. فلا خشب للسفن ولا دروع أو تروس أو سيوف أو رماح. وهذا يدل على أن هذه البضاعات كانت رائجة بين الشرق والغرب. وعلى الرغم من المنع فإن التجار الأوروبيون لم يراعوه وظلت المرابح أهم لهم من قرار الدوتشه والإمبراطور!

حمل الإمبراطور تزمسكيس أولاً على الجزيرة سنة ٩٧٤ حيث هزم جيشه من قبل بقيادة مليح. واتصل هناك بملك الأرمن آشوت الثالث. فلقيه مع سائر أمرائه بثمانين ألف مقاتل. ضمن الإمبراطور ولاءهم وهاجم في طريقه ميافارقين وأحرقها. ثم سار إلى نصيبين فاستباحها بعد أن هجرها سكانها إلى

الجبال . وأقام بها حتى فاوضه صاحبها الحمداني على جزية سنوية يدفعها بوصفه تابعاً له ...

في ربيع ٩٧٥ تحركت كتائب الروم أرتالاً تهاجم الشام . نزل أولاً في أنطاكية ، وكانت تابعة له . وقضى الشتاء مع جنده فيها وفي ربيع سنة ٩٧٦ نزل وادي نهر العاصي حتى حمص ولم تكن حاميتها بالكثيرة ففتك بها ثم اخترق سهل بعلبك وعطف منه إلى دمشق فخرج إليه أهلها يرجون الأمان واتفق معهم على دفع ستين ألف دينار كل سنة . ثم اتجه إلى بانياس المطلة على بحيرة الحولة ومنخفض الغور فاستولى عليها . وواصل المسير إلى طبرية فعين لها حاكماً من الروم ثم توجه إلى عكا فأخذها ثم إلى قيسارية ... في هذا الطريق كله لم يرتفع في وجه جيشه عصا . ولا ظهر جندي فاطمي . وكانت الشام للفاطميين يومذاك . الحاميات الفاطمية هربت جميعها إلى الثغور البحرية تختفي وراء أسوارها . وتحتمي وتنتظر المدد من البحر ! ...

وبدا للإمبراطور الرومي أنه أوغل أكثر مما يجب في الشام وترك طريق العودة مفتوحاً لمهاجمة ما يأتي من القوات الفاطمية إلى الثغور الشامية التي تركها من اللاذقية حتى قيسارية .. وفكر طويلاً قبل أن يقرر العودة إلى هذه الثغور . رجع فاحتل بيروت وأسر أميرها نصراً الخادم وحمله إلى بيزنطة معه . ثم نزل على طرابلس فقاتلها القتال العنيف فلما استعصت تركها بعد أن دمر جنده حقولها وبراريها . ثم استولى على جبلة واللاذقية ... فخلص له الساحل الشامي كله مع الداخل ...

تصور الإمبراطور أنه ضم الشام إليه ولم يبق إلا أن يرتاح في بيزنطة ليعاود الهجوم في فلسطين ولكنه لم يعاوده أبداً لأن مرض التيفوس افترسه في مطلع سنة ٩٧٧ وعادت بلاد الشام لأصحابها المسلمين

وإذا قيل قديماً إن لله جنوداً من عسل فإن لله جنوداً أيضاً من قمل !

الغزو الأردماني

عناء عناء وحرب بعد حرب كانت حياة الأندلسيين في أرض الأندلس. هذه الأرض التي تحسبها فردوساً حالماً وآفاق نعيم وغناء، كانت لا تكاد تنقطع فيها قعقعة السلاح. كانت موسيقاها الحقيقية صليل السيوف وخبب الجياد على السنابك. ولمَع الرماح في الآفاق. كل هزة سماح اهتزت فيها كان ثمنها قتيل. وكل كلمة في موشح كان ثمنه شلواً يرتمي وجمجمة تتدحرج! كل جبروت الأوروبيين ووحشيتهم فيما يسمونه بالقرون الوسطى كانت تنصب على الأندلس. تجتمع على ذلك الكنيسة الحاقدة من جهة والأرستقراطية الجاهلة من جهة أخرى والشعوب الهمجية من جهة ثالثة...

وهذه إحدى القصص....

ذات ليلة من أواخر سنة ٢٢٩هـ/٨٤٤م. ظهرت على أمواج المحيط الأطلسي تجاه مدينة لشبونة العربية (أشبونه) كوكبة كبيرة من الأشرعة البيضاء المربعة كأنما ملأت البحر طيراً جوناً من تحتها مراكب ضخمة تزيد على الثمانين تجري بقوة إلى الأمام والخلف. ضيقة العرض ولكنها بالغة الطول ومن حولها قوارب صغيرة ضيقة من مثلها. تقدم الموكب إلى الساحل ولهم رطانة عجيبة تشبه الدوي. القلائل الذين كانوا من الجند أو الناس رأوا رؤوساً شقر الشعور زرق العيون تغطي أجسامهم الفراء وجلود الذئاب يندفعون كالصواعق نحو المدينة. وما اجتازوا أبوابها حتى علا الصراخ وجندلت القتلى واختلطت صيحة المنهوبين والمخطوفين بنداءات الاستغاثة وحشرجات الجرحى.

ما كان أحد يعرف من هم هؤلاء؟ ولا من أين أتوا على غرة. وفاجأوا

الآمنين وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ثم انسحبوا إلى مراكبهم فساقوها إلى بلدة قادس فكرروا الغزوة المدمرة ثم إلى شذونة وهي موانئ البحر. وأطمعهم ألا مقاومة تردهم فدخلوا نهر الوادي الكبير وفاجأوا المدينة الكبرى أشبيلية فاحتلوها قسراً واستأصلوا أهلها قتلاً وأسراً سبعة أيام بلياليها...

ووصل الخبر أمير الأندلس عبد الرحمن الثاني فنادى في الخيل تجتمع إليه من كل فج في قرطبة. وفي هذه الأثناء كان هؤلاء الغرباء قد فتكوا بجميع البلدان المحيطة بأشبيلية ثلاثة عشر يوماً. يقتلون الرجال ويسبون النساء ويأخذون الصبية. وكانت لهم مع المسلمين في كل موقع ملاحم انهزم فيها المسلمون. وقتل منهم ما لا يحصى.. قبل أن يعودوا إلى مراكبهم ويلحق بهم الجيش الإسلامي وينصب عليهم المجانيق ويقتل منهم حوالي ٥٠٠ علج ويصيب لهم أربعة مراكب بما فيها من أثقال الغنائم فيحرقها... ولكنهم ظلوا على عيثهم ونهبهم بعد ذلك مائة يوم في البلدان والقرى قتل فيها منهم خلق كثير وأحرق من مراكبهم أربعة وثلاثون مركباً. وعلق منهم في أشبيلية على الأعواد عدد كبير وقتل قائدهم. ورفع منهم في جذوع النخل التي كانت بها مئات. حتى انقطع خبرهم...

من هم هؤلاء؟ تسامع الناس أنهم الأردمانيون وأنهم مجوس.ولم يكونوا من المجوس عبدة النار ولكن هكذا سماهم الأندلسيون لأنهم شعوب بدائية وليست مسيحية. ونعرفهم اليوم باسم النورمانديين وباسم الفايكنغ وهم سكان الدانمرك خاصة والسويد والنروج! كانوا قد مهروا جداً في صنع السفن التي تتسع الواحدة منها إلى ما بين أربعين ومائة محارب وقد حذقوا ركوب الموج فهو أشبه بالوطن لهم. وأما عن الشدة والبأس والجلد مغالبة الماء والعواصف فلا تسل. كانوا يطوفون السواحل الأوروبية تجاراً فإذا أحسوا ضعفها نهبوها وسبوا النساء والأطفال... ووجدوا هذه المرة غرة من الأندلس ففتكوا بها فتكة المائة يوم في نكبة ما عرفتها من قبل. كان من نتائجها: تشديد الحراسة على

طول السواحل وبناء أسطول أندلسي قوي يحميها سوراً لأشبيلية... ومن الطريف بعدها أن ملك الدانمرك بعث سفارة إلى أمير الأندلس يطلب الصلح وحسن العلاقة!

وقبل الأمير السفارة وأجاب عليها بسفارة مماثلة لها قصة أخرى من الطرافة والعجب بمكان على رأسها رجل جميل شاعر لسن حكيم حاضر البديهة يعرف بيحيى الغزال... ولعلنا نقصها ذات يوم.

لكن حين مات ملك الدانمرك سنة ٢٤٠ عاد المجوس الأردمانيون إلى ديدنهم في هجمة أخرى سنة ٨٥٩/٢٤٥م. في اثنين وستين مركباً فألفوا البحر محروساً ومراكب الأندلس جارية فيه ما بين حائط الفرنج من الشرق إلى أقصى حائط غاليسيا في الغرب. وتجرأ مركبان منهم على اختراق الطوق فتلقتهم المراكب المنصوبة في بعض مراسي مدينة باجة فدمرتهما وغنمت ما فيهما من مال ومتاع وعدة وسبي... لكن المجوس كانوا قبل ذلك قد انحدروا إلى الجزيرة الخضراء في الجنوب غربي جبل طارق فدخلوها ونهبوها وأحرقوا المسجد الجامع وهاجموا مدينة نكور على البر المغربي ففعلوا بها الأفاعيل قتلاً وسبياً وعادوا إلى مصب نهر الوادي الكبير يدخلونه فاستنفر أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن الجند والناس. فهرب المجوس في البحر المتوسط إلى سواحل فرنسا الجنوبية يغزونها وينهبون. وقضوا الشتاء هناك. وحين عادوا خرج لهم الأسطول الأندلسي بالنفاطات وأصناف العُدة البحرية والكثيف من الرماة والنشاب فأصابوا منهم مركبين يحملان الأموال الكثيرة والأمتعة... ثم أصابوا مركبين آخرين فأحرقوهما...

كان على الأسطول العربي قائدان أحدهما ابن شكوح والثاني خشخاش. وحمي المجوس على خشخاش لما فتك بهم فأحدقوا بمركبه وضاربهم في صدره دراكاً حتى استشهد. ومضت مراكب المجوس خائبة عن طريق المحيط الأطلسي. بعد أن خسروا في هذا الهجوم الثاني ما يزيد على أربعين من

المراكب عدا خسائرهم من الرجال ... وفشلت هذه الحملة الثانية ... التي استعملوا فيها الخيل أيضاً في الهجوم والهرب .

لكن الأردمانيين أعدوا أنفسهم للثأر ولم تمض سنتان حتى ظهرت مراكبهم في البحر الأندلسي . وشدد أمير الأندلس على حرس السواحل باليقظة والاحتراس والتحفظ فما هي إلا هجمة دمرت فيها عند الجزيرة الخضراء قوتهم ، حتى انكفأوا ، بعد أن لاقوا الهول وفقدوا أربعة عشر مركباً ! وبعد أن حاولوا النزول عند مصب الوادي الكبير المؤدي إلى أشبيلية ردتهم قوى القواد كليب بن محمد والحاجب عيسى بن أبي عبده وعبد السلام بن عبد الله فهربوا ... إلى غير عودة ! ... وغاب سوادهم وأشباح قلوعهم عن شواطئ الأندلس قرناً من الزمان عادوا بعده بقلوعهم المربعة في ثلاث هجمات فشلت جميعاً وتكبدوا فيها أفدح الخسائر !

الطريف في الأمر أن بعض هؤلاء الأردمانيين بقوا في الأندلس . سكنت جماعة منهم في ضواحي أشبيلية وأسلمت واحترفت تربية المواشي وصناعة الجبن فكانوا ينتجون أحسن أنواعها ويذكر أحد المؤرخين العرب أن مدينة شريش وهي بنت أشبيلية وواديها ابن واديها وأن مما اختصت به إحسان الصنعة في المجبنات وطيب جبنها . ويقول أهل الأندلس : من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم ...

ولكن كم دفعت الأندلس ثمن هذا الجبن ؟

سقوط طليطلة

إذا كنت في مدريد فلا بد أن يغريك وكلاء السياحة بزيارة طليطلة. المدينة الدهرية القديمة إنها تقوم على تل مرتفع يغسل أقدامه في وادي نهر التاجة وتطوقها البساتين والخضرة الكثيفة، وتستيقظ في قصبتها القديمة المسورة ذات الأزقة الضيقة والمنعرجات كل أشباح الماضي الذي عاشته. فأنت تمشي في موكب منها على الدروب المرصوفة بالحجارة، والتاريخ يمشي معك فلا يفارقك حتى تخرج من السور القديم القائم وتغلغل في بحر الخضرة..

هذه المدينة كانت في العصر القديم وثنية ثم صارت نصرانية ثم مسلمة ثم نصرانية مرة أخرى... ولكنها كانت على الدوام مدينة هامة جداً وموقعاً استراتيجياً خطراً... وعاصمة للقوط قبل أن يفتحها العرب وتصبح مسلمة على مدى ٣٩٤ عاماً ثم سقطت بيد الإسبان.

كيف سقطت؟ تلك هي القصة:

كان ذلك في القرن الخامس للهجرة وهو عصر ملوك الطوائف في الأندلس.. وما أدراك ما الطوائف: هي مشائخ مدن مشتتة وأمراء إذا سمت همة بعضهم سمت إلى السطو على أرض جاره المسلم. وإن دعوتهم للوحدة أعمتهم الأنانية فلسان حال كل منهم رب أسألك نفسي!! وتمسك بكرسيه وأخذ به:

.... أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

وتفرقوا شيعاً فكل محلة فيها أمير المؤمنين ومنبر!!

واتخذوا من الألقاب الضخمة ما يعدلون به وضاعة أمرهم وقلة مروءتهم

فهذا الناصر وذاك المنصور وثالث هو المعتمد ورابع هو المظفر حتى قال أحد الشعراء:

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

سقطت طليطلة من أيدي المسلمين (سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥) في يد ملك قشتالة وليون ويعرف لدى العرب بالأدفنش وهو الفونسو السادس... وليس تاريخه ولا تاريخ أسرته بالمشرف فقد قتل اثنان من إخوة جده في الخلاف على الحكم. واغتيل ابن عم أبيه يوم زواجه في الكنيسة. واغتيل أخو الفونسو نفسه شانغه وهو أول ملوك قشتالة اغتيالاً وكان يطارد الفونسو الذي ما إن وصل إلى الحكم حتى خاصم أخاه الثاني وسجنه ١٧ سنة. أليس هذا بتاريخ مشرف للأسرة الدموية؟.. لكن هذا الشرف لم ينته بعد فله بقية:

يوم انتصر شانغه على أخيه ألفونسو (الذي سوف يعرف بالسادس) قبض عليه أخوه وسجنه في دير ساهاغون. ولكنه تمكن من الهرب ولجأ إلى طليطلة التي كان يحكمها يحيى بن اسماعيل من آل ذي النون. ويلقب بالمأمون. ورحب يحيى بالأمير القشتالي اللاجئ. وبالغ في إكرامه وأنزله داراً مجاورة لقصره وجعل له داراً أخرى خارج المدينة بين الحدائق تكون متنزهاً له ولمرافقيه. وقضى ألفونسو في طليطلة تسعة أشهر. وكان يحيى ذو النون كمن يربي في كمه الأفاعي والعقارب دون أن يدري لأن هذا اللاجئ كان يدرس في هذه الفترة أحوال المدينة ومنافذها ليجزي ذا النون أحسن الجزاء على حسن معاملته وعلى المبالغة في ذلك. أكان ذلك نوعاً من الغفلة. أم كان ضرباً من الخوف؟ لست تدري فإنهم ملوك الطوائف وليس بين الغفلة والعمى والخوف وحب الإمارة من حد فاصل لديهم.

واتفق أن غرسيه (شقيق ألفونسو) ذهب سنة ٤٦٥ للاستيلاء على بعض أملاك أخته فاغتاله أحد الفرسان بتدبير منها. وخلا عرشه. فاستدعوا

له ألفونسو الذي لقبوه بالقوي لشجاعته وجرأته فرحل عن طليطلة مغتبطاً بما ناله، وفي منتهى التكريم لم يطلب منه المأمون إلا الصداقة. وقطع ألفونس ما شاء من العهود للمأمون غير أنه لم يكن ينوي الوفاء بشيء منها... فما إن صار ملكاً على قشتالة ومعها مملكة ليون وجليقية. أي صار صاحب أكبر مملكة تجاه العرب في شمال الأندلس، حتى كشف عن حقيقة طبعه المحتال حتى بالنسبة لأخيه الصغير غارسيه فقد دعاه للتفاهم فقبض عليه وسجنه سبع عشرة سنة. والتفت إلى توسيع مملكته على حساب آل ذي النون الذين آووه...

كان المأمون قد توفي وخلفه حفيد تسمى بالقادر وليس بالقادر ولا القدرة من صفاته. ومنذ سنة ٤٧٠ صارت طليطلة شغل الفونسو الشاغل. غارات بعد غارات على حقولها وزروعها وحصونها يوسعها سفكاً للدماء وتخريباً للزرع والضرع. كان مطلعاً على عورات المدينة ولذلك كانت ضرباته موجعة ويذكرون أنه استمع ذات يوم وهو متظاهر بالنوم حديث المأمون مع وزرائه في الدفاع عن المدينة وأجاب بعضهم أن النصارى الإسبان لا يستطيعون اكتساح مدينة لها مثل هذه الحصانة إلا إذا قضوا سبعة أعوام في تخريب أرباضها وانتساف مؤنها وإلا تكن هذه الرواية حقيقة فهذا هو ما حققه الفونسو بالفعل. حتى افتقرت المدينة وبلغ جنود ألفونسو في الهجوم أسوارها... ومعهم حملات صليبية أرسلها البابا ومتطوعة صليبيون حرضتهم الكنيسة في فرنسا وألمانيا...

كل ذلك وصاحبها القادر (جداً) لا يقدر على شيء يلامس صوت استنجاده آذان ملوك الطوائف الآخرين... ولكنه «لا يلامس نخوة المعتصم!» ما أدرك واحد منهم قصة الثور الأبيض والثور الأسود في كليلة ودمنة إذ تآمر الأسد مع الثور الأسود قال: إن الأبيض يفضحنا ببياضه في الغابة فدعني آكلة فقال دونك. فلما فرغ منه التفت إلى الأسود يفترسه فقال الأسود:

لا جرم لقد أكلت يوم أكل الثور الأبيض. ظل أمراء الطوائف فاغري الأفواه جبناً وغفلة وتفاهة كل ما يجري على جارهم اليوم لن يجري عليهم غداً. وأغرب من ذلك أن بعضهم ارتمى على أعتاب الأدفنش يعرض الخضوع ويطلب العون على زملائه بذلة ماعرفها مسلم قط. ما فهموا أن هذا الطاغية لا يفرق بين طليطلة وغيرها من مدن المسلمين في الأندلس فكلها غنائم جاهزة للذبح! واحد فقط هزته الأريحية وهو حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله أرسل بعض المدد ولكن بعد أن سبق السيف العذل!

وحوصرت المدينة أشد الحصار حتى باتت على حافة المجاعة فاستسلمت. دخلها ألفونسو بالأمان ضامناً لحرية شعائرها ودينها وحرمة مساجدها. لكن ذلك لم يدم سوى شهرين وحول مسجد المدينة إلى كنيسة بالقوة وحطم المحراب ليقام الهيكل مكانه وحدث من شهد هذه الواقعة أن جند الفونس دخلوا الجامع وفيه الشيخ المغالي يدرس طلابه وأطاف به الطواغيت يقولون عجل واخرج فكان يشير إلى تلميذه الوحيد الذي بقي أمامه أن أكمل. ثم قام والحسرة ترهقه فسجد عند المحراب واقترب وبكى ملياً وانتحب. والجند هيابون له لا يجرأون على مسه بمكروه حتى خرج! وخرجت بعده أكثر من مائة بلد وقرية من أيدي المسلمين. وتسمى الأذفونش بعد ذلك بامبراطور الملتين النصرانية والإسلامية!

اعتباراً من هذه الواقعة بدأ سقوط الأندلس! فلا نامت أعين المتخاذلين!

معركة الزلاقة

نحن في سنة ١٠٨٦/٤٧٩ . الدنيا في مطالع الصيف . وبحر العدوة بين المغرب والأندلس في هياجين هائلين : ريح عاصف تثير الموج جبالاً ، وجيش من سبعة آلاف فارس وعشرين ألف راجل يعبر هذا المجاز الثائر إلى الأندلس . وفي بعض المراكب كان السلطان يوسف بن تاشفين رافعاً يديه إلى السماء يدعو : اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا خيرة للمسلمين فسهل علينا جوازه وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه . . .

وبعد حين هدأ العاصف وتماسكت الأشرعة على الموج . وكان قائد الجيش ابن عائشة أول النازلين في البر الأندلسي عند الجزيرة الخضراء وكان السلطان آخرهم . وسرى الخبر بسرعة البرق في الأندلس .

ــ وصل المرابطون ! وصلت النجدات !

وضربت الطبول في غرناطة وأشبيلية وانقلبت سحابات الكآبة التي كانت تغشى عيون الأندلسيين بشراً وفرحاً . كأنما دبت في الأجواء روح جديدة عائدة من أيام الفتح والنصر . . . أشد الناس استبشاراً كان العلماء وكبار الشيوخ . وجماهير الشعب التي أخذت تذوق مرارة الذل أمام عنجهية الصليبيين الإسبان ! وعدوانهم المتمادي . ولعل أقلهم استبشاراً كان بعض ملوك الطوائف الحكام . شعروا أن عروشهم الهزيلة قد تهتز تحتهم من وجيف الخيل التي نزلت في الأندلس وإن كان بعضهم الآخر وجد في ذلك منة من الله وفضلاً ، وأقبل بما عنده من القوة يرحب بالقادمين ! ومن هؤلاء المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية والمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس كان هؤلاء

وأمثالهم منذ عشر سنوات أو تزيد يرسلون الوفود إلى عاهل المرابطين بالمغرب. يتحملون ضربات الإسبان ويتلفتون إلى العدوة الجنوبية مستنجدين: علماء. وفود ملوك. سفراء. قضاة كلهم كانوا على صرخة واحدة: أنقذوا الأندلس! وحين سقطت طليطلة سنة ٤٧٨ صارت الدعوة جماهيرية إلى أمرين: توحد كلمة الملوك واستدعاء المرابطين...

وهذا ما يفسر موجة التفاؤل العرم التي اجتاحت المسلمين حين رأوا كواكب الخيل المرابطية تخترق المروج والتلال تحت الأعلام. في غمرة هذا المهرجان هبطت على ابن تاشفين رسالة تنعي إليه ابنه في المغرب فبكاه حتى كاد يرجع. ولكن داعي الجهاد وآمال الناس جعلته يتجاوز دموعه وألمه فقرر المضي لما جاء له دون إبطاء. ورجوا منه أن يتمهل فأبى.. وزحف بالجيش نحو أعتى الأعداء الإسبان: الفونس السادس. قوات الأندلس في المقدمة ترفدها في المؤخرة كواكب الموحدين...

ويبدو أن فرائص الفونس السادس ملك قشتالة لم ترتعد بما فيه الكفاية فقد كان يستعد لمثل هذه المعركة أو يتوقع مجيئها مع المرابطين. فقد فك حصاراً كان يضربه على سرقسطة في الشمال واتجه نحو الجنوب بعد أن اجتمعت إليه جيوش ملك آراغون وأمراء ما وراء البيرنه وسيل من الفرسان والمقاتلين من جنوب فرنسا ومن إيطاليا ومن القسس وأتباع البابوية. كان مزهواً بتفوقه في العدة والعدد والإمكانيات الفنية ومباركة البابا لكل ذلك. كانت أوروبا الغربية كلها وراء هذه الصليبية التي يرعاها الكرسي الرسولي البابوي. عددها كان يزيد على خمسين ألف دارع وكان الجيش الإسلامي أقل منها إلى حوالي النصف وقد يزيد قليلاً. ويقولون إن الفونس حين نظر إلى جيشه الجرار يملأ السهل والجبل من حوله قال: «بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء»!

جرت المراسلات بين الطرفين قبل المعركة. أرسل ابن تاشفين عملاً

بأحكام السنة إلى الفونس يعرض عليه : الإسلام أو الجزية أو الحرب . وكتب له في الرسالة : بلغنا يا أذفونش أنك تمنيت يوم جمعت جموعك أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا . فها نحن أولاء قد اجتزناه إليك . وسترى عاقبة دعائك ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ . فغضب الأذفونش لهذه الرسالة ورد بكتاب عنيف مملوء بالوعيد . فاكتفى ابن تاشفين أن يكتب في ظهر الرسالة : الذي يكون ستراه !

والتقى الجمعان متقابلين في سهل من أعمال بطليوس على وادي نهر يانة يدعى الزلاقة . والمشرف على ميدان المعركة كان يرى الاستعداد لها قد بلغ أقصاه . الأساقفة والرهبان من جانب قد رفعوا صلبانهم ونشروا أناجيلهم وأقبلوا يبايعون الناس على الموت ويعدون الناس بالجنة ، وعلى الجانب الآخر قام الفقهاء والعباد يعظون الناس ويحضونهم على الصبر ويحذرونهم الفرار ، والطبول تدق والأبواق تصدح والسيوف تشحذ ثم تشحذ ، والنقع يثور هنا وهناك . ومزيج من الرعب والأمل والإيمان كان يعصف وكأنما كانت الأرض والآفاق عطشى للدماء . والكل ينتظر في المضارب وباله في شغل بما يأتي به الغد .

وحاول الأذفونش المراوغة . لم يهاجم حين رأى المسلمين أخذوا استعدادهم وكان يوم أربعاء فرجع الناس متوتري الأعصاب دون لقاء . وكتب الأذفونش يوم الخميس يقول إن اللقاء سيكون يوم الاثنين القادم . لكن ابن تاشفين وابن عباد أدركا أن الطاغية يخادع ليسترخوا وأنه لا بد سيفاجئهم يوم الجمعة . فبات الناس على أهبتهم يترقبون كيد العدو . وكذلك كان.فقد زحف الفونس بجموعه يوم الجمعة فبدأت المعركة حامية الوطيس منذ لحظاتها الأولى .

اختبطت الفرسان ودقت الرماح في لباب الخيل وهبطت السيوف في النقع الأسود كالشرر المنتثر . واختلط الصراخ برغاء الجمال وصهيل الخيل وصرير العربات . وتشابك النشاب بعضه مع بعض . كانت الصدمة الأولى قد

زحزحت الجيش الإسلامي عن مواقعه فارتمى ابن تاشفين إلى قلب معسكر العدو بجموع من جنوده المختارين ثم ثنى بحملة من قواه الاحتياطية دقّت المعسكر القشتالي دقاً. واتجهت صوب مؤخرته فأثخنت فيها وأشعلت النار. كان ابن تاشفين بنفسه على رأسها والطبول من حوله تقرع بشدة فلم يتأخر جندي عن اللحاق به...

وحاول الأذفونش أن يدخل المعركة بنفسه كما فعل ابن تاشفين ولكنه أصيب بضربة سيف في ساقه كادت تقطعها ورأى تمزق جيشه على التلال فتسلل في ظلام الليلة الأولى يحرسه حوالي ٥٠٠ من جنده وهم مثخنون بالجراح إلى طليطلة فلم يصل منهم إليها سوى مائة فارس...

استمرت المعركة إذن يوماً واحداً فقط وكان جند الأذفونش بين قتيل على الثرى أو هارب في الأدغال أو لاجئ إلى بعض الحصون أو جريح ينزف وهو مختبئ... وكان لمعركة الزلاقة دويها الهائل في الأندلس ولكن الناس بكوا علماءهم الذين فقدوهم فيها.

بلى! كان عدد كبير من العلماء متطوعاً بين المحاربين منهم ابن الرميلة وأبو مروان المصمودي قاضي مراكش وأبو رافع ولد الفقيه ابن حزم... كان العلماء معلمي الناس علماً وعملاً. لم يقولوا: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون!

أما كذلك يكون صدق الإيمان؟

ثلاث معارك

في سنة ٥٢٨ فيما كانت القوى الفرنجية الصليبية تحتل الساحل الشامي وترهق الناس ذلاً وتسلطاً كانت هذه السنة فألاً مباركاً على القوى الإسلامية في الأندلس. كان المرابطون قد احتلوا هذه البلاد وحكموها وطردوا عدداً من ملوك الطوائف المستضعفين فيها. وحلوا محلهم في الدفاع عن حومة الأندلس، مدناً وسهولاً ومرافئ وسكاناً... العبء كان ثقيلاً لأن شرة القوى الإسبانية المدعومة من الصليبيات الأوروبية والبابوية كانت وراءها. بالمال والسلاح والمتطوعة والدعوة في الكنائس أيضاً. ولكن المرابطين حملوه أمانة إسلامية وجهاداً. ولم تهدأ سيوفهم ولا سنابك الخيل، تحرث الأرض الأندلسية حرثاً. وإنما اخترت سنة ٥٢٨/١١٣٤ لأنها شهدت ثلاث معارك كبرى عادت فيها القوى الإسبانية خاسئة خاسرة:

المعركة الأولى: كانت في أواسط هذه السنة حين جهز ملك قشتالة الفونس السابع جيشه الضخم. كان الجند ينثالون عليه انثيالاً لكثرة الناس وقلة الأعمال في أوروبا. والجندية في تصورهم عمل رابح. ولم يكن ينقص الفونس السابع هذا والذي يسميه العرب بالسليطين وبالطاغية أذفونش لأنه كان يرهق الرعية بالضرائب وتؤيده في ذلك الكنيسة والقسس!

اتجه السليطين بجموعه صوب بطليوس البلدة الإسلامية وتقدم تاشفين ابن علي بن السلط المرابطي، والوالي على الأندلس. وحسب القشتالي ما كان حسبه أبوه من قبل أن النصر بجانبه لكثرة عدده. وكأنه أراد الثأر لمعركة الزلاقة التي هزم فيها أبوه فجاء المكان نفسه تقريباً يقاتل.

كانت المعركة عنيفة عنيفة تطايرت فيها الجماجم وتقطعت الأيدي والصدور وتصادمت الرايات على الرماح بألويتها وتثقبت الطبول من القرع الشديد. إلى أن انجلى النقع عن هرب معظم القوى القشتالية وعلى رأسها الطاغية السليطين. لعله في هربه تذكر أباه الهارب قبله وفرح... لأنه على الأقل لم يجرح مثله!

المعركة الثانية كانت مع ملك أرغون. واسمه أيضاً الأذفونش ابن ردمير ويلقبونه بالمحارب لأنه لم يكن يفهم في دنياه إلا القتال. في رمضان سنة ٥٢٨ فوجئ أهل مدينة إفراغة في شمال ثغر طرطوشة شمال الأندلس بخبب الجيش الأراغوني نحو بلدهم. وطارت الأخبار تطلب النجدة التي سرعان ما حضرت من الأندلسيين والمرابطين معاً. يقودها أبو زكريا يحيى بن غانية والي بلنسية ومرسية. وكان من أعظم قادة المرابطين في تلك الفترة. ومع أن جيشه كان أقل عدداً من جيش ابن ردمير فقد رماه في المعركة ضده. كتلاً بشرية لا تبالي بالموت في سبيل الله.

كلما انهار حائط من جنود أتبعوه بحائط من جنود

وتراجع الجيش الأراغوني منهاراً. كان القتال العنيف لا يترك به فرصة لالتقاط الأنفاس وانتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله وجرح في المعركة ابن ردمير نفسه وما لبث أن مات على طريق العودة الخائبة إلى قاعدة ملكه!

المعركة الثالثة كانت في أواخر سنة ٥٢٨. في ذي الحجة حين عاد السليطين صاحب قشتالة كرة أخرى يجرب حظه في الحرب. اتجه بجموعه إلى شمال قرطبة. ووضع القشتاليون خطة حربية تقضي باستدراج المسلمين المرابطين إلى موضع أشبه بالوادي الواسع يعرف باليكار. كانت الأجمات والأدغال كثيفة هناك والكمين يتهيأ لضرب المحاربين المسلمين الضربة الساحقة. لقد اختاروهم مجموعة من الفرسان ذوي السمعة بينهم ولم يشعر

المرابطون في هدأة الظلام إلا والخيل تأخذ معسكرهم كالعواصف . وتخلخل المعسكر للمفاجأة كان قائد المسلمين هو تاشفين ابـن السلطـان ووالي الأندلس . وثبت بسيفه وسط الضراب يقاتل بضراوة وإيمان . وجاء بعض حرسه وجنده . نصحه بعضهم بالنجاة والانسحاب فرفض بإصرار وقال : لا أسلَم وأسلِّم الأمة . ولا أبرح أو تنجلي عما انجلت عليه هذه الكرة . ودبت الحماسة في من كان حوله فأحدقوا به واجتمع إليهم من الأندلسيين والمرابطين الأفذاذ ما لا يزيد عن أربعين رجلاً فاعترضوا ما بينه وبين القشتاليين لا يبرحون كأنما سمرت أقدامهم في الأرض أو كانوا بعضاً من صخوره واشتد القتال فلست ترى إلا مجندلاً مشوهاً أو فارساً يهوي أو جمجمة تطير وتصاعدت في الأجواء صيحة الله أكبر وتسامع المحاربون بأن قائد الفرسان القشتاليين قتل ! فيما كان سيف تاشفين يلمع كالشهاب تارة بعد أخرى ودرقته بيده يشد حملته في رباطة جأش عجيبة وأنف أشم ... ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ وانسلت فلولهم هاربة ... وكان السليطين (الفونس السابع) مع الهاربين ...

هل ارعوى بعد هذه الهزائم . لقد تلبث أربع عشرة سنة ريثما تكونت لديه حملة صليبية جديدة جمع فيها إلى جيوش قشتالة وممالك نبارة وأراغون وقطالونيا مع قوات من جنوة وبيزة ومن مقاطعات الفرنج وراء جبال البرتات سار بها لاحتلال ثغر واحد هو المرية سنة ٥٤٢ . كانت عروس الشاطئ الشرقي على البحر المتوسط تجارة وميناء وحسن عمارة . وأقبلت عليها من البحر سفن أهل جنوا وبيزا عصائب غربان بعد عصائب تملأ الأفق بأشرعتها الملونة فيما كان الجيش الصليبي البري يطوقها من البر . ولم يكن ثم أمل في معونة فملوك الأندلس أشتات كل يسأل عن نفسه وأما المرابطون من المغرب ... فأين المرابطون ؟ لقد انهارت دولتهم في مواطنها في هذه الفترة أمام ضربات دولة أخرى حلت محلهم هي دولة الموحدين ... وبقيت المرية لقدرها ــ وقاومت المدينة ــ

قاومت ثلاثة أشهر حتى نفدت فيها الأقوات وشح الزاد . وذهبت صرخاتهم صرخات في واد . ذهبت مع الريح . لتذهب غداً بالأوتاد ...

وسقطت المرية واستشهد في عمليات الدفاع عنها علماء أعلام منهم أبو محمد الرشاطي الإمام المشهور وسبي من أبكارها فيما يقولون أربعة عشر ألف فتاة ... وعلى الرغم من أن الموحدين تدخلوا بعد عشر سنوات فاستردوها غير أن شمس الأندلس كانت قد مالت إلى المغيب . ومن ذا الذي يمسك الشمس أن تغيب ... إلا علام الغيوب !

معركة الأرك

حطين، المعركة التي حررت القدس وفلسطين سنة ١١٨٧/٥٨٣ نعرفها ونعرف الكثير من التفاصيل عنها فهل نعرف أن معركة من مثلها نصراً ومجداً جرت في الأندلس بعدها بثماني سنوات سنة ١١٩٥/٥٩١؟ وإذا كانت حطين قد سحقت صليبيي المشرق فإن المعركة الأخرى قد سحقت صليبيي الأندلس!

هذه المعركة هي موقعة الأرك. وهي إحدى الأمجاد التاريخية في المسيرة الإسلامية كلها وإن عفا النسيان عليها لما توالى من المصائب والكوارث بعدها.

كانت الأندلس في تلك الفترة تابعة لدولة الموحدين في المغرب. وأمير المسلمين في هذه الدولة هو أبو يوسف يعقوب المنصور المقيم في مراكش. وقد كانت بينه وبين كبرى ممالك إسبانيا النصرانية هدنة لمدة خمس سنوات. ولم تكن قد انقضت هذه السنوات الخمس حين سمع أبو يوسف أن الفونش (وهو الفونس الثامن) صاحب قشتالة بعث إلى جميع الثغور الإسلامية المجاورة له ينذرها ويفرض عليها هيمنته ويهاجمها ويعيث فيها. في الوقت الذي كان وفد من عنده يزور المغرب لتجديد الهدنة... وحين علم أبو يوسف أن جيشاً كثيفاً من الإفرنج دخل بلاد المسلمين الأندلسية من عدة نواح في يوم واحد فنهب وسبا وعاث العيث الفظيع في أشبيلية ونواحيها رفض الهدنة وتجهز لقصد المعتدين.

موكب الجيش المغربي الذي عبر العدوة ملأ البحر أشرعة وقلوعاً. وحفت السفينة الملكية مجموعة من القواد الكبار فما لامست البر الأندلسي

عند ثغر طريف حتى كانت طلائع المحاربين قد وصلت أشبيلية ! وقضى أبو يوسف وأصحابه أسبوعين في مناقشة الأمور وتدبير الخطط قبل أن يرتحل إلى قرطبة . ومنها صوب قلعة رباح . كان الجيش القشتالي يتجمع هناك قرب القلعة في حصن بنوه عرف بحصن الأرك على مبعدة عشرين كيلو متراً من قلعة رباح . وكان هذا الجيش بدوره خليطاً من أمم أوروبية شتى جمعها الهم الصليبي . فيه جنود مملكة ليون ومملكة نباره . وجموع دفعها البابا وعليها القسس والمطارنة . وأعداد وفيرة من المتطوعة الفرنج وجماعات من تجار اليهود رافقوا الجيش لشراء أسرى المسلمين وأسلابهم وأعدوا لذلك الأموال . وكانت أعداد الفرسان في الجيش القشتالي تنيف عن خمسة وعشرين ألف فارس وعلى مائتي ألف راجل . جموع لم يجتمع مثلها قط من قبل . ولما تراءى الجمعان ، اشتد خوف الموحدين وساءت ظنونهم لما رأوا من كثرة العدو ورهبته ...

وعقد أبو يوسف مجلس الحرب عدة أيام قبل القتال يستشير أصحاب الرأي والمناوشات بين الجيش خفيفة . وأشار كبير قواده ابن صناديد برأيه قال بأن تبدأ معظم الجيوش الأندلسية ومن جاء مع الموحدين بالاشتباك . ويبقى أمير المسلمين أبو يوسف في جيش من الموحدين في موضع مستور فإن كان النصر للمسلمين فذاك . وإلا فيبادر الأمير بقواته بلقاء العدو ويحمي ظهور المسلمين ويكون العدو قد خبت قوته . فأعجب الخليفة برأيه وأخذ به . وهكذا تحرك الجيش الإسلامي . ولا مسند له إلا الدعاء والاستعانة بكل من يظن عنده خيراً من الصالحين .

كانت القيادة العامة في الجيش لأبي يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص والخليفة مع جنده في المؤخرة ينتظر اللحظة الحاسمة . وخاطب القائد العام جنده قائلاً : يقول لكم أمير المسلمين اغفروا له ، فإن هذا موضع غفران ، وتغافروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا نياتكم ...» فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من سلطانهم وما جرى إليه من حسن معاملتهم . ثم قام

خطيب القوم فحث على الجهاد ونصرة دين الله فامتلأت صدور الجند حماسة ولهباً. فما هي إلا شعلة وتتقد .. حتى السيوف.

تزاحف الفريقان وكان المصاف شمال قرطبة. كان الجيش القشتالي في المرتفعات حول حصن الأرك فلما شهد الجيش الإسلامي يزحف ببطء نحوه هبط القشتاليون من مواقعهم كقطع الليل. بحراً من الرجال والمطارق والسيوف والجنازير ذات الكرات والشوك. كانوا أسراباً تعقب أسراباً وموجاً يدفع موجاً. فليس إلا الصراخ الشديد يختلط بالصهيل ورنين الحديد. والنقع أسود يحجب شمس يوليو المحرقة. واخترق السيل العرم صفوف الجيش الإسلامي حتى وصلت الأعلام. ولكن حملتها صمدوا كالصخور الراسية فاتجه الهجوم النصراني إلى الميسرة وزحزح قوماً من المتطوعة وأخلاطاً من السوقة. وامتزج الغبار بالدماء وعجنت الأشلاء بعضها بعضاً. وشهد أبو يوسف المشهد فخاف أن يصيب ميسرته الوهن فاندفع بنفسه دون خاصته يصرخ بالناس: أخلصوا نياتكم وشددوا قلوبكم ومر على الصفوف والقبائل يشد من عزائمها ويريهم أنه معها في قلب الملحمة. ثم عاد فساق الكتائب التي كانت معه فبلغ القتال أشده. وأصيب كبار القشتاليين بالجراح وجندل بعضهم مما أضطر الجيش القشتالي إلى التراجع ... ثم إلى الفرار. وكان الملك أذفونش الثامن أول الهاربين صوب طليطلة!

المعركة لم تدم أكثر من يوم واحد ولكنه كان يوماً من أيام الجحيم. ميدان المعركة كان بعد دهر ما يزال نتناً بالجيف. نبت العشب في عيون الجماجم وكانت بقايا السيوف ما تزال ترى فوق الصخور.والأشلاء ليست تبين في التراب وبقايا الألبسة حائلة الألوان بالدماء. وأحذية. ومغامز محطمة. وعظام خيل وأسرجة مهترئة بين الشجر البري. وأرض مشؤومة يباب فيها بقايا عربات وأحذية ...

وغنم المسلمون مغانم لا تقدر. واتجه بعضهم إلى حصن الأرك الصليبي

فلم تجد حاميته إلا التسليم قانعة من الغنيمة بالنجاة فأطلقهم المسلمون وعاد أبو يوسف يعقوب إلى أشبيلية في موكب من الأسرى كبير ...

أما أول الفارين من ميدان المعركة والواقعين في قبضة المسلمين . فكانوا التجار اليهود الذين كانوا يمنون الأنفس بشراء الأسرى المسلمين فإذا هم بعض الأسرى ! وكانت أموالهم بين الغنائم !

بعد فترة عاد الملك القشتالي يطلب الهدنة من أمير المسلمين عشر سنوات مكراً منه واستعداداً للثأر وقبل أبو يوسف العرض . يحسب أن لهذا الصليبي المزمن عهداً وذمة !

ولكن يا بؤساً للثعالب ! كم تخمد وكم تتنمر !

معركة السيد وابن جحاف

السيد مسرحية فرنسية مشهورة للشاعر كورني فيها ظلال من قصة قديمة لمغامر إسباني قديم اسمه رذريق ويلقب بالكمبيطور (أي القاتل) وأما جنده والناس فينادونه باللقب العربي السيد ... وهو ليس أكثر من فارس مغامر ألقى بنفسه في عصر ملوك الطوائف في الأندلس المضطرب يبتغي إمارة يحكمها. فقضى حياته كلها في المعارك مع المسلمين.. وانتهى قتيلاً ولكنه ما بين شبابه والقبر كان عاصفة من الجبروت والحقد والهمجية وعلى الرغم من الأساطير التي حيكت حول رأسه ومن اعتبار المؤرخين له بطلاً قومياً إلا إن ذلك لا يمكن أن يمحو تاريخه الملطخ بالدماء والعار لا يمنع من أن يسلك مع سفاكي البشرية وعتاة المجرمين!

بدأ حياته في خدمة ملوك قشتالة. ولم يرتاحوا إليه فطردوه. فصار يؤجر نفسه للأمراء من المسلمين والنصارى. كان مجرد سيف للقتل ومرتزق رخيص لمن يشتري. عاش في خدمة المقتدر بن هود صاحب سرقسطة ثم في خدمة ابنه المؤتمن من بعده ثم حفيده المستعين.

وحين طلب صاحب بلنسية معونة المستعين ضد المنذر عمه. كان السيد يقود ثلاثة آلاف فارس مع المستعين في حين لم يكن مع هذا البائس سوى ٤٠٠ وكان يطمع مع ذلك في أخذ بلنسية نفسها ولعب السيد «البطل» دوره فهو سيف للإيجار. فقد تفاوض مع القادر صاحب بلنسية سراً وأبلغه بنوايا المستعين ونصحه بعدم تسليم المدينة. في الوقت الذي كان يبعث فيه إلى المنذر العم يعقد معه التحالف. ويبعث إلى ملك قشتالة بأنه تابع له

وهو يحارب في أرض المسلمين (الكفرة) لتصبح شرق الأندلس للنصارى ! بين ثلاثة كان يعمل . ثم ذهب بنفسه إلى هذا الملك القشتالي وحصل منه على وثيقة تخوله أن يحكم ما يغزو من أراضي المسلمين ! له ولأولاده ...

وهكذا عاد « بوظيفة » رسمية يهاجم المدن المسلمة شنتمرية ، ومربيطر ، والكدية . ويهدد بلنسية ويتقاضى منها الجزية السنوية . لكن سرعان ما غضب عليه ملكه وصادر أملاكه . فأجاب « البطل » الصنديد بالعيث في أراضي قشتالة وإمعان القتل فيها . ولم يجد الملك سوى أن يعفو عنه ليتخلص من شره !

عند ذلك انصرف « البطل » لاحتلال بلنسية التي يعرفها جيداً ويعرف تهافت أميرها الذي يتخذ لقب القادر ... وهو ليس يقدر على شيء ويدفع الجزية عن يد وينهبها من الناس ليقدمها للسفاك المهدد ! وقد سلم من قبل طليطلة للقشتاليين . ودبت الحمية في أهل البلد وكاتبوا يستعينون بالمرابطين في المغرب لعلهم ... ولم يتوان المرابطون . أرسلوا سرية من جندهم . فدبت الثورة في البلد التهبت كلها وتزعمها قاضي المدينة ابن جحاف أبو أحمد جعفر بن عبد الله . وثبوا على قصر الأمير « القادر » فوجدوه مختفياً في حمام القصر ومعه صندوق من الحلي والمجوهرات ... فكان ذلك نهايته سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م . وأخذ ابن جحاف يحصن المدينة ويشدد من الأسوار ... فسكانها كانوا واثقين من أن « البطل » الكمبيطور لا بد سيحاربهم لأخذها . وصح التوقع وإذا بعصابات هذا المرتزق السفاك تصل أسوار المدينة بعد أن أحرقت في طريقها ما وجدت من الزروع حولها ومن المروج والشجر . دمرت حملة التخريب كل ما يمكن أن تستفيد منه المدينة حتى السواقي والأكواخ !

كتب الكمبيطور إلى ابن جحاف أن يخرج سرية المرابطين منها ويدفع مالاً سنوياً له ليترك الجيش القشتالي الحصار لكنها كانت حيلة لإضعاف المقاومة لأنه عاد إلى العيث الشديد حول بلنسية وإلى المطالبة بالمزيد من المال .

وطلب تسليم مناطق حولها في الشمال الشرقي والجنوب الغربي ليحكم الحصار . ثم زاد فطلب تسليمه موارد المدينة وأن يكون أحد أبناء ابن جحاف رهينة عنده . ثم قطع الأقوات عنها . لكن أهلها قرروا المقاومة والصمود حتى النهاية ... كل هذا ولم يصلهم أي مدد خارجي حتى من الجيران الأقربين !

استمر الحصار عشرين شهراً حتى ضاق الأمر ببلنسية كل الضيق وركضت المجاعة في دروبها . وعدم الناس الطعام وأكلوا الفئران والكلاب والجيف . وأكل بعضهم بعضاً . ومن مات أكلوه . وبلغوا من الضعف النهاية في حين كانت المرافق تقطع عنهم والمجانيق لا تهدأ فوق رؤوسهم والأسوار تنقب ! وأكل الناس الجلود والدواب . لأن رطل القمح بيع بمثقال ونصف من الذهب وأوقية الجبن بثلاثة دراهم ورطل البقل بخمسة . والبيضة بثلاثة ورطل لحم البغل بستة دنانير والخيل بعشرة . وتساقط الناس جوعى . ومن فر من المدينة قبض الكمبيطور عليه ففقئت عيناه أو قطعت يداه أو دقت ساقاه إن لم يقتل أو يحرق ! الصليبية العمياء كانت سيدة الموقف حتى انتصر الكمبيطور سنة ١٠٩٤ (قبل إعلان الحروب الصليبية على المشرق بسنة واحدة) بعد أن عدمت الأقوات ومشى الباقون في المدينة إلى ابن جحاف يرجون التسليم . وتعهد الكمبيطور بتأمين السكان على أنفسهم وأهلهم ومالهم مقابل أن يتولى تحصيل الضرائب وتحتل المدينة فرقة من النصارى المعاهدين ولا يغير شيئاً من شرائع الناس أو دينهم ويبقى ابن جحاف يدير المدينة ! أخذوا عليه هذه العهود قبل أن يفتحوا الأبواب . ثم استسلمت له المدينة سنة ٤٨٧ .

لكن جند الكمبيطور احتلوا فوراً أبراج المدينة ونزل الطاغية في قصر الحكم واحتلت أكثر دورها وضياعها ونكل بالسكان أشنع التنكيل . وأصدر أمراً بأن من وجد عنده شيئاً من آلات الحديد فماله ودمه حلال . فبرئ الناس حتى من الإبر والمسامير . وأخرج الناس إلى ظاهر البلد فمن كان منها أعيد ومن كان جاءها نجدة ونخوة جرد ونفي وبعث وراءه من قتله ! بقي على ذلك

ثلاثة أشهر ثم جمع الناس في قصره وخطب فيهم يطلب ٧٠٠ ألف مثقال من الذهب وإلا أجال السيوف عليهم وأغلق أبواب القصر فصاروا في سجن خرست له الألسنة .

وحول الطاغية مسجد المدينة كنيسة . ثم التفت إلى ابن جحاف القاضي يلح عليه بالمزيد من الأموال والمطالب وحلف القاضي أن ليس عنده مال لكن الطاغية اتهمه بإخفاء بعضه فأصدر حكمه بإعدامه حرقاً في ساحة المدينة مع أهله . ثم أمر فأضرمت نار عظيمة تلفح الوجوه عن بعد وجيء بالقاضي في قيوده مع أهله وبنيه . لإحراقهم وضج المسلمون والروم ورجوه الإبقاء على الصغار فلم يقبل إلا بعد لأي . وحفرت للقاضي حفرة أدخل فيها إلى وسطه وسوى التراب حوله وضمت النار نحوه فلما لفحت وجهه صار يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ويتناول أقباسها ويضمها إلى جسده يستعجل الموت ... وإنما كان القمبيطور يبيت له هذا المصير منذ زمن ثم قام بمثيله لعدد من وجهاء بلنسية ومنهم الشاعر الأديب أبو جعفر البتي .. هذا عدا من جدعت أنوفهم أو قطعت ألسنتهم أو فقئت خصاهم ... أو أسروا وبيع الأسير منهم بقطعه خبز وقدح خمر ورطل سمك . أو سلطت عليه الكلاب تأخذه نهشاً .

دامت هذه الأحوال أكثر من ثماني سنوات . وصلت فيها بلنسية إلى قاع المذلة !

ثم . ثم تدخل المرابطون من المغرب في الأمر ! وخاضوا عدة معارك مع جيوش الكمبيطور قبل أن يصلوا بلنسية قائدهم ابن عائشة قتل ابن الطاغية في إحداها . ثم هزم قائده البرهانس ففر هارباً . ثم لقي جملة ضخمة من جيش الرجل فأوقع بها شر وقعة فلم يفلت منها إلا اليسير . فلما وصل الفل إلى الكمبيطور بلغ من القهر أن تمزق قلبه ومات ! وقبل أن يصل ابن عائشة بلنسية كان قد سبقه إليها ملك قشتالة ألفونس . ولكنه رأى ألا قبل له بالدفاع عنها فخرج

بجيشه منها. ورأت أبواب بلنسية خروج زوجة السيد بأمواله التي نهبها في موكب وخروج ألفونسو في موكب آخر فيما كانت النار تلتهم جامع المدينة وقصر الحكم وعدداً من الدور...

صبوا حقدهم الأسود على الجدارن والعمدان... ودخلت المدينة أعلام النصر بأيدي الموحدين.

معركة بربشتر مع الأردمانيين

بربشتر. هل سمع أحد منكم بهذا الاسم من قبل؟ حتى الاختصاصيون بالتاريخ الإسلامي قد يغيم عليهم هذا الاسم. حتى سكان بارباسترو اليوم الواقعة في أقصى الشمال الإسباني قرب سرقسطة، لو سألتهم عن بربشتر لما عرفوا أنه الاسم العربي لمدينتهم نفسها يوم كانت للمسلمين قبل ألف من السنين!

هذه القصة كانت مسرحاً لمأساة من أفجع المآسي أيام ملوك الطوائف. وكم لهؤلاء الملوك وأمثالهم إلى اليوم من الجرائم المطوية. المأساة اهتزت لها الأندلس كلها لما كانت عليه من الشناعة الوحشية.. وكان أصحاب هذه المأساة هم النورماند الأردمانيون!

هذه الجماعة الدانمركية في الأصل حصلت من ملك فرنسا شارل الثالث المعروف بشارل البسيط أو شارل الأبله على حق السكن في أقصى الشمال الغربي من فرنسا. ودخلت المسيحية بعد أن كانت لعبادة الأوثان والأرواح وبرز منها عدد من الفرسان منهم فارس كالبغل الجموح عرف باسم غيوم دي مونروي. وقد قدم إلى إيطاليا وخدم لدى البابا الذي أشبعه بالروح الصليبية فأصبح قائد الجيش البابوي. وكان البابا يلح دوماً على حرب المسلمين في الأندلس وذلك قبل الحروب الصليبية في المشرق بخمسين سنة! وعاد هذا الفارس الذي عرفه الأندلسيون باسم البيطين إلى نورماندى يجند الجموع النورماندية والفرنسية باسم البابا والكرسي الرسولي.

اجتمع للبيطين في حملته ما يزيد على أربعين ألفاً مشى بهم نحو الجنوب

إلى الأندلس . عَبَر جبال البيرنة من ممرها الشرقي وانساح في مملكة سرقسطة ولما فشل في اقتحامها تركها متوجهاً إلى المدينة القريبة منها بربشتر وهي مدينة منيعة عليها سوران لا واحد فضرب عليها الحصار وفيها حوالي ثلاثين ألفاً مع النساء والأولاد . لم يكن لها أي ذنب سوى أن الهجمة صليبية . والبلد مسلم وغني بماله وحضارته . كان ذلك سنة ٤٥٦/١٠٦٣م

الحصار استمر أربعين يوماً . لم تهدأ فيها المعارك ولا ضرب النشاب ولا التلاحم بالسيوف وقذف الحجارة حول المدينة . التي ما كانت مستعدة لمثل هذه الهجمة العاتية ولم تكن تنتظرها . وقلت المؤن والأقوات فيها وبدأ الضيق يسري في الدروب والإرهاق يفترس الأعصاب . واستطاع النورمان بعد القتال العنيف والكثرة أن يقتحموا المدينة الخارجية فاعتصم المسلمون بالقصبة والمدينة الداخلية المرتفعة . صمموا على الدفاع حتى الرمق الأخير ...

كل هذا والأمير يوسف بن سليمان بن هود صاحب المدينة لاه عنها قد أسلمها لخطبها ووكلها لنفسها تقاتل قاعداً عن النفير إليها والعون لأنها كانت منحرفة لأخيه . واتفق من قدر الله أن قناة ماء البلد وهي من بناء الأول سرباً تحت الأرض انهارت فيها صخرة عظيمة الجرم سدت السرب بأسره . فعدموا الماء . والماء هو الحياة فأيسوا من الحياة . وطلبوا من المهاجمين الأمان . والخروج بأنفسهم دون مال وعيال . فقبل المهاجمون منهم ذلك لكنهم ما إن خرجوا حتى أخذتهم السيوف حصداً . لم يطلقوا منهم سوى قائد المدينة ابن الطويل وقاضيها ابن عيسى في نفر من الوجوه قليل .. وهلك من الناس عند التدافع على الماء وشرب الكثير منه ما لا يحصى . كبوا على الأذقان موتى !

ونودي في المدينة بخروج جميع السكان إلى الفناء أمام بابها وبرز الجميع وهلك في الزحام من هلك وظلوا قياماً ذاهلين حتى نودي أن يرجع كل ذي دار منهم إلى داره بأهله . فعاد الزحام والحمام معه وكانت حيلة فما استقروا في المنازل حتى أضحت كل قطعة أو دار أو زقاق فيها ملكاً لبعض المهاجمين بمن

فيه وما فيه يحوز العقار والمال والأهل والولد... وبدأت صرخات التعذيب تملأ المدينة فكل مهاجم يعذب ما تحت يده ليقر بما أخفاه من المال أو ثمين الغنائم وما أكثر من زهقت نفوسهم فاستراحوا. لأن الباقين شهدوا وهم في القيود مقيدين فتك المهاجمين بأعراضهم وبناتهم قهراً وإذلالاً ومبالغة في التعذيب. وكان في ذروة القصبة قد اعتصم بعض القوم. فنهدوا إليهم بعد ثلاثة أيام فأنزلوهم على الأمان وقد جهمت وجوههم وتغيرت خلقهم من العطش فأطلقوهم إلى مدينة قريبة ولكنهم وقعوا في الطريق بأيدي سَرِيَّة من خيل النصارى لا تعرف أمرهم فأبادتهم عن آخرهم!

لم يكن غزو بربشتر احتلالاً ولكن عملية إذلال ونهب وإبادة كانت الغنائم من الكثرة بحيث صار لقائد الحملة منها نحو ألف وخمسمائة جارية من الأبكار وخمسمائة حمل من الحلي والكسوة والوطاء. ولما عزم على ترك المدينة تخير من النساء والصبية الحسان عدداً يهديه لمن فوقه ولإمبراطور القسطنطنية وترك في بربشتر من رابطة خيله ألفاً وخمسمائة فارس ومن الرجال ألفين!

وأخيراً وبعد كل هذا تحركت المروءة في نفس أحمد بن هود! صاحب المدينة. تحركت بعد أن ضجت الأندلس أسواقاً ومساجد وبيوتاً بالنكبة السوداء. واستنزلت اللعنات على أمراء السوء الذين وضعوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم فكلهم صموت ولا نافر يواسي المدينة حتى كأنهم ليسوا منها وكأن فتقها ليس بمفض إلى الآخرين منهم. وبرزت الدعوة قوية حادة للوحدة.. حملها العلماء والفقهاء ونادوا بها في وجه المتقاعسين وشعر ابن هود بحرج مركزه فسعى لإسكات سوء المقالة عنه. وقد كتب الله عليه منها ما لا يمحوه إلا عفوه. وأتاه ابن عباد بخمسمائة فارس من سراة البربر وتجمع إليه العديد من أبطال النزال في الأندلس في حوالي ستة آلاف فنزل ابن هود على المدينة بجمعه. وجالده المحتلون على باب المدينة جلاداً ارتاب منه كل جبان. وحمي الوطيس فزلزل أعداء الله وولوا الأدبار وراء أبواب المدينة التي اقتحمها عليهم

المسلمون وأحاطوا بهم فأبيدوا أجمعين واستنقذ ما في أيديهم من الأسرى وسبى ما كان لهم من عيال وبنات وأبناء جزاء وفاقاً وقتل منهم نحو ألف فارس وخمسمائة راجل. وكتبت الشهادة لعدد من الشيوخ المتطوعين ومن العلماء مع عدد من المحاربين ليس بالكثير وتلقب أحمد بن هود إثر ذلك بلقب المقتدر بالله!

دام احتلال المدينة والعيث فيها تسعة أشهر وحين شاع الخبر في الأندلس باسترجاعها اهتزت المنابر وسمع في كل مكان يسبح الله هتاف: الله أكبر!

مع ذلك نفض الناس، بعد هذه الواقعة أيديهم من الاعتماد على ملوك السوء، ملوك الطوائف وتطلعوا إلى أمل جديد كان يطلع في أرض المغرب ويقوى ويشتد، هم المرابطون!

وكان المرابطون خير دواء مؤمن لهذا الداء الصليبي.

سقوط المهدية في أيدي النورمان وإنقاذها

ذات يوم من أيام نوفمبر سنة ٥٠٥هـ/١١١١م. رست في ميناء المهدية عاصمة تونس أيام الصنهاجيين سفينة قادمة من صقيلية زعموها تحمل رسالة من ملك صقلية النورماندي إلى ملك تونس الحسن بن علي الصنهاجي . لم يكن في الرسالة شيء سوى عرض الصداقة . وكان النورماند منذ سنة ٤٨٤ قد انتهوا من صليبيتهم ضد صقلية الإسلامية واحتلوها وأقاموا مملكة نورماندية فيها كان ملكها في هذه الفترة روجار الثاني النورماندي الذي تجمع المصادر العربية على الإشادة بعلمه ومعاملته الحسنة للمسلمين وتأثره بالحضارة العربية الإسلامية واحتضانه لعدد من علماء المسلمين ولعل أشهرهم هو الشريف الإدريسي أكبر جغرافيي العرب .

في يوم الجمعة الذي تلا رسو السفينة النورماندية في المرفأ وأثناء صلاة الجمعة تسلل إليها رجل في ملابس البحارة وما لبثت السفينة أن قلعت مراسيها ورفعت أشرعتها وانطلقت بسرعة مبتعدة عن المرفأ إلى صقلية ؟ حين تنبه الناس لهرب السفينة كانت جد بعيدة في البحر وعرف ملك تونس أن جرجير الأنطاكي أحد كبار الرجال في حاشيته قد هرب عليها .

ومن هو جرجير الأنطاكي هذا . قلائل جداً ومن المختصين بالتاريخ من يعرفون هذا الرجل . فهو آخر المغامرين المغمورين الذين برزوا فترة قصيرة في التاريخ كالشهب العابرة ثم انطفأ ونسي . ولكنه بين اشتهار وانطفاء أدى أسوأ الأدوار ضد المسلمين . هو في الأصل نصراني من أنطاكية ولكنه مغامر بارع الحيلة وقد يكون في عمله الأول بأنطاكية من الكتاب الشاميين . ولسنا ندري

فيم ترك أنطاكية وهرب بعيداً إلى تونس. إلا أن يكون له قصة منعته من البقاء في بعض الإمارات الصليبية وفي الإمارات المسلمة وراءها فاختار البعد. وقد لا يكون اسمه نفسه حقيقياً فهو مستعار.

كل هذه الريب لم تمنع جرجير من أن يصل أسبابه. بعد أن عاش فترة في المهدية وخدم الصنهاجيين، تميم بن المعز الصنهاجي، ملك أفريقية (تونس) ومن أن يسيطر فيصبح صاحب دخله وخرجه. ومن أن تصبح أموال الدولة تحت يده وأيدي أقاربه وأصدقائه. ولكن موت تميم قطع به حبل الرجاء فقد كان يخشى من ابنه يحيى ويعرف بغضه له. فكاتب روجر الثاني النورماندي على اللحاق به وهرب بالسفينة التي أرسلت خصيصاً له إلى صقلية.

هناك أضحى جرجير الأنطاكي أكبر أعداء الصنهاجيين في تونس. ولما كان على معرفة تامة بهذه البلاد وبثغراتها ومواطن ضعفها فقد عهد إليه روجر الثاني بقيادة حملاته على أفريقية. وقد بدأت هذه الحملات سنة ١٠٢٤/٥١٧ حين لاحت الأساطيل النورماندية بأشرعتها في البحر قرب المهدية ونزلت في رأس الديماس. ولم تكن العلاقات بين تونس وصقلية سيئة حتى ذلك العهد بل كانت حسنة مدة من الزمن. أيام الملك تميم وابنه يحيى. ولكنها ساءت بعد تولي علي بن يحيى العرش. فأخذ روجر النورماندي يبعث إليه بتهديداته. وأخذ كل منهما يأخذ الحذر والأهبة لقتال الآخر.. وكانت حملة ٥١٧ النورماندية أول الضربات.

كان الأسطول النورماندي ضخماً كبيراً يقوده جرجير الأنطاكي وقد دمر الكثير وأحرق الكثير وقذف بحجارة المجانيق الحاميات الساحلية قبل أن يقع التغلب على جنوده والفتك بهم. فتراجعوا مهزومين إلى الأسطول وحمرة الدماء تصبغ المياه حولهم. ومجاديف المراكب تنقل الهاربين! كان النورمان ــ فيما يظهر ــ يخشون التوغل في البلاد ويفضلون التمركز على الشواطئ للسيطرة على المنافذ التجارية إلى صقلية ولهذا جعلوا همهم في تكرار الهجمات على

الموانئ فاستولوا على جزر جربة قرب الساحل الأفريقي سنة ٥٢٩ ثم خضعت لهم قرقنة وطرابلس وجيجل (بين سواحل ليبيا والجزائر) وفي سنة ٥٤١ دخلوا قابس وسيطروا على القرى الساحلية بين شرشال وتنس في الجزائر ثم جاء دور صفاقس وسوس في الساحل التونسي فاستسلمتا للغزاة. وأخيراً في سنة ١١٤٨/٥٤٣ رسا الأسطول النورماندي في مياه المهدية في ثلاثمائة سفينة. وكانت خالية من الجيش المدافع لأن الملك الحسن بن علي الصنهاجي كان مشغولاً عنها في حرب أخرى بالبلاد فنزلوا المدينة دون مقاومة تذكر واضطر الملك إلى الهرب منها... كانت حجة النورمان في احتلال المهدية أن ملكها حرض أسطول المرابطين وهم ملوك المغرب الأقصى ضد صقلية فهاجمها أسطول المرابطين بقيادة قائدهم البحري علي بن ميمون وأوقع الخسائر الكثيرة فيها وجزم روجر الثاني النورماندي أن ذلك كان بمعرفة الملك الصنهاجي وبتحريضه فكان احتلال المهدية هو الجواب! وبذلك تمت السيادة للنورماند على طول السواحل الأفريقية وامتداداتها إلى ليبيا وإلى الجزائر... وكانت سيادة صليبية الروح تجارية الهدف ولكنها أذلت الناس.

أما الحسن الصنهاجي فلم يجد من وسيلة لاسترداد عرشه إلا باللجوء إلى السلطان الجديد الذي ظهر في أقصى المغرب باسم دولة الموحدين وهو عبد المؤمن بن علي. وكتب إليه يستصرخ ضد الخطر الصليبي النورماندي. ذهب الحسن بنفسه إلى سلطان الموحدين فالتقى به في المغرب الأوسط وما زال يشرح له وضع الإسلام في أفريقية ويغريه بإنقاذها من الغزو الصليبي حتى استجاب.

في آخر سنة ٥٥٣ شهدت بطاح تونس جيشاً عظيماً، حسن الترتيب، قوي العدة يدخلها وعلى رأسه سلطان الموحدين عبد المؤمن. ودبت موجة من الفرح والأمل في النفوس فقد كان الغزو النورماندي الصليبي للسواحل قد خنق البلاد وسيطر على اقتصادها. وما أهلت سنة ٥٥٤ حتى

كان ذلك الجيش الضخم يضرب على مدينة المهدية الحصار الشديد فيما كان الأسطول الموحدي يغلق ممرات الخليج الذي يقع فيه ميناؤها .

كانت المهدية حصينة والمهدي الفاطمي الذي بناها في مكان عصي وجعل لها من الأبواب الحديدية ومن المرفأ المغلق ما تأمن به الغارات ولكن السلطان الموحدي قرر غلابها بالحصار المحكم . ولم تستسلم المدينة . ظل النورماند يقاومون فيها ستة أشهر ونيف . وشغل السلطان بعض قواه في تحرير المدن الأفريقية المغلوبة دون أن تهدأ المعارك حول المهدية دماء ومجانيق وأشلاء وقتلى وصراعاً مريراً وانتصر الصبر والإيمان في حين قلت المؤن والذخائر على النورمان في المدينة وبدأت أشباح الجوع تلوح لهم دون أن يتمكن الأسطول الصقلي من نجدتهم بشيء ! فقرروا الاستسلام .

حين دخل السلطان عبد المؤمن الموحدي المدينة كانت مدن الشواطئ الأفريقية كلها قد تحررت . وخلصت له البلاد من طرابلس إلى شواطئ الأطلسي !

وانكمش المد الصليبي النورماندي إلى قوقعته في صقلية !

فتح أول إمارة صليبية في المشرق: الرها

قبل الوصول إلى مشارف الشام كانت الحملة الصليبية الأولى تخب وتضع على جبال الأناضول وفي الوديان العميقة، تسوق عشرات الألوف من المحاربين والفقراء واللصوص والمغامرين في زحف بشري يأكل الأخضر واليابس يبكي للقسيسين ويجر العربات ويحمل الأطفال ومعسكرات الأمراء ويعالج المجانيق ويعد السيوف الثقيلة. في هذا الموكب الغريب الذي أفرزته أوروبا لغزو المشرق باسم الصليب وقبر السيد المسيح. كان ثم أمراء يترقبون فرصة تأتيهم لاقتطاع أرض يحكمونها. كان هذا همهم. لا يأبهون معه لمسيح أو كنيسة وكان هؤلاء خاصة من النورماند.. أثناء المسيرة عرف زعماء الصليبيين من كتاب أتاهم أن حاكماً أرمنياً لإحدى المدن يدعوهم إليه. فإمارته، إمارة الرها، حسنة خصبة لا وريث لها. وسرعان ما استغل الفرصة أمير نورماندي اسمه بغدوين دوبولوني فانطلق بمجموعته من الرجال. وأين أنت يا الرها؟

دله بعض الأدلاء على الطريق. ووصل المدينة المتلفعة بالغيم عالية في الجبال (وهي مدينة أورفة في شرقي تركيا اليوم) وأعجبه قبل الوصول ما لها من سور حصين وضواح خضراء غنية فرأى أنه وقع على غنيمة وإلى الشيطان بالحملة الصليبية والقدس! وبعث إلى الحاكم الأرمني أنه وصل! على أبواب المدينة المفتوحة وجد الحاكم وحاشيته في استقباله. وازداد إعجابه حين نزل في قصر الحاكم وأهل البلد يرحبون به. اعتبروه مدداً من عند الله يشد أزرهم ضد السلاجقة (الكفار)!

أما الحاكم الأرمني فكان أكثر الجميع فرحاً إذ قاد هذا الصليبي الأشقر

إلى الكنيسة وهناك أعلن تبنيه، وجعله ولياً لعهده. مطمئناً إلى أنه حمى الإمارة ووجد «الابن» المعين على الدهر له وسط البحران السلجوقي الذي يطيف به..

لم تمض فترة من الزمن تعرف بها بغدوين دوبولوني على البلد حتى أخذ يعمل على السيطرة عليها. ولم يدرك الحاكم الأرمني أن أطماع بغدوين تتجاوزه. وحين أدرك ذلك كان الوقت قد فات. فقد دبر بغدوين لهذا الحاكم مؤامرة انتهت بقتله في الكنيسة ونصب نفسه بدلاً منه أميراً على الرها وما حولها. ولم يأبه السكان كثيراً لهذا التبدل في الحاكم فهو على أي حال نصراني مثلهم وأصحابه الصليبيون كثيرون جداً وهم قريبون موجودون في أنطاكية يستولون بقوتهم على مدن الشام.

كانت هذه الإمارة أول الإمارات الصليبية التي قامت، وفي عمق الأناضول على منابع نهر الفرات ولقد قدر لها أن تكون أول الإمارات زوالاً واختفاء فلم يزد عمرها على ٤٧ سنة واحتل المسلمون مدينة الرها بالسيف...

الذي أزالها هو عماد الدين زنكي بن أقسنقر، والد نور الدين محمود ابن زنكي. كانت تقوم على شمال الطرق التي تصل بين المدينتين الكبيرتين اللتين يحكمهما: بين الموصل في الشرق وحلب في الغرب وكان زنكي على الدوام يراقب هذه الإمارة وهو يقوم بتحركاته الحربية في بلاد الشام خوفاً من تعدياتها وفي خاطره أن يجتاحها ذات يوم لكنه يحسب حساب معونة الإمارات الصليبية الأخرى لها ويحسب إلى هذا حساب حرمتها لدى النصارى ففيها الكثير من الكنائس والأديرة ويقال إن في كنيستها العظمى منديل السيد المسيح الذي مُسِحَ به وجهه ـ ولها ما يقارب قداسة بيت المقدس في أخيلة العالم المسيحي لأنها ترجع بأصولها إلى المسيحية الأولى وهي ترس الصليبيين من ناحية الشرق.

كان أمير الرها سنة ٥٣٩/١١٤٤هـ. هو جوسلين الثاني ولم يكن

موجوداً في المدينة يوم ضرب زنكي الحصار عليها. كان في جيش ضخم يقدرونه بثلاثين ألفاً ولم تكن الرها على استعداد لمثل هذا الحصار الذي استمر شهراً وبعض الشهر فاستسلمت يوم عيد الميلاد. بعد أن وعد زنكي أهلها بالأمان وضمان حريتهم في الاعتقاد وأموالهم من النهب. لم يكن الفتح سهلاً ولكنه انتهى بسرعة أرعبت الإمارات الصليبية الأخرى. أما سكان المدينة من الروم ومن الأرمن فهدأوا واستكانوا لسياسة زنكي العادلة! فلم يتحركوا ضد الحكم الإسلامي. وفيما كانت أنباء هذا الفتح تركض في دروب المدن الإسلامية بالفرح والبشائر قامت في أوروبا خاصة القيامة وقرعت أجراس الحزن وتداعى الملوك للنظر في هذه الكارثة التي لم يكونوا ينتظرون. إنها أول إمارة صليبية تسقط في أيدي المسلمين ولما يمض على وجودها نصف قرن.

رنة الحزن في المغرب الأوروبي سرعان ما أخذت تتفاعل وتتصاعد بشكل رهيب. واجتمع الرأي لدى الملوك قبل الشعوب أن لا بد من حملة صليبية كبرى لا تسترجع الرها فقط ولكن توقف أيضاً هذه اليقظة الإسلامية الجديدة التي أدت لهذه الكارثة. حمل هذه الدعوة وركض بها في كل مكان راهب فرنسي اسمه سان برنار. وعقد البابا وهو يومذاك أوجين الثالث. مجمعاً كنسياً في مدينة فيزلاي (مارس سنة ١١٤٦) استجاب له ملك فرنسا لويس السابع وإمبراطور ألمانيا كونراد الثالث للقيام بهذه الحملة التي سرعان ما تحركت سالكة دروب أوروبا الوسطى حتى وصلت بعد سنة إلى القسطنطنية...

ما أبه الصليبيون للقضية المأسوية التي حدثت في هذه الأثناء في المشرق. فقد كان زنكي يحاصر قلعة جعبر سنة ١١٤٦ حين اغتاله وهو نائم أحد مماليكه. أثخنه بالجراح فلم يمكث طويلاً حتى قضى. وكان له ولدان: أحدهما يحكم الموصل هو سيف الدين غازي والثاني أسرع يحكم حلب وهو نور الدين محمود وعلى الرغم مما اتسم به ذلك العصر من الغدر والأطماع ومن

الريب التي ثارت بين الأخوين فقد اجتمعا في صحراء سنجار بين الموصل وحلب وتعانقا وتعاهدا على التعاون والوفاء أحدهما للآخر ...

وهكذا سلمت مملكة زنكي بوجود ولديه فيها . لكنها فقدت على الفور إمارة الرها . وجد جوسلين الثاني أميرها الصليبي السابق في موت زنكي فرصته لاسترداد مدينته وإمارته فاسترجعها . وعاث فيها يعاقب المتعاونين مع المسلمين . وبلغت الأخبار نور الدين محمود بسرعة وهو في حلب فقرر استعادتها بأي ثمن وكانت هذه العملية فرصة لعجم عوده وإبراز قدرته الحربية . فلم يمض أسبوع على وجود الأمير الصليبي فيها حتى كان نور الدين بجيشه ومنجنيقاته وفرسانه أمام أسوار المدينة . توجه إليها في عشرة آلاف فارس وطوقها بالحصار . ففر منها جوسلين ناجياً بنفسه تاركاً جنوده وأهل المدينة لرحمة نور الدين .

وما كان نور الدين يستطيع الرحمة بعد أن قتلت الحامية التي تركها أبوه في المدينة ومثلوا بها بأفانين العذاب . وقد حاول الصليبيون بمعونة السكان المقاومة ولكن الحرب كانت غير متكافئة . ففرسان نور الدين كانوا يدوسون المدافعين بحوافر الخيل ويرمي الرماة مقابل السهم الواحد عشرات الأسهم وانجلت المعركة في النهاية عن تروس مرمية ودروع تملؤها الجثث وخيول نافقة ومجانيق ظلت حتى بعد فتح الأبواب ترمي الأسوار برجيم الحجارة والنيران ..

ودخل نور الدين مدينة الرها فاتحاً للمرة الثانية خلال سنتين فعاقب أهلها أشد العقاب وفرض عليهم مبالغ طائلة . ثم افتتح عدة حصون في منطقة الإمارة مثل البارة وأرتاح وكفر لاثا وغيرها وكانت أعماله هذه مما زادت في تحريك الحملة الصليبية الكبرى . صليبية الملوك التي وصلت القسطنطينية بسرعة والتي عرفت في التاريخ بالحملة الصليبية الثانية !

ولكن هذه الحملة على ضخامتها انتهت نهاية فاشلة جداً على أبواب دمشق وما وصل محارب واحد من هذه الحملة إلى الرها .. وهي التي كانت السبب الأساسي في الحملة !

معركة العقاب

في الطريق بين مدريد وأرض الأندلس تعترض السالك سلاسل جبلية جرداء في معظمها. تخترقها السيارات من خلال بعض الوديان وتمضي فيها صعداً إلى قريب القمم. يوم كنا نصعدها ما خطر في بالي أنني أدوس تراب أجدادي العرب إلا حين وقف الدليل يقول:

هنا كانت معركة الكلاب!

وغامت الجبال أمام عيوني. وتفجرت الصخور دماً سكباً. أو هكذا تصورت. هنا إذن كانت معركة العقاب المعركة التي ذهبت بالأندلس؟ وفيما كان الركب معي يغنون لا يدرون ما في خاطري كنت أعود القهقرى ٨١٠ سنوات إلى الوراء (٧٨٦ سنة ميلادية) وأستعرض ما كان في يوم من أيام يوليو تلك السنة! سنة ٦٠٩هـ. الدنيا كانت غير هذه الدنيا. في المغرب كان أمير المسلمين هو محمد الناصر لدين الله والدولة هي دولة الموحدين الممدودة حتى تونس شرقاً وحتى أواسط الأندلس في الشمال وحتى مشارف نهر السنغال والنيجر في الجنوب. إمبراطورية ضخمة. في وسط إسبانيا مملكة قشتالة النصرانية وعلى أطرافها تجاورها مملكة أرغون ونبارة والبرتغال والعداوة التي كانت تقدح الشرر في عيون هذه الممالك ليست سوى العداوة الصليبية توقدها أحلام البابا وقساوسة الكنيسة وجموع من النبلاء وأتباعهم الفلاحين البسطاء لا يفهمون إلا أن البابا هو ممثل الله على الأرض. طوبى لمن أرضاه والويل من غضبه الدافع إلى نار الجحيم!

قبل سنة ٦٠٦ /١٢٠٩ كانت بين الناصر والملك القشتالي الفونس

الثامن هدنة لمدة عشر سنوات ولكن الأذفونش بالاتفاق مع ملك أراغون خرقها ثم خرقها يهاجم الأراضي الأندلسية . يخرب الزرع . يدمر الحقول . يحاصر القلاع كأنما يريد أن يثير الموحدين لمعركة . والتفتت أنظار المسلمين إلى الناصر تستنصره وتستنجده فكتب إلى عماله في المغرب والأندلس بإعداد القوى والتأهب . وعبر إلى الأندلس أواخر سنة ٦٠٧ في حملة استعراض للقوة . من أشبيلية إلى قرطبة . واقتحم قلعة شلبطرة . ثم عاد ليقضي الشتاء مع الجيش في أشبيلية فالفصل المطير يدمر حركة الجيش في الوحول .

ويبدو أن ألفونس الثامن أصابه الرعب من قوة السلطان الموحدي فبعث يستجير بالقاصي والداني حتى بلغ نفيره إلى القسطنطنية فكان خائفاً من هزيمة أخرى كهزيمة الأرك التي لم ينسها الناس وهكذا جمع إليه حلفاً من ملوك إسبانية النصرانية ومن عدد من أقطار أوروبا من الفرنج والألمان واللومبارد . بالإضافة إلى قوى البابوية ودعمها المادي والمعنوي . البابا في ذلك الوقت كان إينوسات الثالث وكان يتمتع بروح صليبية عنيفة لا سيما بعد فشل الحملتين الثالثة والرابعة على المشرق .. وقد بعث إلى الأساقفة في جنوب فرنسا بأن يعظوا رعاياهم كي يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة . وأنه يمنح كل من يلبي الدعوة الغفران التام .. ويضمن له الجنة !

وكان ملك نبارة قد ارتبط مع الموحدين بحلف وصداقة فهدده البابا إذا لم ينقضه ويعاون الملك القشتالي بالحرمان . ولا يعني هذا حرمانه من الجنة فقط ولكن يجعله حليف الشيطان ويحرم حتى على أهله الكلام معه . وخضع ملك نبارة للتهديد . وانبث القسس والرهبان من البرتغال إلى القسطنطنية ينادون في البلاد من البحر الرومي إلى البحر الأخضر على ما يذكر بعض المؤرخين : غوثاً غوثاً . فأقبلت الجموع عليه من رؤوس الجبال وأسياف البحر ويقدرون أن عدة ما اجتمع لقشتالة من المحاربين حوالي مائة ألف اتجهوا كالجراد المنتشر من طليطلة نحو الجنوب . وحين وصلوا قلعة رباح وهي للمسلمين استسلمت

حاميتها ونزلت عنها بالأمان فأغضب ذلك قسماً من المتطوعين حين منعهم من قتل الحامية . قالوا : جئت بنا لنفتح البلاد وتمنعنا من قتل المسلمين ؟ ما لنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه . وانسحبوا .

ما كان الجيش الإسلامي بالقليل فقد كان يزيد على عدد الجيش القشتالي وقد انتشر في الجبال الواقعة شمال نهر الوادي الكبير . ممتدة من الشرق إلى الغرب . وكان الملك الناصر واثقاً من إحكام صفوفه ويحاول أن يطوق الجيش القشتالي بأجنحته . وقد سد عليه دروب التقدم نحو الجنوب . . .

وفجأة وجد قلب الجيش الإسلامي نفسه في الليل تحت السيوف . ومعسكراته تداس بالسنابك ما كانوا على استعداد لهذه المفاجأة التي أخذتهم بغتة أخذ عزيز منتصر . وعرف فيما بعد أن أحد رعاة الجبال كان يعرف ممراً يؤدي إلى قلب الجيش الإسلامي فقاد القشتاليين إليه ونزل البلاء في المسلمين من حيث لا يحتسبون . وحين دب الفزع تنافر الناس هرباً فيما كانت السيوف والدبابيس والمطارق وكرات الحديد ذات الأشواك تفلق الجماجم وتدور بالموت كعشرات الألوف من الغربان بين الجثث الهاوية . عند الصباح كانت السهول ملأى بالجرحى والقتلى وتبع القشتاليون الهاربين في دروب الجبال بالذبح . لم تكن المعركة حرباً بل كانت مذبحة أتت على الجيش الموحدي . ويبالغ المؤرخون فيقولون إنه فقد نصف مليون محارب وهي مبالغة كبيرة جداً لدرجة عدم التصديق لكن المؤكد أن الذين نجوا من المعركة كانوا عدداً قليلاً لا يزيد على الألف . وقتل في هذه المذبحة عدد كبير من العلماء والفقهاء والزهاد المجاهدين منهم أبو عمر النفزي الشاطبي أحد الحفاظ والقاضي الفقيه أبو ابراهيم المجابري الفاسي وأبو عبد الله الحضرمي وأبو الصبر الفهري السبتي . . .

ودخل القشتاليون بعد المعركة مدينتي بياسة وأبده وعاثوا فيهما نهباً وتدميراً وهدموا المساجد وأحرقوا وقتلوا من وجدوا في طريقهم من جرحى ومن

أطفال ونساء وعجزة . وقد عرض أهل بياسة شراء أنفسهم أولاً بفدية كبيرة وقبل الملوك ذلك . لكن القسس الرهبان رفضوا إلا القتل . وكان بينهم مطران طليطلة ومطران أربونة ... عارضوا باسم البابا والصليب ودخلوا المدينة عنوة . فقتلوا فيها زهاء ستين ألفاً وسبوا مثل هذا العدد وفعلوا مثل ذلك بأبدة بعد حصار دام ١٣ يوماً حتى ليقدر الكتاب أن عدد من وقع من السبي في أيديهم بلغ مائة ألف !

واستولى القشتاليون على غنائم لا تحصى منها العلم الموحدي الذي ما زال محفوظاً في المتحف الحربي بمدريد إلى اليوم . وقد أجمع المؤرخون أن هذه الواقعة كانت بداية النهاية للأندلس كلها فلم يمض كبير وقت حتى سقطت مدن الأندلس الكبرى بيد القشتاليين قرطبة وأشبيلية وجيان واستجه ولبلة وباجه . وانفرط العقد . وأخذ القشتاليون يلمونه حبة حبة !

أما السلطان الناصر فعاد إلى أشبيلية مقهوراً وانصرف منها إلى مراكش فلم يلبث أن توفي أواخر سنة ٦١٠ كمداً وحزناً ...

ولكن الأندلس كانت قد ذهبت !!

سقوط بلنسية

قال تعالى : ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾؟ آية كريمة يبدو أنها ما مرت بها عيون ملوك الطوائف في الأندلس أيام كان هؤلاء «الملوك» الصغار هناك فكل محلة فيها أمير المؤمنين ومنبر! ومثل هؤلاء الملوك كمثل الكثيرين غيرهم في هذا العصر. كان بأسهم بينهم واقتتالهم على ما يملك كل جار من جاره المسلم فيما هو يدفع الأموال والقلاع والمدن جزية أو رشوة للدول الإسبانية ويتنازل لها عن الحصون طوعاً لتتقوى بفرسانها وسلاحها على جاره المسلم. هكذا فقد المسلمون الأردة ودانية وقرطبة وأشبيلية بعد سرقسطة وطليطلة وغيرها كثير. كان الإسبان يتسقطونها مدينة بعد مدينة. لم يكونوا مستعجلين. ظلوا في استخلاص الأندلس مائتي سنة أولاً ثم في استرداد غرناطة مائتين وخمسين أخرى. أأحدثكم حديث إمارة من إماراتها؟

في شرقي الأندلس هناك مرفأ كان من أهم المرافئ الإسلامية هو مدينة بلنسية. كانت بجانب تجارتها الرائجة مركزاً للعلوم والآداب. وحين تفرقت كلمة الأندلس وذهب كل مسيطر بقطعة منها ذات علم وطبول وألقاب ومهرجان كانت بلنسية إحدى هذه القطع. وقد انتهى أمرها سنة ١٢٣٣/٦٣٠ إلى وال مسيطر يدعى أبا جميل زيان بن مردنيش. وقد عانى بسبب تفرده في الدفاع عن المدينة أقسى العناء. يدافع عنها مملكة أراغون وملكها الجشع المجاور له خايمه الأول الذي تسمى بالفاتح بعد استيلائه على جزر الباليار في مذبحة دموية معروفة.

كان ابن مردنيش يظهر القوة تارة ويداري تارة أخرى . فمنذ سنوات . وهو يعرف أن بلنسية مهوى أطماع هذا الطاغية وأنها لا تقوم وحدها لدفعه لا سيما بعد الصفة الصليبية التي أسبغها البابا على أعمال خايمة التوسعية ومباركته للمذابح التي يقوم بها للمسلمين !

واعتباراً من سنة ٦٣١/١٢٣٤ بدأت المعارك ضد بلنسية ... كانت معارك محدودة وأهمها معركة أنيشة آخر سنة ٦٣٤ وهو حصن منيع بناه خايمه الملك تمهيداً للوثوب على بلنسية . وحاول أبو جميل ابن مردنيش هدم الحصن واشترك معه في الحملة عدة من العلماء والفقهاء والمحدثين على رأسهم أبو الربيع سليمان الكلاعي الشيخ الجريء المعروف بالشهامة والعلم والجهاد . وكان يطوف في الصفوف ينادي المنهزمين أعن الجنة تفرون ؟ حتى قتل صابراً محتسباً مع عدد من علماء بلنسية وفضلائها والصلحاء كلب عليهم العدو وفقد نحو السبعين من أهل الصف الأول في جامعها الأعظم وهلك فيها من المسلمين ما لا يعلم عدده إلا الله .

وأثبتت معركة أنيشة صعوبة موقف بلنسية وإصرار الأرغوني خايمة على احتلالها . فبعث صاحبها الوفود يستصرخ الإخوة في الأندلس وفي المغرب . ولكن .. لا من يجيب . حتى يئس الناس من النصرة والنجدة :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

في حين كانت استعدادات ملك أرغون خايمه تبلغ حدها الأقصى . وفي رمضان من سنة ٦٣٥/١٢٣٧ بدأ يظهر سواد الجيش الأراغوني في التلال حول بلنسية . وبدأت الأشرعة تحتشد في البحر وتقترب . متطوعة من كل جنس كانوا مع الأراغونيين بحارة وقادة وفرساناً ومشاة . حشود فرنسية بقيادة مطران مدينة أربونة وحشود من جنوة وأخرى من بيزا وآخرون أرسلهم البابا عدا المرتزقة . وعدا تجار النخاسة اليهود ! وشيئاً فشيئاً ولكن في إحكام وتصميم تم تطويق المدينة التي صمم أهلها على الصمود حتى الرمق الأخير . ووجه ابن

مردنيش السفراء من جديد إلى المدن الإسلامية في الأندلس يستنجد. أرسل الفقيه أبا عبد الله الأنصاري إلى مرسية. أرسل غيره وغيره. ولكن الآذان كانت صماء حتى الطرش فلم يتحرك منها طير. وفقد الأمل في دولة الموحدين المغربية التي كانت تغوص في أوحال الخلافات فيها. فلم يبق أمامه سوى أن يستصرخ عاهل تونس أبا زكريا يحيى. اختار وفداً على رأسه كاتبه أبو عبد الله ابن الأبار. الأديب الشاعر المؤرخ الذي أبحر إلى تونس واستقبل فيها الاستقبال الحافل وألقى أمام العاهل الحفصي قصيدته المشهورة

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا　　إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهزت القصيدة الملك والناس واستدرت الدموع وأمر العاهل الحفصي بتجهيز أسطول شحنه بالمؤن والسلاح في ثماني عشر سفينة كبيرة وصغيرة. اتجهت إلى بلنسية. كان ابن الأبار قد سبق مع الوفد إلى المدينة ودخلها. وأدرك الجيش الأرغوني أن نجدة الحفصيين قد تمنعهم من الظفر بالغنيمة المتاحة فشددوا الحصار أشد ما يستطيعون. وحين وصل الأسطول الحفصي لم يستطع المغامرة بدخول الميناء فقد كانت القلوع والأشرعة المعادية تملؤه. فاضطر أن يعود ليفرغ حمولته من المؤن والسلاح في ثغر دانية جنوب بلنسية ...

وبدأ اليأس يفترس الأعصاب في المدينة. انقطع كل أمل حتى في القوت. وركض الجوع في الأزقة كالوحش يهدم الأجساد. وفنيت الأقوات فيما كانت مجانيق العدو ترمي الناس بكل صاعق وضعفت القوى وأكلت الجلود والرقوق وانتشر الموت ... عند ذلك بلغ الكتاب أجله. وإذا كان الخيار الأخير بين الموت جوعاً وبين تسليم المدينة فالكثيرون فضلوا التسليم والنجاة بحياتهم غير ملومين.

كان قد مضى على حصار بلنسية ستة أشهر لم يدخر أهلها قوة في الدفاع. ولكن الله غالب على أمره. وخرج أبو جميل ابن مردنيش يفاوض. مع كاتبه ابن الأبار وعقد الصلح على أن يخرج السكان من المدينة بأنفسهم.

وفيما كان أبو جميل يخرج في أهل بيته ووجوه الجند والعلماء الباقين والطلبة كان الطاغية خايمه يدخل بأحسن زي في عظماء قومه. وتلاقيا خارج مهزوم وداخل منتصر عند مكان يسمى الولجة واتفقا على أن يتسلم خايمه البلد سلماً لمدة عشرين يوماً ينتقل أهله أثناءها بأموالهم وأسعابهم منها ... وابتدأ الرحيل بضعفاء الناس وسيروا في البحر إلى دانية الثغر المجاور. واتصل انتقال سائرهم براً وبحراً وكان آخرهم أبا جميل ! ...

تحولت بالطبع جوامع المدينة كنائس ولم تمض أيام حتى أقبل الفاتحون على من بقي من المسلمين بفنون العذاب والأذى ولم يسلم من أذاهم حتى الموتى في القبور فقد نبشت ونثرت العظام وقطعوا الطريق على الهاربين فقتلوهم وسبوهم ما شاؤوا.

بقي أن نضيف أن ابن الأبار ركب الشراع مهاجراً إلى تونس يحسب أنه سيلقى فيها مالقي من قبل. وقد وصل ثغر بجاية فأهمل فيه عدة أشهر ثم استدعاه الملك الحفصي ليكون بين الكتبة. ولم يكن ليروق ابن الأبار ذلك فقد كانت فيه حدة وعنجهية أوردته مورد الهلاك. سعى الساعون به إلى الملك الحفصي فأمر بسجنه ثم بموته قعصاً بالأسنة ثم بإحراقه مع مؤلفاته كلها وكانت تزيد على خمسة وأربعين !

أكان الملك الحفصي في ابن الأبار أرحم من الأرغونيين في أهل بلنسية ؟

المعقل الأخير والبطل الأخير

في الساعة الأخيرة، قبل سقوط غرناطة، معقل المسلمين الأخير في الأندلس، بيد النصارى القشتاليين شهد رجال البلاط الغرناطي خروج رجل كشجرة السرو المنتصبة، من مجلس ملك غرناطة أبي عبد الله الصغير قطع الرجل بخطى عصبية بهو الأسود لا يراه لشدة الغضب وتجاوز الأعمدة الرشيقة والدمع يكاد ينفر من عينيه وقال أهل البلاط في قلق شديد:

ــ ما بال أبي عبد الله موسى؟ كان كلهم يعرفونه فهو ابن أبي الغسان قائد فرسان غرناطة وبطل الكفاح الأخير.. كان روح غرناطة المسلمة المتمردة على التسليم. ورمز عزة الإسلام أمام نبلاء المدينة اليائسين الذين قرروا الاستسلام... خرج الرجل وعليه درعه من باب القصر. وركب فرسه. وانطلق شاهراً رمحه ثم... لم يره أحد بعد أبداً. ولم يسمع عنه أحد.

ما حكاية ابن أبي الغسان؟ إنها حكاية الأيام الأخيرة لغرناطة. كان يقظة البطولة الأخيرة في النفس العربية المسلمة.. وهكذا تروي الرواية العربية هذه النهاية. أما الإسبان القشتاليون فيذكرون أن سرية من فرسانهم شهدت فارساً مسلماً مدججاً بالسلاح على ساحل نهر شنيل (غرناطة) فطلبوا إليه الوقوف ولكنه بدلاً من الوقوف هاجمهم بعنف شديد وبضربات ثائرة قاتلة. وكان كمن يريد الموت لا النجاة. قتل أكثر من سبعة فرسان. وجرح في النتيجة جرحاً أوقعه عن فرسه فركع على ركبتيه واستل خنجره يقاتل أطراف الرماح والسيوف حتى نفدت قواه.. ولم يرد أن يقع أسيراً فوثب إلى النهر وثبة

أخيرة وجعلته عدته الحربية الثقيلة يغرق . وقد عرفوه من حصانه . إنه ابن أبي الغسان !

كانت غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر قد أضحت مملكة صغيرة محصورة في أقصى الجنوب الشرقي من شبه جزيرة إيبريا (إسبانيا) . وفيها مدن قليلة وثغور محدودة . وقد حكم عليها بالموت حين تم زواج ملكة قشتالة بملك أراغون . واتحدت المملكتان ـــ وهما من أشد القوى النصرانية تعصباً وأطماعاً ضد غرناطة . واتفق أنه حين أزمعت هذه المملكة توجيه الضربة القاضية إلى غرناطة أن كانت المملكة المسلمة في منتهى التفرق والضعف . المنازعات الداخلية فيها على العرش قسمتها إلى قسمين أحدهما يحكمه أبو عبد الله محمد المعروف بالصغير ويقتصر على غرناطة وأعمالها والثاني يضم مدينة وادي آش وأعمالها ويحكمها عمه أبو عبد الله المعروف بالزغل . (أي الشجاع الجريء)

كانت قشتالة تناصب غرناطة العداء منذ زمن طويل . وقد سلبتها أخيراً بالتدريج مدينة مالقة أمنع ثغور الأندلس سنة ١٤٨٧/٨٩٢ ثم وادي آش والمنكب والمرية بعد سنتين . ثم بسطة في السنة التالية . وكان أبو عبد الله الصغير يصانع القشتاليين ويداهنهم ويصدع بما يؤمرون ولكن الشعب الغرناطي حمل حملاً على القتال . وتجمهرت جموعه تخرج للجهاد والمعركة . وهكذا وقعت بين الغرناطيين والنصارى في صيف سنة ١٤٩٠/٨٩٥م معارك عدة . لم يُثَبِّت فيها أقدام المسلمين في القتال سوى إيمانهم المطلق بنصر الله . وهكذا استردوا بعض الحصون التي سلبها العدو حول غرناطة بعد أن مزجوا ترابها بدمائهم وتركوا مزقاً من أحشائهم وأشلائهم على جدرانها الحجرية ...

وجاء الشتاء بقسوته الثلجية وزمهريره الصقيعي وعواصفه . فتوقفت الحرب أشهراً . حتى إذا كان الربيع زحف النصارى في جيش ضخم زودوه بالمدافع والذخائر الوفيرة . ولم تكن عدة غرناطة الدفاعية بالتي تقارن بالآلة الحربية القشتالية . ونزل الملكان لقشتالة وأراغون في هذا الجيش بمرج غرناطة

الجنوبي سنة ١٤٩١/٨٩٦ وضربوا حول غرناطة الحصار الشديد. وبلغ من تصميم الملكين أن أقاما للجيش في ذلك المرج مدينة صغيرة سمياها سانتافي (الروح القدس) (أو الإيمان المقدس) رمزاً للروح الدينية التي تحركهما وتجاوباً مع تعليمات البابوية.

في هذه اللحظات الأخيرة الحرجة دبت في غرناطة روح البسالة والمقاومة. لم ترد أن تستسلم لقدرها بسهولة. قررت القتال حتى النهاية. لم تتحمل ببطولة فقط بلاء الحصار وفتكه بالناس والمؤن والأعضاد على مدى سبعة أشهر بل كان لرجالها من الجرأة والشجاعة ما جعلهم يخرجون مرات لقتال العدو المحاصر ويفتكون بمعسكراته ويفسدون خططه.. كانت سنابك الفرسان المسلمين تجوس مرات بين الجند القشتالي وتثير فيه الرعب والهول. وكان روح هذه الفروسية هو القائد ابن أبي الغسان. كان يفضل الموت ألف مرة على رؤية بلده مرتعاً للكفرة! وكان ينقم على الملك أبي عبد الله الصغير ضعف نفسه وقلة طموحه وحين نزل ملك النصارى المرج ودعاه للاستسلام صرخ: ليعلم ملك النصارى أن العربي ولد للجواد والرمح فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها غالية.إن ما كنا ندفعه من المال من قبل قد أصبح سيوفاً وخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة من أفخم قصورها مع الخضوع للأعداء.

وأثرت حماسة ابن أبي الغسان في مجلس الملك. فبعثوا إلى ملك قشتالة أنهم سيقاتلون حتى الموت وصار اسم هذا الفارس على كل لسان وصارت معاركه مع القشتاليين أسطورية متوالية. وكان هؤلاء يرسلون جنودهم لإتلاف المزارع والقرى حول غرناطة. التي قطعت عنها الصلات مع البر والبحر. ولكن القتال استمر حتى دخل الشتاء مرة أخرى وقلت المؤن في المدن وبدأ الجوع يرود الدروب والطرقات ويفترس المعوزين.وقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبد الملك تقريراً للملك بأن المؤن تنفد وأن اليأس يطرق قلوب الجميع ولكن موسى بن أبي الغسان اعترض وأمر بوصفه قائد الفرسان بفتح أبواب المدينة

وإعداد فرسانه عليها ليل نهار يتصيدون من تحدثه نفسه بالإقدام من جيش العدو . وقال : لم يبق لنا إلا الأرض التي نقف عليها فإذا فقدناها فقدنا كل شيء ...

عند ذلك أمر ملك قشتالة وأراغون بالهجوم العام على أسوار المدينة فخرج المسلمون إلى لقائه وعلى رأسهم الملك أبو عبد الله وموسى بن أبي الغسان . ونشبت في المرج بظاهر غرناطة معارك عديدة شديدة الهول كان فارس غرناطة هو روحها الداوي . كل شبر من المرج سقي بدماء الفريقين . وشربت شفرات السيوف حتى الارتواء فيما كانت المدافع تعزف عزيفها المجلجل . والرماح تأخذ الصدور والظهور وتقعد بالخيل . ولم يحتمل مشاة غرناطة الحملة فتفرقوا وفروا ولحق بهم الفرسان إلى أبواب المدينة يمنعونهم فلم يفلحوا . وعادوا يقاتلون فغلبتهم الكثرة وانكفأوا يحتمون وراء أبواب المدينة ...

وفي مجلس المدينة الذي عقده أبو عبد الله الصغير قرر الجميع ضرورة الاستسلام إلا موسى ابن أبي الغسان فقد قال : خير لي أن أحصى بين القتلى من أن أحصى بين من يشهدون التسليم . وحين جاؤوا بشروط الاستسلام من ملك قشتالة وبكى بعض المجلس عاد الفارس وحده يعارض وقال : اتركوا البكاء للنساء نحن رجال لم نخلق للدموع ولكن للدماء . وإذا لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته فلن يعدم سماء تغطيه وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا الموت دفاعاً عنها ! ..

وخرج ابن أبي الغسان فلم يره بعد ذلك أحد ! فيما كان أبو عبد الله الصغير يتوقف وهو مطرود من غرناطة عند صخرة عرفت من بعد بتنهد العربي ، توقف وهو يبكي !

معركة دمياط الأولى

دمياط، المدينة، المصرية النائمة على شاطئ البحر المتوسط اليوم كانت لها ذات يوم ضجة عالمية تـزري بضجة ستالينغراد وهيروشيما في الحرب العالمية الثانية. كان ذلك في سنة ١٢١٧م. قبل ٧٧٨ سنة. دمياط كانت نيويورك البحر المتوسط. كل تجارات العالم بين الشرق والغرب تمر بها. لذلك كانت مطمعاً للصليبيين الذين ما جاء بهم إلى المشرق الإسلامي إلا الطمع التجاري. كانوا يفكرون بغزو مصر منذ اللحظة الأولى التي وصلوا فيها الشرق وظلوا يفكرون ويحاولون فلما أقاموا فيه أكثر من ستين سنة وجدوا أن مصالحهم لا تكتمل إلا بالاستيلاء عليها ومفتاح مصر كانت مدينة دمياط. وظلوا حوالي خمسين سنة يحلمون بها!

وذات صباح من أواخر مايو سنة ١٢١٧ رأى بعض أهل الشواطئ من تلك المدينة غمائم من الأشرعة تلوح في الأفق الشمالي وما لبثوا أن تبينوا في مناوراتها وحركتها وأعلامها أنها حملة عدوة ما لبثت أن أنزلت حمولتها من الرجال وآلات الحصار والنفاطات والخيل والسلاح في غرب المدينة. وراء فرع دمياط من النيل. ملابس المحاربين ورطانتهم التي يتناودن بها لم تكن غريبة على السكان. إنهم فرنجة صليبيون وأغلقت الأسوار. وركض الخبر في دمياط ركض البرق وطار به الحمام الزاجل إلى السلطان العادل وابنه الكامل الأيوبي. إنها حملة صليبية كاملة وقد امتدت معسكراتها وفي جانب منها قبة ملك بيت المقدس المقيم في عكا: حنا دوبريين.

لقد رأى هذا الملك تجمع القوى الصليبية عنده تسوقها دعوة البابا

إينوست ٣ ثم هونوريوس ٣ وازدهاه رغم شيخوخته أن يتحمس لفتح مصر مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وملك قبرص فجمع كل ذلك وقرروا غزو مصر عن طريق البحر ثم النيل. لكن وجد هذا الصليبي مدينة دمياط حصينة الأسوار جداً وقد بني ضمن مصب النهر في البحر برج السلسلة كالحصن ومدت على طرفيه سلاسل ضخمة تمنع عبور السفن إلى الداخل.

وقد أسرع العادل بالنيابة عن أبيه فعسكر بجانب دمياط. على الضفة الشرقية بجموع ضخمة في حين قضى الصليبيون ثلاثة أشهر يحاولون الوصول إلى برج السلسلة بالآلات والمرمات والأبراج حتى ملكوه. وقطعوا المآصر والسلاسل التي تسد مجرى النهر وهي قفل الديار المصرية كما يقول المؤرخون. وحين وصل الخبر إلى السلطان الأب الملك العادل ضرب صدره بيده ومرض وتوفي على الأثر !! بعد أيام.

حاول ابنه الملك الكامل إقامة جسر عظيم يسد مجرى السفن فقطعه الصليبيون ثم حاول إغراق مجموعة من السفن فيه فتغلب الصليبيون على هذه الصعوبة.. وفتحوا مجرى آخر للماء. ووصل في هذه الفترة الكاردينال بلاجيوس مندوباً عن البابا وقائداً عاماً للحملة. وصار للحملة قائدان !! على أن أخبار نجاح الحملة عرفت في عكا عاصمة القدس فخرجت منها غزوة صليبية تخرب بلاد المسلمين حولها عدتها خمسة آلاف فخرج لها الجيش الأيوبي فسحقها. لم ينج منها إلا مائة فارس من الداوية أسروا وسيقوا إلى القدس منكسي الأعلام كانت هذه وأمثالها حملات ضغط للتأثير على حنا دوبريين فينسحب عن دمياط لحماية بلاده في الشام ولكنه تابع حصار دمياط. وهدم المسلمون عدداً من أسوار المدن في الشام خشية وقوعها في أيدي الصليبيين ومن ذلك أسوار بانياس وصفد والقدس نفسها. كانوا في قلق عظيم ويعتزمون التنازل عن فلسطين مقابل دمياط وحين أخذوا في هدم أسوار القدس ارتفعت في البلد صيحة مثل يوم القيامة وخرجت النساء المخدرات

والبنات والشيوخ والعجائز والشبان والصبيان إلى مسجد الصخرة والجامع الأقصى . وقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى من الشعور وخرجوا هاربين من البلد تاركين أموالهم وثقالهم وامتلأت بهم الطرق فبعضهم هرب إلى مصر وبعض إلى الكرك وبعض إلى دمشق . . .

وساء موقف الجيش الإسلامي أمام دمياط بفشل هجوم شنه على الصليبيين ثم بمؤامرة داخلية ضمن الجيش المسلم ضد الملك الكامل . ثم بفرار الكامل نفسه متسللاً إلى داخل مصر . فعظم البلاء على الناس واشتد الكرب وكادت الهزيمة تقع لولا وصول نجدة مع الملك المعظم شقيق الكامل من الشام الذي وصل فاستدرج زعيم المؤامرة خارج المعسكر وسلمه إلى جماعة من أصحابه قادوه سجيناً إلى الكرك ثم غير موقع المعسكر الإسلامي بحيث يحمي دمياط من الخلف . وهكذا استمرت المقاومة الإسلامية في هذه المدينة تسعة أشهر . وبعث الملك الكامل سبعين رسولاً إلى الآفاق يطلب نجدات المسلمين تماماً كما كانت تأتي النجدات للصليبيين من مختلف أنحاء أوروبا . بدون جواب ! فالجيشان المتقابلان كانا يمثلان عالمين مختلفين ومتصادمين . لكن زاد الطين بلة بالنسبة للمسلمين ورود الأخبار من الشرق بهجوم المغول بقيادة جنكيز خان على البلاد الإسلامية التي وقعت بين نارين أقلهما يذهب بالأخضر واليابس فيها ويسحقها . وعرض الكامل على الصليبيين عرضاً مغرياً هو أسخى عرض يمكن أن يتقدم به ملك مسلم : هو إحياء مملكة القدس الصليبية كلها عدا حصن الكرك أي إعادة فلسطين للصليبين وإلغاء ما قام به صلاح الدين من فتح مقابل الجلاء عن مصر . ووجد حنا دوبرين الصفقة الرابحة وقبلها لكن الكاردينال بلاجيوس ورجال الداوية والاسبتارية وتجار بيزا وجنوا والبندقية رفضوا ذلك . وجدوا أن مكاسبهم في مصر أهم من مملكة القدس وأصروا على مهاجمة معسكر الكامل نفسه ففشلوا . وكرر الكامل عرضه مضيفاً إليه عسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر ما فتحه صلاح

الدين من بلاد الساحل ... ورفض العرض مرة أخرى ... في حين كان فيضان النيل منخفضاً تلك السنة فغلت الأسعار في مصر وبدأت المجاعة تطل برأسها .. وفيما كان الملك المعظم يفكر في حماية ملكه في الشام من المغول كانت دمياط تتعرض للمجاعة الشديدة بعد طول الحصار وتفتك برجالها الأمراض وتغلو فيها الأسعار ... ويسود فيها الموت بعد انعدام القوت فالأموات صرعى على الطرقات ... أما الصليبيون فكانت المؤن والنجدات تأتيهم بكثرة من قبرص كما كانوا يستولون على ما يحاول المسلمون تسريبه إلى دمياط من المؤن ! ...

وانتهى الأمر بعد تسعة أشهر من الحصار باستسلام المدينة التي غدر الصليبيون بأهلها فوضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً واستباحوها فجوراً . ثم أخذوا يمكنون لأنفسهم فيها بالمبالغة في تحصينها ليجعلوا منها قلعتهم المكينة في مصر . فهي مركز تجاري حربي فريد . وجعلوا جامعها كنيسة وبثوا سراياهم في القرى حولها تقتل وتأسر وتبيد ... نقطة الضعف التي واجهتهم هي الخلاف فيما بينهم على من يملكها . كل فريق منهم تنطع حتى اضطروا لانتظار عرض الأمر على البابا .

وعظم الخطب على المسلمين بسقوط دمياط في الوقت الذي كانوا يسمعون فيه بمذابح المغول الزاحفين من الشرق . فزاد الضيق بالناس حتى بلغت الروح الحناجر . ولم يؤثر على الصليبيين كثيراً اختلاف قائدي الحملة : دوبريين وبلاجيوس ولا انسحاب دوبريين بجنده عائداً إلى عكا لأن المندوب البابوي تابع القيادة ومنع السفن من النشاط بين دمياط وعكا . فكان ذلك فرجاً للسفن المسلمة كي تقوم بأعمال الغزو وتحرق سفن الحجاج الصليبيين ...

وكرر الكامل عرضه للمرة الثالثة بتسليم الصليبيين ما يريدون حين سمع بحملة كبيرة صليبية قادمة مع الإمبراطور فريدريك فطلبوا فوقه ٣٠٠ ألف

دينار يعمرون بها القدس ثم زادوها إلى خمسمائة ألف ... الصفقة رابحة والكامل ضعيف فلماذا لا يستغلونه إلى الحد الأقصى . ووصل دوق بافاريا على رأس قواته إلى دمياط فكانت الطامة . لأن بلاجيوس بعد ١٩ شهراً في دمياط قرر المسير إلى القاهرة واستدعى معه أيضاً حنا دوبريين . وانضافت إليهم أمم لا تحصى من الغرب .

نقل الكامل معسكره إلى موقع نعرفه اليوم بالمنصورة لكي يعترض طريق الحملة وجمع من المدافعين ما لا يحده حصر ولا إحصاء وقدمت عليه نجدات من الشام ... ولكن الكامل لم يحتج لهذا كله . كفاه الله القتال .

تقدم الصليبيون حتى قرب المنصورة وفتح المصريون عليهم الترع وكان النيل في أيام الفيضان فصارت الأرض وحولاً في وحول . وغاص الجيش الصليبي إلى الركب في الطين وغاصت معسكراته وآلاته . كان ذلك حكماً بالموت واستجار بلاجيوس بالكامل على أن يسلم حتى دمياط ويسلم الجيش الصليبي بجلده !

وقبل الكامل رغم معارضة أخويه وتسلم بلاجيوس وحنا دوبريين رهائن عنده إلى أن تم جلاء آخر صليبي عن دمياط ... ظفر لم يكن في الحسبان .

أما قال تعالى : ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ ؟

لويس التاسع والنذر المشؤوم

في يوم من صيف سنة ١٢٤٥ دخل القصر الملكي في باريس رجلان من رجال الكهنوت في الشرق أحدهما بطريق أنطاكية والثاني أسقف بيروت. ملك فرنسا يومذاك لويس التاسع (الذي يلقبونه بالقديس لويس لكثرة تعلقه بالدين) كان مريضاً مرضاً خطيراً ومع ذلك فقد سمح لرجلي الدين بعيادته. دخلا يبلغانه أن المجمع الكنسي في ليون قرر إرسال حملة صليبية إلى المشرق. لإنقاذ القدس من أيدي المسلمين. بعد أن حررها الخوارزمية!

واغرورقت عينا الملك بالدموع لذكر القدس والسيد المسيح والعجز المرضي... ولكنه. نذر أمامهما إن شفي من مرضه أن يقود الحملة بنفسه.في عيد الميلاد بعد ذلك كانت هداياه لحاشيته أثواباً تحمل علامة الصليب وأسلحة تحمل هذه العلامة. وعرف النبلاء والأمراء مع تماثل الملك للشفاء أنه مصمم على الوفاء بنذره. فقد ظل ثلاث سنوات يعد العدد للحملة. حسب أن السيد المسيح إنما شفاه ليقوم بها. وليكون خلاص القبر المقدس على يديه! بعد أن فشلت جميع الجهود الصليبية من قبل.

هذه الحملة هي التي يدعونها في التاريخ بالحملة الصليبية السابعة وهي حملة فرنسية خالصة! وأبحر لويس التاسع في أواخر أغسطس سنة ١٢٤٨ من فرنسا يقصد الشرق ومعه زوجته وأخواه وعدد من كبار الأمراء في فرنسا ومن صغارهم: وطارت الأخبار بها إلى المشرق وتطوع الإمبراطور فريدريك الثاني بإبلاغ الملك الكامل ــ وكان صديقاً له ــ بواسطة بعض التجار. تحرك الحملة ليأخذ استعداده وصلت الحملة إلى ليماسول في قبرص فاستقبلت بالفرح

الشديد ونزل ملك قبرص يستقبل زميله الفرنسي ويمشي في ركابه. وقدم له ولجيشه كميات هائلة من المؤن والنبيذ والغلال والخشب والجند. فبقي لويس التاسع في الجزيرة تسعة أشهر. قضى الشتاء هناك يفض مشاكل الصليبيين بعضهم مع بعض وينتظر نجدات أخر قادمة وراءه.

فضل لويس التاسع مهاجمة مصر. على التوجه إلى القدس. لم يخش فقط إن توجه إلى القدس أن تأتيه قوى مصر ولكنه فضل ضرب مكان الخطر أولاً في مصر وعند ذلك يأخذ القدس عفواً صفواً. يضاف إلى هذا أن تجارة مصر الدولية كانت هي مطمع رجاله وأمرائه والتجار الذين اجتمعوا حوله.. وفي مطالع صيف ١٢٤٩ تحرك الأسطول الصليبي بجنده ومعداته من ليماسول وعليه نحو خمسين ألف مقاتل. بعد خمسة أيام كانت الأشرعة تطل على دمياط. الثغر التجاري الحربي الكبير. واختار لويس أسلوب الحرب النفسية أولاً فأرسل إلى السلطان الكامل الأيوبي بكتاب ينذره فيه بأن «مسلمي الأندلس يحملون إلينا الهدايا ونحن نسوقهم كقطيع البقر. ونقتل منهم الرجل ونرمل النساء ونستأسر منهم البنات والصبيان ونخلي منهم الديار فلو حلفت لي بكل الأيمان ودخلت علي القسوس والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان ما ردني ذلك عن الوصول إليك وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصا وهم مرسلون إليك أسياف القضا..» وصلت الرسالة إلى الكامل وهو بدوره على فراش المرض فاغرورقت عيناه بالدموع وأجابه: «لو رأت عيناك يا مغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل لكان منك أن تعض على أناملك الندم ...».

ولم تستطع حملة الصليبيين أن تنزل قرب دمياط فنزلت في موقع إلى الشمال الغربي منها لأن الشاطئ كان شديد الحراسة والمدينة شديدة الحصانة قد حشد فيها الكامل الملك خير قواته. وشحنها بآلات عظيمة وذخائر وافرة.

ولم يكن نزول الصليبيين سهلاً فقد اصطدموا على رمال الشاطئ بفرسان المسلمين الذين خاضوا إليهم البحر ولكن المعركة التي دارت، دارت على المسلمين لكثرة الصليبيين وقتل منهم الكثير وفيهم عدد من القادة الأمراء. وهرب الباقون

والغريب أنه ما إن ذاع الخبر حتى استولى الرعب على من في دمياط من السكان والجند فتركوا المدينة هاربين بعد أن أحرقوا سوقها ونسوا في هربهم أن يقطعوا الجسر الواصل بين ضفتي النهر. فتقدم الصليبيون حذرين خوف المكيدة لكنهم تأكدوا أن المدينة فارغة فدخلوها واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة والأقوات والأزواد والذخائر والأموال وغيرها... صفواً عفواً. هذه المدينة التي وقفت الحملة الصليبية الخامسة أمامها تسعة أشهر بعد أن غلبها الجوع والوباء سقطت في يوم مع ما فيها من العدد والأقوات العظيمة!

كان هذا هو النصر العظيم الذي حققه لويس الملك في أول خطوة يخطوها بمصر. وقد أتبعها خلال خمسة أشهر بتحويل البلد إلى مدينة صليبية كاملة. سمي جامعها الذي تحول كنيسة باسم نوتردام دمياط ونصب فيها بطريق كاثوليكي. لم يحاول لويس اللحاق بالجيش المصري مباشرة لأنه كان ــ على ما يبدو ــ ينتظر مجيء أخيه بإمدادات جديدة وهذا ما أعطى الملك الأيوبي فرصة الاستعداد. والمزيد منه وهو على فراشه بالمنصورة. وقد جاءته الشواني والسفن بالعدد الكاملة والرجال من الشام ومن مصر...

ويبدو أن الصليبيين قرروا أولاً المسير إلى القاهرة على الضفة الغربية للنيل فعسكروا فيها. لم يتركوا في دمياط سوى النساء والعجزة وهذا ما أعطى الأعراب والجند الإسلامي فرصة الهجمات بشكل عصابات صغيرة تأسر وتقتل منهم في أطراف المعسكر الصليبي وتسوق الأسرى للقاهرة عشرات وراء عشرات... وحين وصلت الإمدادات الصليبية عقدوا مجلس الحرب واقترح بعضهم المسير

للاسكندرية. للسيطرة على جميع الساحل المصري وفضل آخرون ضرب مصر في قلبها في القاهرة. وتقرر ذلك كما تقرر المسير على الضفة الشرقية للنيل فانتقلوا إليها وشرعوا في الزحف بعد أن انتهى فيضان النيل لئلا يقعوا في مصيدة الوحول التي وقعت فيها الحملة الخامسة...

سارت الحملة رهيبة السنابك لامعة السيوف وبجانبها في النيل أسطولها يحمل المؤن والذخائر تاركة وراءها بحيرة المنزلة حتى وصلت قرب المنصورة وتوقفت لأن ثم فرعاً من النيل هو فرع إشموم يذهب شرقاً ولا جسر لاجتيازه واتفق لتقادير الله أن توفي في هذه الأثناء الملك الكامل. فكتمت امرأته شجر الدر الخبر الذي لم يعلم به إلا أتابك (قائد العسكر) وظلت تصدر الأوامر باسمه في انتظار وصول ابنه الذي كان في أقصى شمال الشام في حصن كيفا وديار بكر... لكن الخبر السيئ مالبث أن تسرب وعرف به الفرنج فشددوا من هجماتهم مستفيدين من الاضطراب في الجيش الإسلامي. وعبروا عن طريق مخاضة دلهم عليها بعض الخونة نهر أشموم. وهكذا فرضت المعركة فرضاً على المدافعين المسلمين الذين هزموا شر هزيمة في الصدام الأول.

ويبدو أن ذلك شجع بعض المتهورين من الصليبيين فاندفع أخو الملك الكونت دارتوا فاقتحم المنصورة خلاف أوامر الملك فوقعوا في أزقتها وطرقها تحت سيوف بيبرس البندقداري (وهو من سوف يسمى بالملك الظاهر فيما بعد) وأخذتهم السيوف أخذ عزيز مقتدر وأفنتهم دراكاً وقتلاً وإهلاكاً. قتلت منهم ١٥٠٠ محارب وكان دارتوا بين القتلى مع عدد من كبار الأمراء وقتل من الداوية ٢٨٥ فارساً وهرب أربعة فقط وتولى الناجون القلائل مدبرين.

ونصب لويس جسراً من الشجر على النهر ونظم جيشه من جديد ونزل بنفسه إلى المعركة التي اشتبك بها الجيشان اشتباك الشجر الملتف واشترك فيها العربان فلم تسفر عن نصر أو هزيمة. في حين بدأت المؤن تقل عند الفرنجة والأمراض تنزل بهم. وسمعوا بوصول طورانشاه وتسلمه القيادة فانتعشت آمال

الجيش المسلم في حين أخذ لويس يفكر في العودة إلى دمياط . خوفاً من كارثة حربية . لا سيما وقد أخذ المسلمون يهاجمون مؤخرة الفرنجة من الشمال ويقطعون عليهم طريق العودة . وهاجمت السفن الإسلامية سفن الفرنجة فأخذتها أخذاً وبيلاً وأسرت منها ٥٢ محملة بالمؤن وعليها ألف رجل حملوا على الجمال بين العسكر وأرسلوا للقاهرة .

ووقع البلاء في الفرنجة فلا هم يستطيعون التقدم ولا هم يطيقون الرجوع . واضطر لويس إلى طلب المغادرة كان يريد فقط الانسحاب الآمن إلى دمياط ولكن هيهات فقد رفض طلبه . وقد حاول جنده الهرب إلى دمياط فلحق بهم الجيش الإسلامي وركب أقفيتهم . ثم قام بهجوم عام عليهم وكان لويس التاسع قد عاوده المرض فحلت بالصليبيين الهزيمة الساحقة .. وقع بأجمعه بين قتيل وأسير . وكان من الأسرى الملك لويس نفسه !

أكرمه طورانشاه وسجنه في دار عرفت بدار لقمان في المنصورة وأوكل به خادماً عرف بالطوشي صبيح وسلم دمياط فدية له ومعها ٨٠٠ ألف دينار مقابل الأسرى ...

وأطلق لويس ينفض غبار الموت عن رأسه !

سقوط بغداد

في يوم من أيام نوفمبر سنة ١٢٥٧م سرت في العراق كله قشعريرة من الرعب انخلعت لها القلوب . لم تكن أكثر من كلمة : المغول قادمون !!

وتراءت للناس كما لو رسمت على كل الآفاق . الفجائع الدموية التي ذكرت عنهم والأساطير التي حيكت حول قوتهم الوحشية . وأنهار الدماء التي أسالوها في مسيرتهم بالتركستان وإيران والجماجم التي بنوا منها الأهرامات على الطرق . وما جرت خيولهم بأذنابها من الجثث . وذبحت سيوفهم صبراً من الأعناق . واخترقت من الصدور ... ومواكب العويل التي تركوا وراءهم بكل مكان . صور الشياطين الغبر كانوا للناس . بقبعاتهم من الفرو المنفوش وبعيونهم الخزر والمشقوقة إلى أعلى . وخيولهم التي تشق الطرق كالجن أو أشد نكالاً . وأيديهم الهمجية التي تجرر طوابير السبايا بالسلاسل . وعرباتهم التي تئن تحت أثقال الغنائم والهامات المرسلة الشعور على رؤوس الرماح ...

وغاضت الدماء في الوجوه وبدأ التفكير في الهرب من المدينة الكبرى التي كانت عروس المدن ورأس المدن لمدة خمسمائة سنة ! لكن إلى أين؟ سكان بغداد سمعوا عن زعيم الباطنية الرهيب الذي أمنه هولاكو وأنزله من قلعة الموت وأرسله إلى أخيه الخان الأكبر منكو خان في قره كوروم فقال منكو : لماذا تحضرونه وتشقون به عبئاً على الدابة التي يركبها اقتلوه . فقتل هو وأقاربه من النساء والرجال حتى الأطفال في المهود . سمعوا عن سكان بخارى الذين نهبهم المغول كل شيء ثم أمروهم بالخروج إلى ظاهر المدينة ثم أعملوا فيهم السيوف حتى أبادوهم عن آخرهم . سمعوا عن نكبة نيسابور التي قالوا إن المغول لم

يتركوا بها عيناً تطرف ... سمعوا عن تقبيل الملوك والأمراء الأرض أمام هولاكو ... ولم ينجهم ذلك من ضربة سيف تقطع أوساطهم أو دوس النعال حتى الموت أو ربطهم بالخيول الجامحة وإطلاقها بين الزعيق والقهقهات ... أين يهرب الناس ؟ هربوا إلى الآمال الزائفة والأوهام !

أكثرهم هرباً إليها كان الخليفة العباسي المستعصم نفسه . كان ضعيف العزيمة . منصرفاً لملذاته . فأهمل الخطر الداهم.بعضهم كان يطمئنه إلى أن نظام الفلك سيضطرب إذا هولاكو مسه بسوء . وبعض يقترح عليه أن يسترضي الطاغية بالدعاء له على منابر الخلافة ونقش اسمه على السكة ... ولو كان هولاكو على البوذية ! وبعض رأى استرضاء المغولي الكبير بالهدايا والتملق .. والمال وجاءت الرسل المغولية تترى إلى بغداد تطلب الاعتراف بسيادة الخان الأعظم عليها . وفي نوع من البلادة واستبعاد السوء . ظن الخليفة وبعض حاشيته أن الرسل علامة تهيب وخوف وكان الخليفة نفسه سيئ التدبير ، قصير النظر محباً لجمع المال . فلم يأخذ بتهديدات هولاكو الأخذ الجدي . وحين يبلغ منه اليأس مبلغه كان يقول : بغداد تكفيني ولن يستكثرها علي ! ويستأسد أحياناً فحين وصله رسل المغول قال : « يجب أن يفهم هولاكو إني إمام المسلمين جميعاً . ومن الشرق إلى الغرب ومن الملوك إلى الشحاذين ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالإسلام هم عبيد لهذا البلاط وجنود لي » وما اكتفى بذلك بل ترك لعامة بغداد أن يبادروا بالإهانة والسفاهة هؤلاء الرسل . فأخذوا يمزقون ثيابهم ويبصقون في وجوههم ... كان يظن أن المماليك والأمويين سينهضون لنصرته وأن المسلمين سيأتون من كل فج تحت الراية السوداء للدفاع عنه وأن المسلمين في بلاد فارس وإيران سوف يثورون ضد المغول إن حاولوا الاعتداء على الخلافة ... أحلام يقظة فقد أسقط في يد الخليفة حين أعلنه هولاكو بالحرب . لم يكن أعد للحرب أي عدة . حتى بغداد كانت في انقسام على نفسها وخصومات عنيفة بين السنة والشيعة . وكان الفيضان قد

دمر قسماً كبيراً من بيوت المدينة ومن سورها ومدارسها سنة ٦٥٤ في شرقها وغربها وأشار الوزير ابن العلقمي على الخليفة : إن المال قد يحل المشكلة . وعلى الرغم من ثروة الخليفة الضخمة (التي ظهرت فيما بعد) فإنه اختار في تدبير المال أن يسرح ٨٠ ألف فارس من فرسان الخلافة وكانوا ١٠٠ ألف وكان أسلافه يحرصون على هذا الجيش ليكون لهم قوة عسكرية كافية تحول دون عدوان سلاطين إيران عليهم . وبعث بالأموال التي توافرت له في أنقاص قوته الحربية يسترضي خان المغول . كان ذلك خرقاً في الرأي لأمر يريده الله ! لا سيما أن المسلمين لا يمكن أن يثوروا في تركستان وفارس فقد كانوا مسحوقين حتى العظم بالنير المغولي . والمماليك والأيوبيين في مصر والشام كانوا غارقين إلى الأذقان في خصوماتهم الخاصة . وليس لسيد بغداد عندهم من وزن وبخاصة حين يدعوهم للوقوف في وجه السيل المغولي الكاسح .. الذي يستعيذون من مجرد ذكره بالله ! وذهبت أحلام الخليفة بدداً .

لم يبق أمام المستعصم سوى المواجهة . فأقبل يجمع المرتزقة من الترك والفرس والعرب . ومتى كان المرتزقة سداً وحماية ؟ أمام ثلاثة سيول من المغول انصب واحد منها من الأناضول نحو بغداد عن طريق الموصل والثاني أتى من الجنوب عن طريق لورستان وخوزستان والثالث قاده هولاكو من همذان إلى بغداد . في مطلع سنة ٦٥٦/١٢٥٨هـ كانت الجيوش الثلاثة تلتقي في بغداد . الجيش الذي أعده الخليفة ما إن خرج ليمنع لقاءها حتى أخذته السيوف فقتل بعض وغرق بعض في الماء ولاذ الباقي بالفرار .

وعرف أهل بغداد أن مصيرهم هو المصير الأسود الذي عرفته المدن الأخرى وأخذ الناس بالهرب وأما الخليفة فأين يهرب ؟ . ودخل المغول بغداد خيالة ورجالة دبيب السنابك كان أشبه بدبيب الموت . كانوا يقتحمونها اقتحاماً وبدأ الذبح والحرق والتدمير . تراكمت الجثث في الأزقة أكواماً بعد أن نهبت المدينة بيتاً بيتاً . اشتعلت فيها الحرائق بعد النهب . أحرق جامع الخليفة

ومشهد موسى الجواد وقبور الخلفاء وعدد كبير من المساجد والدور الفخمة. دام ذلك أربعين يوماً حتى جافت المدينة. وبدأ الوباء يركض في طرقها والأزقة. كانت الضحايا من الكثرة بحيث قدرها المؤرخون بمليوني إنسان. وهو رقم مبالغ فيه جداً. فبغداد المنكوبة يومذاك لم تكن تتسع لعشر هذا الرقم. والرقم المقبول قد يكون حوالي مائة إلى ١٥٠ ألف جثة. رمي بعضها في دجلة وذهب بعضها في تراب الأرض أو تحت الردم. أو مع المحارق أو أخرج من بغداد أسيراً فقتل في الطرقات وقتل معهم كثير من اللاجئين إليها... أما الخليفة فاستسلم وأخذ به مكبلاً إلى معسكر الخاقان. ولعله والخاقان يكلمه كان يفكر في أحلامه الخائبة بالإنقاذ. وكيف لم تتحرك جارحة لنصرته. أخرجوا من قصره الواسع على الضفة الشرقية لنهر دجلة كل ما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه خلال خمسة قرون من الجوهر والسجاد والستور والسلاح المزين والبسط الثمينة والنسيج الحريري. وتحت بحيرة القصر الواسعة وجدوا طبقات من الدنانير الذهبية التي يعدل كل منها خمسة دنانير. وتعجب هولاكو وسأل الخليفة: كيف لم ينفق هذا الثروة في الدفاع؟ وأمر بقتله! فقيل خنق. وقيل وضع في كيس ورفس بالأرجل حتى مات وقيل أغرق في دجلة... وبموته انتهت ٥٢٤ سنة من الحكم العباسي في بغداد وانتهت معه الخلافة العباسية فيها. ولم يقتل وحده. ولكن قتل معه ابنه الأكبر. ثم الابن الثاني له. وقضى المغول على كل من وجدوه حياً من الأسرة. عدا أفراد قلائل لم يأبهوا لهم...

شارك المغول في هذه الأعمال أعداد من المسيحيين الشرقيين. وجدوها فرصة طيبة للتشفي فكان الأرمن والنساطرة خاصة أكثر عنفاً من المغول في النهب والتدمير والقتل. ومع ذلك فإن وجود كمية حسنة من السكان في بغداد بعد الغزو وقيام عمليات الإصلاح والترميم في المساجد والمدارس والربط والأبنية العامة دليل على أن المصيبة أصغر مما صور المؤرخون. وتسليم حكم بغداد لعطا ملك الجويني ٢٣ سنة بعد ذلك.

سقوط بغداد بيد المغول كان له دوي الرعود في العالم الإسلامي وحسب الناس أن النجوم ستخر وأن الظلام سيعم الكون أو أن القيامة قاب قوسين أو أدنى ... ولم يحدث شيء من ذلك .

قهقهة هولاكو وحدها كانت تضج في مسامع الشرق كله !

عين جالوت

كالغمام الأسود مرت سنوات ١٢٥٧ ـ ١٢٦٠ على الشرق الإسلامي. كانت أشباح المغول تقفز كالجن في أوهام الناس. لم تكن الرجة الهائلة التي أحدثها هجومهم الوحشي على بغداد قد هدأت حين تحركوا كالسيول العمياء نحو الجزيرة في شمال العراق. في طريقهم ألموا بميافارقين وكانت لأمير أيوبي صانعهم وأرسل لهم الهدايا فلم يمنعهم ذلك من ذبح أهلها المسلمين. أما أميرها الكامل محمد فقد قطع المغول جسده إرباً وحمل رأسه على حربة ليطاف به في أنحاء الشام من حلب إلى دمشق.

ثم تدفقت جموعهم من أذربيجان وكردستان فاستولت على آمد ونصيبين وحران والرها وحين قاومتهم سروج. دخلوها فذبحوا أهلها جميعاً ...ثم عطفوا على البيرة ونهبوا منبج... كل ذلك في طريقهم إلى حلب. كان هولاكو يسير في موكب من الأمراء الذين استسلموا وخضعوا له فأبقى على حياتهم. موكب ذل واستخذاء كان جنازة للمدن التي دمرت ونهبت وراءهم!

حين اقترب هولاكو من حلب أسرع مطران اليعاقبة إلى مغادرتها لتقديم فروض الطاعة والشكر له! فمنذ غادر المغول إيران اصطبغت حملاتهم بشيء من الصليبية النصرانية. لا لأن زوجة هولاكو نسطورية فحسب ولكن لأن ملك الأرمن وقف معه والأمير الصليبي لأنطاكية وطرابلس أيضاً ولأن النصارى شاركوا جيشه في النهب والسلب والقتل وأخيراً لأن البابا وبعض أمراء أوروبا المتعصبين بعثوا يطلبون التحالف معه ضد المسلمين!

وأرسل هولاكو يطلب من نائب حلب وأهلها التسليم واختار النائب

المقاومة. رفض بشجاعة ورد على رسل الخاقان قائلاً: ليس لكم عندنا إلا السيف. ولكن الشجاعة وحدها لا تغني أمام الزحف المغولي المفترس الذي يملأ السهل والجبل لذلك لم يدم حصار المدينة أكثر من أسبوع. وأنهكتها المجانيق وزعيق الأبواق الوحشية وتدافع المغول على عبور الثغرات التي فتحت في الأسوار. وبدأ النهب والقتل والحريق. كانت الحرب بالنسبة للمغول عملية إبادة. وهكذا عرفت طرق حلب وأزقتها والمساجد والمدارس والدور ضربات السيوف المغولية وارتماء الجثث وعويل السبايا الذين زادوا ـــ كما قيل ـــ على مائة ألف نصفهم من الصبية. بيعوا في أسواق النخاسة في أرمينية والمدن الصليبية. وحرص ملك الأرمن على إحراق جامع حلب بنفسه!

أما قلعة حلب الشهيرة فقد دمرها الغزاة تدميراً بعد أن كانت رمز المقاومة للروم البيزنطيين وللفرنجة الصليبيين عدة قرون.

وساد الذعر بلاد الشام كلها واصطكت ركب الأمراء. قلائل هم الذين اختاروا الموت بشرف. كأمير حصن حارم المنيع الذي قاوم فأتى هولاكو بالسيف على جميع أفراد حاميته. قتلهم دفعة واحدة مع نسائهم وأطفالهم. ولجأ صاحب حمص إلى هولاكو مستسلماً في حين هرب صاحب حماه بحريمه وأولاده إلى مصر تاركاً إمارته لمصيرها. وهرب مثله أمير دمشق إلى غزة نحو مصر. وترك دمشق خالية قد أحاط عامتها بالأسوار. في حين وقعت الجفلة في الناس حتى كأن القيامة قامت... وبادر قاضي دمشق إلى حلب فسلم هولاكو مفاتيح المدينة فعينه عليها ولبس خلعته فيما كان القائد المغولي كتبغا يدخلها لاحتلال القلعة التي ظلت تقاوم ومعه ملك الأرمن وبوهيمند السادس أمير أنطاكية الصليبي! ثم جاء هولاكو ليشهد المعركة مع القلعة التي استمرت تقاوم أربعين يوماً وتدحرج في المعركة بعض أمراء المغول ولكن الخاقان قال لهم: كما أن اللون الأحمر يكون زينة للنساء فكذلك تكون الدماء الحمراء للرجال على وجوههم ولحاهم زينة لهم!...

وامتد السيل المغولي بعد ذلك في كل اتجاه يفتح المدن الصغيرة في الشام حتى بلغت طلائعه غزة فقتلت الرجال وسبت النساء والصبيان واستاقت من الأسرى والأبقار والأغنام والمواشي الشيء الكثير ... مسيرة المغول من تركستان إلى إيران إلى العراق إلى الشام كانت مسيرة تدمير حضاري كامل وعاصفة خلطت شعوب المناطق بعضها مع بعض من خلال الهجرة والسبايا والهرب . وخلخلت التكوين السكاني بقتلها ثلث أو نصف السكان . وإقفارها مدناً بكاملها . بالإضافة إلى ما دمرته السنابك الزاحفة من الزروع والشجر والحقول كانت أشبه بكابوس عنيف في الحلم لولا أنها كانت حقيقة واقعة .

ولم يصل الصراخ والهرب إلى مصر ولكن وصل وراءه ومعه تهديد المغول . كان المماليك قد بدأوا حكمهم في مصر . والسلطان كان يدعى المظفر قطز ويقال إنه في الأصل من أولاد ملوك خوارزم . ولم يكن قد مضى عليه في العرش سوى فترة قليلة حين وصله إنذار هولاكو « يطلب منه ويذكره بأن المغول فتحوا البلاد كافة لم يقف في وجههم أحد ويضيف قوله : وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب . فأي أرض تؤويكم وأي أرض تنجيكم وأي بلاد تحميكم . فما من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص ... » .

كان واضحاً أن قوة المماليك لا تنهض لقوى المغول وأن المماليك تداولوا في الأمر ومال الكثير منهم إلى الاستسلام أو الهرب . غير أن السلطان وقف في أمرائه فقال : إنما أنتم جنود هذا الدين وما تنالون ما تنالون إلا باسم الإسلام وأنا ذاهب للقتال فمن شاء فليذهب معي ! فإن كان النصر وإلا فالشهادة . وقد شاء قطز أن يجمع من الناس شيئاً يستعين به على القتال وجمع العلماء لذلك . فحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقال : لا يجوز أن يؤخذ من الرعية شيء حتى لا يبقى في بيت المال شيء . وتبيعوا ما لكم من الحوائص والآلات

ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه وتتساووا في ذلك أنتم والعامة . وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا ! ولم يجرؤ قطز على فرض أي ضريبة ولكنه أتى برسل المغول فضرب بالسيف أوساطهم وعلق رؤوسهم على باب زويلة رمزاً لإعلان الحرب .

وخرج بالجيش المملوكي من القاهرة ولحق به عدد من الأمراء منهم مملوك سوف يكون له شأن اسمه بيبرس البندقداري شركسي الأصل شجاع العزيمة . وتراجعت الطلائع المغولية من غزة ويافا أمام هذا الجيش الذي لقي المغول في جنوب بيسان بموقع يعرف بعين جالوت . واتفق في تلك الفترة أن توفي الخاقان الأكبر شقيق هولاكو فعاد الطاغية بمعظم جيشه إلى قوه كوروم تاركاً في الشام عشرة آلاف مغولي مع قائده النسطوري كتبغا . ووضع المماليك خطتهم على أساس مسالمة الصليبيين ونصب الكمائن والانقضاض بقسم من الجيش على المغول بقيادة بيبرس ثم الهرب أمامه ... وكذلك كان فما إن هربوا . ولحق بهم المغول منتصرين حتى انهالت عليهم الكمائن بالنشاب والسيوف من الجانبين من الأحراش ومن بين الأشجار المحيطة بعين جالوت . ورأى كتبغا الذي هجم وكأنه بحر من اللهب بسبب العنجهية والغضب جيشه يتمزق أشلاء على الأرض ... اضطرب عسكر المماليك أول الأمر فألقى السلطان خوذته عن رأسه وصرخ واإسلاماه وحمل بنفسه على العدو فتدفق الجند وراءه . يفلقون الجماجم والصدور والأيدي التي تحمل السيوف ويلحقون بمن ولوا الأدبار لا يلوون على شيء ... وكان كتبغا القائد نفسه بين القتلى وحمل رأسه على الرماح إلى مصر .

كانت عين جالوت نصراً قام له المشرق الإسلامي وقعد . كانت أول مرة يهزم فيها المغول . كما كانت نهاية للمد المغولي المكتسح . أنقذت المعركة الشرق الإسلامي من أن يدمر . ولم يعد للمغول من مكان فيه فتراجعوا بعد هذه

الضربة القاصمة إلى العراق . ولم تسمح لهم الظروف بموجة ضخمة أخرى تثأر للهزيمة ... وهكذا كانت عين جالوت المعركة الأخيرة والحاسمة ... قال تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ .

طرد الفرنجة الصليبيين

اسم صلاح الدين كبير جداً . ضخم في الأصداء سواء في التاريخ أو في النفوس . غير أنه ليس صلاح الدين هو الذي ختم الحروب الصليبية وإن كان أول من دمر كبرياءها ولكنهم ثلاثة رجال جاؤوا بعده بمائة سنة هم الذين أنهوها . صحيح أن صلاح الدين حرر القدس وعدداً من المدن الأخرى . ولكن العمل الذي تركه وراءه اقتضى قرناً كاملاً من الحروب لينتهي بطرد الفرنجة من المشرق الإسلامي . واقتضى ظهور ثلاثة أبطال آخرين مثل صلاح الدين ليسجلوا هذه النهاية هم الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون ثم ابنه الخليل لاحقاً لكن ... اقتضت هذه النهاية بين هذا وذاك ما يقارب مائة معركة : بعضها أشد هولاً من حطين ! وكانت أعمال هؤلاء الثلاثة يكمل بعضها بعض كما لو كانوا يكنسون بقايا الرجس والتعصب الأعمى عن الأرض العربية المسلمة ! وكان اقتلاع الفرنجة بطيئاً من مدينة إلى مدينة كما لو كانت تقتلع كتلة من الشوك المنتثر على الجسد ! فأما الظاهر بيبرس فجعل همه القضاء على الصليبيين وطردهم من الشام منذ سنة ١٢٦١ فما كمل برنامجه إلا على يد الخليل بن قلاوون بعد ثلاثين سنة . بدأ بيبرس يرد على تحرشات الصليبيين بتحرشات مثلها وبمفاوضات أقنعته أن لا بد من حربهم حرباً شاملة فتحرك على رأس جيش ضخم احتل المدن على ساحل فلسطين من غزة إلى قيسارية ثم يافا ثم عتليت بلد المتعصبين من فرقة الداوية . ثم أرسوف بلد الاسبتارية الذين أرسلهم في الأصفاد إلى الكرك وأخيراً عكا فلما لم يتمكن من أخذها انصرف إلى حصار صفد فاحتلها بعد المقاومة العنيفة من فرسان الداوية .

ثم أعقب ذلك بفتح تبنين ومدينة الرملة! ولم ينس تحالف ملك الأرمن مع المغول فأرسل عليه جيشاً هزمه وقتل أحد أبنائه وأسر الثاني. وأغار على مدن المصيصة وأذنة وطرسوس.. وعاد المماليك من هذه المعارك يسوقون أربعين ألف أسير وما لا يحصى من الغنائم حتى بيع رأس البقر بدرهمين ولم يوجد من يشتريه!

وتوج بيبرس أعماله الحربية بالاستيلاء على أنطاكية أقدم إمارة صليبية في المشرق بعد الرها. قسم جيشه ثلاث فرق توجهت واحدة إلى ميناء السويدية لتقطع صلة أنطاكية بالبحر والثانية سدت الممرات إلى قليقية والثالثة بقيادة بيبرس هاجمت المدينة التي سقطت بعد مقاومة محدودة في يده وغنم منها غنائم هائلة بلغ من كثرتها أن قسمت النقود بالطاسات. ولم يبق غلام محارب إلا وله غلام وبيع الصغير باثني عشر درهماً والجارية بخمسة دراهم وقدرت المراجع الأجنبية عدد الأسرى بمائة ألف أسير! أما الداوية فهربوا من الحصون التي كانوا فيها... وانهار بسقوط أنطاكية ركن من أهم أركان الوجود الصليبي في المشرق.

واستولى على السلطنة سنة ١٢٨٠ السلطان قلاوون وكان عليه أن يصد حملة مغولية ضخمة ظهرت طلائعها في شمال الشام سنة سلطنته. لكنها عادت سنة ١٢٨١ بجيش ضخم عبر الجزيرة كلها يقوده قائد مغولي عنيد اسمه أبغا وقد استدعى أخاه منكو تيمور من قبادوقيا عن طريق عنتاب وانضم إليهما ملك أرمينية الصغرى. وقدر المؤرخون هذا الجيش بخمسين ألف مقاتل عدا ثلاثين ألفاً آخرين من الحشود والجموع. من أجناس مختلفة كالكرج والأرمن والعجم. زحف هؤلاء كالجراد يدمر الأخضر واليابس على وادي نهر العاصي فوصل أمام حمص حيث لقي جيش المماليك مرابطاً بقيادة السلطان قلاوون. ودارت المعركة في آخر أكتوبر سنة ١٢٨١.

الذين شهدوها فزعوا من رهبتها الدموية. تحدثوا عن ألوان الموت فيها

وطيران الجثث والهام. كان المغول يحاربون دفاعاً عن هيبتهم التي شرخت في الشام أما المماليك فيحاربون عن وجودهم وكيانهم. وتناثر المتطوعون مع المغول وفروا هاربين في حين نزلت السيوف بكتلة الجيش المغولي فقتل منه الخلق الكثير. وولى الباقون الأدبار. أما ملك الأرمن فقد هرب عائداً إلى بلاده فوقع في الطريق في كمين أعده له التركمان والأكراد وخرج إليه شجاع الدين فقتل رجاله وأسرهم عن آخرهم بحيث لم يفلت منهم إلا دون العشرين أحاطوا بالملك هاربين.

وأعقب قلاوون ذلك باقتلاع الجماعة العسكرية الصليبية المعروفة بالاسبتارية في حصن المرقب وهو من الحصون الشهيرة بالمنعة والحصانة وبالاتساع الكبير كأنه مدينة. وأخيراً اتجه قلاوون بقواه إلى ثاني المراكز الصليبية الضخمة في الشام: طرابلس. عرف من عيونه هنا وهناك ومن تجار الفرنجة وغيرهم مبلغ المنازعات الداخلية التي تمزق القوى في هذه المدينة الثغرية. لم يكن يستقر بها حكم والأسطول الجنوي يحارب الأسطول البيزي. في الموانئ وعلى وجه البحر. وتنافس المتنافسون على كرسي الإمارة حتى طلب بعضهم معونة السلطان قلاوون في ذلك... ولم يكن بحاجة إلى من يحرضه ضد طرابلس فجمع جيشه فلم يشعر صليبيو طرابلس إلا وجيش المماليك عند الأسوار.

وأسرع ملك قبرص الصليبي. ومقدم الاسبتارية والصليبيون في عكا والجنوية والبيازية ـــ رغم خصوماتهم فتضامنوا جميعاً لإنقاذ طرابلس ولكن بعد فوات الأوان. كان جيش قلاوون مؤلفاً من أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة ضرب بهم الحصار حولها... كان بناؤها بعيداً بعض البعد عن الساحل لذلك استطاع أن يضايقها أشد المضايقة بعد أن نصب عليها آلات الحصار وأخذ النقابون ينقبون أسوارها. وأراد البنادقة حفظ ثرواتهم فأخذوا ينقلونها سراً إلى صور وشعر أهل جنوة بذلك ففعلوا مثلهم عن طريق البحر حيطة

للمستقبل. وشاع ذلك فدبت الفوضى في المدينة وارتبك الأهالي وشاع فيهم اليأس... فأخذوا في الهرب على الأشرعة فنجا بعضهم لكن أكثرهم غرق أو قتله المحاصرون وسبوا ذراريهم وغنموا منها الغنائم... فيما كانت طرابلس تستسلم! وفر الكثيرون في البحر إلى كنيسة في جزيرة قريبة. ولكن جند المماليك خاضوا بخيولهم الماء حتى أدركوهم وأخذوهم بالسيوف قتلاً وسبياً. وأسر الكثير من الأطفال... وظل نتن الجثث في الجزيرة مفعم جوها سنوات طويلة. وهدم قلاوون المدينة كلها حرقاً وتدميراً وبنى بدلاً منها مدينة أخرى أبعد عن البحر خشية أن تعود الأساطيل الفرنجية وتهددها...

وانهار بسقوط طرابلس الركن الثاني من أركان الوجود الصليبي في الشام.

لم يبق في النهاية إلا عكا. ومن حولها صور وصيدا. ولم يكن في نية السلطان مهاجمتها ولكن تجار البندقية الذين كانوا يستفيدون ويسيطرون عليها استجابوا لدعوة البابا وجمعوا حملة من ١٦٠٠ مرتزق خرجوا في عشرين سفينة بقيادة دوج البندقية نفسه ومعه عدد كبير من البنادقة ومتطوعي المدن الإيطالية المختلفة ونزلت في الساحل العكاوي كانوا جموعاً تحركها العصبية الدينية. وأما في الخبرة الحربية فكانوا لا شيء. وما إن نزلوا حتى ذبحوا من وجدوهم من الفلاحين المسلمين ودخلوا عكا يذبحون التجار المسلمين المعاهدين فيها. وانتقل الخبر إلى السلطان مع الثياب الملوثة بالدماء فثار ثائره وأقسم على الانتقام. وحاول زعماء عكا الاعتذار فلم يقبله...

ولم تكن عكا واعية لمصيرها فقد كان فيها ١٧ جالية تستقل كل منها بشؤونها. وفيها الهاربون من الأمارات الصليبية المحتلة. وممثلون لمنظمات الفرسان وللملوك إنكلترا وفرنسا والبابوية والمدن التجارية الإيطالية. وهم خليط لا يمكنه الاتفاق على شيء...

واتفق لقدر الله أن توفي قلاوون في هذه الغمرة فطار الصليبيون فرحاً

بالخلاص لكن فرحتهم لم تتم لأن ابنه خليل صمم على متابعة مشروع أبيه ورفض العفو وسار بقواته التي جمعها من مختلف المدن الشامية وقد قدرت بستين ألفاً من الفرسان ومائة وستين ألفاً من المشاة عدا أضخم آلات الحصار. كان الصليبيون قد جمعوا ٨٠٠ فارس و١٤ ألفاً من المشاة. وفي أبريل سنة ١٢٩١ ضرب المدينة بالمجانيق الكبار فأحدث عدة ثقوب في سور عكا. وحاولت الجاليات المختلفة أن تقف للبلاء النازل بها وجاءهم ملك قبرص بنجدة صغيرة فرحوا لها لكنه ما لبث أن انسحب...

وعبر الجند المسلم الثغرات بعد شهر من النقب واشتبكوا بالسلاح الأبيض واقتحموا المدينة فالضحايا مرمية على الطرقات وعند الميناء لا تحصى. ومن بينها مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية. وحين هرع الفرنجة إلى السفن لم تكن لتكفيهم فغرقت بمن فيها ووقع العدد الضخم من السكان الأجانب أسرى...

وهكذا سقط آخر معقل من معاقل الفرنجة بيد أصحابه. بعد مائتي سنة من الحروب. وتطهرت الشام من أي فرنجي محتل. فهي للإسلام وحده ولنداء الله أكبر!

معركة في تونس

في ساحة حديقة واسعة قرب الشاطئ في جزيرة مينورقة من جزر الباليار الأندلسية يقوم اليوم تمثال لراهب قديم كتب اسمه تحته ريمون لول (١٣١٦م) وعلى الأوجه الثلاثة الأخرى تحت التمثال كلمات قالها لول باللاتينية والإسبانية واللغة العربية. كان هذا الراهب يحلم بغزو مصر والشام عن طريق المغرب وأفريقيا الشمالية. يبشر بذلك. أبحر بنفسه من جنوا إلى تونس ليدعو للنصرانية سنة ١٢٩٢ قبض عليه وحكم بالإعدام ثم خفضت العقوبة للنفي... ونجا ولكن ليعاود المجيء كرة أخرى سنة ١٣٠٧ وينزل في بجاية بالجزائر وأخذ في مناظرات معقدة للعلماء فيها وحدد القاضي زمان ومكان المناظرة ولكن الرأي العام الإسلامي في البلاد قطعها قبل أن تتم فسجن لول دون مناقشة ستة أشهر قبل أن ينفى. هل ارعوى؟ لقد عاد مرة ثالثة سنة ١٣١٥ ومعه خطاب توصية من ملك أراغون لأمير تونس وأقام مدة فيها ثم انتقل إلى بجاية من جديد ليثور عليه الناس ويقتلوه رجماً بالحجارة سنة ١٣١٦. أمثال الراهب لول كانوا في تلك الفترة لا يحصون كثرة في أوروبا.

هذا الراهب كان رمزاً للتفكير النصراني في الأراضي الإسلامية. كان يعتقد أن لا بد من غزوها بالفكر إن لم ينفع السيف. ولكن الذين يحملون السيوف في أوروبا كانوا لا يؤمنون بغيرها. وإذا كانت كل بلاد الإسلام هدفاً لمطامع الفرنجة فقد كان الكثيرون منهم يحلمون باحتلال البلاد الأقرب إليهم ومن ذلك تفكير الإيطاليين بتونس...

وخلال القرن الرابع عشر . جرت حروب ومعارك لا تحصى على تلك الأرض التونسية المسلمة . منها هذه القصة :

قرر ملوك صقلية أن يستغلوا ضعف الدولة الحفصية في تونس سنة ١٣٨٨ فأقاموا حلفاً هو في أعماقه تجاري وحلف مصالح ولكنه في الظاهر ديني نصراني اشترك فيه ثلاثة سفن من صقلية و١٢ سفينة من بيزا وجنوة وجازوا البحر شرقي تونس فاحتلوا دون كبير صعوبة جزيرة جربة ! ولما كان الغزو سهلاً عليهم فقد شجعهم ذلك على التفكير في القيام بحملة ضخمة ضد المسلمين في تونس أصحاب الفكرة كانوا من جنوا صاحبة الأسطول القوي في البحر المتوسط ولكنها لم تكن تستطيع القيام بمثل هذا المشروع العريض دون الاعتماد على قوى دولة كبرى . واختار الجنويون فرنسا فهي أرض معبأة بما فيه الكفاية ضد المسلمين ولها أطماعها في الشمال الأفريقي وهكذا اتجهوا إلى شارل السادس ملك فرنسا . ولم يعدم الجنويون الحجج لإقناعه فإن مراكب المسلمين كانت تهاجم المراكب الأوروبية أنى وجدتها . كانوا يسمونهم قراصنة وإنما كانوا في معظمهم ، من البحارة الأندلسيين الذين هربوا من الاضطهاد الإسباني ويريدون الانتقام . لم يبق لهم سوى سطح البحر ملجأ وشواطئ المغرب وتونس ظهيراً ومستنداً . بلى ! كانوا ينهبون ويدمرون الأساطيل الأوروبية بقدر ما في أنفسهم من مرارة . فرأوا في هذه الأعمال نوعاً من أنواع الجهاد . ولو أن الكتاب حتى من العرب كانوا يقولون عنهم إنهم مفسدون في البر والبحر .

استقبل شارل السادس وفد جنوة في جنوب فرنسا سنة ١٣٨٩ وطلبوا معونته في حملة صليبية ضد مدينة المهدية . اعتبروها وكر القراصنة . ونجحوا في إثارته حين اعتبروه حامي النصرانية ضد المسلمين وتعهد أهل جنوة بالاشتراك في الحملة بعشرين ألف مقاتل بالإضافة إلى ما تحتاج الحملة من السفن ومن المؤن ...

واستشار الملك أمراءه فتردد كبارهم في قبولهم لكن الأمراء الشباب

وجدوها فرصة للفروسية والغنائم وحدد الملك مشاركته بخمسة عشر ألفاً واختير خال الملك ليكون قائد الحملة !

وما شاع الخبر حتى اندفع الكثيرون جداً من مختلف الأنحاء للمشاركة فيه . من إنكلترا ، من أرغون من الفلاندر ومن مختلف بقاع فرنسا . تضخمت الحملة جداً بالمتطوعين جمع بعضهم التقى ، وجمع معظمهم أحلام الغنيمة . تجمع الفرنسيون في مرسيليا وغير الفرنسيين في جنوا ...

وطارت الأخبار بالحملة إلى تونس فأرسل أميرها أبو العباس المستنصر ابنه أبا فارس يستنفر أهل النواحي ويكون رصداً للأسطول المهاجم يراقب الشواطئ التي مالبثت الأشرعة الجنوية أن ظهرت في آفاقها ! ويبدو أن الأمير الحفصي سلم سلفاً بأنه لا يستطيع دفع المغيرين وقرر التحصن بالمهدية والدفاع عنها وترك الصليبيين خارجها لحرارة الشمس في انتظار الإمدادات وحرارة يوليو وأغسطس تصهر الرؤوس هنا وهكذا نزلت الحملة على الشواطئ دون مقاومة ثم تقدمت بألوفها وألويتها ومجانيقها وآلات الحصار لتطويق المهدية براً وبحراً ولتقطع الصلة بينها وبين بقية البلاد وتمنع وصول أي إمداد إليها .

وقد حاول المسلمون بعد ثلاثة أيام من الحصار القيام بهجوم مفاجئ مضاد لاختراقه فباء الهجوم بالفشل وارتدوا إلى داخل الأسوار تاركين على الثرى مئات من الجثث . لهذا قنعوا بالدفاع عن أبراج المدينة وبواباتها وإرسال رسل الاستنجاد حتى إلى بجاية وتلمسان وأمراء الجهات التونسية .

ووصلت الإمدادات حشوداً كبيرة ضربت معسكراتها أمام الصليبيين . قدروا قوة هذا الجيش بأربعين ألف مقاتل . على أنه تجنب الاشتباك مع الفرنجة الغزاة في معركة فاصلة . وفضل قادته أن يرهقوهم بالمناوشات المستمرة دون انقطاع . وحين شيد الصليبيون سوراً كبيراً من الخشب ونصبوا عليه برجاً ضخماً يشرف على المدينة وشحنوه بالمقاتلين أسرع المسلمون إلى قذف ذلك البرج بالحجارة والشهب والنفاطات حتى احترق .

استمر الحصار طول الصيف، تسعة أسابيع لم يحقق فيها الصليبيون أي تقدم فلا المدينة سقطت ولا تجرأوا على منازلة الجيش الذي يترصدهم خارجها. وبدأت المؤن تتناقص عليهم فضلاً عن أزمة مياه الشرب التي ألجأتهم إلى التقنين الشديد. ولقوا من العطش عنتاً كبيراً فبينهم وبين مصادر المياه الجيش المترقب. وبدأ المرضى يتزايدون فيهم لسوء المناخ الذي لم يعتادوه ...

وشعر الجنويون بأن الحملة فاشلة فأخذوا في السر يفاوضون أمير تونس الحفصي. ومن وراء قائد الحملة اتفقوا مع الأمير على هدنة عشر سنوات. لا يتعرضون خلالها لبلاده ويدفع لهم دخل المهدية لمدة خمس عشرة سنة ويدفع في السنة الأولى ٢٥ ألف دوكة (دينار ذهبي) لكل من قائد الحملة والجنوية تعويضاً عن النفقات التي تكبدوها ...

وعرف قائد الحملة بالأمر فعرضه على رجاله وكانوا قد ملوا هذه الحملة العبثية فوافقوا وما أسرع ما انحازوا إلى السفن عائدين بالأشرعة من حيث أتت.

اشتراهم الأمير الحفصي بحفنة من المال وكفى الله المؤمنين القتال!

الخوارزميون يحررون القدس

قلائل ولعلهم نادرون أولئك الذين يعرفون أن هالة المجد التي نحيط بها وجه صلاح الدين قد دمرها أولاد أخيه ولما يمض على وفاته ست وثلاثون سنة وأن الانتصارات التي حققت بعد حطين على الصليبيين الفرنجة عادت فسلمها الأيوبيون للفرنجة بالمجان... ودون حرب ولا ضربة سيف. وعادت القدس فرنجية صليبية خمس عشرة سنة بعدها وأن الذين استردوها من الإسلام لم يكونوا لا من سلالة صلاح الدين ولا من العرب ولا من الترك أيضاً. وكانوا من الخوارزمية سكان أقصى الشمال عند مصبّ نهري جيحون وسيحون...

قصة ذلك يسميها بعض المؤرخين حطين الثانية فما حكاية حطين الثانية هذه؟

لم يكن قد مضى على وفاة مؤسس الدولة الأيوبية صلاح الدين ربع قرن حتى أبدى ابن أخيه استعداده في معركة دمياط لإعطاء فتوحاته جميعاً للصليبيين مقابل الجلاء عن مصر التي احتلوا منها دمياط. قدم ذلك في أربعة عروض لهم ورفضوها طامعين بالمزيد وبنصف مليون دينار. كان ذلك في الحملة المعروفة بالخامسة التي فشلت. وبعد عشر سنوات استعان الملك الكامل بالإمبراطور الفرنجي فردريك الثاني ضد إخوته... ووعده بإعطائه القدس وعدداً من المدن. وجاء الإمبراطور وحين تردد الكامل ما زال الإمبراطور يستعطفه ويتذلل له حتى تنازل عن القدس فدخلها وتوج نفسه فيها!! سنة ١٢٢٩.

أثار ذلك عاصفة من السخط والأسى في العالم الإسلامي واستعظم المسلمون ذلك. وأكبروه ووجدوا فيه من الوهن والتألم مالا يمكن وصفه. ويقول المؤرخ المقريزي «فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل — حين نودي بخروج المسلمين من القدس — وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الملك الكامل وأذنوا في غير وقت الأذان. وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشائعات عليه من سائر الأقطار. أما في مدينة دمشق فقد أقيم مجلس وعظ رثيت فيه بيت المقدس بأشعار شهيرة وقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام واشتدت العظائم بحيث أنه أقيمت المآتم..»

وأحس الملك الكامل أنه تورط فأخذ يتلمس لنفسه الأعذار ولكنه أخفق وظلت المعرة تلحقة حتى النصارى لم يرضوا عن هذه المنحة المجانية وهاجموا الإمبراطور بمختلف أنواع الهجوم...

هل كان للأيوبيين من عذر في تفريطهم سوى العمى السياسي وضعف العزيمة؟ يذكرون لهم من الأسباب والدواعي أنهم كانوا يخشون غائلة المشرق. في المشرق كانت تقوم حول بحر الخزر وفي معظم إيران إمبراطورية ضخمة قوية عدوانية وإن تكن مسلمة هي إمبراطورية خوارزم وكان على رأسها إمبراطور ديناميكي شديد الطموح هو جلال الدين منكوبرتي. وكان من ورائه إلى الشرق يتدفق موج المغول بقيادة جنكيز. وكان الأيوبيون في الجزيرة والشام ومصر في نوع من المأمن. كانوا يعتبرون منكوبرتي أشبه بالسد أمام السيل المغولي الكاسح ولكن هذا السد انهار فجأة بهزيمة أمام المغول ثم بهربه إلى الهند ثم بهزيمته الأخرى عند أذربيجان ومقتله المأسوي قرب ديار بكر وهو هارب سنة ١٢٣١ ووجد الأيوبيون أنفسهم فجأة وجهاً لوجه أمام السيف المغولي...

أما الجيش الخوارزمي بعد أن انفرط عقده بمقتل سلطانه واحتلال المغول لأراضيه فتحول إلى عصابات تخرب وتنهب في أرمينية والجزيرة وإلى مرتزقة

يستأجرها الراغبون. ولم يكن الأيوبيون يأمنون لها فقد سبق أن تحالفوا ضد منكوبرتي نفسه حين احتل مدينة خلاط ووضع فيها السيف قتلاً ونهباً وسبى زوجة ملكها الأيوبي. فاجتمعوا عليه عند أرزنجان سنة ١٣٣٠ وأنزلوا بجيشه هزيمة ساحقة قتل فيها معظم عسكره وامتلأت الجبال والأودية منهم وشبعت الوحوش والطيور من رممهم... لهذا كان الخوارزميون قوة مريبة يرجو الأيوبيون قوتها ويخشون طموحها وانقلابها وقد اتخذت مقراً لها في شمال الجزيرة والشام وفي آسيا الصغرى.

واتفق أن توفي كبير الأيوبيين الملك الكامل سنة ١٢٤٧ واختلف الأمراء الأيوبيون حول وراثته وتنازعوا في فترة من أحرج الفترات التي مرت على الشام والجزيرة ومصر. فقد كان المغول من جهة يتحفزون للهجوم من جديد بعد أن توانوا فترة قصيرة بوفاة جنكيز والخوارزميون في الداخل يكونون شراً جاهزاً للانفجار في كل لحظة والصليبيون يرسلون الحملات من جديد. وكان منها حملة صليبية فرنسية وصلت سنة ١٢٣٩ جامعة كبار أمراء فرنسة في إمارات: شامبين. نافاري وبورغونديا وبريتانيا وغيرهم في ١٥٠٠ فارس وآلاف من المشاة... وانتهز صاحب الكرك الأيوبي فرصته فاحتل القدس وأخرج منها الفرنج وحارت هذه الحملة أين تضرب؟ وقر قرارهم على مهاجمة عسقلان وتشجعوا حين وقعوا في الطريق على قافلة إسلامية فنهبوها وانفصل عنهم حوالي الألفين فسبقوا جماعتهم مبادرين لكسب الغنائم فانتهى الأمر بإبادتهم قرب غزة. قتل منهم ١٨٠٠ وأسر ٢٥٠ سيقوا إلى القاهرة... وحين سمع الجيش الصليبي بذلك كر عائداً إلى عكا...

وعرض عليهم ملك دمشق الصالح اسماعيل الأيوبي مساعدته ضد صاحب مصر مقابل إعادة المملكة الفرنجية الصليبية كما كان وسلمهم بالفعل القدس وطبرية وعسقلان وصفد وصيدا وطبرية وجبل عامل والقلاع فيها. فقامت قيامة الرأي العام الإسلامي وأكثر الناس من التشنيع عليه وقام اثنان من

أئمة الإسلام في دمشق هما العز بن عبد السلام وأبو عمرو بن الحاجب فنددا بعمل الملك الصالح وقطعا الدعاء له في الخطبة . فقبض عليهما وطردهما من الشام فانصرف الأول إلى مصر والثاني إلى الكرك . ورفضت بعض القلاع تسليمها للفرنج فحاصرها وعاقب الحامية فيها وحين ساق الصالح اسماعيل جيوشه لمحاربة ابن عمه صاحب مصر بالاتفاق مع الجيش الصليبي . انفض الجيش عن ملك دمشق ورفض محاربة جيش مصر بل هاجم معه الجيش الصليبي فدمروه وأسروا منه خلقاً لا يحصون ! أما الباقي فعاد إلى عكا ومنها إلى فرنسا خائباً محسوراً سنة ١٣٤٠ .

لكن حملة أخرى إنكليزية حلت محلها هذه المرة رأساً وعلى قيادتها أخو ملك إنكلترا ولكي يأمن صاحب مصر غائلته اعترف له بحق الصليبيين في القدس ويافا وعسقلان والجليل وطبرية وما حولها ... ولكن المنظمات العسكرية الصليبية كانت دوماً تطمع بالمزيد فأخذت تهاجم البلاد الإسلامية فالداوية من جهة والاسبتارية من جهة والتيوتون من جهة ثالثة ولا رادع لهم .

ولما استعر العداء بين ملكي دمشق ومصر تبارى الاثنان في التنازل للفرنج عن الممتلكات الباقية في فلسطين وفي إعطاء القدس بما فيها المسجد الأقصى وقبة الصخرة لهم . مما جعل دموع المسلمين تملأ العيون والصدور . بل وعدهم بعض الأيوبيين بمناطق جديدة في الشام وفي مصر إذا انحازوا مع حلف الأيوبيين في الشام ضد صاحب مصر . وبلغت المذلة بذلك أقصاها وأخذ الهوان مداه . وحين وجد الصالح أيوب صاحب مصر نفسه وحيداً تذكر الخوارزمية وكان هؤلاء قد هزموا هزيمة ساحقة أمام الأمراء الأيوبيين عند الرها بعد أن هاجموا منبج وحلب ونصيبين وارتكبوا فيها الفواحش والكبائر مما لم يرتبكه المغول . فانكمشوا في أعلى الجزيرة . فلما استدعاهم صاحب مصر سرعان ما اندفع عشرة آلاف منهم سنة ١٢٤٤ في فرحة كبرى يخترقون الشام لنصرته . أغاروا في الطريق على القلاع والمدن ونجت منهم دمشق لحصانتها .

ولكنهم نهبوا طبرية ونابلس ودخلوا بيت المقدس في مطالع يوليو سنة ١٢٤٤ .. استولوا عليها بسهولة فقد كانت بلدة مفتوحة مهدمة الأسوار وليس ثم من يدافع عنها . ولم يستطع الأيوبيون في الشام التدخل لمنعهم رغم تحالفهم مع الصليبيين خوفاً من ثورة الرأي العام الإسلامي عليهم . وتوسط الفرنج فيها صاحب الأردن فأخرج منها بالأمان ستة آلاف منهم مالبثوا أن هاجمهم الخوارزمية على الطريق فلم يصل منهم إلى عكا سوى ثلاثمائة ! ... ونهب الخوارزمية كنيسة القيامة وأتلفوها ... ونهبوا البلد كله !

وقد سار حلف الشام الأيوبي مع الجيش الصليبي إلى غزة . ولكن جيش مصر مع الخوارزمية مزق هذا الحلف شر ممزق . قتل منه أكثر من ثلاثين ألفاً وساق ٨٠٠ من الأسرى إلى مصر . وكانت هذه أعظم كارثة تحل بالصليبيين بعد حطين . وكان بينها وبين حطين الأولى سبع وخمسون سنة وقتل فيها ٣٠٠ من الدواية لم ينج منهم سوى ثلاثة وثلاثين ومائتان من الاسبتارية لم ينج منهم سوى ٢٦ وكان مقدم الداوية بين القتلى ومقدم الاسبتارية بين الأسرى ...

لا يهمنا ما كان من أمر الخوارزمية فيما بعد ولكن الهام أن القدس تحررت نهائياً من الصليبيات والفرنج . فلم يدخلها أحد منهم بعد ذلك حتى دخلها الجنرال اللنبي في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ ثم دخلها اليهود سنة ١٩٦٧ !

وأنسي الصليبيون فيها مطامعهم التي طالما لاحقوها ونسوا حتى القبر المقدس !

بطل جزر الباليار

هل زرت جزر الباليار؟ إنها مجموعة جزر صغيرة في أواسط الحوض الغربي للبحر المتوسط. بين الجزائر وفرنسا وبين إسبانيا وإيطاليا. تنتثر كأنها قطع من الزمرد الأخضر فوق الموج. إنها اليوم منتجع صيفي لأوروبا بظلالها وغاباتها. لكنها كانت ذات يوم قبل ٧٣١ سنة ميلادية (أو ٧٠٩ سنة هجرية) قطعة من جهنم. صرخات القتلى فيها والمعذبين ورشاش الدماء وانهيار الأسوار كان يجعل من بالما وهي أكبر مدينة في أكبر جزرها ميورقة مقبرة للسيوف والرجال ولحجارة المنجنيق وللعويل الذي يخترق السماء!

كانت مينورقة قبل هذا التاريخ الذي ذكرت ولمدة ٣٠٠ سنة بلداً إسلامياً تابعاً للأندلس. هي جزء منها أبحر فوق الموج. تجارة رابحة وأسطول ضخم وأرض غنية وعلاقات واسعة مع الضفاف الفرنجية والأندلسية والمغربية والإيطالية وكما تقطعت أسباب الوحدة في الأندلس فلكل مدينة ملك «يحكي انتفاخاً صولة الأسد» تقطعت بهذه الجزر الشرقية (المعروفة بالباليار) الأسباب فانفرد بها حكامها!.. بلى! طمع بها الإيطاليون والإسبان بل بعض المتسلطين المغاربة أيضاً ولكنها كانت ترد الهجمات وتكيل الصاع صاعين للقراصنة من أهل بيزا وجنوة خاصة ولغيرهم... إلى أن تدهورت الأوضاع في الأندلس وهزم الموحدون. وبقيت متفردة... وعند ذلك صارت مطمعاً سائغاً للإسبان المتنمرين.

كان الحاكم المسلم الأخير لهذه الجزر هو أبو يحيى محمد بن علي التنملي وهو عامل من عمال الموحدين وكان ظالماً غشوماً سيئ التدبير أحياناً لكنه وافر

الشجاعة حديد الإرادة . وكان موقعه الاستراتيجي يمكنه من التحكم بأساطيل التجارة من أراغون وقطلونية وبيزا وجنوا ومرسيليا . وأن يمنعها من التحرش بأسطوله وتجارته . رغم أن أسياده من الموحدين انقطعوا عنه بعد هزيمتهم القاسية في معركة العقاب . كما انقطعوا عن الأندلس ! وقد ظن التنمللي لسوء تقديره أنه يقوم لمملكتي أراغون وقطلونية المجاورتين له عبر البحر فأساء العلاقة معهما . وكانتا تمران بأزمة حكم دامت ١٥ سنة مالبثت أن انتهت بوصول الشاب خايمه الأول إلى العرش سنة ٦٢٤ .

وتكالبت التحريضات من كل جانب على هذا الملك بتحريضه لغزو جزر الباليار الغنية . التجار ذوو المصالح من جهة والنبلاء الطامعون بالإقطاعات والقسس المحتقنون بالتعصب الصليبي والبابا الذي يلح في الاستيلاء على هذه الجزر الغنية . ولم يكن الملك في حاجة لمن يحرضه لأنه كان يبحث عن جبهة يشغل بها المحاربين عن الاقتتال الداخلي وكان يبحث في الوقت نفسه عن مجد يساند عرشه لهذا أعلن في اجتماعات من النبلاء ومع التجار إعداد حملة صليبية كبرى ضد الجزر تطوع لها النبلاء والفرسان ورجال الكنيسة والتجار بالرجال والمال وكل منهم ينتظر أن يعود عليه ما يدفعه أضعافاً مضاعفة ... عند النصر .

واحتشدت الأساطيل في رمضان سنة ٦٢٦/أغسطس سنة ١٣٢٩ في ثغر طرطوشة والفرسان والرجال المحاربون ولم يخف ذلك على أبي يحيى التنملي . الذي حشد بدوره ألف فارس من الجند ومثلهم من المتطوعة وثمانية عشر ألفاً من المشاة . لكن خرق الرأي عنده جعله على خصومة مع رعيته . فقد قتل أربعة من أعيان البلد وفيهم ولدان لخاله وأمر صاحب شرطته بجمع خمسين من الوجهاء في قصره لا يدرون ماذا سيكون من أمرهم ...

وفيما كان التنملي يهددهم ويتوعدهم سوء المنقلب همس في أذنه فارس من حرس السواحل : لقد رأيت ما يزيد على أربعين من القلوع تتقدم من

ناحية الغرب . ثم ما لبث أن تقدم عليه آخر إن أسطول العدو ظهر وقد عددت فيه سبعين شراعاً ... ما كان يعرف التنمللي أن تحتها ١٥٠٠ فارس و ١٥ ألفاً من المشاة عدا المتطوعين من قطالونية وجنوة والفرنجة وفرسان الداوية ومندوب البابا للبركة والمباركة ! وقلب التنملي حديثه فتكلم عن الغزاة وطلب من الحاضرين العودة إلى دورهم للاستعداد فخرجوا وهم ينفضون عن أنفسهم غبار الموت ... ليلقوا موتاً آخر .

نزل جمع من الغزاة كالسيل في الساحل الغربي عند بلدة سانتا بونزا ولم تستطع الحامية هناك منعهم بعد يوم كامل من القتال فانسحبت إلى التلال بعد أن أوقعت بهم خسائر فادحة ما تزال مقابرها واضحة إلى اليوم . كما نزل خايمه الملك مع جموع أخرى في مرفأ توبي على مبعدة أربع ساعات من سانتا بونزا حيث قاتلها أبو يحيى بجنوده ثلاثة أيام قتالاً يطحن اللحم والعظم . وظل جنوده يتبادلون الأعلام الإسلامية عالية متحدية !

لكن قوة ثالثة انتهزت الفرصة وهاجمت الميناء الرئيسي : ميناء العاصمة بالما ، في الليل ، في مائة وخمسين سفينة ونزلت تقطع طريق العودة على أبي يحيى وجنده . وتضرب الحصار حول المدينة في البر والبحر . ونصبوا المجانيق والأبراج الخشبية بسرعة فائقة . وبدأ قذف المدينة بالمجانيق والرعادات والقذائف المحرقة . لكن أبا يحيى تمكن من التسلل إلى المدينة مع جنده فقام أهل المدينة بإشعال المشاعل الضخمة ورفعوا أصواتهم بالتكبير مما أغضب الملك خايمه فأمر بتشديد الحصار وحفر الخنادق العريضة حول البلد للوصول إلى المياه الجوفية من جهة ولمحاولة تدمير أسس الأسوار ...

كان المسلمون يخرجون بين فترة وأخرى من أبواب المدينة ويفتكون بالمحاصرين ثم يعودون . وكان ثم فتى اسمه فتح الله نشر الرعب في المعسكر المسيحي بغاراته الخارجية وقد حاول مرة قطع المياه عنه فطوقته القوى الغازية وتمكنت في معركة دامت حتى الصباح من قتله وألقت برأسه ورؤوس جماعته

بالمجانيق على المدينة التي خضد من شوكتها هذا المصير . ولم يخل الأمر من خونة أخذوا يدلون العدو على ثغرات المسلمين مقابل الإبقاء على حياتهم وإقطاعاتهم .

وحاول أبو يحيى الهدنة . عرض دفع كل نفقات الحملة فرفض خايمه العرض . ثم حاول بعد أيام أن يعرض حين تشعثت أقسام من السور أن يدفع خمس قطع ذهبية عن كل رأس في الجزيرة مقابل خروجهم سالمين . وكاد الملك يقبل لكن القسس والتجار والنبلاء ضجوا فقد كانوا يطمعون بأكثر من ذلك بكثير ... ولم يجد أبو يحيى سبيلاً سوى الدفاع حتى الموت !

وأخذ القتال شكل الضراوة الهمجية . كان المسلمون يقاتلون وهم يعلمون أنهم خسروا كل شيء والموت في الجهاد أولى . وحين اندفع الغزاةمن بعض الثغرات في السور كان القتال في الأزقة أجساداً لأجساد واشتركت فيه النساء والحجارة . وتساقطت الأمطار تمتزج بالدماء في حين كان الأساقفة يهللون . وفجأة انهارت بعض الأبراج مع قسم من السور فأمر خايمه بالهجوم العام ... وتكدست الجثث على معابر الثغرات لعنف القتال . والتهمت الحرائق الدور . وكلما قذف الصليبيون سرية دمرها المدافعون . أو تراجعت على أعقابها وأخيراً قذف خايمه بكتلة جنده يصيحون صراخهم التقليدي سانتا ماريا وقابلهم المسلمون بنداء الله أكبر . وكان أبو يحيى على حصانه الأبيض دوماً بين المقاتلين . ولكن القسس مع فرسان الداوية دخلوا جامع المدينة ونصبوا الصليب على محراب الجامع الذي تحول فوراً كنيسة .. وطوق قصر المدينة وتدافع السكان يدوس بعضهم بعضاً هاربين من الأبواب والموت ينتظرهم وراءها ...

استمرت معركة احتلال الجزيرة أربعة أشهر من القتال اليائس . وبدأ النهب الجائع بعدها . وأخذ أبو يحيى وابنه أسرى . وتراكض المنتصرون بالغنائم ذهباً وفضة وأواني وقماشاً وأسلحة وديباجاً وخيولاً وتحفاً ومجوهرات . وألقي أبو

يحيى لأشد أنواع العذاب خمسة وأربعين يوماً توفي بعدها تحت التعذيب وبلغ عدد القتلى من المسلمين حوالي عشرين ألفاً. أما بقية السكان في الجزيرة فلجأوا إلى الجبال وبدأوا مقاومة أخرى في حين جافت المدينة وانتشر فيها الوباء الذي ذهب بجموع من المهاجمين ...

وانتظر المقاومون في الجبال بقيادة بطل آخر يدعى ابن سيري فانتظروا المدد. أي مدد يأتيهم فلم يأتهم شيء باتوا في المغاور والكهوف ينتظرون وأحرق الغزاة عليهم أبواب الكهوف فمات بعضهم اختناقاً مع ذراريهم ومواشيهم. سنتان استمرت المقاومة ولا من معين. حتى قضى معظم المدافعين جوعاً! واستسلاماً أو فراراً. حكام المسلمين في المغرب وفي تونس وفي مصر كانوا نفوساً ميتة قاتل الله الخذلان!.

نكبة الاسكندرية

حين طرد الصليبيون الفرنجة من الشام سنة ١٢٩١ الطرد النهائي كانوا قد وجدوا قبل الطرد بكثير ملجأً ومستقراً في جزيرة قبرص تجاه الساحل الشامي. أمراؤهم. المنظمات العسكرية من داوية واسبتارية. جيوشهم أسلحتهم موقعهم. أساطيلهم أطماعهم في العودة. حقدهم الأعمى كله تجمع في هذه القاعدة المريحة قبرص. لا سيما وأهلها نصارى فهم إذن في مأمن من انتقاضهم وكونهم في جزيرة هو مأمن آخر لأن قواهم البحرية أقوى.

هذه القاعدة أضحت المركز العصبي للحركة الصليبية كلها في القرن الثامن الهجري ١٤م.

وكانت عصائب الطيور السود وكل الأشرعة المغيرة وكل محاولات الحصار الاقتصادي وكل السيوف المسنونة للعدوان والذبح كانت تتجمع فيها وتصدر عنها. وحدث بعد طرد الصليبيين من عكا بحوالي ستين سنة أن تولى عرش قبرص ملك صليبي من رأسه إلى أخمص قدميه هو بطرس لوزينيان. كان نموذجاً لفرسان العصور الوسطى المهووسين بحرب المسلمين لم تعجبه الغارات الصغيرة التي دأب أسلافه على قيادتها ضد الثغور الإسلامية وسفنها في البحر وأراد أن يقوم بحملة صليبية كبرى تذكر بالحملات الضخمة الأولى وتطعن المسلمين الطعنة القاضية في الصميم.

ولكن قيام مثل هذه الحملة يحتاج إلى استعدادات وقوى تتجاوز طاقته وإمكانه من الموارد من الرجال والمال والسلاح والسفن والمجانيق فماذا يفعل؟ لجأ إلى الطريقة التقليدية: الاستنجاد بأوروبا. قام برحلة طويلة في الغرب

يسوِّق مشروعه. قضى ثلاث سنوات في الدعوة. وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية كانت قد أعطت ظهرها للتاريخ وقد مضى زمن الحماسة الأولى لها فقد استطاع أن يحصل على ما يرغب من معونة ومساعدة على أنه حين عاد وحسب حساباته وجد أن مشروعه الضخم قد تضاءل. وما لديه لا يكاد يكفي لأكثر من غزو ثغر واحد من الثغور! السفن الصليبية التي اجتمعت له في رودوس والأعداد الكبيرة من الأنصار والمغامرين والقسس لا تكاد تقوم لاسترداد شيء ذي قيمة في الشواطئ الشامية أو المصرية.

واتجه بطرس لوزينيان لاختيار ميناء إسلامي يضرب به التجارة الإسلامية الضربة الماحقة. وفي مجلسه الحربي تباينت الآراء: هذا يختار عكا وآخر أنطاكية وثالث طرابلس أو حيفا. وأخيراً أشار بعض خاصة الملك أن الميناء يجب أن يكون آمناً من الغارات ليفاجأ بها مفاجأة. وأن يكون ذا تجارة ضخمة تستحق الغزو وخير الموانئ هو الاسكندرية! وخير الأوقات لغزوها هو يوم الجمعة ظهراً حين يكون أهلها كافة في الجوامع يصلون.

وأعجب الملك بالفكرة.. وأبحرت الحملة من رودوس نحو الجنوب والسفينة الملكية على رأسها. قضت في البحر عشرين يوماً حتى أطلت على الاسكندرية. ولم تكن حراسة شواطئها قوية ولا كافية ولهذا نزل رجال الحملة يوم الجمعة ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥ وتراكضت جموعهم تخترقها قطعاناً مهووسة دون أي مقاومة. انتشروا كالجراد الوثاب في أرجاء المدينة. فدبت صيحة الذعر في البلد وفر الناس في كل وجه تاركين كل شيء في أيدي الفرنج. وفي زحام الهرب على الأبواب هلك الكثيرون. ودهس بالأرجل كثيرون وسقط من الرعب والهلع من سقط. وما وعى الاسكندرانيون من هم أصحاب الهجمة؟ ولا ماذا يريدون؟ وانتشر التدمير والتهبت المساجد بالنيران. وفيما كان الهاربون يتشتتون في الحقول والقرى المجاورة وتسوء أحوالهم بالجوع ونقص الغذاء حتى أكلوا العشب وانتهز العربان المجاورون الفوضى فأقبلوا على المدينة

بالنهب فزادوا الطين بلة . وفر فرسان المماليك يتنفضون الغبار بحوافر خيولهم الهاربة تاركين الأسر المنثورة على الطرقات وبين الزروع . فدخل الملك القبرصي المدينة بكل اطمئنان فاستلم مع جنوده الناس بالسيف لا يغادرون حياً يتحرك ... نهبوا الحوانيت والفنادق . أحرقوا القصور والخانات . اعتدوا على النساء والبنات . خربوا الجوامع والمساجد . قتلوا قتلوا قتلوا ... حتى شبعوا دماً وأشلاء . بلغ من وحشيتهم في تلك الحملة أن كانوا يذبحون الوليد على صدر أمه قبل أن يذبحوها . وقد استعانوا بسكان الثغر من الفرنجة للتعرف على مخازن الثروات من فلفل وبهار وأفاوية وسكر ، وعلى دور الأغنياء فهاجموها يقتلون أهلها بعد أن يستدلوا على الخبايا والمكنونات .

يوم كامل كان من أيام الجنون . وحين غادروها كانت الاسكندرية مدينة أموات . أتوا على كل ما فيها من صامت وناطق . وأسرعوا بالرحيل خوفاً من وصول الأمداد سائقين معهم نحواً من خمسة آلاف أسير فضلاً عن البضائع المنهوبة والنفائس . حتى ضاقت السفن بما حملت فأخذ أصحابها يلقون على الموج بعض حمولتها لئلا يغرقها الماء وكتب مؤرخ اسكندري هو محمد بن قاسم النويري كتاباً طبع في سبعة أجزاء بعنوان الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الاسكندرية وذكر فيه أن بطرس « دخل المدينة لصاً وخرج منها لصاً ... » وعاد بطرس الأول لوزينيان إلى قبرص لتستقبله الأفراح العظيمة والزينات ومظاهر الابتهاج بالنصر وطارت رسائله إلى البابا وملوك الغرب بما فتح عليه من الظفر وهو يعتذر عن جلائه السريع نتيجة قلة ما لديه من الإمكان الحربي ويؤكد أنه سيعاود الهجوم المظفر متى وجد المعين . وتجاوبت الأصداء في أوروبا في دوي شديد وفرح تحسب معه أنه استرد القدس . وكتب البابا إليه يهنؤه . كما كتب إلى ملوك الغرب وأمرائها أن يسرعوا في مساعدة ملك قبرص « الأسد الشجاع » وقد أحيا ذلك فكرة الحروب الصليبية من جديد لدى بعض الجماعات بعد خمودها وأرسل شارل الخامس

ملك فرنسا يعد الملك بطرس بإرسال جيش عظيم يحطم به جبروت المسلمين. وتراكض بعض المغامرين من فرسان أوروبا إلى قبرص يدخلون في خدمة ملكها ويطلبون على الفور القيام بالهجوم الصليبي. يدفعهم إلى ذلك ما سمعوا من وفرة الغنائم لكن بطرس وأصحابه فشلوا الفشل الذريع حين حاولوا تكرار غزوتهم في طرابلس بعد سنتين وعلى جبلة واللاذقية وبانياس...

عدا هذا فقد بقيت واقعة الاسكندرية العصيبة دون غد لا من قبل أوروبا ولا من قبل ملك قبرص ولا من قبل المماليك أنفسهم. بقيت نكبة معلقة كالذكرى المريرة في النفوس.

صحيح أن الأوامر السلطانية صدرت بالاستعداد لغزو قبرص وكتبوا إلى الشام بتجنيد كل من يمسك منشاراً لقطع الأخشاب وبناء السفن ولكن... لم ينجم عن ذلك بناء سفينة. ومضت على ذلك خمسون سنة مات خلالها بطرس بأمجاده الزائفة وسلاطين المماليك بأحقادهم التي لم تجد متنفساً وأرواح الضحايا والسبايا والمدينة المنكوبة تنتظر الثأر الموعود..

العرب كانوا إذا قتل قتيل ولم يؤخذ بثأره يقولون تظل روحه تظهر بشكل هامة على قبره تصيح اسقوني! اسقوني بالثأر.. وظلت هامة الاسكندرية تصيح اسقوني إلى سنة ١٤٢٢!

أمام نيقوبوليس

أرأيت بعض البذور القوية تنمو فتقتل كل البذور التي حولها لتعيش؟ كذلك كان حال الإمارة الصغيرة التي كانت لآل عثمان في آسيا الصغرى، في مطالع القرن الرابع عشر. منذ سنة ١٣٢٦، استطاعت هذه الإمارة أن تتوسع بالسيف تارة وبالمصاهرة تارة وبالمال ثالثة حتى أضحت إمارة كبرى ولما تساوت قوتها مع إمارة قرمان المجاورة لها سنة ١٣٩١ غزتها. ودخل السلطان بايزيد العثماني عاصمتها قونية لتضحي الإمارة العثمانية سيدة إمارات آسيا الصغرى. ولتصبح في الوقت نفسه القوة المهددة للبيزنطيين الروم وللقسطنطنية وما وراءها في شرق أوروبا..

ذلك أنهم كانوا أيضاً عبروا مضيق البوسفور شمال القسطنطنية إلى الأرض الأوروبية واستولوا على غاليبولي. تدفقوا بأعداد ضخمة إلى تراقيا. استولوا على أدرنة.. وبذلك كانوا قد طوقوا القسطنطنية وقطعوا صلاتها بالعالم الأوروبي. ووقفوا وجهاً لوجه أمام إمبراطورية أوروبية واسعة هي إمبراطورية الصرب.

حتى أواسط القرن الرابع عشر كان الأوروبيون ينظرون إلى هذا التوسع باستياء ولكن لم ينظروا إليه كخطر داهم إلا حين وقعت الواقعة بين العثمانيين والصرب سنة ١٣٧١ عند المارتزا وهزم فيها الصرب وسقطت بلغاريا في قبضة بني عثمان... ثم أتبع العثمانيون ذلك بنصر آخر في موقعة كوسوفو سنة ٨٩٠م. وصاروا سادة شبه جزيرة البلقان.

واستيقظ الغرب الأوروبي كله فزعاً. نظروا إلى هذا التوسع السريع

والمفاجئ على أنه ردة فعل إسلامية ضد الحروب الصليبية الأوروبية . لم ينتظروا مجيئها عبر مضائق البوسفور والدردنيل ومن شرق أوروبا كانوا مطمئنين إلى نصرهم ضد المسلمين في صقلية وفي الأندلس. ولو أنهم خسروا المشرق الإسلامي وتمركزوا بدلاً منه في قبرص . كانت كل صليبية تزيد في عمق الحقد الغربي الأوروبي ضد الإسلام وفي قوة البابوية وفي تماسك الشعوب الأوروبية ضد عدو مشترك .

وعلى الرغم من انقسام البابوية في تلك الفترة إلى اثنتين فإن بابا روما بونيفاس التاسع وبابا أفينيون بندكت الثالث عشر أصدرا مراسيم متشابهة لإعلان الحرب الصليبية ضد العثمانيين والإسلام . وانساق الكثيرون للخضوع لها رغبة أو رهبة أو رياء أو مسايرة . وقامت الاستعدادات لها بكل مكان . فرنسا أبدت استعدادها للمساهمة . إمبراطور ألمانيا وافق لمساعدة أخيه ملك هنغاريا . وكتب بعض الدعاة إلى ملك إنكلترا فقبل ... أربعة ملوك استعدوا للحملة . بالإضافة إلى عدد من الأمراء منهم أمراء والاشيا وترانسلفانيا ودوقات بورغنديا وأورليان . وأعداد ضخمة من المتطوعين توافدت من بولونيا وبوهيميا وإيطاليا وإسبانيا ... ملأت هذه الجموع حين اجتمعت السهول والتلال حول « بودا » عاصمة المجر . أي عاصمة هنغاريا أواخر يوليو سنة ١٣٩٦ .. كانت أعدادها من المحاربين تزيد على مائة ألف مقاتل . وهو أكبر عدد متنوع من الأوروبيين اشترك في معركة واحدة مع المسلمين في تاريخ الحروب الصليبية . كل أوروبا تقريباً كانت مجتمعة فيه .

كان السلطان بايزيد العثماني يحاصر إذ ذاك القسطنطينية فما سمع بالتجمع الأوروبي الضخم حتى فك الحصار وخرج على رأس جيوشه شمالاً نحو نهر الدانوب وعلى حوضه كانت الحملة الأوروبية الضخمة تستولي على المدن العثمانية واحدة تلو الأخرى . وتقتل من فيها من الأتراك صبراً عن آخرهم حتى توقفوا أمام مدينة نيقوبوليس ، أقوى المعاقل العثمانية على حوض الدانوب .

حصون ممردة وأسوار تطل على الوديان وأبراج يخشى الطير الإطلال منها . وعجز الجيش الأوروبي عن دخولها . وقف مع كثرته ضعيف الحيلة والقوة أمامها . ولم يكن لديه أدوات الحصار الضخمة التي كان يملكها في ذلك الوقت العثمانيون .

كانت مسيرة هذا الجيش قبل ذلك أشبه بنزهة عسكرية . ولكنه توقف أمام نيقوبوليس أكثر من أسبوعين لا يدري ما يعمل . فانشغل العديد من أفراده يشربون ويقامر بعضهم بعضاً . وفوجئوا ذات صباح بطلائع الجيش العثماني التي لم تتأخر في الاشتباك معهم ...

على ضفة الدانوب . ميدان المعركة كان واسعاً وحقولاً للزرع فحرثته السنابك حرثاً وسقته السيوف بدل الأمطار دماء . كان الاشتباك في معظمه بالسلاح الأبيض والبنادق والمدافع الصغيرة . وكثيراً ما حالت الوحول دون حرية الفرسان بالحركة . كما حالت دونها الأشلاء المرمية والجماجم المتدحرجة . وبين هزيم الطبول والصرخات الموجعة كانت عشرات الألوية تترنح كأنها بأيدي راقصين سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله عظيم .. وحده كان العلم الأحمر ذو القمر والنجمة كان ينتقل ثابتاً بين الجموع المتشابكة .. وبدل السلطان فرسه مرتين ...

ما جاء المساء حتى كان الجيش الأوروبي الضخم قد ذاب بسرعة مذهلة . لم يستطع الصمود للهجمات العثمانية التي كانت ترتمي على السيوف بكثافة مخيفة . كأنها تتحداها . خسائر العثمانيين كانت لذلك كبيرة في تلك الموقعة . السلطان أصدر أمراً بأن هذه المعركة معركته ضد الكفر . وصاح الجند بادشاهم حوق باشاه ونسوا الحد بين الحياة والموت في القتال . وقتل من جيش التحالف الأوروبي أضعاف ما قتل من الجيش العثماني . وأسر منهم آلاف مؤلفة في حين طفت على الدانوب آلاف الجثث كما أغرق النهر بتدفقه آلاف الذين ارتموا فيه يبتغون النجاة بأرواحهم وما هم بناجين .

معركة نيقوبوليس هي التي أسلمت البلقان للدولة العثمانية ...

بعد قرابة خمسين سنة، وكأن الكرسي البابوي لم ينس هزيمة نيقوبوليس حاول البابا الانتقام كان العثمانيون يشددون الطوق على القسطنطانية التي أضحت جزيرة في بحر من الأراضي العثمانية فانتهز البابا الفرصة. حرض الصرب ووالاشيا والبوسنة على التحرر من التبعية لآل عثمان والتقى معه ملك هنغاريا وملك أراغون في حملة صليبية ما إن علم السلطان العثماني بها حتى أسرع فأنزل بهذا التحالف هزيمة كبرى سنة ١٤٤٤ جعلته بدداً. وجعلت ممثل البابا فيه الكاردينال يتلمس طريقه في الغابات هرباً ...

وأدركت أوروبا أن القسطنطنية الصامدة ألف سنة على بوابة أوروبا الشرقية ساقطة لا محالة. وقد سقطت فعلاً بعد عشر سنوات!

طرد الصليبيين من قبرص

نكبة الاسكندرية التي دمرها فيها ملك قبرص سنة ١٣٦٥ ظلت خمساً وستين سنة دون ثأر . ولكن الثارات لا تموت والدماء لا تنسى بسهولة ! وكما طرد السلطان خليل بن قلاوون الصليبيين من عكا . حان الوقت لكي يطرد هؤلاء الصليبيون من قاعدتهم في قبرص بعد طول تخريب وعدوان وقرصنة . ذلك كان ثأر الاسكندرية .

كانت سلطنة المماليك في مصر قد آلت سنة ١٤٢٢ إلى سلطان ديناميكي شركسي الأصل حار الدماء اسمه بارسباي ويلقب بالأشرف . كانت ذكرى الاسكندرية ما تزال تحييها في النفوس أعمال القبارصة . في الثغور الشامية والمصرية . كانت قبرص قد تحولت وكراً للقرصنة وأبلغوا السلطان الجديد أن الفرنج استولوا على مركبين إسلاميين قرب دمياط فيهما بضائع كثيرة وعدد من الملاحين والتجار يزيد على المائة . ثم عادوا فأبلغوه أن يانوس ملك قبرص استولى على السفينة التي أرسلها بارسباي محملة بالهدايا إلى السلطان مراد الثاني . وثارت ثائرة بارسباي . لا بد من وضع حد نهائي لهذه القاعدة الصليبية وتحول المشروع عملياً على الفور سنة ١٤٢٤ وإذا بحملة استطلاعية تغير على ميناء ليماسول فتحرق جانباً منه ومن سفنه الراسية وحين عادت إلى مصر بعد شهرين كانت تحمل عدداً كبيراً من الأسرى ومن الغنائم .. أتبعها بارسباي في السنة التالية بحملة أكبر أظهرت الاتجاه في البحر نحو بيروت وطرابلس ثم فاجأت قبرص عند ميناء فاماغوستا . نزل الفرسان والمشاة إلى البر . وعلى الرغم من أن حاكم المدينة طلب الأمان وأسرع يعلن أنه من عبيد

السلطان وأنه تابع له ورافع رايته فقد بقيت الحملة أربعة أيام يعيثون في المنطقة قتلاً ونهباً وإحراقاً وتدمير قرى . ثم عرفوا أن جيش الفرنج يقترب فأقلعوا يلتقونه بأنفسهم في معركة سحق فيها وهزمت فلوله في التلال . ونزل المسلمون بعد ذلك على ليماسول . فاستولوا على قلعتها وهدموا وأحرقوا جانباً كبيراً منها . ورفعوا الراية السلطانية عليها ... ولم يغادروا المدينة إلا حين سمعوا أن حملة ضخمة من البندقية جاءت لنجدة قبرص فحملوا الأسرى والغنائم وعادوا .

ولم يرض هذا كله السلطان برسباي لأنه كان يريد الخلاص من العدوان الصليبي القبرصي كلياً وليس مجرد سبي الأسرى وأكوام الغنائم . لقد صمم على احتلال الجزيرة . أرسل حملة ضخمة في السنة التالية . أعد لها من العدد الكبير والقوة ورباط الخيل ما استطاع . ورست الحملة قرب ليماسول . ثم هاجمت المدينة واحتلتها وقضت فيها ستة أيام توسعها نهباً وهدماً وإحراقاً حتى غدت على صغرها رمماً وأطلالاً ثم اندفع الجيش المملوكي عبر التلال إلى داخل البلاد . عرف أن ملك الجزيرة يانوس قد جمع لمنازلتهم خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف من الجند . ولم تنتظر الحملة وصوله بل بادرت إليه والتقى الجيشان عند بلدة خيروكيتا . وهناك كانت المعركة الفاصلة والضربة القاضية .

غبار المعركة الذي ثار جعل المحاربين أشبه بالأشباح المتصارعة . الرماح لم تكن تلمع لأنها لا تلوح إلا مخضبة بالدماء ، سيوف المماليك كانت تبرق صاعدة هابطة كالشهب وترن أحياناً على الحجارة . الجرحى بالمئات كانوا يموتون بين السنابك والأرجل . كانت المعركة عمياء . دموية ولكن ما لبث الفرنج والقبارصة أن أخذوا في الهرب بعد سقوط جموع كثيرة منهم صرعى هربوا «وأسنة الرماح تطعن في أعقابهم فصارت كثرتهم قلة وقوتهم ضعفاً» . أما الأسرى فكتب المؤرخون أنه يستحي من ذكرهم لكثرتهم ... وكان الملك يانوس ملك قبرص من جملة الأسرى ! . كان هذا يعني انهيار كل قوة صليبية في الجزيرة ...

في الوقت الذي كانت تدور فيه المعركة البرية كان أسطول المماليك الإسلامي يشتبك مع الأسطول القبرصي وهو القوة الثانية في البحر. وعلى الرغم من طول مراس القبارصة والفرنجة واليونان مع الموج والأشرعة والعواصف فقد كانت عدة الأسطول الإسلامي أقوى وأبرع وعرف القبارصة بهزيمة ملكهم فحاولوا الإفلات والهرب إلى عرض البحر وانتهت المعركة بأسر إحدى السفن وقتل ما يزيد على ١٧٠ بحاراً ومحارباً على السفن الهاربة.

هل انتهت الحملة؟ كلا. كانت تعليماتها تقضي بدخول نيقوسيا عاصمة الجزيرة. ومشت العساكر الإسلامية إليها. فدخلوها بالسيف ونهبوا جانباً منها. وحولوا كنيسة المدينة جامعاً وأذنوا للصلاة في أبراجها. واستقبل قواد الحملة أكابر العاصمة وعظماء أساقفتها ومعهم الإنجيل يطلبون الأمان فأمنوهم وبعثوا ينادون في أنحاء الجزيرة كلها بأن قبرص أضحت من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف بارسباي...

على الساحل المصري، حين عادت الحملة، استقبلتها الاسكندرية بالأغراس، الغمة السوداء التي رانت وسكنت الصدور ستين عاماً زالت بزوال الوجود الصليبي في قبرص. وفي الموكب في القاهرة سار ثلاثة آلاف أسير في القيود تتقدمهم الغنائم على رؤوس الحمالين وظهور البغال والأسرى. وفي ذيل الموكب كان الملك يانوس يظلع به بغل أعرج وهو يرسف في القيود والحديد. وحين وصل الموكب في مهرجان الاعتزاز والفرح إلى باب قلعة الجبل وهي مقر الحكم. أنزل الملك الأسير عن بغله وقرأ قارئ: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فيما كانت الجماهير تهلل وتكبر تكبيرة العيد. «الحمد لله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده لا شيء قبله ولا شيء بعده».

وأمر الملك القبرصي فكشف رأسه وخر على الأرض يقبلها. ثم أدخل على السلطان فقبل الأرض بين يديه كرة أخرى. ثم أرسل فسجن في برج من

أبراج القلعة. بعد أيام أخذ يفاوض في قبول الفداء. تدخل في الأمر كبار القساوسة هبطوا من قبرص. وبعض ملوك الغرب. وأخيراً اتفق على أن تكون الفدية مائتي ألف دينار دفع الملك نصفها نقداً ودفع النصف الثاني بعد أن عاد إلى جزيرته ولكن تابعاً لسلطنة المماليك ونائباً عن السلطان في حكمها وعليه دفع جزية سنوية مقررة.

أهم من ذلك أن سواحل مصر والشام استراحت من أعمال القرصنة الصليبية نهائياً. حتى عندما آلت الجزيرة إلى البنادقة بعد حوالي خمسين سنة ظلوا يدفعون الجزية المقررة لمصر. إلى أن فتح السلطان سليم الشام ومصر وأزال دولة المماليك سنة ١٥١٧ ...

ولم تعد الجزيرة مقراً للقرصنة والحرب الصليبية. كانت مجرد مقر تجاري ما لبث أن خمل.

ودخلت الجزيرة مرحلة النسيان!

فتح القسطنطنية

منذ ٥٤١ سنة، في ليلة من ليالي مايو سنة ١٤٥٣ كانت القسطنطنية (استامبول في هرج ومرج ما عرفت مثلهما إلا في فترات قليلة من تاريخها الطويل الذي يمتد منذ بنيت قبل ألف ومائة وخمسين سنة) . لقد أقيمت في موقع استراتيجي هام على رأس الجانب الغربي من مضيق البوسفور الذي يفصل البر الأوروبي عن الآسيوي . والموقع محاط بالبحر من جهتين يكملهما خليج القرن الذهبي المغلق بالسلاسل الضخمة من جهة ثالثة ولكن المراكب في تلك الليلة كانت تمشي في البر على الأرض وراء هذا الخليج .

فما الحكاية ؟

كانت القسطنطنية ، عاصمة الروم يومذاك ، محاصرة منذ شهر ونيف . وهي في داخلها تغلي بالجند والسيوف والبنادق والمدافع الصغيرة . وألوف الجند فيها تلتقي وتفترق وتلف وتعد الأسلحة للقتال . وعلى الرغم من الأسوار المثلثة واحداً بعد الآخر فما كان فيها عين بمطمئنة . حتى الإمبراطور قسطنطين الأخير ! وسرت في المدينة موجة من التفاؤل حين نجحت النجدة التي وصلت من مدينة جنوة الإيطالية بقيادة القائد البحار جوستنياني في كسر الحصار المضروب بعد معركة بحرية رهيبة مع المحاصرين ودخل بمراكبه القرن الذهبي الذي فتح له أهل المدينة سلاسله فاحتمى به ثم أغلقوها .

ولكن من هم المحاصرون لهذه العاصمة البيزنطية الرومية التي وقفت طوال العصور الوسطى في وجه المسلمين . كان الجيش المحاصر هو الجيش العثماني المسلم يقوده السلطان العثماني يومذاك محمد الذي عرف فيما بعد

بمحمد الفاتح. الجيش كان يملأ التلال والجبال حول القسطنطنية. كان يتألف من مائتين وخمسين ألفاً. ضربوا الحصار حول المدينة قبل شهر في البر يؤيدهم ١٨٠ سفينة حربية في البحر. منذ ٦٥٠ سنة قبل ذلك لم ير أهل القسطنطنية عمامة جندي مسلم عند أسوارها. قبل ذلك حاول المسلمون إحدى عشرة مرة حصار هذه المدينة العصية ولم يفلحوا. كانت سبعة منها في العهد الأموي. كانت القوة البحرية دوماً تنقصهم ونصف أسوار القسطنطنية تطل على بحر مرمرة.

حاصرها معاوية بن أبي سفيان سنة ٣٤ (٦٥٤م) وحاصرها يزيد ابنه (بأمر والده) سنة ٤٧ فردته عنها النار الأغريقية ثم حاصرها سفيان بن أوس سنة ٥٢ أيام معاوية أيضاً. ثم حاصرها مسلمة بن عبد الملك في خلافة عمر بن عبد العزيز ثم حاصرها هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ ثم حوصرت أيضاً زمن هارون الرشيد سنة ١٨٢ ثم أربع مرات أخرى زمن العباسيين والسلاجقة. وكان هذا الحصار هو الحصار الثاني عشر! كانت قلعة الدفاع عن أوروبا وعن المسيحية فيها.

السلطان العثماني محمد الفاتح قبل أن يسوق جيوشه لتطويق هذه المدينة كان قد أمن معركته تماماً ووثق من النصر. أسطوله من أقوى الأساطيل وجيشه البري بحر يموج بالسلاح والبلاد سواء في آسيا الصغرى في الشرق أو في البلقان في الغرب في ملكه. وأما القسطنطنية فكانت جزيرة صغيرة لا تجاوز ما يسمى «بإمبراطوريتها» أبعد كثيراً من أسوارها.. كانت مثل بغداد يوم سقطت بيد المغول: سمعةً دينية ضخمة جداً ولكن على قوام هزيل هزيل. يكاد لولا الموقع الاستراتيجي لا يقوم لرد بضع كتائب.. في الوقت الذي كان فيه الجيش العثماني يمتلك أقوى المدافع في جيوش العالم تلك الأيام. وقد طوق السلطان المدينة بأربعة عشر بطارية خارقة صنعها صانع شهير اسمه أوربان كانت تقذف كرات من الحجر زنة كل حجر منها ثلاثمائة كيلو غرام

(وبعضهم يبالغون فيقولون إن زنة الحجر اثنا عشر قنطاراً) تقذفها مسافة تقارب الكيلو مترين أو أقل قليلاً: كان جر المدفع يحتاج إلى ٧٠٠ شخص كما كان حشوه يحتاج إلى ساعتين!.

ونعود إلى تلك الليلة من مايو سنة ١٤٥٣ لنجد السلطان العثماني محمد قد قرر في نفسه أمراً. لقد غلب الأسطول الجنوي أسطوله. وتمكن من دخول خليج القرن الذهبي الذي عاد أهل القسطنطينية فأغلقوه كما كان بالسلاسل الضخمة. وأمر السلطان بشق طريق بري يقارب أربعة كيلو مترات حول المدينة لم يجعله خندقاً. ولكن فرشه بالدفوف الخشبية. ثم أمر فأهرقت فيه الزيوت وأصناف الدهن حتى صار منزلقاً ضخماً طويلاً. ونقل عليه في تلك الليلة سبعين سفينة من بحر مرمرة ومن وراء القرن الذهبي ليكمل الحصار على المدينة. حين أسفر الصبح اكتشف أهل القسطنطينية أن المراكب دخلت القرن الذهبي من وراء السلاسل. وصارت عند الأسوار. وهرول الرعب واليأس في دروب المدينة.كل من فيها اهتز إلا رجال الدين. كانوا يؤمنون بقداسة المدينة وبأنها لا تقهر لذلك ظلوا منصرفين إلى الجدل الديني حتى أضحى الجدل البيزنطي مثلاً بين الناس للجدل الفارغ العقيم. وتصوروا رجالاً بلدتهم محاصرة بالمدافع وهم يجادلون في عدد الملائكة الذين يقفون على رأس الإبرة!!

أثناء هذه المعركة اكتشف العثمانيون قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري (الذي استشهد في حصار القسطنطينية سنة ٥٢هـ أيام معاوية) فتفاءلوا به. وقد بنوا له فيما بعد جامعاً جرت العادة بعد ذلك أن يتسلم السلطان الجديد سيف السلطان عثمان الغازي الأول بهذا الجامع ويعتبر تقليد هذا السيف للسلطان الجديد هو التتويج له.

وأرسل السلطان محمد إلى الإمبراطور ينذره بالتسليم مع الأمان للسكان على أموالهم وحياتهم ويعطيه مع ذلك جزيرة موره. فكبر ذلك على الإمبراطور ورفض فأمر السلطان محمد بالاستعداد للهجوم أواخر شهر مايو

ووعد الجند بمكافأتهم عند تمام النصر وإقطاعهم الأراضي الواسعة. فقضوا الليلة السابقة للمعركة فيما يشبه العيد. أنوار ونيران. وتهليل وتكبير حتى إذا لاح الفجر كان مائة وخمسون ألف جندي يهوون كالصواعق على الأسوار يتسلقونها. لا يهوي جندي عنها إلا برز بدلاً منه خمسة جنود يكبرون. وفي أعلى الأسوار بلغت المعركة أوجها بالسلاح الأبيض. وتدفق من الجيش العثماني ألوف بعد ألوف كالأنهار ولكن فوق أنهر من الدماء.. من كل فج دخلوا المدينة والسيوف تبرق على الشمس الحادة حمراء ساكبة. ودخل قسم من الجيش كنيسة أيا صوفيا العظمى حيث كان البطريق يصلي ومن حوله عدد عظيم من الأهالي المعتصمين بالكنيسة. ويعتقد الروم أن الحائط انشق ودخل فيه البطريق وتوارى مع الأيقونات المقدسة وأنه سيخرج يوم يخرج الترك من القسطنطنية.. ليتم صلاته التي انقطعت. والأرجح أنه قتل مع من قتل وطليت جدران الكنيسة بالجص وكتبت عليها الآيات القرآنية لتصبح جامع أياصوفيا وليؤذن في برجها للصلاة.

أما إمبراطور بيزنطة الأخير فقد ظل يقاتل في جماعة من جنده حتى قتل! وأعلن محمد الفاتح مدينة القسطنطنية عاصمة للدولة باسم اسلامبول ودخلها فيما كان الجند يسلبون وينهبون والحرائق تشتعل والفوضى سيدة الموقف فأمر بوقف كل ذلك وأمر للناس بحرية العبادة وأعطى النصارى نصف الكنائس وجمع أئمة دينهم فاختاروا لهم بطريقاً له الحق في الحكم بقضاياهم المدنية والجنائية. وجعل لهم مجلساً يناقش أمور الكنائس كلها ولم يكلفهم إلا دفع الخراج مستثنياً رجال الدين...

أوروبا المسيحية كلها قامت ولم تقعد لهذا الفتح. تشاور ملوكها. عقدوا الأحلاف. قرروا الزحف. أعلنوا القضاء على الإسلام... ولكن شيئاً من ذلك لم يتحول إلى عمل... وبعد خمسة قرون ما تزال استامبول عاصمة من عواصم الإسلام!

معركة ليبانتو

هذه المعركة قد يعرفها الدارسون للتاريخ العثماني أما غيرهم فقد يجهلون أنها كانت معركة وعلى الموج وفي البحر. وأنها وهو الأهم كانت الهزيمة التي حرمت الأساطيل العثمانية بعدها أن تكون قوة بحرية مؤثرة في البحر الأبيض المتوسط!

كان ذلك في أول السبعينات من القرن السادس عشر. الدولة العثمانية كانت ما تزال بين الدول العظمى فهي إمبراطورية تملك ثلاثة أرباع البلاد على حوض البحر المتوسط.. وتحالفت مع فرنسا ومنحتها الكثير من الامتيازات وفتحت لها باب الإرساليات التبشيرية أيضاً... مقابل ذلك طمعت العثمانية بأملاك جمهورية البندقية وكانت تحكم جزيرة قبرص وجزيرة كريت وكثيراً من موانئ البحر الأدرياتيكي من موقعها البحري في أقصى شمال هذا البحر.

وفي أوائل الصيف سنة ١٥٧٠ فوجئت جزيرة قبرص بالأسطول العثماني الحربي وعليه مائة ألف جندي. يقوده بيالي باشا ويقود الجيش البري لالا مصطفى باشا. رست السفن جنوب الجزيرة عند ليماسول. كان القتال بحرياً وبرياً في وقت واحد وامتد إلى عدد من المرافئ الأخرى. واستطاع العثمانيون بعد احتلال ليماسول حصار ما تمنع في الجزيرة جبلاً وسهلاً طاردين البنادقة من هذا الركن الصليبي المتقدم في شرقي المتوسط.

أخذ هذا الفتح قرابة السنة. هاجمت خلالها الأساطيل العثمانية أيضاً جزيرة كريت هجوماً عنيفاً كما هاجمت الموانئ التابعة للبندقية على البحر الأدرياتي. ولم يكن لهذه المدينة التجارية من قوة كافية لمواجهة الجند العثماني

الجرار وأسطوله الكبير. فأخذت تستنجد. هذا الهجوم العثماني يقطع طرق التجارة على البندقية ويقضي عليها. وهبت المملكة الإسبانية الضخمة لمعونة البندقية خوفاً من أن تمتد أيدي العثمانيين إلى أملاكها على البحر الأدرياتي وهب البابا يدعو لإيقاف هذا التوسع الإسلامي خوفاً على روما وعلى إيطاليا! وعقدت هذه القوى الثلاث حلفاً لحرب السلطان... واختاروا مواجهته بالحرب في البحر لأنه فيه أضعف ولا قبل لهم بتدفق الجند العثماني البري كالسيول على الربى، وعلى امتداد النظر.

عهد المتحالفون بقيادة أسطولهم الثلاثي إلى أمير يعرف بدون جوان. ودون جوان هذا ابن سفاح للإمبراطور الإسباني المشهور شارلكان. وقد حاول أخوه فيليب الثاني (الذي سميت الفيليبين على اسمه) أن يدخله إحدى الرهبنات ليتخلص منه فلم يقبل. لذلك جعله قائداً في جيشه وفي سنة ١٥٧٠ كلفه بمحاكم التفتيش في غرناطة فأذاق المسلمين فيها ألوان الذل والعذاب حتى هاجروا. فلم يبق منهم إلا الضعفاء والفلاحون والفقراء... وها هو ذا يكلف بقيادة أسطول الحلف الثاني فيقوده حقده الأعمى إلى مهاجمة شواطئ الدولة العثمانية عند بلدة ليبانتو حيث كان الأسطول العثماني!..

كان دون جوان يقود ٧٠ سفينة إسبانية و ٤٥٠ من سفن البندقية و١٢ سفينة للبابا و٩ من سفن الصليبيين في مالطة. أما الأسطول العثماني فكان يتألف من ٣٠٠ سفينة فقط لم يكن العثمانيون على استعداد لأن أسطولهم كان موزعاً في أرجاء البحر المتوسط. واشتبك القتال عنيفاً عنيفاً. كان الأفق أغبر ولكن من ذا الذي يراه؟ والريح تعصف في وجه الأسطول العثماني الذي سرعان ما وجد نفسه أشبه بالمطوق بضعف عدده من السفن تصب عليه القنابل الحديدية. واختلطت الأشرعة بعضها ببعض. كان على كل سفينة عثمانية أن تحارب سفينتين. وحاول القائد العثماني التراجع ولكنه كان

أمام معركة مفروضة وجدار كثيف من السفن. ضرب بشراسة. واستطاعت بعض سفن التحالف تسلق عدد من سفن العثمانيين وقتل بحارتها. وما لبثت أن اشتعلت النيران في سفن أخرى بعد سفن. وترامى البحارة في البحر فيما كان دوي البنادق وهزيم البارود يزيد المعركة هولاً ... ولم تكن طويلة الأمد. لقد دامت ثلاث ساعات فقط ولكن البحر كله كان بعدها نيراناً ولهباً حتى الأفق.

ونظر القائد العثماني فإذا بمائة وثلاثين سفينة من أسطوله قد أخذت وأحرقت وحديدها مع الخشب والأشرعة يئز فوق الموج فيما كانت ٩٤ سفينة أخرى تغرق بمن عليها وبحارتها في المراكب الصغيرة يتقاذفهم الماء والنار والرصاص. لقد دمر الأسطول العثماني تدميراً وغنم المتحالفون معه ثلاثمائة مدفع وثلاثين ألف أسير .. كانت المعركة كارثة بحرية لم تعرف القوة العثمانية قبلها كارثة مثلها أبداً.

وحين وصل الخبر إلى استامبول هاجت المدينة كأنما أصابتها الحمى على النصارى، وطافت جموع الدهماء في الشوارع تريد قتل الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية. ولكن الصدر الأعظم محمد باشا صقلي وضع هذه الإرساليات تحت الحفظ المشدد في انتظار هدوء المشاعر. وقد تدخل السفير الفرنسي ــ وكتلة المبشرين من بلاده ــ فألح في إخراجهم من استامبول فأخرجوا ...

أما على الجانب الآخر الأوروبي المسيحي فدقت أجراس الكنائس. وأقيمت القداسات وركض الفرح العارم في جميع الدورب. كانت هذه أول واقعة تقع ويهزم فيها العثمانيون هزيمة منكرة وأول هزيمة تقع بينهم وبين أكثر من دولتين أوروبيتين من جهة أخرى. واشتراك البابا فيها كان دليلاً واضحاً على أنها حرب صليبية لاحقة للحروب الصليبية السابقة في اسبانيا وصقلية وبلاد الشام. ووقف البابا في شرفة كنيسة الفاتيكان، كنيسة القديس بطرس،

يخطب في الجموع الراقصة الفرحة شاكراً للقائد دون جوان انتصاره المظفر على السفن الإسلامية !

وعلى الرغم من أن الصدر الأعظم صقلي باشا قضى الأشهر التالية ولا هم له إلا إعادة بناء الأسطول العثماني من جديد . وبذل في ذلك المال الواسع واستقدم بناة السفن والعمال والأخشاب والحديد من كل فج ولاحقهم يومياً بالعمل فما جاء الصيف التالي حتى كان لديه ٢٥٠ سفينة حربية جديدة إلا أن معركة ليبانتو كانت وظلت إلى سنين طويلة تلقي بظلها الأسود على الأسطول العثماني فلم يدخل بعدها في معركة بحرية هامة مع الأساطيل الأوروبية فكأنها كانت مطلع عهد التراجع والهزائم للقوة العثمانية التي كانت حتى عهدها من القوى العظمى ...

أما دون جوان ، قائد الاسبان ، فسرعان ما اختلف مع قائد الأسطول البندقي وافترقا ... وفيما كان يتم حقده على المسلمين بالهجوم على تونس واحتلالها لمدة ٨ أشهر سنة ١٥٧٢ وكانت من توابع الدولة العثمانية وأعاد إليها مولاي حسن حاكمها السابق الذي لجأ إلى الاسبان حين احتل العثمانيون تونس . لكن لم يلبث الجيش العثماني أن وصل بعد ذلك بقيادة سنان باشا فطرد منها الاسبان سنة ١٥٧٥ وعميلهم مولاي حسن !

وأما البندقية فقد خشيت عواقب انتصارها . لا سيما وأن تجاراتها موصولة مع المشرق وهكذا عادت تتقرب من العثمانيين وتداهنهم ولم تمض سنتان على معركة ليبانتو حتى نجحت مفاوضاتها معهم ودفعت لهم ٣٠٠ ألف دوكا (ليرة ذهبية) غرامة حربية واعترفت لهم باحتلال جزيرة قبرص . عادت الأطماع التجارية فأذلتها .

تعالى الله يا سلم بن عمرو   أذل الحرص أعناق الرجال !

فتح العثمانيين للمجر

في تاريخ العالم ملك لعله ما مر في الدنيا ملك أوسع ملكاً منه قبل عصر الاستعمار الإنكليزي . هو شارل الخامس (أو شارلكان ملك اسبانيا) . كان حقاً صاحب الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس . كان طفلاً حين بدأ يرث الأملاك عن أسلافه حتى اجتمع له ملك ألمانيا والمجر وإيطاليا وهولاندا والبوسنة واسبانيا عدا ما كان الفاتحون الاسبان يفتحونه من البلاد الأمريكية في عهده وعدا الفيليبين . لا يهمنا من أمره أنه قضى حياته يحارب فرانسوا الأول ملك فرنسا بسبب نزاعهما على الحق في ولاية ميلانو ولكن شارلكان انتصر عليه وأسره في موقعة يافيا . ولا أنه زهد في الملك آخر حياته فقسم بلاده بين ابنه وأخيه واعتزل في الدير حتى توفي . ولكن يهمنا أنه كان ابن فرديناند وإيزابيلا الملكين اللذين أخرجا أبا عبد الله الصغير من غرناطة وأنه كان من أقسى الأعداء للمسلمين والإسلام . وفي عهده على الطرف الآخر كان السلطان العثماني الشهير سليمان القانوني . والذي كانت الدولة العثمانية في عهده إحدى القوى العظمى ! ...

وذات يوم أواخر سنة ١٥٢٥ (قبل حوالي ٤٧٠ سنة) استقبل السلطان سليمان سفيراً أرسله ملك فرنسا الأسير يرجو فيه من السلطان معونته على قهر شارلكان باحتلال المجر ! وكانت هذه البلاد بين أحلام السلطان فكتب إلى الملك الفرنسي كتاباً مليئاً بالعنجهية والاعتداد والعظمة كتب :

الله الغني المعطي المغني المعين .

بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته... وبمعجزات سيد زمرة الأنبياء محمد المصطفى (ﷺ) وبمؤازرة قدسية أرواح الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين وجميع أولياء الله. أنا سلطان السلاطين برهان الخواقين متوج الملوك ظل الله في الأرضين سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والأناضول والروملي وقرمان الروم وولاية ذي القادرية وديار بكر وكردستان وأذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة... أنا السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان بن بايزيد خان إلى فرنسيس ملك ولاية فرنسا. وصل إلى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذي أرسلتموه وأن عدوكم استولى على بلادكم وأنكم الآن محبوسون وتستدعون من هذا الجناب مدد العناية. وكل ما قلتموه عرض على أعتاب سرير سدتنا الملوكية. فلا عجب من حبس الملوك. فكن منشرح الصدر فإن آبائي لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد ورد العدو والله سبحانه وتعالى ييسر الخير...

بعد قليل في ربيع سنة ١٥٢٦ تحرك الجيش العثماني من القسطنطنية يقصد المجر. وكانت الحروب معها لا تنقطع كان في ركاب السلطان مائة ألف جندي و ٣٠٠ مدفع ترافقها ٨٠٠ سفينة على نهر الدانوب لنقل الجيش من ضفة إلى ضفة. كانت القلاع على الطريق تخضع لهذه القوة وتسلم حتى انتهت الحملة إلى وادي موهاك في شهر آب سنة ١٥٢٦ ...

كان حقد السلطان سليمان على المجر له جذوره السابقة فقد كان قد أرسل إلى ملك المجر سفيراً يطلب منه دفع الجزية السنوية أو الحرب قبل خمس سنوات ثم وردت إليه الأخبار بأن الملك قتل هذا السفير فاشتعل سليمان غضباً وسار بجيوشه مع المؤن والذخائر وهو على رأسها حتى وصل مدينة بلغراد (وكانت من أملاك المجر) فأمر وزيره محمد باشا بحصارها والتضييق عليها. وعلى الرغم من دفاعها المرير فإن مدافعه استطاعت أن تدك جانباً من

أسوارها وسارت الخيل في الدماء والنقع وترامى الجند الانكشارية على فتحات الأسوار كالجراد المنتشر حتى فتحت المدينة عنوة. ودخل العثمانيون قلعتها الحصينة ثم دخلها السلطان وصلى الجمعة في إحدى كنائسها التي حولت مسجداً وكانت بلغراد من أمنع المواقع ضد الدولة العثمانية فصارت من أمنعها ضد المجر وأكبر القواعد للعثمانيين في فتح ما وراء نهر الدانوب وجاء الرسل من ملوك روسيا وفرنسا ورؤساء البندقية إلى القسطنطنية مهنئين ...

وهكذا كان السلطان في هذه المرة مصمماً على فتح المجر كلها. وفي أواخر آب سنة ١٥٢٦ تقابل الجيشان العثماني والمجري. انتظم العثمانيون في ثلاثة صفوف تمتد على الوهاد والتلال عند وادي موهاكس وأما السلطان فبقي في الصف الثالث ومعه كتائب المدافع كلها وفريق الانكشارية. وتحرك فرسان المجر كالموج المتدافع. وهم مشهورون بالبسالة وحركة الخيل. فتقهقرت أمامهم الصفوف العثمانية الأولى وهربت وراء المدافع ويبدو أن ذلك كان خطة حربية وضعها أركان السلطان فما إن اقترب فرسان المجر كالشياطين الزرق من الصف الثالث حتى أمر السلطان بإطلاق المدافع كلها دفعة واحدة. وبتوالي الإطلاق دون توقف واهتزت الأرض بصدى البارود المنفجر والنيران وتعالى الدخان الكثيف مما أوقع الرعب في قلوب الفرسان المجريين الذين ارتدت بهم خيولهم أمام الانفجارات إلى الوراء. وهي تصهل وتقفز ملقية فرسانها ذات اليمين وذات الشمال. وتراكض العثمانيون فرساناً ومشاةً وراءهم يتتبعونهم بالقتل والأسر فلم ينج منهم إلا القليل القليل. وكان بين القتلى ملك المجر نفسه. ويبدو أن أشلاءه مزقت بقنبلة فلم يعثر على جثته ولا على حصانه!

ووقعت الفوضى في الجيش المجري وتمزق عساكر مشتتة إثر شيوع الخبر بموت الملك. ولم يكن ثم جيش آخر أو قوة أخرى تقف في وجه القوى العثمانية فكانت واقعة موهاكس نهاية مملكة المجر! التي دخلها الجيش السلطاني بعد ذلك بسهولة ويسر. وقبل أن يصل العاصمة بود (وهي الآن القسم العالي من

بودابست) على الشاطئ الأيمن من الدانوب ويتممها على الجانب الأيسر بلدة بست (وقد توحد البلدان فيما بعد باسم بودابست) وصل إلى السلطان وفد من العاصمة يقدم إليه مفاتيح المدينة !!

وسار بعد ذلك فدخلها في أيلول سنة ١٥٢٦ مشدداً الأوامر على الجند في أنحاء المدينة وفي أرجاء المجر وفي أنفسهم عزة الفاتحين وفي أعينهم جشع النهب والسلب فارتكبوا الفظائع التي لا ترتكبها إلا العصابات المنفلتة ! وجمع السلطان وجوه المجر والأمراء وأعيان البلد ووعدهم أن يعين عليهم للملك أمير ترانسلفانيا جان زابولي !

حين عاد إلى استامبول كان يصطحب معه الكثير من نفائس المجر وذخائرها الملكية . ولعل أهمها الكتب المخطوطة التي كانت في خزائن كنيسة ماتياس وهي كنيسة التتويج فقد كان ملوك المجر يتوجون فيها وقد جعلت مسجداً فيما بعد وزينت بنقوش عربية ولا تزال هذه النقوش عليها إلى اليوم رغم عودتها كنيسة كما كانت بعد خروج العثمانيين من المجر ...

يبقى أن نضيف أن فتح المجر لم يصف للسلطان سليمان فقد نازعه عليها ملك النمسا وأتى بجيوشه فاحتلها ونزل العاصمة بود وتراكض الملك المعين زابولي إلى سيده سليمان يرجو المعونة . فكانت السلطة على المجر مركز العداء بين العثمانيين والنمسويين فترة طويلة وإن استطاع سليمان استردادها بسرعة فقد سار إليها بجيش ضخم من مائتين وخمسين ألف جندي وثلاثمائة مدفع سنة ١٥٢٩ ففر ملك النمسا من بود العاصمة بجلده وأما الحامية التي تركها فيها فقد أبادها الإنكشارية ...

أما كان سليمان القانوني يستحق تلك العظمة التي عبر عنها ياترى في كتابه إلى ملك فرنسا ؟.

عصر الهزائم في الأندلس

إذا مالت الشمس إلى المغيب فليس يوقفها إلا الله . ومثلها الإنسان إذا بلغ مبلغ العجز فليس من عودة إلى الشباب . وكذلك الدول إن أخذها الانهيار فليس لها من منقذ أو واق ونظلم الأندلس، هذه الدنيا المتألقة في تاريخنا المظلم ونظلم الأندلسيين إن رمينا عليهم عبء انهيار تلك الدنيا فقد كانت القوى التي يقاومون أعتى وأشد وحشية منهم كما كانت أنانيات حكامهم أشد عتواً وعمى . وحين انفرد كل أمير بمدينة كان من السهل على القوى الإسبانية المتحدة أن تسحقها واحدة بعد أخرى .

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت آحادا

لذا ما كان من سقوط تلك السلسلة من المدن الأندلسية واحدة بعد واحدة على طول سلسلة جبال سييرا مورينا الممتدة من الشرق إلى الغرب في جنوب إسبانيا من بلنسية ومرسية إلى أشبيلية وقادس مروراً بقرطبة وجيان . وسقطت كلها خلال ثلاثين سنة ! سقطت بلنسية سنة ٦٣٦/١٢٣٨م بيد ملك آراغون خايمة الأول . وأما قرطبة عاصمة الأمويين فكانت لمحمد بن هود قبل ذلك وقد انفرد بها فرديناند الثالث ملك قشتالة حشد لها سنة ٦٣٣ جيشاً يعدل في العدد سكانها جميعاً ذكروا أنه مائة ألف . وقرطبة أرباض وأسوار . فقاومت المدينة وقاومت واستنجدت وكأنما تستنجد بقبض الريح . خمسة أشهر وهي تشهد الدارعين حولها والمجانيق تدوي في سمائها والحصار الثقيل يزداد إحكاماً وإرهاقاً . لم تبال بالأرباض التي نهبت ولكن حين نقبت الأسوار وكلت الأذرع من الأقواس والنشاب . لم تجد إلا الاستسلام خرج

أهلها بالأمان فارين إلى الجنوب والشواطئ في مالقة وغرناطة وحولها وجاز الكثيرون العدوة إلى المغرب .

مدينة جيان لم تحاصر ولم تحارب لقد سلمها صاحبها محمد بن الأحمر ، صاحب دولة غرناطة تسليماً إلى فرديناند الثالث ملك قشتالة سنة ٦٤٣ ثمناً لتوقي ضرباته وشراء مسالمته وكان قد دخل معه في حلف ضد بقية الأمراء المسلمين وغضب الناس المكبوت يجعل عيونهم كالشرر المتقد !!

على أساس هذا التحالف المخجل انصرفت ضربات فرديناند إلى مهاجمة أشبيلية كانت يومذاك عماد المدن الأندلسية يحكمها أمير من الموحدين . وقد عرف الملك القشتالي عجزه عن فتحها لوحده فأقام حلفاً جمع ملوك إسبانيا جميعاً وكان في جيشه وليا عهد البرتغال وأرغونة وأعداد من المتطوعين من مختلف المدن الإسبانية والفرنسية ومن القسس يمثلون الكنيسة والبابوية وكتائب من جيش غرناطة المسلمة !

ضرب الحصار على مدينة أشبيلية فقطع مواصلاتها وسبيل المؤن إليها على جميع الأبواب وأصرت المدينة على المقاومة حتى النهاية . الهجمات التي صدتها أسوارها وحماة الأسوار تزيد على أربعين هجمة . المعارك التي دارت حولها تزيد على مائة معركة . وعجزت حاميتها عن فك الحصار الذي طال ثم طال ثمانية عشر شهراً ذاقت في أواخرها المدينة مر الويل وقلت الأقوات وشحت الموارد ولا مدد فالموحدون في المغرب في شغل عن هذه البقايا من نفوذهم الموحدي في الأندلس . المعارك الأخيرة حول الأسوار كانت معارك اليائسين . ألقى فيها أهل أشبيلية بكل ثقلهم . لكن سيوفهم والرماح كانت تتقصف أمام كثافة السلاح القشتالي وحركة الفرسان حول الأسوار والكتائب النقابة التي كانت ترد عن الأسوار كانت تعوض بكتائب أخرى أكثر عدداً وعدة . فالدفاع الشرس الطويل زاد في عناد الملك القشتالي وحلفائه وأخيراً كان لا بد من المفاوضة على التسليم وسلمت المدينة سنة ٦٤٦ على أن يخرج من فيها من

المسلمين بالأمان .. وخرجوا ولكن حسرات ودموعاً يائسة . لينصرف الملك القشتالي عنها إلى قادس فيحتلها ويصبح خط الدفاع الأندلسي الأخير جميعاً بيد قشتالة .

بعد ذلك بسنوات كانت قد ظهرت في المغرب قوة إسلامية ثالثة بعد المرابطين والموحدين هي قوة المرينيين . لكن لم يكن قد بقي من الأندلس إلا رقعة صغيرة من أقصى الجنوب الشرقي من الجزيرة الإسبانية هي مملكة غرناطة لبني الأحمر وعلى الرغم من تهديد الإسبان الدائم لهذه المملكة فقد كانوا غيارى على استقلالهم بها فكانت سياستهم أن يهددوا القشتاليين بالمرينيين وأن يهددوا المرينيين بالقشتاليين ولم يكن المرينيون يترددون في نجدة الأندلس حتى ولو لم يستنجد بهم أصحاب غرناطة فقد كانت الأندلس ضمن أحلامهم التوسعية وضمن خطط الجهاد الديني . وكان من أعظم سلاطين بني مرين اتصالاً بالأندلس السلطان المنصور الذهبي الذي عبر إلى الأندلس أربع مرات وهزم القشتاليين ووصلت جيوشه إلى مشارف طليطلة في قلب إسبانيا سنة ٦٨٤ بعد معركة عنيفة عرف فيها الأسبان أقسى الهزيمة . كان اجتياز الحاجز الجبلي جبال البشرات شمالي إشبيلية بفرسان المغرب قاسياً صعباً على الصخور والخيل ولكن مرأى الجيش الإسباني المنهزم أمامهم بين الوهاد كان يغريهم بلحاقه وعجز رماة النبال عن استباق الهاربين فكان الفصل في المعركة المتصلة للسيوف وسمعت الوديان والربى هناك في جبال البشرات بعد طول انقطاع صيحات الله أكبر تمتزج بصراخ المحاربين وأنين الجرحى . وأجبر الملك القشتالي على عقد الصلح والتعهد بعدم التعرض للمسلمين بأي أذى .

دام هذا التوازن الذي أقامه بنو الأحمر بين قوتي قشتالة وبني مرين فترة نصف قرن ولكنه مال إلى الضعف بعد أواسط القرن الثامن وفي عهد الحجاج يوسف من بني الأحمر عادت ممالك إسبانيا الثلاثة إلى التحالف ضد مملكة غرناطة واستنجد ملكها بأبي الحسن المريني سلطان المغرب فعبر هذا السلطان

بجيوشه المغربية التي يقدرونها بسبعين ألفاً أوائل الصيف ١٣٤٠/٧٧١ كان ما اجتمع للحلف الإسباني يزيد على مائة ألف محارب.

اشتعلت المعركة بعد فترة قصيرة شمالي أشبيلية وتراجع الإسبان في الصدمات الأولى ولحق بهم فرسان المغاربة لكن انفصال هؤلاء عن كتلة الجيش جعل المشاة والنبالة يلتحم بعضهم مع بعض. وأوغل فريق من الإسبان في المعسكر المغربي حتى انكشف فشدوا عليه ولما عاد الفرسان للمعونة تصدى لهم المهاجمون واعتنقت الخيل والسيوف في قتال مرير لم يصمد له المغاربة فأخذوا في الفرار بين الغابات والشجر والدروب واستولى الإسبان بين ما استولوا عليه من المعسكر المغربي على حريم السلطان المريني الذي فر بنفسه هارباً إلى المغرب لا يلوي على شيء ولجأ حليفه أبو الحجاج إلى حصونه وانفتح الطريق أمام الإسبان فلاحقوا الهاربين يتصيدونهم في الوهاد والسهول ذبحاً وقتلاً بالمئات فالمسالك نحو الجنوب حتى البحر ملآى بالجثث المنتثرة والدماء واستولى الإسبان على بلدتي الجزيرة الخضراء وطريف قاطعين بذلك ممر الإمدادات بين المغرب وغرناطة.

هذه الهزيمة ذكرت الناس بمعركة العقاب التي جرت قبلها بمائة وستين سنة وبأحزانها ذلك أن المرينيين تابوا بعدها عن طروق الأندلس إلا لماماً كما تاب بعد وقعة العقاب الموحدون!

ولله الملك ينصر من يشاء!.

النكبة الكبرى

مأساة الموريسكيين

هل سمعت مرة في التاريخ بعقد زواج يشترط فيه قيام حرب؟ مع ذلك فقد كان عقد زواج إيزابلا ولية عهد مملكة قشتالة الإسبانية من فرديناند ولي عهد مملكة آراغون يشترط أن يتعهد الزوج الأراغوني بمحاربة المسلمين.. والغريب أن هذه المرأة اشترطت عند موتها على وريثها أن يقضي على المسلمين في الأندلس.حقد ديني أسود حملته طول حياتها أوصت أن يستمر بعد وفاتها. وكان من ورائه كاهن اعترافها الكاردينال خيمنز! هذان الثالوث فرديناند ـــ إيزابلا ـــ خيمنز كانا أساس نكبة النكبات في التاريخ الأندلسي لا في إلغاء الأندلس من خارطة الوجود ولكن في نحو أربعة ملايين مسلم كانوا على وجهها وتشريد مثلهم في العدد عنها. هذان الملكان وحدا مملكتيهما بالزواج في مملكة واحدة وهاجما غرناطة الإسلامية وعقب سقوطها بأيدي جيوشهما وطرد آخر ملوكها عن إسبانيا دقت أجراس الكنائس مرتين فرحاً الأولى بعد زوال آخر مملكة مسلمة في الأرض الإسبانية ثم دقت مرة أخرى فرحاً لاكتشاف أرض جديدة وراء بحر الظلمات هي التي نعرفها باسم أمريكا. الحدثان وقعا في وقت واحد سنة ١٤٩١/١٤٩٢. وإذا كان سقوط غرناطة أعطى المملكة القشتالية أرضاً فقد أعطاها كشف أمريكا الأرض التي تضيع الأحلام فيها. وأعطاها ثروة من الذهب ما حلم بها الخيال أيضاً.. واجتمع كل ذلك ليخدم حقد هذه السيدة وأولادها وأحفادها من بعدها ضد الإسلام والمسلمين... ولم يكن هؤلاء المسلمون بعيدين عنها فقد كانوا تحت يدها على الأرض الإسبانية. ولم

يكونوا يقاتلونها ولكن يختلفون عنها فقط في العقيدة. وهذا هو ذنبهم الأعظم الذي دفعوا ثمنه مائتي سنة من الاضطهاد المرير.

هؤلاء المسلمون الإسبان، من أصل عربي أو بربري أو إسباني هم الذين صاروا بعد سقوط ممالكهم يدعون في إسبانيا بالموريسكو... (المور أي المغاربة) ولهؤلاء الموريسكو ابتدع التعصب الكاثوليكي الإسباني وعبقرية الكاردينال خيمنز ماعرف في التاريخ باسم (محاكم التفتيش) وباركت ذلك البابوية وقصة هذه المحاكم وتفاصيل ما جرى على يديها من الاضطهاد والتعذيب للمسلمين قصة طويلة تقشعر لها الأبدان وترتعش لها أقسى القلوب... إلا قلوب الذين قاموا بها فإنها كانت من الحجارة!

بدأت أعمال الاضطهاد بنقض شروط الأمان التي أعطيت للمسلمين بحقهم في المحافظة على دينهم. وذلك بالعمل على تنصيرهم. صدر قانون التنصير بعد ثماني سنوات من سقوط غرناطة... بموجب هذا القانون سيق المسلمون جبراً إلى الكنائس لتتم عليهم مراسم العمادة النصرانية. وحرم عليهم إقامة شعائر الإسلام وأغلقت المساجد. وحولت إلى كنائس. وعمد الكاردينال خيمنز إلى الكتب الإسلامية فجعلها أكواماً في الساحات العامة وأشعل فيها النيران. لم يستبق إلا ثلاثمائة كتاب في الطب!

بعد سنتين أي سنة ١٥٠١ منع وجود المسلمين في إسبانيا. اعتبر وجودهم خطراً على الدولة الكاثوليكية ومنعوا من حمل السلاح. أي سلاح. سكين المطبخ كانت عقوبتها الإعدام. خروج الماء من الميازيب كان يعني الاستحمام والإسبان لا يستحمون فصاحب الدار مسلم عقوبته الموت. حيازة الكتب العربية يودي بصاحبه إلى غرف التعذيب وتكسير الأطراف على الدواليب. أو شد الأطراف بين أربعة بغال وسوقها بالسياط...

ولم يحتمل المسلمون كل هذا فانفجروا في ثورة نظموا أمرها في غرناطة وأخرجوا المساجين من السجن بعد أن كانوا استغاثوا بالسلطان العثماني بايزيد

الثاني ولكنه كان مشغولاً بالاستعداد لغزو المماليك في الشام فلم يسمع الاستغاثة . وبعثوا المستجيرين إلى المغرب وحالت الثلوج دون لقاء النجدات . ففر الثائرون إلى جبال البشرات . حول غرناطة ولاحقتهم الحاميات الإسبانية بالقتل والإبادة في القرى حتى خمدت أنفاسهم !

وفي عهد الإمبراطور شارلكان حفيد إيزابلا وفرديناند ووريثهما . كانت أملاكه تشمل غرب أوروبا كلها وتمتد إلى القارة الأمريكية وإلى الفيليبين . وأناخ بكل ثقل الإمبراطورية على الموريسكيين . أصدر قانوناً بإجبارهم على ترك ألبستهم الخاصة واتخاذ الزي الإسباني . ومنعوا من الاغتسال وويل لمن يستحم وحظر عليهم التكلم بالعربية وطلب إليهم تغيير أسمائهم وأن يستبدلوا بها أسماء إسبانية . كانوا يستجوبون الأطفال عن تصرفات آبائهم عند الاشتباه بإسلامهم . . .

وفي عهد فيليب الثاني بن شارلكان حولت جميع المساجد إلى كنائس . وأجبر من بقي على دينه على التنصر خلال مدة معينة وإلا صار رقيقاً مصيره العبودية مدى الحياة . وعاد هذا الضغط الشديد مع ما رافقه من سوق المئات والآلاف إلى محاكم التفتيش ، وإلى السجون العمياء وألوان التعذيب فأثار الإباء في المسلمين وعادوا إلى الثورة . . . التهب سنة ٩٧٦هـ كل جبال البشرات . (سنة ١٥٦٨) وطردت الحاميات الإسبانية منها وقتل أعداد من قسس الكنائس . كانت الثورة بقيادة شاب يدعى محمد بن أمية واسمه الإسباني (هرناندو دو فلور) .استطاع أن يجمع على الولاء له عشرات الألوف وامتدت الثورة إلى جهات بلنسية واتسعت رقعتها وأضحى الإسبان في غاية القلق . . هل عجزت « الإمبراطورية الإسبانية » عن قمع الثورة التي كادت تعيد نواة مملكة غرناطة ؟ عمد الإسبان إلى التآمر على قائد الثورة دفعت بعض أتباعه فاتهمه ببعض التصرفات . ثم اغتاله !

لكن الثورة لم تخمد بهذا الغدر . ولو أن جذوتها تأثرت . فقد تولاها ثائر

آخر اسمه عبد الله بن عبو. فجندت إسبانيا ما يزيد على ١٥٠ ألف جندي وطوقت جبال البشرات واستخدمت طريقة الأرض المحروقة تدمر كل شيء أمامها. الحقل والثور والفلاح والطفل. وتضيق الخناق تدريجياً على الثائرين الذين لم يعد يصل إليهم أي مدد. كان قائد الإسبان هو ولي العهد بنفسه وأخيراً حوصر الثائرون في بعض الجبال فاستطاع الإسبان السيطرة عليهم بالإجاعة والحصار.

حين ظفروا بابن عبو قتلوه وسلخوا جلده وحشوه تبناً وداروا به في قفص حديدي في غرناطة وفي غيرها من المدن التي يعرفون أنها ما تزال على الإسلام...

وخمدت الثورة. وكانت الأخيرة لكن أعداداً ضخمة من المسلمين ظلت تسر دينها وتمارس عقيدتها خفية وتدرس السيرة النبوية وتحفظ الأدعية وآيات القرآن لما كانت العربية محرمة فقد كانوا يكتبون الألفاظ العربية بأحرف لاتينية فيما صار يدعى بالكتابة الألخميادية.

ولم يجد الإسبان وسيلة للخلاص من المسلمين في عهد فيليب الثالث إلا بمأساة أخيرة عقد من أجلها مجلس ديني كبير بإشارة البابا وكان أسقفا بلنسية وطليطلة أشد المتحمسين لقراراته التي صدرت سنة ١٠١٧/٦٠٠ بطرد جميع المسلمين من الأرض الإسبانية! وحشدت لهم السفن من مختلف الجهات فأبحر بعضهم إلى فرنسا وإيطاليا شريطة أن يستمروا على النصرانية الكاثوليكية. وأما من تمسك بإسلامه فذهبت به الأشرعة إلى المغرب العربي وبخاصة إلى تونس.. وكان عددهم عظيماً جداً يبلغ ٥٠٠ أو ٦٠٠ ألف. ويذهب بعضهم إلى أنه يبلغ المليونين وطرد معهم اليهود أيضاً... وهلك أثناء عمليات النفي والتهجير ما يزيد على مائة ألف بين أسير وقتيل! وأعداد محدودة من المهاجرين وصلت مصر والأستانة!

يا مـن لـذلـة قـوم بـعـد عـزتـهـم أحـال حـالـهـم كـفـر وطـغـيـان
بـالأمس كانـوا ملوكـاً فـي منازلهـم واليوم هـم فـي بـلاد الكفر عبدان
فـلـو تـراهـم حيـارى لا دليـل لهـم عليـهـم مـن ثـيـاب الـذل ألـوان
لمثـل هـذا يـذوب القلب مـن كمد إن كـان فـي القلـب إسلام وإيمـان

كذلك قال في هذه المأساة أبو الطيب الرندي. ﴿وقتل الإنسان ما أكفره﴾.

معارك البرتغال في المغرب

منذ ٤٥٠ سنة كان الحوض الغربي للبحر المتوسط الذي تطل عليه من الشمال أوروبا ومن الجنوب المغرب العربي بحراً مخيفاً لا أمان فيه . أعداد كبيرة من السفن دون هوية . وعلى الطريقة الفجائية كانت تظهر فيه فتقتل وتنهب وتحرق وتغرق ثم تغيب وراء الأفق . صارت سفن التجارة والركاب ما إن ترى الصواري والأشرعة عن بعد حتى تشكل قوافل ويهرع بحارتها إلى الدفاع . وإن سلمت من القتال فإنها لم تكن تسلم من رميها بالمجانيق أو بالزقاق المملوءة بالأفاعي والعقارب والفئران أهل أوروبا كانوا يسمون هذه السفن بالقرصان . وأما أهل المغرب فيسمونها بسفن المجاهدين.الفرق الذي يميز بحارتها هو أنهم كانوا معممين . ومن المسلمين . وحين يجهزون على السفن الأخرى كانت صيحتهم الله أكبر !!

قصة هؤلاء القراصنة ـــ المجاهدين لم تكن قرصنة تماماً ولا جهاداً محضاً وإن أخذت من القرصنة النهب ومن الجهاد الدفاع عن الدين . ولكنها كانت عمليات انتقام . كانت ثأراً . كانت حركات مقاومة أخيرة يقوم بها أولئك المسلمون الأندلسيون ومن تطوع معهم لقطع الطريق على تلك الشعوب النصرانية في إسبانيا وفي غيرها والتي سحقتهم إضطهاداً وعذاباً في أرضهم ثم أخرجتهم منها مرغمين وقوافل من الذل . كانوا يردون ، على ظهر الموج ، وفي المياه على طردهم من الأرض اليابسة هؤلاء لم يرضوا البقاء لاجئين في المغرب وتونس ومصر ولكن بقوا يحومون حول أرضهم السليبة ويدمرون على ذؤابات الموج مغتصبيها . وكان يزيد في غضبهم الثأري أن شعوب إسبانيا والبرتغال

بالذات لم تكتف بسحقهم وطردهم من الأندلس ولكنها هاجمت الشواطئ المغربية كلها من أقصى المغرب حتى طرابلس عشرات المرات ونزلت في الموانئ وأقامت المستعمرات . لاحقتهم ولاحقت من أووهم أيضاً بالمعارك والإذلال .

والذين يذكرون المصائب الاستعمارية من إنكليزية وفرنسية وإيطالية ينسون أن استعمارين آخرين سبقا هؤلاء المستعمرين إلى البلاد العربية الإسلامية هما الاستعمار البرتغالي والاستعمار الإسباني في المغرب وينسون أيضاً أن استعماراً ثالثاً رافق هذه الحركات الاستعمارية حتى هذا القرن هو الاستعمار الروسي الذي تولى أمر تركستان الإسلامية وصحارى القرغيز وجنوب روسيا المسلم حتى جزيرة القرم ... كلها كانت صليبيات ذات أشكال شتى وكلها أذاقت المسلمين مر العذاب . باسم السيد المسيح . الذي بدلوا قوله : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر فجعلوه : من خالفك في العقيدة فاقطع رأسه .

وهذا بعض من حكاية الإسلام والبرتغال .

لم يكتف البرتغاليون بالأرض التي اقتطعوها لأنفسهم في إسبانيا ولكنهم تطلعوا إلى توسيعها على حساب المغرب الإسلامي . لا سيما وقد كان هذا المغرب في مطالع القرن العاشر الهجري (١٦م) في تدهور وضعف وانقسام من طرابلس حتى رباط الفتح . تداعى الحفصيون في تونس والزيانيون حكام تلمسان إلى السقوط واستبد الأعراب البداة في داخل البلاد واستقلت بنفسها مدن السواحل وأصبح السلطان الحفصي في بعض الأوقات لا يشمل نفوذه مدينة تونس وضواحيها . ومثله كان الملك الزياني في تلمسان . أما المغرب الأقصى فكان في نزاع داخلي عنيف ما بين بني وطاس أنفسهم وفي نزاع ما بينهم وبين الأشراف السعديين .

هذا البحران من الضعف والتنازع سمح للبرتغاليين بأن يمدوا أطماعهم إلى الشواطئ المغربية منذ شعروا بضعفها أيام بني مرين . كانت أول هجماتهم

صليبية الملك هنري الملاح. قاد أسطوله الذي قوي جداً بجهوده وكسب بتقويته لقب الملاح. وهاجم مدينة سبتة على عدوة المغرب. لم تكن المدينة تنتظر هجوماً وكانت مرفأ تجارة هامة. وفاجأها الأسطول البرتغالي بالمدافع التي أخذت تستعمل على السفن بدل المجانيق وبالكتائب تحتل الميناء بالسيف والبارود والبندق وفر الناس مع قلة الحامية فصار للبرتغال على البر المغربي موطئ قدم هام يتحكمون بتجارته. وحين احتل العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وتشكل حلف أوروبي ضدهم لم ينجم عنه سوى الهزيمة، كانت للبرتغال فرصة للانتقام من المسلمين. جهز ملك البرتغال أدفونش الخامس أسطولاً كبيراً هاجم به بلدة القصر الصغير بين سبتة وطنجة بعد مذبحة عنيفة دمر فيها معظم الميناء سنة ١٤٥٨/٨٦٢ ولم يستطع بنو وطاس حكام المغرب دفع هذا البلاء الذي تلقاه الأهالي بصدورهم وأنفسهم. ثم عاد البرتغاليون بعد سبع سنوات فاستولوا على طنجة. فوجئ الناس فيها ذات صباح بأسطول البرتغال يقصف المدينة والميناء. وتتدفق منه الجنود عطشى للدماء. بعد سبع سنوات أخرى سنة ١٤٧١/٨٧٦هـ استولوا بالطريقة نفسها على أصيلة وعلى أنفى. ولم تأت سنة ٩٢٦ حتى كان هذا الجيب العسكري الذي أقاموه على شاطئ المغرب يضم بلدان الجديدة والعرائش وأغادير ورباط الفتح وأسفى وأزمور والمعمورة (مهدية المغرب)... صار ساحل المغرب الأقصى كله من سبتة إلى أسفى خاضعاً لحكم البرتغال. وبنوا عليه الحصون المجهزة بمدافع الحديد والبنادق والبارود.

لم يذهب البرتغاليون في عمق المغرب خوفاً من التوغل في أرض إسلامية واكتفوا بالتمدد على طول السواحل لأنهم اعتبروها امتداداً لسواحلهم على بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ومنطلقات فيه إلى الأرض الجديدة التي اكتشفوها سواء في الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح أو في القارة الأمريكية. وحين ظهر السعديون في المغرب جعلوا همهم تطهيره من البرتغاليين. قاد المعارك ضدهم

أبو العباس الأعرج منذ سنة ٩٢٣ ثم قادها أخوه محمد الشيخ (المهدي).
معاركه أمام فونتي وأسفي وأزمور وأصيلا فيما بين سنتي ٩٤٧ ـــ ٩٤٨
استخلصت منهم بالسيف هذه المدن. وقلصت من نفوذهم بما شهدوا من
القتال العنيف. وبخاصة أمام هضبة أصيلا ...

ومن المؤسف أن الجيب الاستعماري البرتغالي عاد إلى التوسع بعد تقلصه بسبب خلاف المتنافسين على الحكم فقد توجه اثنان منهم إلى العثمانيين يستنجدونهم ضد ابن أخيهما المتوكل وانتصروا عليه فلم يجد أمامه سوى الالتجاء لملك البرتغال دون سيباستيان الذي اشترط أن يسلم إليه المتوكل جميع سواحل المغرب الأقصى ويكتفي هو بالداخل. وقبل. وجاء الملك البرتغالي بجيش من ١٢٥ ألف مقاتل وانضم إليه أتباع المتوكل. المعركة كانت في أغسطس سنة ١٥٧٨ (٩٨٦). خرج الزحف البرتغالي من مدينة طنجة فالتقوا بالجيش الإسلامي بوادي المخازن، ولم يكن يزيد على ٤٠ ألفاً. ودار القتال بعنف شديد أذاب قوى الطرفين. ولعبت فيه مدافع الحديد والبارود دورها كما لعبت السيوف. ولما نزل بعض قادة البرتغال إلى الميدان جرحوا أو قتلوا وتمزق قلب الجيش فاخترقه المسلمون في ما يشبه المذبحة. وانجلى الغبار عن هزيمة ساحقة للبرتغاليين. أنقذت المغرب كله!

المصادفة العجيبة كانت في أن الملوك الثلاثة المتحاربين ماتوا في وقت واحد إبان المعركة. فملك المغرب المسلم مات في محفته عند نشوب المعركة.
وأما المتوكل وسيباستيان فقد قتلا في ساحة القتال!.. وبمقتل الملوك الثلاثة آل العرش إلى أحمد المنصور الذهبي أشهر ملوك السعديين!

بذا قضت الأيام ما بين أهلها   مصائب قوم عند قوم فوائد

معارك الإسبان في المغرب

المصادفات في التاريخ لا تنتهي دوراً وأثراً. ولعله ما من مصادفة لعبت الدور المرير في تاريخ عدد من الشعوب كالمصادفة التي مرت في التاريخ الإسباني: سنة ١٤٩١. في تلك السنة كان ملك قشتالة فرديناند وزوجته إيزابيلا يجهزان على غرناطة حين قدم إلى معسكرهما عند هذه المدينة بحار مغمور يعرض عليهما مشروعاً رفضه من قبل أمراء إيطاليا وملك البرتغال: أن يسير ببعض السفن في بحر الظلمات ليأتي الهند من الشرق! واستمعت إيزابيلا لهذا المغامر الذي لا يطلب إلا بعض السفن وبعض البحارة. ولم تكن لديها فكرة عن تكور الأرض ولكن المغامر أقنعها. ولن تخسر شيئاً لو أعطته عدداً من المساجين المحكومين وبعض السفن وقالت الملكة: أوافق...

هكذا انطلق كريستوف كولومب بمغامرته الكبرى التي كشفت الأميركيتين وعبور المحيطين الأطلسي والهادي إلى الهندي وأعطت إسبانيا لا نهراً من الذهب فقط ولكن أعطتها فرصة تدمير عدد من الشعوب في هذه الأرض الجديدة: شعب الإنكا. شعب المايا. شعب الأزتيك وشعب الفيليبين كما أعطتها الفرصة أيضاً لتفكر في إبادة المسلمين في المغرب. كانوا بالنسبة إليها العدو القريب الدار. وإذا طردتهم من الجزيرة الإسبانية فلماذا لا تطردهم أيضاً من المغرب؟ صحيح أن الدولة العثمانية المسلمة في المشرق قد تكون وراءهم. فلما لا يتخلصون منهم قبل أن تمتد هذه الدولة العظمى إليهم وهم في جوارها؟ إن إسبانيا دولة عظمى بدورها. وأملاكها لا تغيب عنها الشمس. فلماذا لا تعمل على تنصير المغرب وتقيم منه سداً في وجه العثمانيين؟ لا سيما بعد أن

احتلوا القسطنطنية وأصبحوا الخطر الأكبر في شرقي أوروبا. ووصلوا أسوار فيينا؟

كان الكاردينال خيمنز وراء هذه الأفكار. وكان يقيم عند أذن الملكة فهو كاهن اعترافها . وهكذا ترك الإسبان للبرتغاليين سواحل المغرب الأقصى يمرحون فيها واتجهوا إلى سواحل الجزائر.

في سنة ١٥٠٥/٩١١ بعد سقوط غرناطة بأربع عشرة سنة كان أسطول إسباني ضخم بقيادة بدرو نافارو يتجه إلى مرفأ المرسى الكبير غربي الجزائر. ولم يكن محكم الحراسة وإن كان مرسى للسفن الكبيرة الواردة إلى وهران الواقعة على ميلين منها إلى الشرق لا مثال له في المراسي وهو يستر من كل ريح لأنه في جون جبل مرتفع مطل على وهران وما كان احتلال المرسى سوى خطوة أولى لاحتلال وهران بعدها بعد سنوات ثلاث. وكانت هذه المدينة صلة الوصل مع مدينة المرية في الأندلس. وفيها أرجاء كثيرة ومن حولها البساتين والقرى والمراكب مختلفة إليها. وفي أهلها عزة نفس ونخوة. وقد خربت وعمرت مرات عديدة وحين فاجأها الإسبان كان لها سور ترابي متقن ضربه الإسبان بالمدافع والبارود. ووقف أهل المدينة لهم يقاتلون بضراوة. ولكنهم نزلوا على الشاطئ في أكثر من مكان وفتكوا بالسكان أعظم الفتك وأشنعه. أبشع الجرائم ارتكبت في هذه المذبحة التي قتل فيها أربعة آلاف مسلم قبل أن تستباح المدينة للنهب والسبي والإحراق. والبارود. وبعد أن حضر الكاردينال خيمنز تحويل مسجدين فيها إلى كنائس وباركها باسم السيد المسيح سار الجيش الإسباني يرافقه الأسطول على الشواطئ نحو الشرق. كانت أخبار مذبحة وهران قد سبقتهم فلم تكن المقاومة لهم بالشراسة التي شهدوها في وهران. وهكذا سقطت بعدها مرافئ: عنابة. تنس. شرشال. ولس. مستغانم. الجزائر... ووجد أمير تلمسان المدينة الداخلية أن أبواب البحر أغلقت على مدينته فاضطر للخضوع لهم. وأصبح تحت حمايتهم... ثم تركوا تونس للنورماند في

صقلية. وانحدروا في الساحل شرقاً إلى طرابلس يحجزون الطريق على أية حملة عثمانية أو مدد عثماني محتمل.

ويشاء الله أن تنبت المقاومة للإسبان من خلفهم. من جزيرة جربة المجاورة للساحل التونسي. في هذه الجزيرة كان هناك قرصان مجاهد مسلم اسمه عروج وقع ذات يوم في أسر قراصنة رودوس النصارى فلما تخلص منهم أقسم على الانتقام من جميع الأساطيل النصرانية. حول التعذيب الذي لقيه في الأسر مجرى حياته. عمل أول الأمر بمفرده ولحسابه ثم احتاج إلى مقر وقاعدة فسمح له ملك تونس أبو عبد الله محمد الحفصي بجزيرة جربة على أن يدفع إليه خمس الغنائم وهناك التحق به أخوه خير الدين المعروف بلقب بارباروسا أي ذي اللحية الحمراء. وجد عروج أن جماعته قد كبرت فهاجم الإسبان في مرفأ جيجل (بين عنابة وبجاية) فلم ينجح في طرد الحامية الإسبانية منها. ولكنه نجح في طردها من شرشال. واستنجد به سكان الجزائر فأنقذهم من السيطرة الإسبانية بعد معركة عنيفة. أخرجهم منها فاعتصموا بجزيرة صغيرة تجاه ساحلها. وغضب ملك الإسبان لهذه الهزيمة أمام قرصان صغير، وهو الامبراطور ذو القوة والممالك فسير إليه حملة ضخمة يقودها قائده دييغو دي فيرسا. وظن الإسبان أن عروج لا يستحق كل هذا الجهد. فتوانوا في القتال وتركوا لعروج أن يبادرهم بالمعركة على غرة بين شرقي المدينة وغربها وأن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر بالسيف. وتساقطت ضحاياهم والجرحى على الشواطئ وفروا إلى المراكب لا يصدقون بالنجاة... وربح عروج كل السلب من الحملة...

وانتعشت آمال الموانئ التي يحتلها الإسبان وانتعشت أكثر منها سكان مدينة تلمسان فبعثوا يستجيرون به. كانت المعاملة المذلة التي يعاملونهم بها تثير في صدورهم براكين الحقد. وجاء عروج بجيشه فاستولى على مدينة تلمسان في معركة ليست أقل شدة من معركة الجزائر... لكنه كان على الدوام ورغم انتصاراته يشعر أن هذه الانتصارات أكبر منه وأكثر ثقلاً على كاهله. إنه

لم يعد مجرد قرصان يجاهد على ذرى الموج . ويستطيع متى شاء أن يهجم ومتى شاء أن يتوارى وراء الأفق . ولكنه أضحى الآن وجهاً لوجه أمام الإمبراطورية الضخمة . أمام إحدى قوى العالم العظمى . ولابد له من سند قوي وصفة شرعية يمتلك باسمها الأمصار والأراضي ويفتح الفتوح . ولم يكن ليخطر في باله إلا السلطنة العثمانية فهو في الأصل من جزيرة (مدلي) التي استولى عليها السلطان محمد الفاتح وأبوه يعقوب جندي من جنود هذا السلطان . وهكذا بعث إلى السلطان يضع نفسه تحت حمايته . يحارب باسمه ويستند إلى عظمته . والعثمانيون يومذاك في أوج سلطانهم !

قبل السلطان العثماني هذه الهبة المجانية التي لم يكن ينتظر لا سيما وقد لمع اسم عروج في العالم الغربي . وأضحى رعب البحار والمرافئ . ولن يجد في هذا المكان القصي قائداً يمد ظل السلطنة العثمانية إلى المغرب في مثل شجاعته وقدرته ويمن طالعه .. ورأى الإسبان في تطور هذه العلاقات إلى هذا الحد خطراً عليهم . إن هذا يعني قبل كل شيء إخراجهم من المغرب . لذلك أسرع الإمبراطور شارلكان بإرسال نجدة كبيرة إسبانية تسترد تلمسان ...

المعركة التي دارت حولها دامت ستة أشهر . والحصار الذي ضرب أذهل المدينة بقذائف المدافع وحركة الخيل حول الأسوار وكثرة الضحايا . واختار الإسبان المطاولة لعلمهم أن جماعة «القرصان» لا يثبتون طويلاً في القتال . ولكنهم ثبتوا وثبتوا . وزاد الجرحى فيهم والقتلى . وفي إحدى هجماتهم على الجيش الإسباني أصيب عروج بجراح قاتلة كما أصيب أصحابه واستشهد سنة ٩٢٤/١٥١٨ .

قبل سنة واحدة كان السلطان العثماني يدخل الشام ومصر لعله يطوق البحر المتوسط من الجنوب ويصل المغرب ...

ولكن هذا الحلم تأجل بمقتل الرجل الذي أثاره !.

طرد الإسبان من المغرب

الإمبراطور شارلكان (أو شارل الخامس) والذي جمع أكبر إمبراطورية إسبانية على الأرض وكان من أعدى أعداء الإسلام هو وابنه وحفيده، من المؤكد أنهم لم يكونوا يستحقونها لأنها سرعان ما تفرقت بين أيديهم. بل استطاع مغامر صغير مثل عروج العثماني ومثل أخيه خير الدين هزيمتها في المغرب المجاور لها وهي الطامعة فيه. وإذا استطاعت قتل عروج فإن أخاه خير الدين المعروف بلقب بارباروسا أي ذي اللحية الحمراء وقف لها وقفة أخيه نفسها.

ارتبط أكثر فأكثر بالسلطان العثماني يدعو له على المنابر. وكان السلطان سليمان القانوني يومذاك أحد رجال الدنيا. فعينه والياً على الجزائر برتبة بكلربك (أمير الأمراء). ومنحه لقب الباشوية. وأرسل إليه الإمدادات من القسطنطنية ليجابه الإسبان. ويجعل الجزائر كلها ولاية عثمانية. ونجح خير الدين في المعارك التي قادها ضدهم. استولى على بلدة القالة ثم على عنابة وقسنطينة ومتيجة في شرق الجزائر. وهران وحدها وبقيت في أيديهم حتى أيام الثورة الفرنسية.

كان برباروسا يضرب بسيف السلطان. وبكل حماسة المسلم المؤمن. وكان الإسبان باعتبارهم كفاراً محتلين مبغوضين إلى الناس. لا سيما مع تصرفاتهم المذلة للسكان الذين كانوا يتغنون بتسلق جنده للأسوار. وببطولات فلان من رجاله وفلان. واقتحام كتائبه للأبواب. وهرب الحامية. ولما حاصر

الجزيرة التي اعتصم بها الإسبان مقابل الجزائر سنة ٩٣٥/١٥٢٩ واستسلمت له الحامية الإسبانية فيها ذاع صيته كل مذاع .

وكلفه السلطان العثماني احتلال تونس . (وما كان نفوذ آخر الملوك الحفصيين فيها وهو الحسن بن أبي عبد الله الحفصي ليجاوز المدينة وضواحيها) ، خوفاً من أن يسبقه الإسبان إليها . فدخلها بعد فترة محدودة وخطب على منابرها للسلطان وهرب ملكها الحفصي إلى العرب البدو يثيرهم فلما لم يتحركوا ذهب إلى الإمبراطور الإسباني شارلكان . يكرر بذلك خيانات ملوك الطوائف في الأندلس ولم يكن هذا الإمبراطور بحاجة لمن يثيره فانتهز الفرصة وقدم بجيوش جرارة إلى تونس سنة ٩٤٢ فنزل بحلق الوادي على مقربة من تونس ثم استولى عليها وأذاق السكان مُرَّ العذاب من العدوان والتشريد والنهب وهتك الأعراض وقتل منهم الثلث وأسر الثلث وهرب الثلث وكان الثلث ستين ألفاً . وأعاد شارلكان الحسن الحفصي إلى عرشه . بعد أن دخل حمايته ووقع معه معاهدة تسمح للإسبان بسكنى جميع البلاد التونسية والتنازل عن حلق الوادي لهم ومدينتي بنزرت وعنابة ودفع إتاوة سنوية قدرها اثنتا عشرة ألف دوكة (عملة الإسبان الذهبية) .

لم تكن معارك خير الدين مع الإسبان في تونس حامية لأنه كان يدافع عن مؤخرته العسكرية وهو يتراجع نحو الجزائر في حين توطدت أقدام الإسبان أكثر فأكثر لا سيما بعد ثورة أحد الحفصيين ضدهم وفشلها . واحتلالهم بعد ذلك بفترة لمدينة المهدية وجزيرة جربة سنة ١٥٧٢/٩٨٠ . أثناء حكم محمد بن الحسن الحفصي الذي زاد انبطاحاً أمامهم وتذللاً لهم ! .

وكان قد استدعى السلطان إليه خير الدين برباروسا فجعله أمير البحر العثماني . (قبودان باشا) فالبحر المتوسط غدا بحيرة عثمانية لا تجرؤ السفن الأوروبية على التجوال فيه إلا متحدة متحالفة وتتجنب ملاقاة الأسطول العثماني هاربة . وحاول شارلكان استرداد نفوذه على الجزائر فسير إليها حملة برية

بحرية سنة ١٥٤١/٩٤٨ بلغت عدد قطع الأسطول فيها ٥١٦ سفينة. وهاجم هذا الأسطول الضخم المدينة بالمدافع من البحر وبالقتال البري. فوقف حسن آغا والي الجزائر لهذه القوة في ثبات المؤمنين ولعبت عواصف البحر الهائجة دورها في صدام السفن الكثيفة بعضها ببعض وفي تحطيم بعضها وغرق بعض. وإحراق السكان لجانب منها. مما هدد الحملة بانقطاع طريق العودة عليها فانهزمت هزيمة فظيعة تاركة في أزقة المدينة وعلى شواطئها آلاف القتلى والجرحى. وتشجع بهذا النصر صاحب تلمسان فأعلن ولاءه للسلطان العثماني.

في هذه الأثناء دخل على الخط عنصر صليبي مغمور هو فرسان القديس يوحنا. هؤلاء كانوا في الشام وطردوا مع الصليبيين إلى قبرص ثم طردوا أيام المماليك فالتجأوا إلى رودوس. ولما تحرج مركزهم بسبب قوة العثمانيين منحهم شارلكان مدينة طرابلس التي يحتلها وجزيرة مالطة. وأثار استبدادهم السكان فبعثوا يستنجدون بالسلطان العثماني. لأن الوالي الذي عينه السلطان لم يستطع اقتلاعهم وطردهم ومر الأسطول العثماني أمام طرابلس بقيادة طورغود باشا. وعلم بالاستنجاد. فنزل بجنده على طرابلس. ورغم استثارة البابا والقوى الأوروبية فقد ربح طورغود المعركة الحامية ضدهم. وأخرجهم فاجتمعوا حتى أيام نابليون في مطلع القرن الماضي في مالطة.. وتحررت طرابلس من الإسبان. وانضمت إليها قابس وجزيرة جربة ثم انضمت القيروان.

ولم يرض ذلك بالطبع الإسبان وحاولوا الهجوم على طرابلس ففشلوا الفشل الذريع فأقاموا حلفاً أوروبياً اشتركت فيه إسبانيا ومالطة وجنوه وفلورنسة وصقلية. كانت المعركة معركة أساطيل بحرية. بجانب جزيرة جربة. اختبط فيها البحر كله حول الجزيرة ونزلت الجنود فيها من الطرفين في سفن بعضها بعضاً ودوى البارود الكثيف من البنادق وكثر القتلى... لكن الجيش العثماني انتصر. وقتل الحامية النصرانية. وهرب جند الحلف إلى سفنهم وجعل العثمانيون عظام

القتلى كومة كبيرة سموها برج الرؤوس. استمرت قائمة قرابة ثلاثمائة سنة ثم عوض عنها بمسلة حجرية صغيرة بعد تدخل سفراء الدول الغربية!

كان الإسبان قد نقلوا ثقلهم الاستعماري إلى قلعة حلق الوادي بجانب تونس وإلى عدد من القلاع حولها. بعد أن لم يبق لهم في الجزائر سوى وهران ولم يكن سندهم في هذه البلاد قوتهم فحامياتهم محدودة ولاحب في البلاد لهم فقد كانوا «كفاراً» في نظر الناس مكروهين ولكن الحكام الحفصيين كانوا يستندون إليهم ويستهدونهم في كل أزمة ويمنحونهم ما يشاؤون مقابل المساعدة. وبلغ من بغض الناس للإسبان ولعميلهم الحفصي أن هربوا من البلد تونس خوفاً وكرهاً إلى جبل الرصاص. واختفوا هناك في الدواميس وكان الزمن في الخريف فانتهكت حرمات كثيرة وبات الناس في الغابات بين الشجر وتسولوا بين خيام البادية. ونالهم من الخوف والجوع ما لم ينله أحد! وفي تلك الأيام أهين جامع الزيتونة وديست بأرجل الكفرة كتبه المخطوطة وما تجمع فيه من دواوين العلوم فكاد لا يمر الإنسان إلا على الكتب المطروحة وضربت النواقيس في الحضرة. وساكن الإسبان المسلمين غصباً في دورهم. وفي تلك الفترة عمر حصن البستيون وفصلت أسواقه. وعمر بالكفرة. وكانوا فيه يفتنون الناس عن دينهم! فرأى العثمانيون أن يقتلعوا هذا البلاء القائم بين طرابلس والجزائر. والبَلَدان من توابعهم!.. حاول ذلك والي الجزائر أولوغ علي باشا ونجح سنة ٩٧٧ فاستنجد الأمير الحفصي بحملة إسبانية يقودها دون جوان دوتريش سنة ٩٨٠ وأعاده إلى منصبه ولما استكثر شروطهم أزاحوه ووضعوا بدلاً منه أخاه الذي قبل سيادتهم الكاملة!.

وهنا أرسل العثمانيون جيشاً من طرابلس وآخر من القيروان ثم ثالثاً من الجزائر في الوقت الذي جاء فيه الأسطول العثماني في البحر. وطوقوا مناطق تحرك الإسبان وقلاعهم في تونس. وقامت المعارك حول الحصون وكانت حامية مريرة. وتكاثرت مواضعها وتعددت. وبعد أربعين يوماً استسلمت قلعة حلق

الوادي المنيعة وهي الحصن الحصين للإسبان . ثم تبعها حصن الباستيون . وقلعة جزيرة شكلى حيث قام ملاحو العثمانيين بأدوار بطولية بين الماء والأسوار .. فلم يجد الإسبان أنفسهم إلا وهم في البحر بين غرق أو راكبي السفن وأما الروح الصليبية فكانت تحرق صدورهم حرقاً ! ولم تنفع في دعمها لا تحريضات البابوية ولا اتحاد النصارى .

وأضحت تونس ولاية عثمانية إلى حين ! وسيق الملك الحفصي أسيراً إلى استامبول .

وباء الذين كفروا بكفرهم لم ينالوا شيئاً !.

نهاية صاحب الكرك!

معارك المسلمين مع الفرنجة الصليبيين كانت ميادين التقى فيها النبلاء والمغامرون وأحقاد القسس وغواة المناورة وبواسل الشجعان ... وألوان الجبناء. كشفت المعارك عن الكثير ولعل من أبرز من كشفتهم ذلك الفارس الذي يدعوه العرب أرناط واسمه الأصلي أرنولد دو شايتون. هذا الفارس كان منذ وصل الشام كتلة من اللؤم والحقد وظل كذلك حتى قتل. مكث في الشام قرابة ثلاثين سنة قضى أكثر من نصفها أسيراً وسجيناً ومع ذلك ما خطا خطوة لفهم المجتمع الذي يعيش فيه سواء المجتمع الصليبي أو المجتمع المسلم. ظل يتفرد بمشاريعه وحروبه وزواجه وعمله ...

دخل أول ما دخل المجتمع الصليبي في أنطاكية وتزوج من أميرتها ولكنه في أول مغامرة له سنة ١١٦٠ وقع في الأسر وبقي فيه ست عشرة سنة فلما خرج ذهب إلى القدس وتزوج من وريثة حصن الكرك فصار صاحب الكرك وهناك انبسطت له الآمال. الحصن قوي متين البناء. مشرف بعيد الآفاق. في موقع تحته وادي عربة وإلى جنوبه العقبة ومن ورائها البحر الأحمر. وأمامه سيناء وأمام عينيه تمر قوافل المسلمين سواء إلى الحج أو إلى مصر ومنها للتجارة. الموقع استراتيجي خطير ولا سيما في تلك الآونة التي كانت فيها القوى الإسلامية بقيادة صلاح الدين تتوازن مع قوى مملكة القدس بقيادة عموري الملك!

وذات يوم من سنة ٥٨٢ علم صلاح الدين وهو في دمشق أن قافلة تجارية تزيد على مائتي بعير، قطع أرناط عليها الطريق في الكرك ونهب ما فيها من أموال التجار المصريين والدماشقة وهي تزيد على مائة ألف دينار. وعجب

صلاح الدين لجرأة هذا الحاقد . فإن بين صلاح الدين وبين ملك القدس هدنة ما تزال قائمة ولم يكن التعرض لقوافل التجارة من عادات المتحاربين الصليبيين والمسلمين . وذلك كان من مصلحة الطرفين ! ولكن احتجاج صلاح الدين ذهب هباء مع الهواء فقد قام أرناط بغارة أخرى على العقبة فاحتلها وعلى تيماء في أعلى الحجاز ، على طريق الحرمين . وتمادى في الغي فصار يرسل بعض المراكب في البحر الأحمر تقطع الطريق على سفن المسلمين وتجارتها . وما عرف المسلمون قبل ذلك مراكب غريبة محاربة في هذا البحر . ولا رأوا مركباً فرنجياً صليبياً قط . فسرى الرعب في موانئ هذا البحر وتعداه إلى البر وطريق الحج ! وصار التمدد الصليبي تهديداً لمقدسات الإسلام ويبدو أنه كان في بال أرناط مشروع خطير يضرب المسلمين في قلب مقدساتهم . وهو أن يهاجم المدينة المنورة والحرم المكي ! يقولون إن نور الدين قبل وفاته رأى في المنام أن الرسول الأعظم يطلب إليه أن ينقذه فاستيقظ مذعوراً . وبعث إلى المدينة من يتقصى الأمر فعثروا على رجلين من الفرنجة الصليبيين قد استأجرا داراً بجانب الحجرة الشريفة وراحا يحفران فيه نفقاً يوصل إلى قبر الرسول وقبض على الرجلين وقتلا شر قتلة ... الذين ذكروا هذه القصة ذكروها بمناسبة مشروع أرناط الأحمق بالهجوم على المدينة وهدم قبر الرسول ...

ولم يقف الأمر عند حد المشروع فقط ولكنه تحول إلى حملة حقيقية فإن أرناط بعد أن استولى على العقبة صنع ما صنع صلاح الدين من قبل بنى على شواطئ البحر المتوسط عدة سفن ضخمة وحملت أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال إلى العقبة حيث ركبت ونزلت البحر الأحمر جاهزة للقتال ! لم يكن الأسطول كبيراً ولكن مهمته كانت هي الكبيرة الخطيرة . شحنه بالمقاتلة وأطلقه من خليج العقبة فاستولى على جزيرة فرعون في الخليج ثم خرجت المراكب من شرم الشيخ لتغير على مرافئ البحر الأحمر . وهكذا استطاع هذا الأسطول أن يفاجئ الموانئ ويقتل ويأسر ويحرق على شواطئ بحر القلزم (البحر

الأحمر) نحو ستة عشر مركباً ويأخذ في عيذاب (وهي ميناء على الجانب الغربي من البحر) مركباً يحمل الحجاج من جدة وأوقع في الأسر قافلة كبيرة من الحجاج ما بين قوص المصرية وعيذاب ... فقتل رجال الأسطول جميعَ من كان فيها . وأخذ مركبين يحملان بضائع من اليمن واستولوا على أحمال هائلة من المؤن والحاجات على الشواطئ كانت معدة لميرة الحرمين ... وأحدثوا في البحر حوادث لم يسمع الإسلام بمثلها . لأنه لم يكن فيه مراكب حربية وكل مراكبه تجارية مسالمة ولم يحدث أن تعرض لها معتد قبل هذا الحقود !

وأخيراً وبعد أن أرهب الأسطول الصليبي البحر أنزل المحاربين على شاطئ الحجاز قرب ينبع فأغاروا على القوافل داخل الحجاز حتى أصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة . ولم يسبق أن وصل قبلهم رومي أو فرنجي إلى ذلك الموضع ! .. ويبدو أن مقصد أرناط لم يكن دينياً فحسب بتدنيس الأرض المقدسة ومنع الحج ولكنه كان اقتصادياً أيضاً ليقطع طريق التجارة البحري والبري القادم من الشرق والهند إلى مصر والشام عن طريق اليمن . وإيقاف تجار الكارم المعروفة بين أقصى الشرق وأقصى الغرب والسيطرة عليها .. لا سيما بعد أن صارت اليمن في يد صلاح الدين بعد استيلاء أخيه عليها .

وبلغت الأخبار صلاح الدين فأقلقته . كل القلق .. وسرعان ما أمر بنقل أسطوله من البحر المتوسط عبر النيل وترعه إلى البحر الأحمر بقيادة أمير البحر حسام الدين كان الجند من الشام ومصر أما الملاحون فمن المغاربة . وبدأ هذا الرجل بحصار أيلة (العقبة) فأحرقها بعد أن أسر من فيها ليقطع سبيل المدد عن أسطول أرناط ويدمر قاعدته ثم تعقب سفن الفرنج في موانئ البحر الأحمر وباغت أكثرها في سواحل الحوراء بالحجاز حيث نزل المحاربون فدمرها إحراقاً وتحطيماً . وأطلق من فيها من التجار الأسرى والبحارة المسلمين . وهرب الفرنج إلى الجبال فلحق بهم رجال حسام الدين فقبضوا عليهم على السفوح وفي المغاور كالفئران الهاربة . وأوثقوهم أسرى في الحبال ...

عادت قوات صلاح الدين لتزف البشرى من القاهرة بهذا النصر. ووزع الأسرى على المدن يقتلون فيها وقد كان الرحالة الأندلسي ابن جبير في الاسكندرية بعيد وصوله إليها فسمع بالخبر وكتب في رحلته: «لما حللنا بالاسكندرية عاينا مجتمعاً من الناس عظيماً برزوا لمعاينة أسرى من الروم (الفرنج) أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق فسألنا عن قصتهم فأخبرنا بأنهم كانوا عازمين على دخول مدينة لرسول وإخراجه من الضريح المقدس..».

في غمرة هذه الأحداث أقسم صلاح الدين إن ظفر بأرناط ليقتلنه بده. وظفر به فعلاً. فقد كان بين الأسرى الذين وقعوا له في حطين.

وقيض له الله أن يبر بقسمه فقتله بيده.

أكانت هذه الكتلة من الحقد الأسود تستحق أقل من القتل؟

سونغاتا ومعركة كيرينا

حين يتحدث المتحدثون عن أفريقية يتحدثون عنها وكأنها قطعة من الليل البهيم، فإذا كان الحديث عن ماضيها زادت حلكة الليل سواداً، وأحسسنا دق الطبول ورقص الجموع والحراب معاً وسط الغابة. هكذا صورها العهد الاستعماري الذي غشيها في القرنين الأخيرين فأرخي الستار لا على تاريخها الماضي المملوء بالأحداث والأمجاد ولكن على ناسها فهم سود بدائيون. يأكلون البشر ... حتى قارتهم الكبرى صارت القارة السوداء...

قد تكون السنوات الأربعون الأخيرة قد قلبت هذه الأكاذيب الأوروبية وإنما أشاعها الاستعمار لأغراضه ولزبانيته من مصاصي الدماء السوداء والصفراء والسمراء ومن كل لون. السنغالي الذي كان ينتثر في طرقاتنا أيام الاحتلال الفرنسي والذي كانت سياط فرنسا تسوقه بطربوشه الأحمر وبشرته السوداء وأنفه الأفطس إلى مختلف جبهاتها القتالية. وإلى مستعمراتها لتقمع به وبأمثاله تحركات هذه المستعمرات. كانت له في التاريخ الذي سبق الاستعمار الفرنسي ولبلاده أمجاد وإمبراطورية مسلمة ضخمة وله ملوك أباطرة وحضارة أين من بذخها وعظمتها، بذخ الذين استعمروه وعظمة إمبراطوريتهم. وله في الجهاد الإسلامي معارك كبرى ملحمية يضيق عنها الوصف، إليك واحدة منها:

إمبراطورية السنغال هؤلاء كانت تسمى إمبراطورية مالي وكان دخولها في الإسلام يعود إلى القرن الثالث و الرابع الهجري (٩ ـــ ١٠م). ولا نعرف عنها إلا القليل حتى القرن الخامس (١١م) إذ وصلنا بعض إسماء ملوكها. ولم تكن يومذاك، على أي حال مملكة ضخمة على الساحل الغربي لإفريقية. وقد اشتهر من هؤلاء الملوك ناري فاماغان ابن موسى الذي حكم بين سنتي

(٧١٨ ــ ٧٣٠هـ/١٢١٨ ــ ١٢٣٠م) وحج عدة مرات وكانت له فتوحاته التي وسعت المملكة الإسلامية على حساب البلاد الوثنية في الجنوب والجنوب الغربي وشواطئ نهر النيجر. سونغاتا هو ابن هذا الملك. ولكن كم كان هناك من الأبعاد بينه وبين أن يرث ملك أبيه. لم يكن له من أمل. فقد كان للأب زوجات عديدات وكانت أمه تلقب بالحقيرة (كيدبوغو) أو (ذات الدمامل) كودوما. فهي مريضة وولدت ابنها مريضاً أيضاً ويذكرون أنه ظل يزحف على الأرض حتى بلغ السابعة من العمر لا يستطيع أن يستوي على رجليه. ذلكم هو سونغاتا أو ماري غاتا دغاتا (أسد مالي). وكانت الأم تعاني الكثير من ضرائرها لضعفها وضعف ابنها.

وتسلط على المملكة بعد موت الأب جار غاشم اسمه سوماورو استطاع ذات يوم أن يغزو الماليين وأن يذبح في القصر الملكي أحد عشر أميرا من أمراء المملكة دون أن ينقذ سونغاتا وأمه سوى ضعفهما فلم يأبه لهما سوماورو! وعز ذلك ــ فيما تروي الأسطورة التي حيكت حول سونغاتا ــ فطلب قضيباً من الحديد يتكئ عليه ليقف وجاؤوه به فكاد القضيب ينكسر ولم يستطع الوقوف وتكرر ذلك في قضيب ثان وقضيب ثالث حتى صاح بعض رجال الحاشية: أعطوه صولجان أبيه وعند ذلك استطاع الوقوف. هذه القصة الأسطورة رواها الساحر دياكوما فصارت إلى اليوم النشيد الرسمي لمالي. إنها تنتهي بكلمتي: الموت ولا العار!.

ولم ينصب الفتى ملكاً لأن أخاه الأكبر كان الجار سوماورو قد طرده من البلاد فعاد يزاحم سونغاتا على العرش. وهرب هذا من البلاد ناجياً بنفسه في حين كان سوماورو يعيث ما شاء فساداً في البلاد والعباد والأخ الكبير عاجز عن دفعه فاجتمع مجلس الشيوخ في المملكة وأرسلوا إلى سونغاتا أن يعود لإنقاذهم...

وهكذا عاد بعد أن جهز جيشاً على عجل واكتسح في طريقه عدة مقاطعات. استقبل في العاصمة باحتفال رائع. سجد له الناس كما في الصلاة.. أهالوا التراب على رؤوسهم وظهورهم علامة الطاعة ووقف على مصطبة أمام باب قصره، يغطيها جلد ثور حديث الذبح وفوقها قبة مرتفعة

عليها نوافذ من الفضة وخرج من باب القصر ثلاثمائة عبد بالأقواس والحراب القصيرة والتروس. ثم وصل قواد الجيش فالداعية الديني ثم علماء الشريعة فجلسوا عن يمينه وشماله ووقف المترجم بالباب وكان على السلطان أثواب الحرير وعمامة مزينة وفي عنقه سيف معلق ذو مقبض ذهبي ويحمل في يديه حربتين قصيرتين إحداهما من الفضة والثانية من الذهب. وجلس الغلمان والخصيان والتجار خارج القبة في شارع طويل تحفه الأشجار حيث اصطف الجنود. وراء كل قائد رجاله وأقواسهم والطبول والأبواق المصنوعة من أنياب الفيلة وجعبة السهام. وجلس سونغاتا على العرش الضخم من الأبنوس فوق المصطبة فدقت الطبول وصدحت الأبواق وتحرك القواد بخلاخيلهم الذهبية وأساورهم وسراويلهم العريضة للاستعراض... ولم يستنكف سونغاتا من الرقص أمام الجميع رقصة مالي المحلية المسماة بالدوغا...

على أنه لم يأت بالطبع ليرقص لكن ليحارب. وفي سنة ٧٣٤هـ/١٢٣٤م وفيما كان الناصر محمد بن قلاوون يحكم سلطاناً للماليك في مصر والشام وله سمعته الكبرى في المشرق كان سونغاتا قد أنهى اتحاد مختلف الشعوب في إمبراطوريته التي امتدت من ساحل المحيط الأطلسي إلى قلب إفريقيا. بما في ذلك بلاد التكرور ومنعطف نهر النيجر حتى تمبكتو.

في حروبه كان سونغاتا أشبه بنابليون. نظم جيشه في حركة حيوية منحته القدرة على كسب الحروب وفق خطط يضعها واستراتيجية عسكرية محكمة فيها الالتفاف والتطويق وفرق الصدام.. ويتألف الجيش من وحدات (كيلي ــ بولوف) يقود كلاً منها قائد وكان سونغاتا هو القائد العام للجيش، وللفرسان حملة السيوف. أما سلاح المشاة فكان حراباً طويلة رهيبة (شابيا) مع الأقواس والسهام. ولكل وحدة تخصصها. وكان على الفلاحين التطوع في مشاة الجيش بسبب حاجته للجند لكن الفتوحات جاءته بطبقة واسعة من العبيد جعلهم عبيداً للأرض (أقناناً) أو حرفيين. وكلهم يعمل للسلطان الذي يصل تدخله بشؤونهم إلى حد الإذن بالزواج...

حين انتهى سونغاتا من معظم أعدائه بقي عليه أن يقهر عدوه الأول سوماورو ملك السوسو الكافر! لم يستطع قهره. وتروي القصص أن هذا الملك كان محصناً ضد الجراح فلا يقتل أبداً. ولجأ سونغاتا إلى السلاح المعروف: المرأة.وتطوعت أخت سونغاتا أن تذهب في بعثة إلى سومارو الرهيب تكشف سره! وذهبت هذه الأخت باسم أخيها عربون ولاء تعرض الصلح والوفاق، وما زالت تتقرب منه حتى أولع بها سومارو وأغرم وهام وهي تتمنع حتى قرر الزواج منها. وفي ليلة الزفاف منعته أن يمسها قبل أن يعترف لها بكل أسراره، وتردد أياماً حتى حل النبيذ ذات ليلة عقدة لسانه فأخبرها أنه لا يجرح إلا إذا خمشه ظفر ديك أبيض. وطار السر تلك الليلة نفسها مع رئيس البعثة إلى سونغاتا الذي تدبر أمر جرحه بظفر الديك في المعركة المقبلة. إنها أسطورة! ولعل سونغاتا تأخر في ضرب خصمه الوثني ريثما يستعد تماماً له وريثما يكشف نوع السموم التي كان السوسو يغمسون بها حرابهم. وريثما يستغوي بعض قواد سوماورو فينضم مع محاربيه إليه. وقد نجح في هذا كله...

وجاء يوم المعركة التي عرفت بمعركة كيرينا، على الضفة اليسرى من وادي النيجر قرب باماكو. كان ثمن الرهان في هذه المعركة هو السيطرة على السودان.. حين تواجه الجمعان يقولون إن سونغاتا سأل: ما هذا الغيم الكثيف الآتي إلينا من الشرق فقالوا له: إنه جيش سوماورو. ويقولون إن سوماورو بالمقابل سأل مرافقيه: ما جبال الأحجار هذه القادمة علينا من الغرب فقالوا له: إنه جيش سونغاتا.

كان الزحف زحفاً بشرياً رهيباً لكتلتين جبارتين. وكانت المعمعة مذابح اختلطت فيها الدماء بالجلود السوداء والتراب وزعقت الطبول بين القتلى وانتثرت الجثث يزلق بها الفرسان. والموت يركض محوماً بدل الطيور التي أطلقت أجنحتها للريح واختلطت صيحات الله أكبر (باللهجة السودانية) مع زعيق الآخرين. وبدا كأن حمى من الجنون أصابت الطرفين فليس إلا دماء تسفح

على التراب وأجساد ترتمي وفرسان تطوح بهم الخيول وحراب تهوي وتلمع... ودارت الدوائر على سوماورو الذي ضاع جثمانه بين القتلى فليس له من أثر. وتمزق جيشه هارباً في كل فج. وشاع في الأسطورة من بعد أن سوماورو تحول إلى زوبعة من غبار.

بعد المعركة بزمن كانت مساحة واسعة جداً من السهول والسفوح ما تزال الجوارح تتخطف منها الأقوات لها ولصغارها. في حين كان الزعماء المجتمعون في كانغايا يمنحون سونغاتا لقب مانسا أي السلطان والزعيم الأعلى الذي استولى على بلاد السوسو وتوابعها حتى مدينة كومبي.

أولاد سونغاتا وأحفاده هم الذين قاموا بالدولة الإسلامية من بعده ومعظمهم لم يفته الحج إلى بيت الله الحرام وكان من هؤلاء الملوك ساكورا الذي وسع المملكة فجعلها إمبراطورية تصل إلى جنوب تشاد ثم قتل في طرابلس وهو عائد من الحج أثناء مغادرته المركب فجفف أصحابه جثمانه ووضعوه في جلد ثور خاطوه كالعادة مع الملوك وحملوه عبر الصحراء الكبرى حتى عاصمة البورنو. ومن هؤلاء الملوك أيضاً أبو بكر الثاني الذي حاول اختراق المحيط الأطلسي وضاع فيه، وكانكو أو المنسي موسى الذي حمل طنين من الذهب يوم حج، حتى فقد الذهب قيمته، واصطحب معه في العودة مهندساً أندلسياً بنى له قصره الباذخ هو أبو إسحق الساحلي الغرناطي واشتهر بين سلاطين الشرق والغرب بما اجتذبه إلى بلاطه من العلماء والفقهاء...

من ذا الذي يذكر شيئاً من هذا المجد الضخم الذي غشاه الاستعمار الفرنسي بسربال من السواد والنسيان؟.

ألبوكركة

لهذا الاسم وقع الاسم العربي ولكنه ليس بالعربي ولا بالمسلم أيضاً ، إن لم يكن من ألد أعداء العرب والمسلمين على مر العصور . إنه برتغالي وقد كتب اسمه بالدم على صفحات الكثير من الشواطئ والمرافئ الإسلامية من شرقي إفريقيا إلى شواطئ الجنوب العربي ثم إلى سواحل الهند شرقيها وغربيها ووصلت شروره الشيطانية بحار مالقة (ملقا) وسومطرة ... البرتغاليون يعتبرونه أحد أبطالهم ولكن شعوباً ضخمة برمتها تعتبره صورة الشيطان الرجيم . في البرتغال كانوا يكللونه بالغار ويسمونه نائب الملك في الهند . وأما عند الشعوب التي عرفته فهو واحد من كبار المجرمين في التاريخ . كم قتيلاً قتل؟ كم قصراً دمر؟ كم مدينة أباد؟ كم سفينة أحرق؟ .. لا تسل! فالعدد يفوق الإحصاء .

كل ذلك كان باسم ملك البرتغال مانويل الثاني الذي اتخذ لنفسه لقب : « سيد الملاحة والفتوح والتجارة في أثيوبيا وبلاد العرب وفارس والهند » وهو لم يرها أبداً .

عاش البوكركة (واسمه ألفونسو) منذ حوالي ٥٠٠ سنة . سبقه في التدمير مواطنه المشهور فاسكو دي غاما الذي كانت أقل عقوباته صلم آذان وجدع أنوف المسلمين الذين يلقاهم على الشواطئ . وأما البحارة الملاحون فلهم قطع الأيدي والأرجل . وكان على أسطوله عدد كبير من القساوسة والرهبان يرافقونه ليحولوا الإسلام حيث يحلون إلى النصرانية ! ولا تسع الصفحات تاريخه الأسود . وقد تكفي اللمحات .

في سنة ١٥٠٦ ظهر البوكركة بأسطوله ذي الأشرعة المربعة عند شواطئ الملبار في الهند . كان في الطريق قد دمر ما شاء من شاطئ إفريقية الشرقية ودوله الإسلامية الصغيرة . ثم احتل جزيرة سقطرة! واستولى على المرافئ الشرقية

للجزيرة العربية وأخذ مدينة مسقط ووصف بالتفصيل في كتابه: «تعليقات» تدمير المدينة وإحراق الجامع الرائع فيها بناءً على أمره. ثم فرض الحماية البرتغالية على حاكم جزيرة هرمز سيف الدين بمدافع أسطوله المصوبة نحو الجزيرة... وأخيراً هاهو ذا أمام مدينة كاليكوت أعظم وأهم مركز للتجارة والمواصلات في المحيط الهندي!.

لم يكن صاحب كاليكوت مسلماً ولكنه بعد أن ذاق من مدافع دي غاما وأسطوله ما ذاق من الهمجية والدمار منذ عهد قريب بعث يستجير بسلطان مصر، الأشرف قانصوه الغوري. فلم تمض أشهر حتى كان أسطول مصري كبير يشق بمدافعه عباب البحر أمام كاليكوت! كان البوكركة قد غادرها ينهب السواحل ويشبع رغبته في الدماء ويبلغ السماء في قهقهته لمنظر أشلاء الضحايا ودمائهم الفوارة فيما كان جنوده ينهبون كل شيء ويأخذون بسيوفهم حتى الأطفال!.

عاد البوكركة ليصطدم بالأسطول المصري عند جزيرة ديو قرب كاليكوت. كان يقود الأسطول أمير محنك اسمه مير حسن. وكانت هذه أول مرة يجابه فيها البوكركة مقاومة إسلامية في البحر أو البر.. وهزمت المدافع بارودها وقذائفها الحديدية بين الطرفين كان دويها يهز الأفق وتحطم، حين تصيب، أركان السفن الخشبية وأشرعتها ليعبث بها الريح. فوجئ البرتغاليون بعنف المقاومين وشراسة القتال. ومني الأسطول البرتغالي بالهزيمة وتسللت سفنه مبتعدة عن الميدان تحت جنح الظلام.

كان أسطول مصر يقاتل في الواقع لحفظ خط التجارة بين الهند ومصر. أما حاكم كاليكوت فقد خشي عواقب انتصاره. فحشد كل ما وقع تحت تصرفه من السفن والقوات المسلحة وبعث بها إلى جزيرة ديو. ولم يكن يأمل في الوقوف لمدافع الأسطول ولكن في إظهار القوة ولهذا لجأ إلى التآمر ضد الأسطول المنتصر. بعث سراً إلى حاكم ديو ويطلب إليه أن يمنع الماء والأزواد عن مير حسن... وامتثل الحاكم مما اضطر أميرال الأسطول المصري أن يرسل بعض سفنه مع سفن صاحب كاليكوت إلى هذه المدينة لجلب الأزواد. أكثر من مرة، وفي هذه الأثناء كان البوكركة قد استرد قواه وجاءته نجدات سريعة سمحت له

بالدخول في معركة ثانية مع مير حسن. ولم تنته المعركة بنصر أحد من الطرفين. ظل النصر معلقاً ولكن مير حسن اعتبر بقاءه خطراً عليه وعلى الأسطول فقرر الانسحاب عائداً إلى البحر الأحمر ... وكان هذا كافياً ليصبح البوكركة مطلق اليد في شواطئ الملبار يفعل ما يشاء ! .

وذات يوم في هجوم صاعق مباغت على كاليكوت. كان جنده كالشياطين المنفلتة، ولكن حاكم المدينة استعان بكل قوى جيرانه المسلمين وجندل هذه الشياطين ففشل احتلال البلد.. وعرف البوكركة ألا أمل في النصر مع هذا الحاكم القوي العنيد فطاف حول الساحل الشرقي للهند واحتل سنة ١٥١٠ جزيرة غوا تعويضاً عن هزيمته. الغريب أن هذه الجزيرة ظلت مستعمرة برتغالية حتى ما قبل سنوات. عانت أطول استعمار لبقعة محدودة من الأرض. وكتب البوكركة إلى ملكه البعيد في البرتغال يقول: «إنه أباد جميع المسلمين. جماعته وبحارته أبادوهم حيثما كانوا. أما الذين لم يقطعوا رؤوسهم فقد ساقوهم إلى الجوامع ثم أحرقوهم ... » .

في ربيع السنة التالية بعد احتلال غوا كان البوكركة يتجه بأسطوله بعيداً إلى الشرق حتى مدينة ملقة. كانت سفنه التسع عشرة قد نظفت مدافعها وجنوده المتوحشون يتلمظون لذكرى الدماء. أما ملقة فكانت مركز جزر الأفاويه والفلفل والبهار وأكبر ميناء بحري في العالم يومذاك ! .

في تموز ١٥١١ دخل البوكركة بأسطوله المرفأ العظيم وبدون أي إنذار أو مبرر أمر بإغراق جميع السفن الإسلامية. الموجودة في الخليج. تحامى البرتغاليون إطلاق النار على السفن الهندية أو الصينية وصبوا مدافعهم على المسلمين. ثم بدأ البوكركة الاستعداد لاقتحام المدينة،خطب في جنوده المنتشين محدداً أن الهجوم سيبدأ في يوم مقدس يوم عيد القديس جاكوب حامي الجيش البرتغالي وأعلن أن الجنود سيؤدون واجبهم أمام الله بالفتك بالمسلمين وطردهم من هذه البقاع وإطفاء شعلة محمد بحيث لا تعود إلى الاتقاد أبداً. وأضاف :

«أنا واثق من أننا إذا حرمنا المسلمين من ملقة فسوف يحل الخراب التام في القاهرة ومكة وسيضطر أهل البندقية إلى شراء الأفاويه من البرتغال ... » ...

بعد تسعة أيام من القتال المرير سقطت ملقة بيد البوكركة .. وبدأ نهب المدينة فوق أشلاء أصحابها وخلال الحرائق، حصة ملك البرتغال من الغنائم كانت ٢٠٠ ألف كروزيرو من الذهب. لكن السفينة الرئيسية في أسطول البوكركة ذهبت بأثمن ما نهب من المصوغات وسبائك الذهب والحجارة الكريمة. ذلك أنها غرقت قرب ساحل سومطرة ولم ينج القائد نفسه وبعض من ملاحيه إلا بأقصى الجهد. غرقت الثروة كلها!.

لكن البوكركة عوض عن ذلك بنهب الأفاويه من منتجيها. كانت أسعارها في أوربا تبلغ ١٠٠٠ بالمائة من سعرها في الجزر. أطلق في ذلك زبانيته. أما هو فعاد بالأسطول في المحيط الهندي حتى البحر الأحمر ليقطع عنه جميع طرق البحر. وكتب له الملك أن يسد «مضيق مكة» ويقصد مضيق باب المندب. حاول البوكركة احتلال عدن فلم يفلح. صدته السفن الإسلامية القادمة من المكلا فأمر ربابنته بالانسياح في البحر، قراصنة يدمرون كل ما يجدون. ويعذبون بالعقاب الوحشي من يقع في أيديهم من الملاحين المسلمين ويغرقون سفنهم. وهكذا كثرت في المرافئ العربية الجنوبية رؤية الملاحين المقطوعي الأيدي أو الأرجل أو المصلومي الأذان والمجدوعي الأنوف.

ودبر البوكركة في خاطره الشيطاني مشروعين كتب بهما إلى الملك شطح به الوهم فيهما أي شطح: الأول أن يهد الجبال التي ينبع منها نهر النيل الأزرق في الحبشة ويحول مجراه إلى الشرق بدل الشمال وبلغ من اقتناعه بهذا المشروع أن طلب من الملك أن يسرع في إرسال الخبراء بالتفجيرات والري والمنجمين لأن ذلك يحرم مصر مياه النيل ويعيدها صحراء بلقع! أما المشروع الثاني فقد اقترح فيه البوكركة القيام بهجمة مفاجئة من الخيالة الفرسان على

المدينة المنورة . تستولي على نعش الرسول الأعظم وتذهب به إلى لشبونة . إن ذلك سوف يجبر المسلمين على مبادلته بقبر السيد المسيح في القدس !

لم يتحقق المشروعان لكن البوكركة ، المجنون بالعداء للإسلام لم يهدأ استولى على جزيرة هرمز في مدخل الخليج العربي ودخل في حلف مع شاه فارس بعد لأي وتعهد له بنقل الجنود إلى البحرين والساحل العربي من الخليج . وتنظيم زحف مشترك عبر الجزيرة العربية إلى القدس وإلى القاهرة .. بقي أن نذكر بأن « نجم الفتح » البوكركة كان يتمتع بكل عطف البابوية وبكل تأييدها المعنوي والمادي أيضاً . كانت شريكة في الأرباح التي تنجم عن مغامراته ! تجد فيها الثأر لكل هزائمها الماضية أيام الصليبيات مع المسلمين ...

أين انتهى البوكركة ؟

رغم أنه قضى العمر على سطح البحار ، فوق سرير هزاز من الموج ، فلم تنته حياته في الماء .

أحمد الغازي

إذا كانت العروبة صيحة العرب ، فالزنوجة هي النداء السحري الذي اخترق القارة الأفريقية ما بين رأس الرجاء الصالح والقرن الأفريقي والسنغال فأيقظ ملايين السود فيها ، وملأهم كبراً وتمرداً وموج انفعالات . الشعراء الزنوج ، الكتاب ، القادة الذين ظهروا في الخمسينات من هذا القرن أقبلوا يلوبون على تاريخهم الذي أغرقه الاستعمار والأنانية الغربية في بحر العتمة والأساطير . أخذوا يبحثون في كل اتجاه عن هويتهم الحضارية المغيبة ... وأخيراً كسر العبد الطوق وتحرر « سبارتاكوس » وكشف الكذب الأوروبي الذي كان يدعي حتى بعيد الحرب العالمية الثانية أن إفريقيا ليس لها تاريخ وأنها غارقة منذ أزمنة سحيقة في البربرية البدائية ... فلاسفة ومؤرخون وكتاب من الطبقة الأولى اشتركوا في هذه الجوقة الزائفة التي تنكر على الزنجي أي ميزة حتى أن يكون لأجداده تاريخ ! أو أن يكون له إسهام إنساني ! .

ولسنا هنا بصدد الدفاع عن الأمجاد الإفريقية ومنذ فترة طويلة يظهر كل شهر كتاب يكشف التاريخ الإفريقي المنكور وإنما هي فكرة عابرة دعا إليها أننا سنروي فصلاً من فصول ذلك الماضي وما أكثر الفصول ... الساحل الشرقي لإفريقية ما بين البحر الأحمر وأقصى الموانئ المواجهة لمدغسقر كان عربياً حتى قبل الإسلام وحين انتشر الدين الحنيف نفد إليه . وكانت الموانئ من شمال باب المندب والقرن الإفريقي إلى الجنوب موانئ إسلامية تتوزعها إمارات صغيرة لها تاريخ طويل في الحضارة والتجارة والعمران وقد كسب الدين تلك الوجوه السمر في جنوب الحبشة حتى مدينة هرر ... أما الحبشة النصرانية فكانت محترمة دوماً منذ عهد الرسول الأعظم ...

في القرن الخامس عشر (العاشر الهجري) توسعت هرر بإسلامها فيما

حولها . ثم توقف التوسع بظهور ملوك أقوياء في الحبشة أمثال تائد الذي حكم في أواخر القرن ١٥ ومطالع القرن ١٦ وفي عهد ليبتادا الملقب ببخور العذراء الذي تلاه بين سنتي ١٥٠٨ و١٥٤٠ وذلك في الوقت الذي كان فيه البرتغاليون قد كشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ونفذوا إلى المحيط الهندي وهاجموا موانئه الشرقية المستقرة ، بين هذه الموانئ شمال القرن الإفريقي والتي تشكل كل منها إمارة مستقلة كانت إمارة عدل ، وكانت عدل أقواها وأوسعها علاقات وتجارة ، وفي الفترة ذاتها ١٥١٦/١٥١٧ كان السلطان سليم العثماني قد فتح الشام ومصر والحجاز وضمها إلى الدولة العثمانية وألغى بذلك دولة المماليك وهكذا انقلب ميزان القوى كله . حول القرن الإفريقي وما وراءه من بلاد الحبشة .

وأسرع البرتغاليون يتصلون بملك الحبشة (التي كانوا يسمونها مملكة حنا) وأرسلوا إليه أكثر من سفارة ولكن هذا الملك استقبل السفارة التي وصلته سنة ١٥٢٠ بفتور ، لم تعجبه الهدايا التي حملتها له واستهان بالبرتغال حين رأى مدى صغرها على الخرائط ورأى أنه في غير حاجة إليها بعد أن رد هجمة إسلامية شنتها عليه مدينة هرر فهزمها وقتل أميرها المسلم وتابع الاندفاع نحو الساحل حتى احتل إمارة عدل ودمر قصر السلطان فيها ...

على أن الهجمة الحبشية لم تترك الفرحة طويلاً على شفاه الملك الحبشي الذي بعث إلى ملوك أوروبا يفتخر بها . فقد ظهر في عدل ، الإمارة المنكوبة ، من يرد على الهجمة بأمثالها : هو السلطان أحمد الأعسر الذي سرعان ما لقبه الناس بالغازي .

لم يكن أحمد من الأمراء في بلده ، وقد شدا شيئاً من العلوم والفقه ولكنه رأى الفوضى التي تعم الإمارة الصغيرة ورأى التهديد الحبشي يزداد ورأى انحراف الناس عن العقيدة الصحيحة فنهض يريد تقويم كل ذلك . وتطوع معه كثيرون حتى من خارج الإمارة فثار على سلطان عدل الضعيف المتخاذل واستطاع قتله وأعلن رفض دفع الجزية التي كان ملك الحبشة فرضها على الإمارة . وكان هذا بمثابة إعلان حرب دفع الجيش الحبشي لمهاجمته سنة ١٤٢٧ فدافع القائد أحمد عن نفسه ومنطقته الإسلامية دفاعاً جسد «الجهاد»

الإسلامي وأرضى آمال المسلمين الذين سرعان ما التفوا حوله مؤيدين .

على أنه خشي معاودة الملك الحبشي فأرسل يستنجد بالسلطان العثماني الذي بعث إليه بكتيبة صغيرة من الفرسان الانكشارية حملة البنادق وألف السلطان أحمد من بعض أهل الصومال عصابات انتشرت على الأطراف الجنوبية للهضبة الحبشية تبث الذعر والفوضى فيها . فلما رأى حماسة هذه الجماعات وشدة فتكها وعجز الحبشة عن صدها أقام منها جيشاً اندفع فيه إلى الهضاب العالية التي تفصلهم بها المملكة الحبشية في هجوم عنيف صاعق تراجعت أمامه الحاميات الحبشية مذعورة هاربة .

جعل يهاجم الأديرة والقصور التي كان ملوك الأحباش يجمعون فيها كنوزهم في الأزمان المتطاولة فنهب ما فيها من الحرير والدمستق ومن الأواني الذهبية والفضية ، وسقطت الحصون في يده واحداً بعد الآخر ، ولم يدمر الحقول والقرى ولكنه دعا السكان للإسلام . فأقبلوا رغبة أو رهبة يدخلون في الدين حتى أضحى تسعة أعشار المناطق المفتوحة من الحبشة مسلمين . وكان الإسلام بالنسبة إليهم فرجاً من قنانة الأرض وظلم الإقطاعيين « الرؤوس » .

وأين كان الملك الحبشي الذي يفاخر بانتصاراته ؟

كان قد خاض المعارك أولاً ونجا من الأسر بأعجوبة . وحين رأى الاكتساح الإسلامي يعم بلاده كالفيضان المدمر هرب وأقبل ينتقل من ملجأ إلى آخر مع مجموعة من حاشيته حتى كاد اليأس يسحقه . وكان قد طلب النجدة من البرتغال فأرسلوا إليه ٤٠٠ من رجالهم استطاعوا النزول في مصوع ثم التوغل سنة ١٥٤١ في الحبشة ولكن وصولهم تأخر فقد كان الملك قد مات ودفن في بعض الأديرة ، وخلفه ابنه كلود .

استطاعت النجدة البرتغالية التي كان يقودها كريستوفر دي غاما أن توقف للسلطان أحمد الأعسر وتهزمه واستولى دي غاما على زوجته أسيرة عنده ! لكن الأعسر عاد فانتقم لهذه الهزيمة شر انتقام . وصلته نجدة عثمانية من ٩٠٠ فارس بالبنادق وعشرة مدافع فعاد في العام التالي ١٥٤٣ يهاجم وسحق الجيش البرتغالي سحقاً . قتل رجاله أو جرحهم عن آخرهم وأسر القائد دي غاما الذي توفي متأثراً بجراحه ! .

حين عاد السلطان الأعسر إلى مقره على بحيرة تانا كانت الحبشة قد أضحت بسكانها أنفسهم مملكة مسلمة . أما البقية الصغيرة من الحاشية وكبار الأمراء (الرؤوس) فقد اعتصموا بحصن حصين صعب مع الملك والملكة الأم وعدد من رجال الكنيسة الكبار والتحق بهم عدة آلاف من الأحباش مع البرتغاليين الذين برئوا من الجراح . تزود هؤلاء بالسلاح من بعض مستودعاتهم وأقبل بعض صانعي الأسلحة النارية يصنع لهم البارود من ملح البارود والكبريت ...

استعدوا عدة سنين . وخرجوا بجيش ملأه القهر بحب الانتقام حتى الأوج وانقضوا في هجمة بأس على مقر أحمد الأعسر بغتة عند بحيرة تانا . وقاتلهم الأعسر أعنف القتال ولاحق بعض فلولهم الغارقة في البحيرة . لكن خادماً من خدام دي غاما البرتغاليين كان مكلفاً بقتله ، وقد لاحقه في المعركة من مكان إلى آخر حتى انتهز منه غرة فرماه بطلقة بندقية أردته قتيلاً ! وكان لمقتل السلطان أثره المدمر فإذا كان العثمانيون قد احتملوا الصدمة وظلوا على القتال فإن جيش الأعسر الباقي من الصوماليين قد تبعثر وتمزق . وحين رأى الأتراك ذلك تفرقوا فصائل في الغابات والسفوح ...

معركة بحيرة تانا كانت حاسمة في مصير الحبشة لأن ملكها كلود عاد فتسلمها وعاد بعض من أسلموا منها إلى نصرانيتهم في حين بقيت جماعات كثيرة في المناطق الجنوبية والشرقية على الإسلام ولكن دون أثر سياسي . على أن ملحمة السلطان الأعسر لم تنته بمقتله . قامت أرملته باتي بتحريض أمير هرر نور بن الوزير فغزا الحبشة من جديد سنة ١٥٥٩ فقام الملك كلود يدفعه بجيش جمعه على عجل . وكان القسس والرهبان أكثر عناصره حماسة بالطبع . وتصدى لابن الوزير قبيل عيد الفصح . ورمى نفسه في المعركة ... قالوا إنه كان يعاني من تأنيب ضميره لأنه أغوى زوجة أحد القسس ! أراد أن يغطي ببطولة القتال فضيحته المشينة فجندل بين الذين جندلوا في المعركة وقطع رأسه وحمل إلى الأرملة باتي . ثم وضع على رأس وتد في ساحة هرر فظل الناس يرونه عليها ثلاثة أعوام ...

في تلك الفترة اكتسح شعب الغالا الوثني جنوب الحبشة طارداً

النصارى والمسلمين على السواء في حين احتل العثمانيون ميناء مصوع قاطعين كل أمل للأحباش بمساعدة خارجية !

أما السلطان أحمد الأعسر القتيل فقد بقي لسنين طويلة بعد ذلك من كبار القادة الأولياء لدى المسلمين ومن أشباح الرعب والهلع لدى المسيحيين الأحباش ! .

عاصفة المهدي

ارتبط السودان بمصر منذ أيام محمد علي في القرن الماضي حتى نهاية سنة ١٩٥٥ . لكن في أواسط هذه الفترة وفي عهد خلفاء محمد علي الضعاف (عباس وسعيد واسماعيل) استطاع الاستعمار أن يبسط نفوذه على البلدين ويجعل وادي النيل كله لعبة إنكليزية تدار من لندن . وإذا كان علاقة البلدين يشينها داء العصر يومذاك : نخاسة العبيد فإنكلترا دخلت تحمل راية تحرير العبيد ... بلى ولكن لتستعبد جميع الأحرار في البلدين ! مواكب العبيد التي كان الزبير باشا يسوقها لم تعجبهم لأنهم كانوا يريدون شعبي البلدين موكباً واحداً يغذي بالقطن مصانع مانشستر !

وفيما كانت إنكلترا تغرق مصر بالديون فتشتريها بها مع قناة السويس عقدة طريق الهند ، وكانت تدفع الخديوي اسماعيل لأن يعهد بحكم مناطقه الحدودية السودانية لمغامرين أوربيين فيهم الألماني شنيتزر والنمسوي سلاتان والإنكليزي غوردون حتى غرقت الحدود بالدماء . كان الغضب الأسود قد بلغ في الجماعات السودانية درجة الانفجار . وتمثل شيخ متصوف اسمه محمد أحمد سرعان ما كان كحجر المغناطيس الضخم،اجتذب الجموع إليه وأضحى مقره في جزيرة آبا بوسط النيل يعج كخلايا النحل بالمريدين والثوريين . ويبدو أنه شعر ، مع التقوى والنسك ، أنه مكلف برسالة علوية فكتب لوجهاء البلاد أنه المهدي المنتظر الذي سيملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً . والتحق به المرهقون بالضرائب أو بالنخاسة والطامعون بالغنائم وأشتات الزنوج .

ولم يدرك الحاكم في الخرطوم مدى قوة هذا الرجل إلا حين بعث فرقة للقبض عليه فلم يعد منها أحد.سحقها المريدون سحقاً بالحراب والهراوات ! واعتبر الناس ذلك معجزة رفعت من سمعة الرجل الذي صار في عيون أصحابه

هو المهدي حقاً وصدقاً. أضحى من أولياء الله! حاول المحاولة ذاتها والي الحدود الجنوبية الألماني فسحق جنده بدوره وامتلأت البلاد بمناشير تعلن أن لا أمل لأولئك الذين يقاتلون « جند الله » !

وعلى الرغم من قلة الأسلحة النارية لديه واعتماد جموعه على السلاح البدائي فقد قام بالهجوم على بلدة (الأبيض) عاصمة كردفان التي عرف كرهها العميق للإدارة المصرية البلهاء واحتلها وتعمد الإنكليز تسمية الحركة بثورة تحرير ليحلوا هم محل مصر في السودان وحرضوا الخديوي توفيق حاكم مصر على إرسال حملة يقودها قائد إنكليزي ضد الثائرين. فتكفلت الشمس المحرقة والصحراء بتدميرها وتمزيق جندها في كل فج!.. وكانت هذه معجزة ثالثة جعلت اسم المهدي أسطورة الأساطير. وانكمش السودان المصري ــ الإنكليزي وهو قارة تبلغ مليون كم٢ فلم يعد يجاوز مدينة الخرطوم عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق!.

على أن الناس كانوا يعرفون أن اسم مصر الملصق مع السودان إنما هو للتمويه كان ستاراً. فالحكم إنكليزي صرف. وجند مصر الذي كان يحارب كان مرتزقة مما يجند الإنكليز. وأرسلت إنكلترا رجلها الحديدي غوردون. الحملة التي قادها لتهدئة السودان تعثرت كثيراً عند مناطق الشلالات قبل أن تصل الخرطوم بصعوبة. أرسل غوردون ليقرر الحالة ولكنه اعتبر نفسه حاكماً عاماً للسودان. واقتنع بضرورة الاستعانة بالزبير باشا تاجر العبيد للسيطرة على البلاد! وطلب النجدات من الجند.

لكن البلاد كانت قد أضحت كلها جيش المهدي. وعيون السود الحمراء كانت تلتمع في الصحراء كما تلتمع بين الأشجار على وادي النيل وذات يوم وجد غوردون نفسه في القفص. فقد قطع المهديون خطوط الهاتف. ثم ما لبث أن عرف أن الخرطوم قد طوقت بالثائرين أواخر يناير ١٨٨٥ واندفعت الجموع الهائجة نحو قصر غوردون. وما إن تراءى بمسدسه في الشرفة حتى نفذت في صدره حربة خرجت من ظهره! ثم قطع الثائرون رأسه وحملوه إلى المهدي. وعرض على الجماهير الراقصة بنشوة النصر. فيما كانت جثته

مرمية في الطريق تتناوشها الحراب والحجارة ! في لندن قوبل الخبر بالذهول . وظلت اهتمامات الإنكليز منصرفة أياماً طويلة إلى أم درمان عاصمة المهدي !

نظم المهدي دولته بعد أن أخمد جميع المعارضين بالقوة وجعل جيشه قسمين حسب تركيبته . فهناك الجيش النظامي (الملازم حسب تسميته) وكان من محترفي العمل العسكري من الزنج وغيرهم ويقوده شاه الدين بن خليفة وهو مجهز بالأسلحة النارية وله معسكراته الخاصة ومراكزه الرئيسية في البلاد . وهناك الجيش الشعبي المؤلف من السود غير الملتزمين ويقاتلون بالحراب والسيوف . ولم يكونوا يتكاملون إلا بعد انتهاء موسم الأمطار وجني المحصولات فمعظمهم من الفلاحين . وتسلسل الرتب تسلسل الجيش الإسلامي : زمر ومقدمون وأمراء . وكانت ضرائبه هي الضرائب الإسلامية من الغنيمة (الخمس) والعشر والصدقات والزكاة . وصك النقود الفضية والذهبية . وقسم البلاد أربع ولايات لكل ولاية رايتها واستقلالها الإداري وقيادتها العسكرية ... لكنه لم يتمتع بالحكم سوى سنة ونيف لأنه توفي فجأة في حزيران (يونيو) ١٨٨٦ ! . قبره الذي تأنق المهندسون في بنائه وفي قبته ما يزال محج الأنصار إلى اليوم .

وخلفه عبد الله التعايشي ، أحد الخلفاء (الولاة) الأربعة . ولعل أهم ما قام به أنه بعد أن أخمد الثورات التي تمرد فيها بعضهم ضده أعلن الحرب على الحبشة فقد اكتسح جيشه القرى والوديان ودمر الحقول والفلاحين الهاربين واحتل بلدة غوندارا ونهبها والتقى بقوات الملك الحبشي يوهانس في معركة اعتبرها أنصاره جهاداً مقدساً فكانت الساحة مذبحة وكانت المقاومة أشرس منها وأشد . وكادت الهزيمة تقع بالمهديين لولا أن سقط الملك الحبشي قتيلاً فتفرقت جموعه ولاذت بالفرار والرصاص والسيوف تأخذها من كل جانب . وقطع رأس الملك وأرسل إلى أم درمان أوائل ١٨٩٨ .

وأراد عبد الله الخليفة أن يتبع التقاليد الإسلامية القديمة فأرسل إلى كل من خديوي مصر توفيق وإلى الملكة فكتوريا يدعوهما للحضور إلى أم درمان وتقديم الطاعة والولاء ، أو يؤذنهم بالحرب . ولم يرد الاثنان بالطبع على هذا التقليد الذي تأخر زمنه جداً . فلما أرسل حملة تتجه نحو مصر ما لبثت أن

سحقت قبل أن تصل أسوان! واتفق أن توالت قبل ذلك وبعده سنتان من القحط والجفاف أنهكت هذا البلد الزراعي وزاد في إنهاكه أن السلطات استدعت قبائل البقارة إلى أم درمان لتكون عوناً لها وأنفقت على وصولها الكثير ولكن الجفاف جعلها ترجع إلى موطنها... وتكالبت الأطماع على الدولة المهدية من الإنكليز والفرنسيين والبلجيك مما جعل الدولة كلها تترنح.

على أن عبد الله خليفة لم يدرك نتائج هذه الأخطار أو كانت شعلة الإيمان في صدره أقوى من أن تهزها الزلازل فقد جمع في أم درمان جيشاً من ستين ألف محارب للقيام بالجهاد ضد الإنكليز وأخضع الجيش للتدريبات العنيفة في حين كان اللورد كتشنر الذي تسلم الحكم بمصر قد أعد جيشاً نظامياً حديثاً من ٢٥ ألف جندي زحف به إلى السودان (إبريل ١٨٩٨). وعلى الرمال المحرقة بالقرب من أم درمان قامت المعركة الأولى التي دامت ساعتين ونصف الساعة وكانت من ساعات جهنم. فقد فرض المهديون على طلائع جيش كتشنر الالتحام الجسدي ولكن كتائب المدفعية دفعت الكثير من السودانيين للتراجع وكانت المدافع تقصف بصورة خاصة قبر المهدي لزعزعة إيمان الأنصار به وبولايته وهدمت معظم أم درمان.

وانجلت المعركة في النهاية عن مقتل عبد الله خليفة ووقوع قائده محمود في الأسر وهرب قائده الثاني شاه الدين مع عثمان دنيا إلى الجنوب. وعند ذلك تجمعت كل القوى المهدية فخرجت من أم درمان بالأعلام المنشورة وهي تحيط بكبار الزعماء الذين تعاهدوا على الجهاد أو الموت في سبيل الله. واتجهت الجموع نحو الخرطوم. فلقيها الجيش الإنكليزي جنوب تلال كوراي حيث كانت المواجهة الكبرى. دامت عدة ساعات وكان اللقاء المحموم فيها يزري باللقاء الدامي الأول. وصدق المجاهدون الوعد فكانوا يتطايرون للموت أشلاء وأضلاعاً ودماء سقط منهم سبعة وعشرون ألفاً مجندلين. بقي منهم في ساحة المعركة ١١ ألف جثة للطير والوحش. وأمر كتشنر بنبش قبر المهدي فأذرى رفاته في النيل.

وقتل زعماء المهدية الباقون بعد ذلك في معارك ثانوية سنة ١٨٩٩... وكان أسر عثمان دنيا نقطة الختام للحركة المهدية!

أكانت هذه الحركة متأخرة عن أوانها ؟

بلى ! فقد كان من العبث أن تطبق أساليب القرون الوسطى الإسلامية في عصر يتعامل بالأفكار الحديثة والسلاح الحديث ! ويرحم الله المجاهدين ! .

الجزائر ... أكثر من ١٥ معركة

الجزائر ، هذه القطعة الحساسة من الوطن العربي كان لها دوماً ما تشغل به الأفكار والناس. هناك اليوم الأصولية وجبهة الإنقاذ وما تحمل الكلمتين وراءهما من القتل في الشوارع وإحراق المدارس ومن العصابات السرية ومن الرصاص غير المنتظر في كل لحظة وفي الأمس قبل خمس وثلاثين سنة كانت ثورتها الكبرى التي سكبت على الثرى مليون شهيد وقبل ذلك ، في أعقاب الحرب العالمية الثانية معركتها مع الفرنسيين التي ذهبت بأربعين ألف شهيد وترجع إلى الوراء فتجد ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة ١٨٨١ وقبلها ثورة محمد المكراني سنة ١٨٧١ وقبلها ... تلك الملحمة الضخمة التي قادها الأمير عبد القادر الجزائري خمس عشرة سنة ضد الفرنسيين .. جهاد متصل لم تهدأ معاركه على مدى مائة وستين سنة إن لم نرجع أيضاً إلى الوراء ونذكر نضال الجزائر الدامي العنيف . ومعاركها ضد الاحتلال الإسباني سنين طويلة بعد سنين .

ونقف عند الأمير عبد القادر . يوم ولد سنة ١٨٠٨ كان أبوه محيي الدين من الوجهاء البارزين . أسرته في الأصل من منطقة الريف ولكنها قدمت الجزائر وتوطنت في منطقة وهران . درس في مدارسها . وقد تزوج وقام بشعائر الحج وهو لما يزل في العشرين من العمر ، كان مشغولاً بتأثير أبيه بقراءة كتب الدين وبخاصة كتب التصوف والرياضة الصوفية ...

في تلك الفترة كانت فرنسا تضع الجزائر في رأس مطامعها الاستعمارية ودوافع ذلك كانت دوافع داخلية أكثر منها خارجية وسياسية أكثر منها اقتصادية . ملك فرنسا الرجعي شارل العاشر أراد بعد فشل فرنسا في حروب

نابليون في ليبزيغ ثم في واترلو وخسارتها لمركزها الحربي ، وأمام فشل سياسته الداخلية في العودة بفرنسا إلى ما قبل الثورة وأمام كثرة معارضيه أراد أن يغطي ذلك بكله بنصر خارجي حربي أو دبلوماسي . كما أراد أن يفيد من ثروة خارجية يدعم بها ملكه فوجد عبر البحر على الطرف الآخر المقابل لجنوب فرنسا بلاد الجزائر .

كانت الجزائر تتبع اسمياً السلطنة العثمانية ولكن يحكمها حاكم مستقل يحمل لقب الداي . يتبعه ثلاث حكام يحمل كل منهم لقب باي في وهران وميديا وقسنطينة . وعلى الرغم من أن العمل الأساسي وثروة البلاد كانت زراعية إلا أن قسماً من سكان الشواطئ احترفوا الملاحة وشكلوا قوة مرهوبة الجانب وقفت ذات مرة لأسطول الولايات المتحدة . كانوا يعملون في قطع الطرق التجارية على « الكفار » وفي تجارة الرقيق . لكن قوة الأسطول الإنكليزي والفرنسي وبخاصة بعد إلغاء الرق شكلت خطراً على رزق هؤلاء . ومن هذه الثغرة وجد شارل العاشر الذريعة للتدخل في الجزائر .

ادعى أولاً أن سواحل الجزائر مأوى القرصنة وأنها تؤيدها ثم استغل حادثة وقعت عام ١٨٢٧ بين الداي والقنصل الفرنسي فقد كان الداي حسين يطالب فرنسا بدفع ثمن القمح الذي كانت حكومة الإدارة قد اشترته وماطلت فرنسا سنوات طوالاً في الدفع . ويبدو أن القنصل تطاول في بعض كلامه فطرده الداي ورماه بمذبة كانت في يده . وما كانت مذبة ولا أصابته . ولكن شارل العاشر جعلها إهانة كبرى بعث للرد عليها أسطولاً طوق الجزائر دون جدوى ثم عاد فبعث بأسطول آخر سنة ١٨٢٩ ضرب بالمدافع بلدة الجزائر ثم عاد ثالثة فأرسل مائة سفينة حربية سنة ١٨٣٠ حاصرت المدينة وضربتها ثم أنزلت بها قوة فرنسية من ٣٦ ألف جندي (٥ تموز سنة ١٨٣٠) ... قبل أن تثور على الملك الفرنسي الثورة في بلاده بخمسة وعشرين يوماً !..

وحسب هذا الملك الرجعي أن نجاح حملته في الجزائر يكفيه فخراً فأصدر قرارات (سان كلو) ضد الصحف وضد المجالس فدفع عرشه ثمناً لذلك . اضطر للاستقالة وتسلم الملك بدلاً منه قريب له هو لويس فيليب لكن حملة الجزائر بقيت في مواقعها واحتلالها . توقفت قليلاً ثم تابعت احتلالها لبعض مدن الساحل . لم يكن باستطاعة الملك الجديد أن يسحبها فدعاة الاستعمار في بلاده سوف يعدلون ! بل إنه دعمها بأن أرسل في عهده حملتين على مدينة قسطنطنية في شرقي الجزائر وتم للفرنسيين احتلالها سنة ١٨٣٧ رغم مناعة الموقع .

أما المقاومة الرائعة التي لقيها الجيش الفرنسي فكانت في المنطقة الغربية ما بين بلدة الجزائر إلى وهران وعلى يد زعيم قبائل مسكرة الأمير عبد القادر .. كان أبوه محيي الدين قد أعلن الجهاد ضد الكفار إثر دخولهم الجزائر ولكن دون نجاح كبير حتى إذا كانت سنة ١٨٣٤ أعلنت قبائل مسكرة زعامة عبد القادر وهو لما يزل في الرابعة والعشرين من العمر . صارت له قوة من بني هاشم وبني عامر والقرابة . العناصر التي تمردت عليه سحقت . هزيمته الأولى أمام وهران ومصطناغم لم تؤثر في شيء على شعبيته بل زادتها اشتعالاً . بايعوه على الجهاد وطرد الفرنسيين الكفار . واكتفى عبد القادر بلقب الأمير لا يريد أن يثير حساسية جاره « السلطان » في مراكش الذي يحمل هذا اللقب ويبدو أن تقاه وحكمته وتصوفه الذي عرف عنه لعبت كلها دورها في إلهاب الحماسة حوله . فتوالت انتصاراته على الجيش الفرنسي المحتل لدرجة اضطرت قائد هذا الجيش الجنرال ديميشيل أن يعقد معه اتفاقاً في سنة ١٨٣٤ تعترف له فرنسا بإمارة المؤمنين وامتد نفوذه سنة ١٨٣٥ حتى أبواب مدينة الجزائر . ما من شك في أن لقمة الجزائر كانت أكبر من الفك الفرنسي الذي يريد ابتلاعها فاكتفت باحتلال مدن الساحل الغربي تاركة للأمير عبد القادر الداخل .

امتد هذا الاعتراف حتى سنة ١٨٤٠ لكن الغدر الفرنسي لم يهدأ.
هزمهم هزيمة مدمرة في معركة مقتا سنة ١٨٣٥ فعاد عليه الفرنسيون بقيادة كلوزل ثم بوجو ينتقمان في أواخر سنة ١٨٣٥ ومطالع السنة التالية بإحراق بلدة مسكرة واحتلال تلمسان. ثم هزموا جموعه في معركة وادي سكّاك... الفظائع الوحشية التي ارتكبوها. المذابح. البطون المبقورة. أزيز الرصاص وهزيم المدافع كل ذلك ترددت أصداؤه في المغرب كله وبدلاً من أن تدخل الرعب على عبد القادر دفعت إليه بالأنصار وزادت في الثائرين وفتحت له باب المعونات من سلطان مراكش. وأهم من هذا أن قوات عبد القادر انفضت عنه ثلاث مرات. وكان يجمعها من جديد وينظمها حتى أضحى وضع الاحتلال الفرنسي في مهب الريح. فالمدن التي يحتلونها محاصرة. وجيش الاحتلال مسحوق دون انقطاع. وحلفاؤه من المحليين يلقون أشد العذاب... وعقدت فرنسا معه معاهدة لاسترداد الأنفاس. أقرت له مرة أخرى (معاهدة تفنة) سنة ١٨٣٧ احتفظ الفرنسيون بمدن أرزو ومستغانم والجزائر وبليدة وكولد وتركوا لعبد القادر الداخل كله.

بين سنتي ١٨٣٧ ــ ١٨٣٩ استغل الأمير الهدنة لتنظيم الإدارة والجيش وتجهيزه بالأسلحة الحديثة وأقام مصنعاً لصب المدافع ودوراً للأسلحة. واتخذ عاصمة له في تغدمت وفرض نفوذ دولته ما بين مراكش في الغرب والصحراء في الجنوب ومناطق القبيلة في الشرق ولم ينظر الفرنسيون إلى هذا التطور بعين الرضا وحاولوا توقيع اتفاق معه يحدد نفوذه وحدوده فرفض. وحين حاولت حملة يقودها دوق أورلئان وتعرف بحملة أبواب الحديد تحاول ربط قسنطينة بالجزائر عاد الأمير عبد القادر يحاربهم بشراسة وتصميم. فهاجم أواخر سنة ١٨٣٩ متيجة في مذبحة دمرت المحتلين والمزارعين وهددت مدينة الجزائر نفسها...

وإذا عاد الفرنسيون فاحتلوا بلدة (مليانة) وبلدة ميديا بعد أشهر فإن

ذلك لم يفدهم كثيراً لأن طرق تموينهم كانت دوماً مهددة بهجمات عنيفة بكل مكان ولم يجد الفرنسيون سوى الضربات القاصمة. أفسحوا لأنفسهم الوحشية المطلقة. تخيروا قائدهم بوجو الذي كان يلح دوماً على طلب الصلاحيات المطلقة فجعلوه قائداً عاماً وزودوه بمائتي ألف جندي. وكان يعتقد أن لا قرار لاحتلال الساحل إن لم يكتسح الداخل... وبدلاً من الحرب المنظمة عمد إلى حرب العصابات وسياسة الأرض المحروقة. قسم الجيش إلى فرق خفيفة وأطلقها تكتسح بالضربات المدمرة كل شيء. القرى. المزارع. المساجد. الدور. الطرق. تطمر الآبار. تقطع الشجر. تقتل الأطفال والشيوخ، تفتك بالقطعان. تخلف الخرائب والسكان ينهزمون أمامها هائمين على وجوههم... إحدى القبائل لجأت إلى بعض المغاور في الجبال ولم تكلف نفسها العصابات الفرنسية مؤونة إخراجها بل سدت المغاور بالشيح والحطب وأوقدت النار فيها ومات الناس مع قطعانهم بالدخان...

بعد سنتين من هذا الاكتساح الوحشي تضعضعت القوى الثائرة مع الأمير عبد القادر. وتمكن الفرنسيون من احتلال عاصمة تغدمت ومسكر وتازة وصيدا وتلمسان وسبدو وندروما. وأرسل بوجو وراء عبد القادر حملات للقبض عليه كان أقساها حين فوجئ معسكره المتنقل (سمالا) وكان مكوناً من مدينة من الخيام لأن كل قراه وبيوته ومدنه قد خربت وأسر بعض أهله بيت ماله و ١٥ ألفاً من جنده وخمسين ألفاً من مواشيه كان ذلك في مايو سنة ١٨٤٣! ولجأ الأمير عبد القادر في نهاية السنة إلى مراكش، عند سلطانها.

لم يكتف بوجو بذلك فقد احتل بلدة لالامغنية من سلطنة مراكش وضرب بالمدافع من البحر مدن طنجة ومغادور (في آب ١٨٤٤) وهزم ولي عهد السلطان مولاي عبد الرحمن في معركة إيسلي في الوقت نفسه مما اضطر السلطان إلى التخلي عن إيواء ضيفه الأمير عبد القادر وإلى أن يطلب منه ترك مراكش. وقد ترك الأمير السلطان سنة ١٨٤٦ لأن الثورات اندلعت في الجزائر

بكل مكان فعاد يتزعمها من جديد. وقد انتصر في الواقع نصراً مبيناً على الفرنسيين في معركة سيدي ابراهيم (سبتمبر ١٨٤٦) وبدا كأنما كل ذلك العنف الدموي الذي أذاقته فرنسا للناس قد انفجر مرة أخرى ضدها. فأرسلت فرنسا ١٨ فرقة اضطرته إلى اللجوء ثانية إلى مراكش الذي أرعب سلطانها هذه المرة نفوذ عبد القادر ومكانته حتى خاف على عرشه فناصب الأمير العداء وترك للقبائل البربرية أن تهاجمه وللحاميات الشريفية (المراكشية) أن تطرده. مما اضطره إلى العودة مرة أخرى إلى الجزائر ... ولكن دون أمل. القوى الوحشية الساحقة قصت كل أجنحته. حتى المسير نحو الجنوب الجزائري وجده مغلقاً فبعث إلى الفرنسيين يستسلم (في أومال أواخر ١٨٤٧)!

وعلى الرغم من الوعود التي قطعت له بنقله إلى عكا في الشام أو إلى الاسكندرية فقد ساقه الفرنسيون أسيراً إلى فرنسا. وانداحت فوق الجزائر غيمة سوداء من الحزن والنقمة لا يعلم مداها إلا الله. سجن أولاً في طولون ثم في باو ثم في امبواز خمس سنوات ...

وفي عهد لويس نابليون الذي عرف بلقب نابليون الثالث أطلق سراحه (في أكتوبر ١٨٥٢) على ألا يعود إلى الجزائر. واختار أولاً مدينة بروسة في الأراضي العثمانية سنة ١٨٥٣ ثم انتقل منها إلى دمشق سنة ١٨٥٥ التي اختارها منفى له حتى توفي في مايو سنة ١٨٨٣ يعيش لدينه وصوفيته وللإحسان وكان من النبل والنظرة الصوفية المتسامحة أنه حين نشبت الخصومات الدينية بين المسلمين الدروز والنصارى بتحريض من الباشاوات الأتراك احتضن عبد القادر النصارى وحماهم بمن معه من حاشيته. عدة آلاف يدينون له بالحماية والحياة في تلك الفتنة.

وكذلك يكون الرجال!.

التل الكبير

الخديوي اسماعيل حاكم مصر بين سنتي ١٨٦٣ و١٨٧٩ شخصية قل أن يمر بها مؤرخ لمصر في القرن التاسع عشر، ولو عبوراً، دون أن يشير إليها. فهو عند بعضهم أبو مصر الحديثة. وعند الآخرين سبب البلاء والمصائب التي نزلت بها. والحق أن مطامحه المصرية كانت أكبر بكثير من أن يحمل مصر عليها فهوى وهوت معه. كان يريد بأي ثمن أن يدخلها بين الدول المتقدمة وظن أن ذلك يكون بالمشاريع العمرانية الضخمة. ونشر مظاهر الحياة الغربية. لم ينتبه إلى أن لذلك كله في حضارة الغرب جذوراً وأسساً لم تكن مصر بعد تمتلكها أو على الأصح لم تكن لها القدرة المادية عليها...

كان موعده مع هذا العرض «المزور» لواقع مصر هو افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩. أراد في الاحتفالات التي تقوم في هذه المناسبة أن يعرض وجهاً أوروبياً كاملاً لبلاده على الرغم منها: قام بإنشاء دار للأوبرا في وقت كان حتى باشوات مصر وإقطاعيوها الكبار لا يعرفونها إلا لماماً أو لا يعرفونها أبداً وأنشأ عدداً من القصور الفخمة لضيوفه يقلد فيها أعظم القصور الأوروبية تزويقاً وروعة وفرشاً. وافتتح عدداً من الحدائق العامة الواسعة. أليس في عواصم أوروبا «باركات» وحدائق خلباً؟ وتوج ذلك بأن أخذ من السلطان العثماني لقب خديوي سنة ١٨٦٧، وأسرع في ذلك السرعة التي لهث معها المهندسون الغرباء والعمال المسخرون! ودعا للاحتفال العظيم ملوك أوروبا وكبار أمرائها. ومنهم الإمبراطورة أوجين زوجة نابليون الثالث من فرنسا. وكلما اقترب موعد الاحتفالات كان يسرف في الإنفاق إسرافاً جعل الخزانة المصرية في

الحضيض. أجاز ذلك في نفسه ليعطي فكرة «حديثة» جداً عن مصر «الحديثة» ! أما قرى الفلاحين ونومهم على النواعير والذباب الذي كان يأكل عيونهم الرمداء والهلاهيل التي كانوا يلبسونها وبيوت الطين التي يسكنون والفقر الذي يأكلون ويشربون فكان يجب أن يبقى في الظلمة. لا يراه أحد. وكذلك كان !

وكان طبيعياً بعد أن أفلست خزانته المالية أن يتابع الأعمال بالدين فاقترض من أسواق المراباة الإنكليزية والفرنسية الكثير. ولم تكن كل القروض التي عقدها لوجه التعامل المالي البحت مع مصر ولكن الكثير من رجالها كانوا ينظرون إلى امتلاك مصر. فالمطامع الاستعمارية كانت في ذلك الوقت كالأفاعي المحمومة تتطلع إلى جميع الآفاق. وزاد الطين بلة أن مصر لم تتوقف عن متابعة الفتوح المكلفة في السودان وأعالي النيل ومن ورائها إنكلترا تراقب لتستثمر النتائج.

وتراكمت الديون مع الفوائد الباهظة سنة بعد سنة وألحت البيوت المالية الإنكليزية والفرنسية في سدادها وكيف يسدد الخديوي وليس لديه سوى مصر المفلسة. وتدخلت الأصابع الاستعمارية توحي للخديوي اسماعيل أن ليس لديه إلا أسهم شركة قناة السويس. عرضها الخديوي على فرنسا فرفضتها لأنه لم يكن لها مصلحة فيما وراءها أما إنكلترا فقد كانت تتحفز ويتلمظ سياسيوها شوقاً للحصول على أكبر حصة في أسهم القناة لأن ذلك يجعلهم سادة الشركة ويعطيهم مفتاح الطريق إلى الهند. كان همهم أن يحصلوا بأي ثمن على أكبر النفوذ في القناة فقد كانت أربعة أخماس البواخر الإنكليزية تمر بها.

وعرف دزرائيلي رئيس وزراء إنكلترا اليهودي بالصفقة ولم يكن لا في الميزانية لديه ما يدفع الثمن ولا لديه الإذن من مجلس العموم بشراء الأسهم. فقرر أن يجريها صفقة سرية. اقترض من البارون روتشيلد اليهودي الآخر المال وأهمل إبلاغ المجلس بالموضوع محتجاً بعطلة المجلس واشترى ١٧٦ ألف سهم

مرة واحدة. بالإضافة إلى ما كان لإنكلترا من الأسهم فأضحى لها ٢٠٧ آلاف سهم من أصل ٤٠٠ ألف ونام دزرائيلي تلك الليلة مستريحاً. لقد أمن لإنكلترا مركزاً لا يضاهى في السيطرة على القناة كان ذلك سنة ١٨٧٥.

ولكن ثمن الأسهم لم يكن كافياً لسداد الديون والفوائد. عجز الدين المصري كان أكبر بكثير. ففرضت إنكلترا وفرنسا على الخديوي قبول لجنة مالية من خبراء البلدين تراقب ميزانية الدولة سنة ١٨٧٦ وتؤمن السداد. ووافق الخديوي مرغماً مما أثار عليه غضب العناصر الوطنية في مصر كما أنه لم يرض الدول الأوروبية الأخرى. وأراد التخلص من هذه العين المراقبة الجشعة ففشل، بل خسر عرشه لأن فرنسا وإنكلترا استطاعتا بالضغط على السلطان عبد الحميد في استامبول فاقتلعاه عن العرش. استصدرتا فرماناً سلطانياً بعزله وتعيين ابنه الخديوي توفيق سنة ١٨٧٩.

هذه المقدمة الطويلة لم تكن سوى المدخل للمعركة المقبلة بين مصر وإنكلترا. فإن الخديوي توفيق، الذي يدين بعرشه للدولتين المعروفتين استسلم لهما الاستسلام المذل. صارت مصر أشبه بملحق إداري مالي للمطامع الاستعمارية. وعلى الرغم من زحامهما فإن إنكلترا كانت تعمل على أن تكون مصر لها وحدها. وكان الوطنيون يرون بعين الحقد والغضب تدهور الأمور. وسحب بساط الاستقلال والسيادة المصرية من تحت أرجلهم ويفتشون عن المخرج. ولات مخرج!

وأخذت الاضطرابات في الظهور في القاهرة وغيرها. واهتز الأمن. وأطلق الناس ألسنتهم والصحف في سوء المصير. فاضطر الخديوي أن يأتي بوزارة ترضي الشعب سنة ١٨٨٢ واختار لوزارة الحربية ضابطاً بارزاً وطنياً في الجيش المصري هو أحمد عرابي باشا. وكان هذا الضابط ذا سمعة طيبة جداً في الأوساط الوطنية وشاء الخديوي أن يمتص بهذه السمعة نقمة الناس. ولكن

عرابي ما كان ليضحي بسمعته بالمجان لحماية الخديوي ولذلك بادر بطرد المراقبين الأجانب من الوزارة وإعادة تنظيم الجيش وترميم الحصون الساحلية .

هذه المبادرة كانت صفعة لفرنسا وإنكلترا معاً وتداولت الدولتان في الرد عليها . ولم تجدا سوى الرد الحربي . قررتا إرسال أسطول مشترك إلى الاسكندرية للتهديد ولكن القائد الإنكليزي كان يتمنى أيضاً أن تتاح له فرصة الضرب . وجاءت الفرصة . وكانت في مطلع أمرها تافهة . اختصم رجل أوروبي مع مكاري على أجرة الركوب ولما كانت النفوس ممتلئة غضباً على الأجانب فقد تجمع المكارية على الأوروبي وأوسعوه ضرباً حتى الموت . وانتشرت الاضطرابات في المدينة وكثرت الاعتداءات ، وخاف الأوروبيون وطلبوا تدخل الأسطولين المرابطين لحمايتهم وحماية امتيازاتهم (يونيو ١٨٨٢) ولم يكن من حق الأسطولين التدخل فقد كان اتفاق فرنسا وإنكلترا مع الدولة العثمانية ينص على قيام الدولة العثمانية نفسها بتوطيد النظام والأمن في البلاد عند الحاجة . ومع ذلك فقد أرسل قائد الأسطول المشترك ــ وهو الإنكليزي ــ إنذاراً إلى عرابي باشا بالتوقف عن تحصين قلاع الاسكندرية .

ولم يتوقف عرابي بالطبع عن العمل فهو يعمل في بلاده وفي تحصينها . وذلك من حقه الطبيعي . وعند ذلك انفرد القائد الإنكليزي بالعمل بعد أن امتنع القائد الفرنسي عن مشاركته فضرب الحصون بالمدافع وخربها . ونزلت بعد ذلك إلى البر فرقة إنكليزية فاحتلت دون كبير مقاومة مدينة الاسكندرية . ولم يمض شهران على ذلك حتى كانت وحدات الجيش الإنكليزي (فيها الهنود والزنوج والعيون الزرق الماكرة) قد احتلت القناة !..

حاول الخديوي توفيق أن ينال مرضاة الإنكليز فيقيل الوزارة وأحمد عرابي معاً ولكن عرابي رفض . وأصر على المقاومة العسكرية . وبعد شهر وبعض الشهر كانت قواته تتجمع في منتصف الدلتا قاطعة الطريق على القوى

الإنكليزية عند موقع التل الكبير . فالتقت بالقوى الإنكليزية هناك وقامت المعركة (١٣ سبتمبر ١٨٨٢) ومن المؤسف أنها رغم صيحات الجهاد . وضجة الأصوات الأولى للصدام لم تدم أكثر من عشرين دقيقة . فقد لعب الذهب الإنكليزي دوره في بعض الضباط والمتطوعة فانهزموا بين الغياض والحقول وتمزق الجيش المصري شر ممزق . بعد يومين كانت الفرق الإنكليزية تحتل القاهرة ثم باقي القطر المصري وتقبض على أحمد عرابي وعدد من الوطنيين الآخرين والخديوي قابع في قصره لا يحرك ساكناً .

وقامت ضجة عالمية في استامبول وباريس وبرلين تستنكر الاحتلال والعبث الإجرامي بدولة مستقلة . ولكن إنكلترا لم تأبه وسيق عرابي باشا منفياً إلى جزيرة سيلان حيث قضى بقية حياته . وأما لإخماد الضجة العالمية فقد اكتفى غلادستون رئيس وزراء إنكلترا بالقول إن احتلال مصر مؤقت . وأعلن سالسبوري الآخر أن إنكلترا لا تريد أكثر من الخروج بشرف (!) من مصر . ولكن الإنكليز بقوا فيها وبقوا ٧٤ سنة ! أعطوا خلالها ما يزيد على خمسين وعداً بالجلاء دون أن ينفذوا واحداً منها ! ولإحكام قبضتهم على البلاد نصبوا معتمداً بريطانياً بجانب الخديوي . وعينوا بعض رجالهم بصفة مستشارين وتسلموا قيادة الجيش المصري ونصبوا له قائداً إنكليزياً برتبة سردار ... حولوا مصر كلها مزرعة قطن لصالح مصانع مانشستر !

وكان على مصر أن تنتظر ظهور جمال عبد الناصر سنة ١٩٥٢ وتقوم بالمقاومة المريرة وبالمفاوضة الأشد مرارة حتى يتم الجلاء سنة ١٩٥٦ .

وقد حاولت إنكلترا العودة مرة أخرى في هذه السنة إلى القناة بالعدوان الثلاثي ففشلت كل وسائلها ... لم تنتبه إلى أن إمبراطوريتها انتهت !! وقد غابت عنها الشمس التي قيل إنها لا تغيب عنها !.

ملاحم جهاد سوداء

أحد المؤرخين الأفارقة كتب منذ فترة: «... كغطاء من الرصاص المصمت ألقت أوروبا الاستعمارية بدعايتها على القارة السوداء فجعلتها دون ماضٍ . وصورت أهلها بدائيين دون شعور وطني فهي فراغ سياسي كبير تكرمت عليه أوروبا بالمدنية... ومن ذا الذي يكذب البوق الاستعماري الضخم ولا بوق لديه ولا صوت على شفتيه»؟

دعونا إذن نثقب هذا الغطاء ببعض المشاهد من تاريخ الجهاد الإسلامي في تلك القارة التي بدأت منذ ثلاثين سنة فقط تصرخ في وجه أوروبا أيها الملأ إنكم لكاذبون! إنها بعض الثقوب التي تكشف ما كان يصطرع في صدور الزنوج السودانيين من عواصف يختلط فيها الاعتزاز بالماضي مع حب الأرض ودنيا الشهادة مع الكبرياء التي تحكي جيل المردة.

المشهد الأول نأخذه من السودان الأوسط. والإسلام هناك كان منذ دخل ما وراء الصحراء الكبرى قبل اثني عشر قرناً عاملِ التوحيد السياسي. والنزاع مع الروابط القبلية. على أنه كان يختلط أحياناً مع ترسبات وتقاليد موروثة من العقائد الوثنية أو الحيوية السابقة، مما كان يغضب رجال الدين ويدعوهم لمكافحة الزيغ والانحراف الذي يصل أحياناً حد الكفر... وهذا ما لاحظه شيخ صوفي من شيوخ التصوف الأفريقي هو عثمان دان فوديو. وهو سليل شعب التوكولور أول شعوب السودان اعتناقاً للإسلام. وقد امتزج هؤلاء مع الأيام بالقسم المسلم من شعب البول فقد كان في هذا الشعب قسم آخر غير مسلم يمارس عقائده الموروثة. وحين برز في قومه كان على أبواب الكهولة وأحد شيوخ المذهب المالكي وعلى الطريقة الصوفية القادرية، ومن حوله جماعة من التلاميذ المريدين. وعلى الرغم من هدوئه فقد كان يثور لسماع قصص

الملوك المرائين ممن يتساهلون مع الوثنية أو يمارسون بعضها أو ما يحكى له عن اضطهاد المسلمين في المناطق التي تحكمها العقائد البدائية . وبخاصة عن ملك غوبير الذي رفض المسلمين في مملكته وكان يعاقب من يضع العمامة ويمنع الحجاب للنساء... وقد أدرك الملك خطر عثمان عليه ولما حكم ابنه يونغا دبر عدة مؤامرات لاغتياله وفشلت. ورأى عثمان ذات يوم جماعة من العبيد في السلاسل وعرف فيهم بعض تلاميذه من المسلمين فقطع سلاسلهم وأطلقهم مما أعطى الشيخ سمعة عريضة بين الناس . وأغضب الملك يونغا أشد الغضب ، لا سيما وهو ينشر على الناس رسائل في نقد الحكام الوثنيين والمنافقين مما كان له صداه لدى المؤمنين فقام الملك بالهجوم على مقره ونجح الشيخ بمعونة مريديه بالفرار وهاجر إلى بلد آخر سنة ١٨٠٤ مما جعل أنصاره يعتبرونها أشبه بهجرة الرسول من مكة إلى المدينة ! واجتمع إليه في مهجره أخوه عبد الله وابنه محمد بيللو ومجموعة متزايدة من المحاربين بأسلحتهم ! وأعلن الشيخ ضرورة تحرير بلاده الحوصة (الهاوسا كما ينطقها الزنج) من الكفار !

كانت حركته حملة دينية في الظاهر ولكنها في واقعها جهاداً ضد الاستبداد والطغيان . وقد شعر أمام الحشود الضخمة التي اجتمعت حوله ان عليه أن يكون « سيف الله » لا سيما بعد المعركة الأولى التي شتت فيها أخوه عبد الله جيش ملك غوبير وأطلق عليه الأنصار لقب أمير المؤمنين . عند ذلك صار الأمر جداً لدى الملوك الوثنيين أو المتظاهرين بالإسلام فأنشأوا تحالفاً فيما بينهم ضد عثمان كانت حصيلته ذبح من عرفوه في بلادهم من المسلمين وهرب من هرب منهم إلى معسكرات الشيخ ومعظمهم من البول ، فسير عثمان جيشه إلى مدينة ألكالاوا عاصمة غوبير !

الهجمات الأولى لم تفلح في فتحها ولكن قوات الشيخ كانت تعود كل مرة أشد حماسة وتصميماً . باعوا أنفسهم لله . وكانت صيحات الله أكبر تأخذ أركان الأسوار وتحول دماء السود إلى لهب . وسقطت المدينة وسقطت إثرها المدن الأخرى حتى (كانو) التي كنس جيشها المؤلف من عشرة آلاف فارس كنساً وكانت من أهم المدن التجارية . وحتى مروة . ولحق محمد بيللو ابن الشيخ بالملك غوبير إلى المدينة التي احتمى بها ومازال حتى احتلها سنة

١٨٠٨ فقتل ملكها بونغا وكان أبوه قد مات ، والتفت الشيخ عثمان بعد ذلك إلى مملكة بورنو وكانت طريقته أن يبعث راياته إلى بعض كبار المسلمين في البلاد التي يغزوها ليثوروا ويدمروا الصف الداخلي ويدعوا الناس للجهاد تحت هذه الراية وهكذا فتحت عليه البلاد في الشرق . وحين فتحت بلدة سوكوتو تفرقت الجماعات الزنجية القبلية هاربة في كل اتجاه وتشتتت وكان أتباع عثمان مثل القائد أدمادا يتابعون عمله في الأراضي حولهم . وعاد الإسلام فانتشر بقوة ومن لم يسلم فضل دفع الجزية لأنها أهون من نكبات الحرب . وانتشر الأمن أما الذين بقوا على التمرد والعصيان فقد فروا إلى الجبال جياعاً وأنصاف عراة . الهام في هذا أن معظم مناجم الذهب صارت تحت سيطرة الدولة الجديدة . التي ضمت السودان الأوسط كله من جنوب تشاد حتى حوض النيجر ومن الصحراء حتى بينوى .

لم يكن عثمان رجل حرب أو سياسة ولكنه شيخ صوفي تقي وقد قسم إدارة البلاد بين ابنه بيللو يحكم شرقها من بلدة سوكوتو وابنه الآخر عبد الله يشرف على الغرب في بلدة غواندو . واستراح عثمان بعد ست سنوات من الجهاد فاعتكف يتابع حياة التقشف والتأمل حتى توفي سنة ١٨١٧ فما يزال قبره في سوكوتو محجة للمؤمنين ! ذلك أنه ألغى الفوضى وأقام حكماً إسلامياً عادلاً كان رجاله على سوية عالية من الثقافة الإسلامية وقد زار أحد كبار الإنكليز السلطان محمد بيللو فناقشه هذا في الدين المسيحي وفي الفلك وسأله عن الغزو الإنكليزي للهند واحتلال الفرنسيين للجزائر ! وحين أهداه الإنكليزي نسخة من هندسة إقليدس ردها وقال عندي نسخة منها . قواد هذه الثورة الإسلامية الثلاثة عبد الله ، بيللو . أتامادا : تركوا ٢٥٠ مؤلفاً وعدداً كبيراً من التقارير تهدف كلها إلى بعث الإسلام الصحيح وخلق مجتمع الإمام العادل ... وبذلوا جهدهم لتحقيق هذا المثل الأعلى .

المشهد الثاني : نأخذه من السودان الأعلى وصاحبه هو مامادو (محمد الأمين) لامين درامي . من قبائل السونينيكي . ولد سنة ١٨٤٠ ودرس في بلاده علوم الدين وتميز بحماسه للعقيدة وأنفته من الكفار البيض ومن الوثنيين ،

وبتأثيره القوي في سامعيه. واندفاعه الصوفي في الطريقة القادرية. وقد كان ما يزال شاباً حين جمع حوله أعداداً واسعة من المريدين الذين لفتت كثرتهم أنظار أمادو (أحمد بن عمر تال) وهو مصلح ديني آخر تولى الأمور بعد أبيه في البلد فسجنه ست سنوات اتقاءً لما قد يصدر عنه من تحرك. وحين أطلق ذهب إلى الحج ثم عرج على تركيا فقضى في استامبول فترة فلما عاد كان أنصاره والمريدون قد ازدادوا وكان التعلق به يأخذ طابع الهوس الديني الذي أرعب حتى الفرنسيين وكانوا قد احتلوا الساحل الغربي للسنغال. وكان حاكمهم غالياني يتبع سياسة فرق تسد فكان يحرض التوكوند ضد محمد لامين تارة ويدفع أحمد بن عمر ضده تارة أخرى...

جيش المريدين الذي أحاط بمحمد الأمين صار رعب المنطقة.. كان خليطاً من الجماعات. نواته من محاربي قبائل السونينيكي، فيهم المريدون وفيهم الشباب المدفوعون بالحماسة أو الثائرون على الضيم وأخلاط من الرعاع ومن رجال القاع الاجتماعي، الهاربين من السيطرة الاستعمارية. ومن العمل الإجباري المفروض عليهم من الفرنسيين. وقد وجهه محمد الأمين أكثر من مرة ضدهم ونهب قوافلهم مدفوعاً لا بالحماسة الدينية فقط ضد الغرباء الكفار البيض كالحاج عمرتال. ولكنه كان يهاجم الجماعات الوثنية الأفريقية. والملوك المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام وهم وثنيون روحيون يشربون الخمر ويعددون الزوجات ما شاؤوا ويفرضون السخرة على الرعايا ويتبعون السحرة.

وضج هؤلاء واستنجد بعضهم بالفرنسيين الذين لم يكونوا بحاجة إلى من يحرضهم ضد هذا «المتمرد» عليهم فدبروا في (غوندبورو) هجمة على مقره، وكان في بعض غزواته في الشمال. وأخذوا أسرته كلها أسرى ورهائن عندهم. وحين عرف بما كان اندفع (في إبريل ١٨٨٦) نحو حصن باكيل الفرنسي في جيش من عشرة آلاف محارب تمكن بالدم والنار والحراب والرصاص الكثيف أن يدخل المدينة ويحول المعركة مع الفرنسيين إلى معركة بالسلاح الأبيض في الشوارع. ولم يكن بينه وبين النصر خطوة حين انفجرت قنبلة هزت الموقع هزاً. إذن فقد استقدم الفرنسيون المدافع. واضطر محمد الأمين أن يأمر بالانسحاب الفوري.

تبع ذلك موجة من الإعدامات نفذها الفرنسيون دون محاكمة وقبضوا على ابنه سوايبد وهو في الثامنة عشرة فأعدموه رمياً بالرصاص بعد أن أدهش الجند بكبريائه في تلك اللحظات وهدوئه واحتقاره للموت. وقد أقام محمد الأمين في أعالي غامبيا وعاد بجيشه يهاجم بلاد السيرير الوثنية المتحالفة مع الفرنسيين فعادوا من جديد لمحاربته. فتحصن في توباكوتو وطوقوه بالحصار فيه. وحين اشتد القتال، كانت أجساد السود تنسكب انسكاباً على الأرض مع الدماء وكان جؤار المدافعين يرجف البنادق الفرنسية ويجمدها في أيدي حامليها. لكن المدافع عادت فتغلبت على الصدور المؤمنة. وكانت الطلقات الأخيرة مجموعة انتحارات لليائسين.

وهرب محمد الأمين جريحاً يلاحقه الفرنسيون وعملاؤهم من قرية إلى قرية حتى خارت قواه لكثرة جراحه وطول الهرب والملاحقة فوقع. أخذوه أسيراً ونفذوا فيه حكم الإعدام على الفور ثم قطعوا رأسه ونقلوه في كيس سلم إلى الضابط الفرنسي... ومد الفرنسيون نفوذهم إلى غامبيا.

أكان بإمكان هذا المجاهد الجسور أن يحارب ثلاثة قوى معاً: الوثنيين والمنافقين والفرنسيين؟ جيشه المؤمن كان قوياً بلى! ولكن الخلخلة كانت تأتيه من الرعاع الذين كانوا يفرون ساعة تصل المعارك أوجها... لكن هذه المعارك تركت أعالي السنغال وغامبيا مدمرة قد هلكت بالجوع والاغتصاب والوباء.

المشهد الثالث: نأخذه من السودان العربي ومن شعب التولكوز: وهو للحاج عمر تال وابنه آمادو. (أحمد) والحاج عمر متصوف تيجاني الطريقة درس أولاً في بلاده ثم سافر فيها وانتهى في الثالثة والعشرين إلى الحج فأخذ عن مشائخ الأزهر وعن الحركة الوهابية المتشددة في الحجاز حتى عينه أمير الحجاز داعية للمذهب في السودان. وحين عاد استقبل بالاحترام وعرض عليه محمد بيللو الزواج من ابنته. وتنوع استقباله في البلاطات الأخرى بين قبول وحذر. ودبر له بعضهم مؤامرة اغتيال فاشلة زادت في ضجيج سمعته وانتهى به الأمر إلى الحصول على زاوية في فوتا جالون يجمع بها الطلاب والمريدين سنة ١٨٤٧ ومن هناك انتقل إلى حصن تاتا وهو حصن عظيم فجعله مركز قيادته في الوقت الذي كانت فيه أطماعه تتحول من الشكل الديني إلى السياسي واشترى كمية

من البنادق وبعد اعتكاف دام أربعين يوماً بدأ التحرك بمهاجمة المناطق الوثنية . أو التي يغلب عليها الطابع الوثني ـــ الحيوي . واستولى عليها وعلى المناطق التي تحوي مناجم الذهب ثم توجه نحو الغرب والبحر نحو وطنه (فورو) وكان الكثير من مريديه قد جاؤوا منها .

كان عدد جيشه يقارب ثلاثين ألفاً يشكل التوكولوز ثلاثة أخماسه وفيهم المشاة حملة البنادق وفيهم الفرسان من قبائل البول حملة الحراب . واصطدم في اتجاهه إلى الغرب مع الفرنسيين الذين كانوا قد بنوا بلدة (المدينة) وميناء داكار ليثبتوا أقدامهم في الغرب السنغالي .

حول أسوار المدينة قامت المعركة . كان المهاجمون يرتمون أمواجاً بعد أمواج على الأسوار يدوسون حتى جرحاهم . والرصاص مطر الموت يغسل الأجساد السوداء بالدماء . وقطعوا عن الحصن سبل التموين حتى انتشر اليأس بين المدافعين عنه . لكن موسم الأمطار جاء إلى نهر السنغال بكمية وافرةأنقذت الحصن . وسمحت مياهه التي ارتفعت بنقل المدفعية والمؤن إليه ... وفشل حصاره .

لكن القائد الفرنسي لم يقنع بذلك بل ذهب يهاجم حصن تاتا على الحاج عمر فدمره بالمدافع سنة ١٨٤٩ وماذا تنفع البطولات الجسدية التي أبداها المدافعون أمام القنابل المنفجرة؟ وفهم الحاج عمر أن طريق البحر مغلق عليه تماماً بالقوى الفرنسية فلن يتزود منه بالسلاح . فانكفأ بقواته مكتفياً بفتح منطقة منحنى نهر النيجر وواديه حتى تمبكتو سنة ١٨٦٢ مقيماً بذلك إمبراطورية على امتداد ألف كيلو متر . ولكن سوء معاملة جنده للشعب أثارت عليه حرب العصابات فقضى الوقت وهو في الخامسة والستين يتدبر إخمادها ثم توفي ، في بعض أسفاره في ظروف غامضة سنة ١٨٦٤ .

وتولى ابنه من بعده إدارة الإمبراطورية ولم يكن كأبيه في الطموح السياسي ولكنه ذو ثقافة عالية . والإمبراطورية متنافرة الأجناس فكان يميل للتسويات . واتفق لفترة مع الفرنسيين لكنهم إنما كانوا يخادعونه فالنص الفرنسي مخالف للنص العربي . وكانوا يتقدمون في أرضه ويحتلون بعضها دون تردد وعرف

مكرهم الخبيث فكتب إلى قائدهم: «لقد اقتحمتم ولايتي دون إذني ودون حق واستهنتم بالاتفاقات بيننا ...» لم يكن يعلم أن لا عهد لمستعمر وأنهم لا يأبهون لهذا «الزنجي» عاهدهم أم لم يعاهد. وهكذا هاجم الحاكم العسكري الفرنسي مينة سيفو عاصمة أحمد واحتلها سنة ١٨٩٠ فهز بذلك مشاعر كل السنغال. ثم عينوا حاكماً عليها بدل أحمد فلم يطعهم تماماً فقتلوه واستولوا على حصون أحمد واحداً بعدالآخر في وجه مقاومة يائسة دموية قادها دون توقف. وحين تحالف أحمد مع زعيم البامباري أقبلوا على مقر هذا الأخير بالمدافع والقصف الكثيف! لكن المحاربين الأفارقة الذين اعتادوا مثل هذا القصف لم يكونوا يأبهون به ويرتمون كتلاً من اللحم واللهب على المهاجمين. كتب بعض الفرنسيين أنهم «كانوا يرتمون علينا مكشوفين تماماً دون أية حماية تحميهم وهم يهددون بصرخاتهم العالية ...». بالرغم من ذلك فقد طالت المعركة دون نتيجة حاسمة! القائد الفرنسي كان يثير نخوة جنوده عبثاً بصراحه: هل أنتم نساء؟ أم عبيد؟ وطبل الحرب يدوي في أعلى الحصن الرئيسي دون انقطاع.

في هذه المعركة اشتركت حتى النساء السودانيات. ونقل إلى المستشفى عدد ممن أصبنهم بالجراح والحراب والسيوف. وحين وقع اليأس دخل بعضهن إلى بيوتهن بعد أن أحطنها بالقش وأشعلن فيها النار كي لا يقعن في أيدي الغزاة الكفار وقد وجدت بيوت كثيرة تفحمت فيها جثث الأطفال والشيوخ والنساء في حين اندلعت النيران في البرج حين نسف ملك البلد نفسه بما تبقى لديه من البارود.

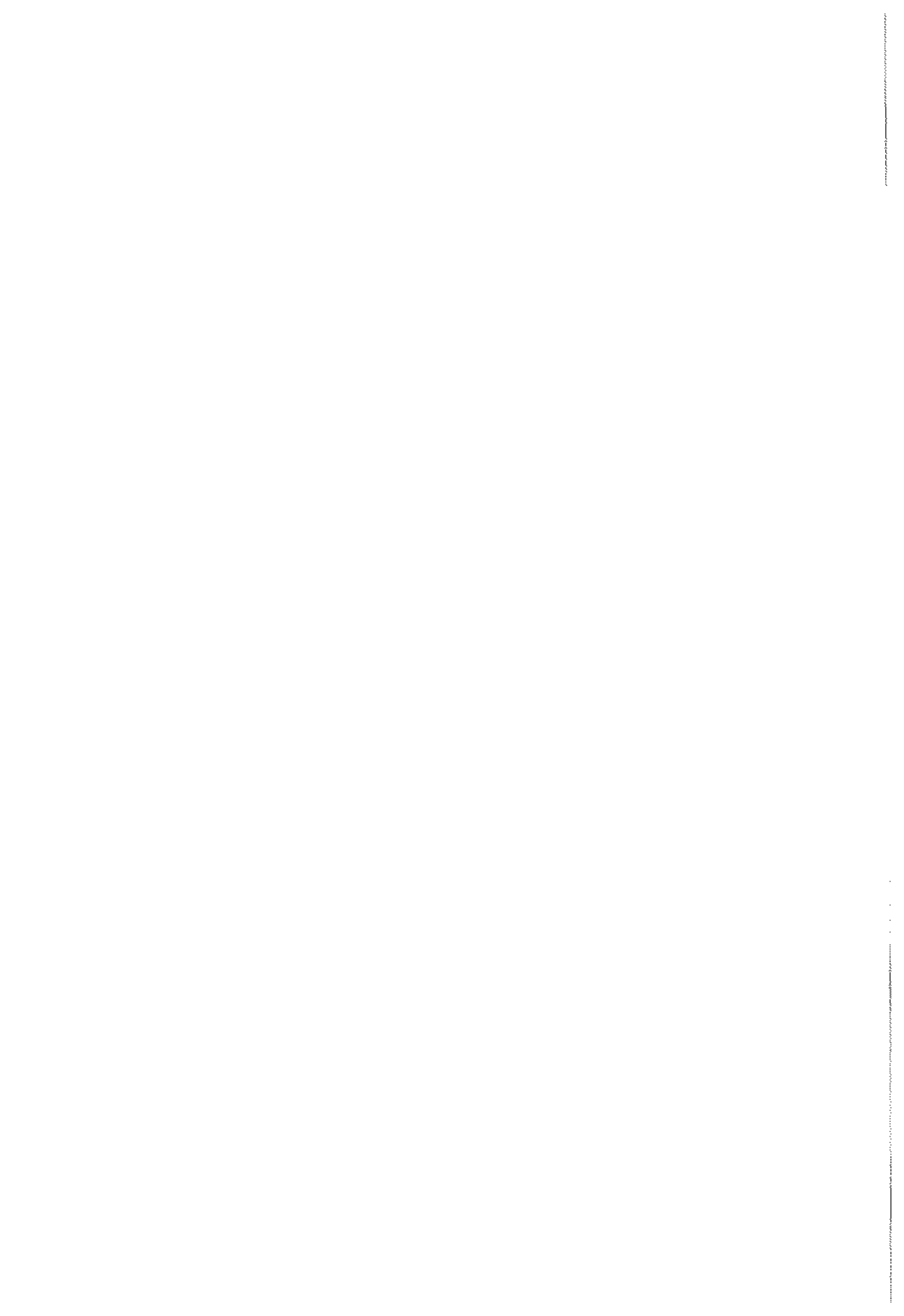
ولجأ أمادو إلى مدينة مسينا إحدى مدنه فلاحقه المدفع الفرنسي فيها سنة ١٨٩٣ وكان الأهلون يساعدون الجند في المقاومة عبثاً. وطورد أمادو في مدن مملكته وهي تسقط بيد الفرنسيين حتى انتهى إلى سوكوتو موطنه الأم بعد أن هرب الكثير من أتباعه عبر أفريقيا حتى الحجاز. وسقط آخر الحصون وأقواها وهو حصن سيكاسو بيد الفرنسيين في السنة التي توفي فيها أحمد ١٨٩٨ وسجل قائده بايميا بطولة خارقة في الدفاع عن الحصن. كانت قواعد أسواره عشرة أمتار وطول محيطه ثمانية كيلو مترات. ولكن المدفع كان سيد الموقف.

وحين تحقق الملك كينيدوغو من سقوطه انسحب إلى قصره وحين سمع وقع أقدام الغزاة وراءه صاح بمرافقه وحارسه : تيكيرو . اقتلني ولا هؤلاء البيض ! وما انتضى الحارس سيفه حتى انزلق الملك من تحت ضربته وتناول الحسام وغرسه في صدره . عاهد نفسه ألا يدخل الفرنسيون سيكاسو وفي صدره نفس يتردد ...

وبعد فهذه مشاهد ثلاثة تكشف كم كان الأوروبيون المتمدنون صادقين حين اتهموا الأفريقيين السود بالبدائية وانعدام الشعور الوطني وبأنهم فراغ سياسي دون ماض ! .



الفهرس



١٠٠ من معارك الجهاد في الإسلام/شاكر مصطفى. ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٩٦. ــ ٤٤٤ص؛ ٢٠ سم. ــ (سلسلة أوراق من التاريخ؛ ٥)

١ ــ ٩٥٦ م ص ط م ٢ ــ العنوان ٣ ــ مصطفى ٤ ــ السلسلة
مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ١٥٨٣/ ١٠/ ١٩٩٥ رقم الاصدار ٦٨٣

. رقم: ٢٦٤٧٧
تاريخ: ١٩٩٥/١٢/٥



هذه السلسلة

هي مجرد أوراق متناثرة، كأوراق الخريف لا يجمعها إلا أنَّ من تتحدث عنهم مرُّوا في خاطر الزمن. ثم طواهم الغيب طيَّ السِّجلِّ للكتب. وهي لا تزعم أنها تحمل عِلْماً للمختصين فمدى أطول أوراقها صفحات ثلاث أو أربع. ولا أنها تجترح كشوفاً وأسراراً ما سبقها إليها سابق. فكلها سِيَرٌ لطيوف عبرت الماضي وتركت وراءها الغبار. لكنها تزعم، بلى، إنها طرائف من هنا وهناك وقصص شاردة هي حصيلة عمر من الدراسات ذابت فيها العيون وضاعت على أحرفها الليالي والأقمار وفيها ما فيها من الزاد الثقافي، كَرْماً على درب.

ولقد تكون كتبت ليأنس بها من يحب المعرفة التاريخية أو من يشدو بعض الراحة هرباً إلى عالم الآخرين. لكنها من وراء هذا وذاك تحمل رسالة، إنها دعوة للقراءة السريعة المفيدة. ففي عالم السرعة وزحام المشاغل والوجبات الخفيفة. هذه وجبات ثقافية أسرع وأخف وأمتع!

أتراها تنجح في حمل هذه الرسالة؟

